الثوابت والمتغيرات
في مسيرة العمل الإسلامي المعاصر

تأليف

الأستاذ الدكتور

صـــلاح الصـــاوي

رئيس الأكاديمية
والأمين العام لمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م
رقم الإيداع
٢٠٠٩/٨٤٨٨

مرحباً بطالب العلم

كلمة قالها رسول الله ﷺ[1] منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان، ولا تزال منقوشة على صدور ورثته من بعده وفي قلوبهم! يستقبلون بها طلبة العلم من مشرق أو من مغرب، يبشون بها في وجوههم ويفسحون لهم في مجالسهم، ويقدرون توجههم لطلب العلم وانقطاعهم لتحصيله.

وعلوم الشريعة - أيها الدارس الكريم- هي ميراث النبوة؛ فإن الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا وإنما ورثوا هذا العلم، وعلى قدر حظ الناس منه يكون حظهم من وراثة النبي ﷺ.

ولهذا كان طلب العلم أغلى ما أنفقت فيه أعمار البشر وأموالهم، وإن لحظة ينفقها الإنسان في عمره لا يستفيد فيها علمًا، ولا يقصد فيها إلى طاعة، لجديرة بأن تطول عليها حسرته!

...هذا، وإنَّ أكاديمية الشريعة وهي تدرج أولى خطواتها في نشر العلم والمعرفة في أرض الله الواسعة باسم الله وعلى سنة رسول الله، متخذة من أمريكا نقطة انطلاق لها، فإنها تود أن تكون بذلك على خطى الرعيل الأول من صحابة النبي ﷺ الذين خرجوا

(١) من حديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٥٤) عن صفوان بن عسال المرادي، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رجاله رجال الصحيح (١/ ١٣١).

من مدينة الرسول ﷺ ينشرون علمه وهديه، ويوطئون لرسالته مهادًا في مشارق الأرض ومغاربها، واختاروا ذلك على البقاء في مدينة الرسول ﷺ ومجاورة مسجده الشريف، حيث الصلاة المضاعفة الأجر، والتي يزيد أجرها ألف مرة على ما سواها من الصلوات في بقية المساجد.

وبعد: فهذه نصيحة لطالب العلم وهو في بداية الطريق:

احرص على تجريد القصد لله ﷻ، ولا تشب هذا الطلب الشريف بشائبة من حظوظ النفس وأغراضها، فإن من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله ،لا يتعلمه إلا ليصيب عرضًا من الدنيا، لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة!

وحسبك هذا الحديث الشريف: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى!**»[1].

واعلم أن الأصل في طلب علوم الشريعة هو المشافهة والتلقي المباشر، فهو الذي تخرج عليه علماء الأمة عبر القرون، فلا ينبغي أن يعدل عن هذا الأصل ما امتهد سبيل إلى ذلك.

ومن كان شيخه كتابه فاق خطؤه صوابه! فاحرص على المحاضرات التي تقدمها الأكاديمية سواء من خلال أساتذتها الزائرين، أو من خلال ما تبثه إليك عبر وسائط التقنية التي يتم فيها التواصل صوتًا وصورة بينك وبين المحاضرين أينما كانوا، مهما تناءت الأقطار وتباعدت المسافات.

---

(١) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، البخاري في كتاب بدء الوحي: باب بدء الوحي، ح:١، ومسلم في كتاب الإمارة باب قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنية**»، ح: ١٩٠٧

واحرص على الجد في الاستذكار والتحصيل، واعتنِ بالأنشطة والاختبارات الملحقة في نهاية كل وحدة دراسية.

مع أطيب تمنيات أكاديمية الشريعة لك بالتوفيق والسداد، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

أ.د./ صلاح الصاوي

رئيس الأكاديمية

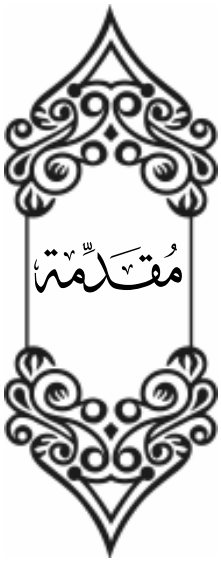

هذه الطبعة خاصة بأكاديمية الشريعة، وهو تحتوي على تدقيقات وتصويبات لا تكاد توجد فيما سبقها من طبعات، لا أدري على وجه التحديد عددها، ولا الجهات المنوطة بها، وإن كنت أذكر منها دار الأندلس الخضراء وطبعتها من أجود الطبعات وأقلها خطأ وأكثرها- فيما أحسب - تداولًا.

لقد طال العهد بهذا الكتاب منذ أن كتبته أول مرة في نهاية الثمانينات، وتعاقبت على طباعته واستنساخه جهات عديدة وأيد مختلفة، وقد أدى هذا إلى شيء من التفاوت في بعض النسخ في عدد من المواضع، وهو وإن كان محدودًا في الجملة إلا أن بعضه قد حمل من التحريف للمعنى الأصلي ما أثار دهشة أو تساؤل عدد من القراء، وهو الأمر الذي يستلزم التنويه والمراجعة احتياطًا للدين واستبراءً للذمة ونصحًا للأمة، فكانت هذه النسخة التي نقدم لها اليوم، نسخة أكاديمية الشريعة، وأرجو أن تكون باكورة مراجعة عامة لسائر كتبي ما بقي منها وما نفد، وجمع أشتاتها وإحياء ما اندثر منها أو كاد!

ولقد طبع كتاب الثوابت أول مرة في أواخر الثمانينات ، ثم شهدت الساحة الفكرية طبعات عديدة له، بعضها كان بالتنسيق مع الكاتب، وبعضها كان بمبادرة من أصحابها، ومن قبل كان يتم تداوله تصويرًا واستنساخًا يدويًّا، وعبر رحلة الاستنساخ والطباعة التي تم كثير منها بمعزل عن رقابة الكاتب وتدقيقه وقع شيء من التحريف في بعض المواضع، وهو إن كان يسيرًا في الجملة مما يمكن أن يعزى إلى الأغلاط الطباعية أو الإملائية إلا أن بعضه كان مما يؤثر في المعنى كإسقاط فقرة أو استبدال

عبارة بأخرى، الأمر الذي اقتضى تدقيق هذه النسخة وتحريرها لكي تكـون معيـارًا لمـا يصدر عن هذا الكتاب من طبعات أخرى في المستقبل بإذن الله.

وقضية هذا الكتاب لم تتغير رغم تطاول العهد عـلى كتابتـه، إنهـا دعـوة العـاملين للإسلام إلى الاجتماع حول المحكمات، والتغافر في المتشابهات، مع عرض مجمـل لأهـم هذه المحكمات والمتشابهات في مسيرة العمـل الإسـلامي المعـاصر، وإشـارة مجملـة إلى سلفها، وباقة ممن سبقوا إلى القول بها، أملًا في تجاوز واقع الفرقـة والاخـتلاف، الـذي كان ولا يزال غصصًا في حلوق العاملين للإسلام، والذي جنـت الصـحوة مـن ورائـه سيلًا عَرِمًا من الويلات والفجائع !

وترجع البدايات الأولى لهذه الدراسـة إلى مـؤتمر إسـلامي حضرتـه عـلى السـاحة الأمريكية في أواخر الثمانينات، دعا فيه المؤتمرون إلى ترشيد العمل الإسـلامي، وإزالـة الوحشة والجفوة بين فصائله، والسعي لتنسيق مواقفها العملية في الملـمات والأحـداث الجسام، ودعي ممثلون عن هذه الفصائل إلى حضور هذا المؤتمر، وقد أدى عدم الإعداد الجيد لهذا الأمر إلى ضعف النتائج التي تمخضت عنه، ولكنه تضمن في توصـياته دعـوة إلى استقراء نقاط الـتماس ومسـائل الاخـتلاف في واقـع العمـل الإسـلامي المعـاصر، وإعداد ورقة عمل أولية حولها، ثم الدعوة إلى مؤتمر محدود، يحضره أهل النظر في هـذه الفصائل لمناقشة هذه القضايا بعيدًا عن العامة وأشباه العامة، وما ينتهون إليه من نتائج ومقررات يمكن توظيفه على مستوى المؤتمرات الموسعة، والصدع بنتائجه على مستوى العالم أجمع، فكانت هذه الدراسة استجابة لهذه التوصية، وعلى أمل أن تكـون حلقـة في سلسلة متكاملة من العمل الدؤوب من أجل تفعيل هذه التوصـية، والوصـول بهـا إلى تحرير مشترك عقدي وعملي عام يمكن أن يكون إطـارًا مرجعيًّـا للصـحوة الإسـلامية المعاصرة، ولكن أحداثًا جسامًا - تتابعت بعد ذلك - حالت دون اسـتكمال بقيـة هـذه

المراحل، ولم يكن بد من الدفع بالكتاب إلى الطباعة بصورته الراهنة، وفقًا لقاعدة ما لا يدرك كله لا يترك جله، وعلى أمل أن نتمكن من أن نحقق في المستقبل ما تقاصرت إمكاناتنا عن تحقيقه في الوقت الراهن.

لقد تحدث الكتاب عن محكمات ومتشابهات في كثير من القضايا، بدأً من منهج التلقي، وقضايا أصول للدين، وعوارض الأهلية، وقضايا التغيير بكل صوره وأساليبه، وانتهاءً بالتعددية الدعوية وما يلزم لها من ضوابط لتبقى في إطار الرشد والقبول، ولم يحفل كثيرًا بسوق الأدلة التفصيلية على كل ذلك، فإن هذا يخرج بالكتاب عن فكرته الأساسية، ولكنه اكتفى بتوثيق هذه الأصول من خلال إيراده لنقولات عمن أصلوا لها من أئمة السنة وحملة الشريعة، فهي ليست مقطوعة النسب، ولا مجهولة المصدر، بل هي أصول تلقتها الأمة جيلًا بعد جيل، وشاعت في مصنفاتها وما سطرته أقلام فحولها وعلمائها.

ولقد كان من آكد وأهم ما تحدث عنه الكتاب - فيما تحدث - العمل الجماعي بين التعصب الممقوت والاجتماع المشروع،كما تحدث عن قضية التعددية الدعوية، والمدخل إليها، وما يلزم لترشيدها، وأكد على أن جل التجمعات الإسلامية المعاصرة تسعى لإحياء جمل من فروض الكفايات، وأن كلًّا منها يضطلع بجانب من جوانب العمل الإسلامي لا بديل منه ولا غنى عنه، فقد قسم الله العمل بينها كما قسم الرزق بين عباده، فمنهم من يُفتح عليه في باب التصفية والتربية، ومنهم من يفتح عليه في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنهم من يفتح عليه في باب الجهاد، ومنهم من يفتح عليه في باب العمل السياسي، ومنهم من يفتح عليه في باب دعوة العامة، ثم من هؤلاء جميعًا من يفتح عليه في باب التأصيل والتقعيد، ومنهم من يفتح عليه في باب التطبيق والممارسة الميدانية، وسبحان من قسم الأعمال كما قسم الأرزاق!

ولا شك أن الأمة في مسيس الحاجة إلى كل هذه الجهود مجتمعة، لا غنى لها عنها، ولا بديل لها منها، فهي أمسُّ ما تكون حاجة إلى التصفية والتربية: تصحيحًا للمفاهيم، وتزكية للسلوك، وإشاعة للسنة، ومحاربة للبدعة، وهي أمسُّ ما تكون حاجةً إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو القطب الأعظم في الدين والمهم الذي ابتعث الله به النبيين أجمعين، وهي أمسُّ ما تكون حاجةً إلى الجهاد في سبيل الله، هذه الفريضة الغائبة التي كادت أن تُمحى من ذاكرة هذه الأمة، وأن لا يبقى لها فيها أثر ولا عين! وهي أمسُّ ما تكون حاجة إلى مخاطبة العامة، وحمل الدعوة إلى ما يسمونه الأغلبية الصامتة، وهي السواد الأعظم في هذه الأمة، وهي التي تحسم الصراع لصالح من تنحاز إليه في نهاية المطاف، وهي أمسُّ ما تكون حاجةً إلى ارتياد الآفاق السياسية: مدافعة للباطل، وتقليلًا للمفاسد، وتحقيقًا لما يمكن تحقيقه من الخير، ودفعًا لما يمكن دفعه من الشر، كل ذلك لا غنى للأمة عنه، ولا بديل للأمة منه، وقد قيض الله جل وعلا لكل جانب من هذه الجوانب أمة من الناس، أو فصيلًا من فصائل الحركة الإسلامية يسهر عليه ويرعاه ويتبناه، على ما قد يشوبه في أدائه من الغلو أو القصور في بعض الأحوال، مع إقراره المجمل ببقية الجوانب وسائر الفروض، ولكنه فُتح عليه في جانب منها ما لم يُفتح على غيره؛ ولهذا فإن هذا الخير الموزع بين هذه الفصائل هو من حيث الجملة جماع المقصود الشرعي في نهاية المطاف، وهو جل ما يراد إحياؤه من الدين، وأنه بالقيام بكل ذلك على وجهه تستعيد الأمة عافيتها، وتستأنف بإذن الله مسيرتها، وتتبوأ مكانها في ريادة الأمم، ومن ثم فإن هذا التوزيع عناية إلهية بهذه الأمة، ووجه من أوجه تأويل قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1]، وقوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم وكذلك**».

(١) الحجر: ٩.

وإن على المسلم أن يعقد قلبه على موالاة الجميع، ومحبة الجميع، على منازلهم من السابقة والفضل والبلاء في نصرة الدين، كما يعقده كذلك على بذل النصيحة للجميع بما يكفل أداء هذه الأعمال بما رسمته الشريعة من الرشد ومن البصيرة، وبما يكفل أن تقيم هذه الكيانات علاقاتها ببقية العاملين لنصرة الدين على أساس من الرشد ومن البصيرة كذلك.

لقد طوفت هذه الدراسة في قضايا كثيرة، وكان النفس العام الذي يسيطر عليها هو طلب المؤالفة، وإرخاء الستور، والتماس الموافقة، وتقدير عبودية الآخرين لله عز وجل، والبحث عن نقاط الاجتماع للتأكيد عليها، والإشارة إلى مزالق التشرذم والتحذير منها، مع الوضوح في بسط الحق وتوثيقه، وبيان نسبه وسلفه وامتداده عبر القرون، من خلال إيراد نقول لبعض من تكلموا به، وأكدوا عليه فيما تركوه من مواريثهم العلمية.

ولم يسلم كاتب هذه الوريقات من الأذى، ولم يشفع له ما بسطه من القول في هذا الكتاب من انطلاقه من أصول أهل السنة، وإقراره المجمل بها، وبناء مشروعه الفكري – في هذا الكتاب وفي غيره – على أساسها، ولا ما أكد عليه قولًا وعملًا من محبته للعاملين للإسلام على منازلهم، وحرصه عليهم جميعًا، وبذل النصيحة لهم جميعًا، فأصابه من سهام التجريح ما أصابه، فاتهم في منهجه، واتهم في نصحه، وفُسِّرَ من قبل بعض الناس على أنه لون من الخروج على الحركة الإسلامية، أو التهييج عليها! وكان الذين يعتبون على هذا المنهج أحد رجلين:

رجل لا يرى لهذه التجمعات شرعية وجود ابتداء، ويصنفها في عداد الفرق الضالة، ويتقرب إلى الله بالحط عليها جميعًا، وتبديع كل من انتسب إليها بلا استثناء، والغلو في ذلك ظاهر؛ لأن الابتداع لا يكون من مجرد الاجتماع على أعمال الخير، ولا

من تنظيم العمل لتحقيق هذه الأعمال، وإنما يكون مما قد يصحب ذلك من التعصب الحزبي وعقد الولاء والبراء على ذلك، أو من منازعة السلطان المسلم بذلك وإعلان الخروج عليه، عندما يوجد مثل هذا السلطان، كما أن معيار فرق الضلالة المشار إليها في النصوص إنما هو التحزب على الأصول البدعية التي يخرج بها أصحابها على أصول أهل السنة والجماعة، وبمثل هذا التحزب أرجأت المرجئة، وخرجت الخوارج، ورفضت الرافضة، وتفرقت الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة.

أو رجل يعتب عليه؛ لأنه قرر لمنافسه في العمل من المشروعية من جنس ما قرر له، ولم ير حرجًا في الكينونة معه، أو إعانته على ما عنده من الخير، ومثل هذا يقع في تناقض عجيب؛ لأنه على مستوى التقعيد يدعو إلى التعددية الدعوية، ويشجب التعصب الحزبي، وينفي عن نفسه أنه جماعة المسلمين، ويقرر - بلا مواربة - أنه جماعة من المسلمين، وأنه يسعى مع الآخرين لإقامة جماعة المسلمين، ولكنه على مستوى التطبيق لا يلتزم بمقتضيات ذلك إلى نهاية الطريق، فتثور ثائرته؛ لأن الكاتب قد أسبغ المشروعية الدعوية على الآخرين، وأجاز للمبتدئ أن يختار من هذه الفصائل ما يغلب على ظنه أنه أصفى منهجًا وأشمل تصورًا، وأنكى في خصوم الملة، وأقدر على تفعيل طاقاته، أي: بما يغلب على ظنه أن يكون معه أرضى لله وأعبد له، وأنفع لدينه ولعباده، ودعا إلى نبذ التعصب الحزبي، وعدم عقد الولاء والبراء على أسماء الجماعات وقوالب التنظيمات! وفتح الأبواب أمام شباب الحركة الإسلامية ليتعرفوا على هذه التجمعات السنية، ويقابلوا بين أطروحاتها، وأيها وقع عليه اختيارهم فلا تثريب عليهم في ذلك ولا حرج، تمامًا كما يختار المتفقه مذهبًا من المذاهب الفقهية، أو كما يختار الطلاب كلية من الكليات الجامعية!

ولكن هذا كله لن يثني عزمه بإذن الله عن مواصلة سعيه في الدعوة إلى الجماعة والائتلاف، ونبذ الفرقة والاختلاف، وإصلاح ذات البين الذي أخبر عنه النبي ﷺ أنه يعدل درجة الصلاة والصيام والصدقة، وإذا كانت الأمة في جميع أطوارها في حاجة إلى التوحد والائتلاف، باعتبار ذلك فريضةً شرعية وضرورة حياتية، فإنها أمسُّ ما تكون حاجةً إلى ذلك في هذه الأيام، بعد أن انكشف الستر عن هذه القناطير المقنطرة من العداء والحقد الذي يحمله لهذا الدين خصوم هذه الأمة، والتي حملت لنا منه الأحداث الدامية الأخيرة فصولًا منه، ولا تزال الأيام حبلى بالمزيد والجديد !

وأخيراً فإن هذا الكتاب كتاب من الكتب، ومصنفه بشر من البشر، ولعل من نافلة القول أن نذكر أن كل أعمال البشر لا تخلو من قصور أو تقصير، فقد أبى الله العصمة إلا لكتابه وسنة نبيه ﷺ، ونضَّر الله وجه امرئ أهدى إلينا عيوبنا، ونصحنا بما يعرف من زللنا وتقصيرنا، فإن له منا الدعاء والثناء، ونرجو له من الله على ذلك المثوبة وحسن الجزاء، ولهذا فإنني أختم تقديمي لهذه الطبعة بما ختمت به الطبعات السابقة من قولي قبل خمسة عشر عاماً: (ونؤكد في ختام هذا التقديم أن هذه الدراسة مجرد محاولة من طويلب علم، أدمى قلبه ما تُكابده فصائل العمل الإسلامي من تشرذم واعتلال، فأراد أن يُسهم بقلمه ما استطاع في دفع هذه الفتن، وإطفاء نيرانها، فإن أصاب فمن الله، وله وحده الفضل والمنة، وإن أخطأ فمنه أو من الشيطان، وهو راجع عن خطئه في حياته وبعد مماته).

والله المستعان، وعليه التكلان، وهو الهادي إلى سواء السبيل

القاهرة

١٤٣٠/٤/١٤هـ الموافق ٢٠٠٩/٤/١٠م

الفصل الأول

مدخل إلى هذه الدراسة

سبق أن الهدف من هذه الدراسة هو بلورة الأصول الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع فيما اشتجرت فيه فصائل العمل الإسلامي؛ لتكون إطارًا جامعًا وقاسمًا مشتركًا يلتقي عليه الجميع، ولتكون وحدها معقد الولاء والبراء في صلتها بأفرادها وبالآخرين، وكذلك بلورة جملة من الثوابت النسبية، وهي بعض الاختيارات العلمية الراجحة؛ التي ينبغي أن تتفق عليها الحركات الإسلامية كافة، لتمثل مع الأولى الإطار العلمي الذي يجمع فصائل العمل الإسلامي المعاصر، ويقيها فتنة التشرذم والاختلاف.

ثم التمييز بين هذا كله وبين ما وراءه من بقية الظنيات ومحالِّ الاجتهاد؛ التي لا يجوز أن تتفرق بسببها الصفوف، أو أن يعقد على أساسها ولاء وبراء، أو ينكر فيها على المخالف إنكارًا يؤدي إلى تأثيمه أو إخراجه من جماعة المسلمين.

وقد عقد شيخ الإسلام ابن تيمية فصلًا في توحد الملة وتعدد الشرائع وتنوعها، وجريان ذلك في أهل الشريعة الواحدة بنوع من الاعتبار، وهو كما ذكر أصل جامع نافع عظيم، وقد بنينا عليه نظرتنا إلى هذه القضية، واتخذناه منطلقًا لإعادة ترتيب الأوراق في فتنة التشرذم التي تغشى مسيرة العمل الإسلامي المعاصر، وتهددها بالسقوط والفشل، مع إضافة ما أسميناه بالثوابت النسبية؛ وهي -كما سبق- جملة من الاختيارات العلمية في بعض القضايا الاجتهادية التي يمثل الاتفاق فيها ضرورة لوحدة العمل الإسلامي المعاصر.

ولهذا؛ فإن منطلقنا في هذه الدراسة أن الأصول الثابتة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة بين هذه الجماعات، بمنـزلة الدين المشترك بين الأنبياء، ليس لأحد خروج عنها أو

منازعة فيها، فمن دخل فيها كان من أهل الإسلام المحض، وهم أهل السنة والجماعة، ومن خرج عنها أو نازع في شيء منها كان من أهل البدعة والفرقة.

أما ما تنازعوا فيه فهو قسمان:

قسم كان اختلافهم فيه اختلافَ تنوعٍ:

وهو كل ما تنوعوا فيه من الأقوال والأعمال المشروعة، التي ليس بينها تناقض ولا تضارب، ولا يعترض على شيء منها في ذاته لورود الدليل الذي يشهد بصحته، وهذا بمنـزلة ما تنوعت فيه الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1].

فهذا فتح عليه في الجهاد، وهذا فتح عليه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا فتح عليه في طلب العلم، وهذا في الإنفاق والمجاهدة بالمال... إلخ، وليس بين هذه الأعمال تعارض ولا اضطراب، ولا يمثل تنوعها نقصًا ولا اختلالًا؛ لأنها - بمجموعها - تمثل إحياءً شاملًا لمختلف الفرائض، وتجديدًا مكمِّلًا لفرائض الإسلام كافة.

وقد أشار إلى هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيمية، بعد أن تحدث عن وحدة الدين وتعدد الشرائع بين الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وعن وجوب الاجتماع في الدين؛ فقال: «فالأصول الثابتة بالكتاب والسنة بالإجماع، هي بمنـزلة الدين المشترك بين الأنبياء، ليس لأحد خروج عنه، ومن دخل فيها كان من أهل الإسلام المحض؛ وهم أهل السنة والجماعة، وما تنوعوا فيه من الأعمال والأقوال المشروعة فهو بمنـزلة

(١) العنكبوت: ٦٩.

ما تنوعت فيه الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾[3]. والتنوع قد يكون في الوجوب تارة، وفي الاستحباب أخرى»[4].

ثم قال -بعد أن ساق جملة من الأمثلة على هذا التنوع-: «فهذا وأمثاله يشبه تنوع شرائع الأنبياء، فإنهم متفقون على أن الله أمر كلًّا منهم بالدين الجامع، وأن نعبده بتلك الشرعة والمنهاج، كما أن الأمة الإسلامية متفقة على أن الله أمر كل مسلم من شريعة القرآن بما هو مأمور به؛ إما إيجابًا وإما استحبابًا، وإن تنوعت الأفعال في حق أصناف الأمة فلم يختلف اعتقادهم ولا معبودهم، ولا أخطأ أحد منهم، بل كلهم متفقون على ذلك، يصدق بعضهم بعضًا»[5].

قسم تنازعوا فيه ولا يمثل خرقًا لإجماع ولم يعتبر من قبيل زلات العلماء:

وهذا يكون بمنزلة ما تنوعت فيه شرائع الأنبياء أيضًا، ولكن من وجه دون وجه، فهو يشبهه من وجه ويفارقه من وجه آخر.

أما وجه المشابهة؛ فلأن كل واحد من المتنازعين مأمور بالعمل بما أداه إليه اجتهاده،

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) المائدة: ١٦.

(٣) البقرة: ٢٠٨.

(٤) مجموع الفتاوى: ١٩/ ١١٧، ١١٨.

(٥) المرجع السابق: ١٩/ ١٢١.

ولو عمل على خلاف ذلك لكان مخطئًا وآثمًا، كما أن كل نبي مأمور باتباع ما أوحي إليه من ربه، كما أنه ليس لأحدهما أن يوجب على الآخر طاعته، كما أن ذلك ليس لأحد من النبيين مع الآخر، فإن ظهر له من الدليل ما كان خافيًا عليه فانتقل إلى الاجتهاد الآخر، فإن ذلك يشبه النسخ في حق النبي ﷺ، إلا أن الاجتهاد رفع للاعتقاد، والنسخ رفع للحكم على الحقيقة؛ ولأن على أتباع المجتهدين ومقلديهم اتباع من وَلِيَ أمرهم من العلماء والأمراء فيما ساغ له اتباعه وأمر باتباع اجتهاده فيه، كما هو الحال في أتباع الأنبياء مع أنبيائهم، وإن خالف شرعُه شرعَ من سبقه، إلا أن تنوع الشرع لأتباع المجتهدين ليس لتنوع نفس الأمر النازل على الرسول، ولكن لتنوع أحوالهم من حيث إدراك بعضهم لما بلغه من الوحي سمعًا وفهمًا، وعدم إدراك الآخر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما ما يشبه ذلك من وجه دون وجه، فهو ما تنازعوا فيه مما أُقروا عليه وساغ لهم العمل به من اجتهاد العلماء والمشايخ والأمراء والملوك؛ كاجتهاد الصحابة في قطع اللِّينة وتركها، واجتهادهم في صلاة العصر لَمَّا بعثهم النبي ﷺ إلى بني قريظة، وأمرهم ألا يصلوا العصر إلا في بني قريظة، فصلى قوم في الطريق في الوقت، وقالوا: إنما أراد التعجل لا تفويت الصلاة، وأخَّرها قوم حتى وصلوا وصلَّوها بعد الوقت تمسكًا بظاهر لفظ العموم، فلم يعنف النبي ﷺ واحدة من الطائفتين، وقال ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا أجتهد فأخطأ فله أجر**»[1].

وقد اتفق الصحابة في مسائل تنازعوا فيها على إقرار كل فريق للفريق الآخر على العمل باجتهادهم؛ كمسائل في العبادات والمناكح، والمواريث والعطاء، والسياسة

(١) المرجع السابق: ١٩/ ١٢٣، ١٢٤.

وغير ذلك، إلى أن قال: «أما وجه المخالفة؛ فلأن الأنبياء عليهم السلام معصومون عن الإقرار على الخطأ، بخلاف الواحد من العلماء والأمراء؛ فإنه ليس معصومًا من ذلك؛ ولهذا يسوغ، بل يجب أن نبين الحق الذي يجب اتباعه، وإن كان فيه بيان خطأ من أخطأ من العلماء والأمراء، وأما الأنبياء فلا يبين أحدهما ما يظهر به خطأ الآخر، وأما المشابهة؛ فلأن كلًّا مأمورٌ باتباع ما بان له من الحق بالدليل الشرعي؛ كأمر النبي ﷺ باتباع ما أوحي إليه، وليس لأحدهما أن يوجب على الآخر طاعته، كما ليس ذلك لأحد النبيين مع الآخر، وقد يظهر له من الدليل ما كان خافيًا عليه، فيكون انتقاله بالاجتهاد عن الاجتهاد، ويشبه النسخ في حق النبي ﷺ، ولكن هذا رفع للاعتقاد، وذاك رفع للحكم حقيقة، وعلى الأتباع اتباع من ولي أمرهم من الأمراء والعلماء فيما ساغ له اتباعه وأمر فيه باتباع اجتهاده، كما على الأمة اتباع أي نبي بعث إليهم، وإن خالف شرعه شرع الأول، لكن تنوع الشرع لهؤلاء وانتقاله لم يكن لتنوع نفس الأمر النازل على الرسول، ولكن تنوع أحوالهم، وهو إدراك هذا لما بلغه من الوحي سمعًا وعقلًا، وعجز الآخر عن إدراك ذلك البلاغ، إما سمعًا؛ لعدم تمكنه من سماع ذلك النص، وإما عقلًا؛ لعدم فهمه لما فهم الأول من النص»[1].

أما وجه المخالفة؛ فيتمثل في أن الأنبياء معصومون عن الإقرار على الخطأ، وليس كذلك الأئمة المجتهدون؛ فإن أحدهم ليس معصومًا، بل يخطئ ويصيب؛ ولهذا يجب أن يبين الحق لمن أخطأ كائنًا من كان من العلماء أو الأمراء، بخلاف الأنبياء؛ فإن أحدهم لا يعيِّن ما يُظهر به خطأ الآخر؛ لأن كلًّا منهم يسدده وحي معصوم.

(١) المرجع السابق: ١٩/ ١٢٣، ١٢٤.

ولهذا؛ فإن الله أمر كل واحد من الأنبياء بالتمسك بما هـو عليـه؛ ظـاهره وباطنـه، وليس كذلك الأئمة المجتهدون، بل يقال فيهم: إن الله أمر كلًّا مـنهم أن يطلـب الحـق بقدر وسعه وطاقته؛ فإن أصابه، وإلا فلا يكلـف الله نفسًـا إلا وسـعها، وهـو في جميـع أحواله معذور ومأجور، فمن ذمه أو لامه على ما لم يؤاخذه الله عليه فقد اعتدى، ومـن جعل أقواله وأفعاله بمنـزلة أقوال المعصوم وأفعاله فقد اعتـدى كـذلك، واتبـع هـواه بغير هدى من الله.

يقول شيخ الإسلام: «فالمذاهب والطرائق والسياسات للعلماء والمشايخ والأمراء، إذا قصدوا بها وجه الله تعالى دون الأهواء؛ ليكونوا مستمسكين بالملة والـدين الجـامع؛ الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له، واتبعوا ما أنـزل إليهم مـن ربهـم مـن الكتـاب والسنة بحسب الإمكان بعد الاجتهاد التام هـي لهـم -مـن بعـض الوجـوه- بمنـزلة الشرع والمناهج للأنبياء، وهم مثابون على ابتغائهم وجه الله وعبادته وحـده لا شريـك له، وهو الدين الأصلي الجامع، كما يثاب الأنبياء على عبادتهم اللهَ وحده لا شريـك لـه، يثابون على طاعة الله ورسوله فيما تمسكوا به من شرعة رسوله ومنهاجه، كما يثـاب كـل نبي على طاعة الله في شرعه ومنهاجه.

ويتنوع شرعهم ومناهجهم؛ مثل أن يبلغ أحدهم الأحاديـث بألفـاظ غـير الألفـاظ التي بلغت الآخر، وتُفَسَّر له بعض آيات القرآن بتفسير يخالف لفظُه لفظَ التفسير الآخـر، ويتصرف في الجمع بين النصوص واستخراج الأحكام منها بنوع من الترتيـب والتوفيـق ليس هو النوع الذي سلكه غيره، وكذلك في عباداته وتوجهاته، وقد يتمسك هذا بآيـة أو حديث، وهذا بحديث أو آية أخرى.

وكذلك في العلم؛ من العلماء من يسلك بالأتباع طريقة ذلك العالم، فتكون هي شرعهم حتى يسمعوا كلام غيره ويروا طريقته، فيرجح الراجح منهما، فتتنوع في حقهم الأقوال والأفعال السالفة لهم من هذا الوجه، وهم مأمورون بأن يُقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه كما أمرت الرسل بذلك، ومأمورون بألَّا يفرقوا بين الأمة، بل هي أمة واحدة، كما أمرت الرسل بذلك، وهؤلاء آكد؛ فإن هؤلاء تجمعهم الشريعة الواحدة والكتاب الواحد.

وأما القدر الذي تنازعوا فيه؛ فلا يقال: إن الله أمر كلًّا منهم -باطنًا وظاهرًا- بالتمسك بما هو عليه، كما أمر بذلك الأنبياء، وإن كان هذا قول طائفة من أهل الكلام، فإنما يقال: إن الله أمر كلًّا منهم أن يطلب الحق بقدر وسعه وإمكانه؛ فإن أصابه، وإلَّا فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وقد قال المؤمنون: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[1]، وقال الله: قد فعلت، وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم﴾[2].

فمن ذمهم ولامهم على ما لم يؤاخذهم الله عليه فقد اعتدى، ومن أراد أن يجعل أقوالهم وأفعالهم بمنزلة قول المعصوم وفعله، وينتصر لها بغير هدى من الله.. فقد اعتدى واتبع هواه بغير هدى من الله، ومن فعل ما أُمر به بحسب حاله؛ من اجتهاد يقدر عليه، أو تقليد إذا لم يقدر على الاجتهاد، وسلك في تقليده مسلك العدل فهو مقتصد؛ إذ الأمر مشروط بالقدرة، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[3].

(١) البقرة: ٢٨٦.
(٢) الأحزاب: ٥.
(٣) البقرة: ٢٨٦.

فعلى المسلم في كل موطن أن يسلم وجهه لله وهو محسن، ويدوم على هذا الإسلام، فإسلام وجهه إخلاصه لله، والإحسان فعله الحسن، فتدبر هذا فإنه أصل جامع نافع عظيم»[1].

وقد ذكرنا أن هذا القسم منه ما يعد الاتفاق فيه ضرورة لتحقيق الوحدة المنشودة بين فصائل العمل الإسلامي المعاصر؛ لتعلقه ببعض المنطلقات والركائز الأساسية في مسيرة الحركات الإسلامية، ومنه ما لا يعتبر من هذا القبيل؛ لعدم تعلقه بهذه القضايا العامة، وكونه مما لا تتعدى آثارُه حدودَ المواقف الفردية.

هذا، وتعتمد هذه المحاولة على عدد من المرتكزات نوجزها فيما يلي:

أولاً: التفريق بين فقه الاجتماع في مرحلة الدعوة والبناء، وفقه الاجتماع في مرحلة تعيُّن الجهاد والدفع العام.

وذلك بالتفريق بين الحركة الإسلامية الجامعة؛ التي تُجيِّش الأمة بمختلف طوائفها لتقود بها معركة في مواجهة الردة، وتتمحور حول الالتزام بالجمل الثابتة في الكتاب والسنة والإجماع، والاستعداد للمشاركة في الجهاد، وتتكون قاعدتها من عامة الأمة، ممن لا يزالون على انتسابهم للشريعة وولائهم للإسلام، ولم يفارقوه إلى مذهب من المذاهب الكفرية المعاصرة.. وبين حركات الإحياء العلمية التي تقتصر على تجديد العلم، أو العمل ببعض الأصول والاجتهادات العلمية والعملية، وتتكون قاعدتها من

(١) المرجع السابق: ٦٩/ ١٢١- ١٢٨.

الملتزمين بهذه الأصول، وتتمثل غايتها في إحيائها، وتصحيح ما علق بها من شوائب الأهواء والمفاهيم المغلوطة.

والأصل في ذلك كله أن الحركات الإسلامية اليوم بمثابة السفينة الماخرة التي ينبغي أن تستقلها الأمة على اختلاف نحلها ومشاربها؛ لدفع فتنة الكفر والردة ودرء خطرهما عن دار الإسلام، فهي البديل عن الدولة الإسلامية التي كانت تجند المسلمين كافة إذا داهم العدو دار الإسلام، ولا تحجب أحدًا ممن ثبت له عقد الإسلام من الاشتراك في هذا الجهاد، ولا تمنعه من الغنيمة والفيء ما دامت يده مع المسلمين.

أما المذاهب العلمية فهي حركات إحيائية، تسعى غالبًا داخل إطار إسلامي قائم للدعوة إلى عدد من الأصول العلمية والعملية، ترى أن اعتقادها من مقتضيات الإيمان، ولا تواجه خصومة حاضرة مع أحد من غير المسلمين، ولا تملك برنامجًا محددًا لتغيير الواقع.

فالإطار الذي تتحرك فيه الحركات الجهادية يختلف عن الإطار الذي تتحرك فيه المذاهب العلمية.

فالحركات الجهادية؛ تعبئ الأمة بمختلف طوائفها للوقوف في وجه خطر يستهدف أصل وجودها، ويسعى لاجتثاث شأفتها، ومعقد ولائها وبرائها هو الالتزام المجمل بالإسلام، والبراءة المجملة مما يخالفه، والاستعداد للمشاركة في هذا الجهاد.

أما المذاهب العلمية؛ فإن حركتها تتجه في الأصل إلى من ثبت له عقد الإسلام؛ لدعوته إلى التزام اختياراتها العلمية والعملية، وخصوماتها تنعقد مع ما تراه من البدع

والمحدثات، ودائرة ولائها وبرائها هـي الالتـزام باختياراتهـا الخاصـة، والتجـافي عـن اختيارات المذاهب الأخرى.

والوجود الطبيعي للمذاهب العملية -على النحو السابق- يكون في دار الإسـلام، وفيها يتم محاكمة اختيارات هذه المذاهب في ضوء الأصول الثابتة في الكتـاب والسـنة؛ ليعلم مدى قرب هذه المذاهب أو بعدها من جماعـة المسـلمين، ويتقـرر في ضـوء ذلـك الموقف الصحيح في التعامل معها.

أما الحركات الجهادية فإن وجودها الطبيعي في دار الحرب، أو حيث تنعدم شرعية الراية في بلـد مـن بـلاد المسـلمين؛ لقيامهـا -مـثلاً- عـلى العلمانيـة وتحكـيم القـوانين الوضعية، وفي هذا الإطار توجه دعوتها إلى المسلمين كافـة لمجاهـدة عـدو لا ممـاراة في عداوته، والانتصار لما لا يُختلف عليه من دين الإسلام.

هذا وإن مداراة بعض أهل البدع في هذه المرحلة أو الاحتشاد معهم لمواجهـة فتنـة عامة لا يقتضي كتمان السنة وتزيين البدعة، وتضليل الأمة وتزيـيف وعيهـا، ولا يظـنن ظان أن هذا الكتاب يمهد لشيء من ذلك، بل عُـرف كاتـب هـذه السـطور بتصـلبه في دعوته إلى السنة وموالاته لأهلها، وتميزت مؤسساته التي أقامها خـارج بـلاد الإسـلام بهذا التصلب، وكم جَرَّ هذا عليه في هذه البلاد وفي تلك الأجواء ما جَـرَّ، ولكنـه صـبر على ذلك صبرًا يحتسب أجره على الله عز وجل، لقد أقام مئات المحاضرات، وعشرات الدورات في العقيدة في مختلف أنحاء الولايات المتحدة وكندا وأوربا ، وعلى مدى ربـع قرن من الزمان أو يزيد، ولا يزال، شرح فيها أصول أهل السـنة في التوحيـد والتزكيـة والاتباع، ورد فيها على من خـالفهم، ومـا كتبـه في أصـول الإيـمان يـدرس في المعاهـد

العلمية التي أقامها أو شارك فيها، وقد طبع عدة طبعات، وترجم إلى عدة لغات، وما شرق أو غرب إلا منتصرًا لهذا المنهج، ومبطلًا لشبهات خصومه، وهذا هو مقام الدعوة والبناء، وقد أعطاه -فيما يحسب- حقه، ولم يأل فيه جهده!، وإنما المقصود بهذا المرتكز تحديدًا هو الدعوة إلى تغيير أسلوب الخطاب، فبدلًا من التشنيع والتهييج والإقصاء، أو التهارج والتقاتل والاحتراب ينادي بالتألف، واستقطاب المخالف، وفتح مغاليق قلبه بالحكمة والموعظة الحسنة؛ لأن استحياءه بالتوبة أحبُّ إلى الله- عز وجل-من قتله بالإصرار والمعاندة! وأن تلبسه ببدعة لا يمنع من الإفادة منه في المواجهة مع قوى الكفر والعلمنة؛ لأنه قد تمهد في أصول أهل السنة أنه يُقَاتَلُ مع المبتدع من هو أشد منه ابتداعًا، بل ومع الكافر من هو أشد منه كفرًا! وأن هذا المسلك تشتد الحاجة إليه في أزمنة الفتن وغربة الدين وضعف الأمة وانكسار شوكتها، ومسيس حاجتها إلى الاحتشاد في مواجهة من يقاتلونها على أصل دينها، حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق!

ولا يرد على هذا أن يقال: إن مواجهة أهل البدع أهم وأولى من مواجهة أفكار الكفر والعلمنة! فإن الكفر أسخط لله من البدعة، فقد سئل النبي ﷺ أي الذنب أعظم؟ فقال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**»! وإن أهل الشرك أبعد عن الله من أهل التوحيد ممن خلطوا سنة ببدعة، أو عملًا صالحًا بآخر سيئٍّ، وأيًّا كان الأمر فليس الحديث عن ترك الرد على أهل البدع أو ترك الدعوة إلى السنة، وإنما الحديث تحديدًا حول طريقة التعامل مع المخالف في أزمنة الضعف وغربة الدين، هل هي التصلب والمجافاة أم التألف والمداراة؟!

والذي نراه يصلح لحال الأمة في زمن ضعفها وانكسارها هو التألف والمداراة وليس التصلب والمجافاة، ولا علاقة لذلك - كما سبق - ببيان الحق والدعوة إليه والرد على شبهات مخالفيه! وقد نكون في ذلك مخطئين أو مصيبين، ولكن هذا هو ما نعتقده صوابًا، فإن كان كذلك فهو من الله، وإن كان خطأً فهو منا أو من الشيطان، والله ورسوله منه بريئان!

ثانيًا: الموازنة بين فريضة الاتباع وضرورة الاجتماع:

وإذا كانت القاعدة في الحركات الجهادية هي التقاؤها على المذهبية الإسلامية بالمعنى العام؛ الالتزام المجمل بالإسلام، والاستعداد للمشاركة في الجهاد.. فإن هذا لا يعني انقطاع الصلة بين العمل الإسلامي المعاصر وبين المذهبية العلمية بالمعنى الخاص (أهل السنة والجماعة)، أو اختلاط الأوراق داخل الحركة الجهادية؛ بحيث لا يفرق أبناؤها بين سنة وبدعة، ولا بين الفرقة الناجية وغيرها من الفرق الضالة وأهل الأهواء، في غمار تناديهم للجهاد واستغراقهم في أعماله.

وإنما المقصود من هذا التفريق بين المذهب العلمي وبين الحركة الجهادية هو إعمال الموازنة الدقيقة بين الأمرين، بحيث يعمل كل منهما في إطاره وفي زمانه، دونما تعارض أو اضطراب.

ولهذا؛ فإننا ننازع بشدة في أن يُجعل شيء من الاجتهادات الفروعية أساسًا للولاء أو البراء، مهما بلغت درجة اقتناع صاحبه به واقتناعه بخطأ المخالف فيه، كما ندعو إلى بلورة مواضع الإجماع والتمييز الدقيق بينها وبين مجاري الاجتهاد؛ حتى لا يؤدي اختلاط الأمور إلى ترخص في قطعي مجمع عليه، أو تهارج بسبب ظني مختلف فيه، مع

ما يترتب على ذلك من استمرار الفُرقة، وتكريس التشرذم، وإعطائه بعدًا عقديًّا وسلفيًّا يعسر تجاوزه، خاصة عندما تُستدعى كل مقالات أهل العلم في التثريب على المخالف من أهل البدع، وزجره بالهجر والعقوبة ونحوه!

إننا نؤكد أن العمل الجهادي في هذه الأيام؛ والذي تمثلت أوعيته في هذه الحركات الإسلامية المباركة، ليس إحياءً فروعيًّا فحسب، يجدد العمل ببعض الأصول والاجتهادات الفقهية، ويحبس نفسه في هذا الإطار.. ولكنه إحياء جهادي شامل، يتسع لمختلف المذاهب الفقهية، ويجيش أتباعها جميعًا ليخوض بهم معركة يواجه فيها الكفر الصراح والردة السافرة، ويدافع فيها عن أصل وجود الإسلام.

ومما يتصل بهذه النقطة: الاكتفاء في مواضع النزاع بالجمل الثابتة بالنص والإجماع، ولاسيما بالنسبة للعامة، والابتعاد بهم عن الخوض في التفاصيل التي قد توقع بينهم الفرقة والاختلاف؛ وذلك مراعاة لضرورة الاجتماع الذي جعلته النصوص معقد الرحمة ومناط الفوز والغلبة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالواجب على المسلم أن يلزم سنة رسول الله ﷺ، وسنة خلفائه الراشدين، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان وما تنازعت فيه الأمة وتفرقت فيه، إن أمكنه أن يفصل النزاع بالعلم والعدل، وإلا استمسك بالجمل الثابتة بالنص والإجماع، وأعرض عن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، فإن مواضع التفرق والاختلاف عامتها تصدر عن اتباع الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى» إلى أن قال: «والواجب أمر العامة بالجمل

الثابتة بالنص والإجماع، ومنعهم من الخـوض في التفصـيل الـذي يوقـع بيـنهم الفرقـة والاختلاف، فإن الفرقة والاختلاف من أعظم ما نهى الله عنه ورسوله»[1].

ثالثًا: ليس المحذور جريان الخلاف في الفروعيات، وإنما المحذور هو التعصـب والبغـي على المخالف:

ذلك أن الخلاف في المسائل الفروعية واقع لا محالة، بل لا نُبعد إن قلنا: إن قدرًا منه مقصود ابتداءً للشارع؛ إذ لو شاء الله أن ينـزل القرآن على نحو لا يحتمـل في الفهـم إلا وجهًا واحدًا ما أعجزه ذلك، ولو شاء أن تكون السنة على نحو لا يحتمـل في الفهـم إلا وجهًا واحدًا ما أعجزه ذلك كذلك، ولكنه جعل كثيرًا من نصوص القرآن والسنة عـلى نحو يحتمل في الفهم وجوهًا متعددة؛ ليدل على أن من هذا الاختلاف مـا هـو مقصـود ابتداءً للشارع، ليكون توسعة على العباد ورحمـة بالأمـة، ولقـد صـنف رجـل كتابًـا في الاختلاف، فقال له الإمـام أحمـد: لا تسـمه كتـاب «الاخـتلاف»ولكـن سـمه كتـاب «السَّعَة»، وشاع على ألسنة العلماء: إجماعهم حجة قاطعة واختلافهم رحمة واسعة.

يقول الشاطبي -رحمه الله-: «فإن الله تعالى حكم بحكمته أن تكون فـروع هـذه الملـة قابلة للأنظار ومجالًا للظنون، وقد ثبت عند النُّظَّـار أن النظريـات لا يمكـن الاتفـاق فيهـا عادة، فالظنيات عريقة في إمكان الاختلاف، لكن في الفروع دون الأصول، وفي الجزئيـات دون الكليات؛ فلذلك لا يضر هذا الاختلاف».

(١) المرجع السابق.

وقال الزركشي -رحمه الله-: «اعلم أن الله لم ينصب على جميع الأحكام الشرعية أدلة قاطعة، بل جعلها ظنية قصدًا للتوسيع على المكلفين؛ لئلا ينحصروا في مذهب واحد لقيام الدليل القاطع»[1].

ولهذا لم تتجه إرادة السلف إلى حسمه على مستوى الأمة، وإنما كان اعتناؤهم بإحياء فقه الاختلاف وأدب الخلاف، وأن يتعلم الناس كيف يسعهم ما وسع أصحاب رسول الله ﷺ ومن جاء بعدهم من أئمة الدين، ومن لم يسعه ما وسعهم فلا أوسع الله عليه!

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما الاختلاف في الأحكام فأكثر من أن ينضبط، ولو كان كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا لم يبقَ بين المسلمين عصمة ولا أخوة»[2].

ولهذا طلب ثلاثة من خلفاء بني العباس من الإمام مالك -رحمه الله- أن يحملوا الأمة على كتابه «الموطأ»، وأن يجمعوا كلمتها حوله.. فلم يجبهم إلى ذلك، وكان ذلك -كما يقول ابن كثير- من تمام علمه واتصافه بالإنصاف، وهؤلاء الثلاثة هم: الخليفة أبو جعفر المنصور، وابنه المهدي، وحفيده هارون الرشيد، وكان مما قاله للمنصور -كما في رواية ابن عساكر-: «لا تفعل هذا؛ فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث وروايات، وأخذ كل قوم منهم بما سبق إليهم، وعملوا به ودانوا به، من اختلاف الناس وغيرهم، وإن ردَّهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم، فقال: لعمري لو طاوعني على ذلك لأمرت به»[3].

(١) الاختلافات الفقهية، د. أبو الفتح البيانوني: ٢٣.
(٢) مجموع الفتاوى: ١٢/ ٢٣٧.
(٣) كشف الغطاء، لابن عساكر: ٤٧.

وفي رواية ابن عبد البر أنه قال: «يا أمير المؤمنين، قد رسخ في قلوب أهل كل بلد ما اعتقدوه وعملوا به، وردُّ العامة عن مثل هذا عسير»[1].

قال عمر بن عبد العزيز ﷺ: «ما يسرني أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا؛ لأنهم إذا اجتمعوا على قول فخالفهم رجل كان ضالًّا وإذا اختلفوا فأخذ رجل بقول هذا ورجل بقول هذا، كان في الأمر سعة»[2].

وقال القاسم بن محمد: «لقد نفع الله باختلاف أصحاب النبي ﷺ في أعمالهم، لا يعمل العامل بعمل رجل منهم إلا رأى أنه في سعة، ورأى أن خيرًا منه قد عمله»[3].

ولكن هذه التوسعة لا تعني أخذ الدين بالهوى والتشهي، وإنما تعني أنهم فتحوا للناس باب الاجتهاد في هذه المسائل، وسنوا لهم سنة الاختلاف فيها مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين، فالمجتهد يأخذ بما أداه إليه اجتهاده، والعامي في سعة أن يقلد أوثقهم عنده.

قال الشاطبي -رحمه الله-: «ومعنى هذا أنهم فتحوا للناس باب الاجتهاد وجواز الاختلاف فيه؛ لأنهم لو لم يفتحوه لكان المجتهدون في ضيق؛ لأن مجال الاجتهاد ومجالات الظنون لا تتفق عادة كما تقدم، فيصير أهل الاجتهاد، مع تكليفهم باتباع ما غلب على ظنونهم، مكلفين باتباع خلافهم! وهو نوع من تكليف ما لا يطاق، وذلك من أعظم الضيق، فوسع الله على الأمة بوجود الخلاف الفروعي فيهم، فكان فتح باب

(١) المرجع السابق: ٤٧، والانتقاء، لابن عبد البر: ٤١.
(٢) مجموع الفتاوى: ٣٠/ ٨٠.
(٣) الاعتصام، للإمام الشاطبي: ٢/ ١٧٠.

للأمة للدخول في هذه الرحمة، فكيف لا يدخلون في قسم ﴿مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾؟! فاختلافهم في الفروع كاتفاقهم فيها، والحمد لله»[1].

ويقول إسماعيل القاضي - فيما نقله عنه ابن عبد البر- :«إنما التوسعة في اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ توسعة في اجتهاد الرأي، فأما أن تكون توسعة لأن يقول إنسان بقول واحد منهم من غير أن يكون الحق عنده فيه.. فلا، ولكن اختلافهم يدل على أنهم اجتهدوا فاختلفوا»[2].

رابعًا: إن الخطأ المغفور في الاجتهاد في المسائل الفروعية يتناول الأمور العلمية والأمور العملية على حد سواء:

فهو ليس خاصًّا بفروع العمل فحسب، كما قد يتوهم بعضهم، فيجب أن يفرق بين من يغلط بتأويل صفة من الصفات، وبين من يتحزب على مبدأ التأويل والتعطيل للصفات كافة، فلقد أُثر عن بعض السلف إنكار الرؤية متأولًا في ذلك قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[3].

وعن بعضهم إنكار أن الله يعجب؛ لاعتقاده أن العجب إنما يكون عن جهل، والله منزه عن ذلك، وعن بعضهم إنكار أن الله يريد المعاصي؛ لاعتقادهم أن الإرادة تتضمن الرضا والمحبة حتمًا، والله لا يرضى عن الكفر ولا عن الفسوق... إلى غير ذلك

(١) المرجع السابق: ٢/ ١٧٠، ١٧١.
(٢) جامع بيان العلم، لابن عبد البر: ٢/ ٨٢.
(٣) الأنعام: ١٠٣.

من فروع المسائل العلمية، التي لم يخرجهم غلطهم فيها عن دائرة أهل السنة والجماعة، فيجب التفريق بين الغلط الجزئي وبين التحزب على قاعدة كلية تخالف ما عليه الفرقة الناجية، وقد جعل الله لكل شيء قدرًا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والخطأ المغفور في الاجتهاد هو في نوعي المسائل الخبرية والعلمية(*)، كما قد بُسط في غير موضع، كمن اعتقد ثبوت شيء لدلالة آية أو حديث، وكان لذلك ما يعارضه ويبين المراد، ولم يعرفه؛ مثل من اعتقد أن الذبيح إسحاق؛ لحديث اعتقد ثبوته، أو اعتقد أن الله لا يُرى؛ لقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ ولقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾(١).

كما احتجت عائشة بهاتين الآيتين على انتفاء الرؤية في حق النبي ﷺ، وإنما يدلان بطريق العموم، وكما نُقل عن بعض التابعين أن الله لا يُرى، وفسروا قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(٢) بأنها تنتظر ثواب ربها، كما نُقل عن مجاهد وأبي صالح، أو اعتقد أن الله لا يعجب، كما اعتقد ذلك شريح؛ لاعتقاده أن العجب إنما يكون من جهل السبب، والله منزه عن الجهل.

أو اعتقد أن بعض الكلمات أو الآيات أنها ليست من القرآن؛ لأن ذلك لم يثبت عنده بالنقل الثابت، كما نقل عن غير واحد من السلف أنهم أنكروا ألفاظًا من القرآن؛ كإنكار بعضهم: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾، وقال: إنما هي «ووصى ربك»، وإنكار بعضهم

(*) كذا بالأصل، ولعلها: «العملية».

(١) الشورى: ٥١.

(٢) القيامة: ٢٢-٢٣.

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[1]، وقال: إنما هو «ميثاق بني إسرائيل»، وكذلك هي في قراءة عبد الله، وإنكار بعضهم ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[2]، وقال: إنما هي «أولم يتبين الذين آمنوا»، وكما أنكر عمر على هشام بن الحكم لما رآه يقرأ سورة الفرقان على غير ما قرأها، وكما أنكر طائفة من السلف على بعض القراء بحروف لم يعرفوها، حتى جمعهم عثمان على المصحف الإمام.

وكما أنكر طائفة من السلف والخلف أن الله يريد المعاصي؛ لاعتقادهم أن معناه أن الله يحب ذلك ويرضاه ويأمر به، وأنكر طائفة من السلف والخلف أن الله يريد المعاصي؛ لكونهم ظنوا أن الإرادة لا تكون إلا بمعنى المشيئة لخلقها، وقد علموا أن الله خالق كل شيء، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، والقرآن قد جاء بلفظ الإرادة بهذا المعنى وبهذا المعنى، لكن كل طائفة عرفت أحد المعنيين وأنكرت الآخر.

وكالذي قال لأهله: «**إذا أنا مت فأحرقوني، ثم ذروني في اليم، فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين**»!

وكما قد ذكره طائفة من السلف في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾[3]، وفي قول الحواريين: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[4].

(١) آل عمران: ٨١.
(٢) الرعد: ٣١.
(٣) البلد: ٥.
(٤) المائدة: ١١٢.

وكالصحابة الذين سألوا النبـي ﷺ: هـل نـرى ربنـا يـوم القيامـة؟ فلـم يكونـوا يعلمون أنهم يرونه، وكثير من الناس لا يعلم ذلك؛ إما لأنه لم تبلغـه الأحاديـث، وإمـا لأنه ظن أنه كذب وغلط»[1].

وقال في موضع آخر: «وإنني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأهـا، وذلـك يعـمَّ المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية»[2].

وقال في موضع آخر: «وحقيقة الأمر في ذلك أن القول قـد يكـون كفـرًا، فيطلـق القول بتكفير صاحبه، ويقال: من قال كذا فهو كافر، لكن الشخص المعين الذي قاله لا يُحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التـي يكفـر تاركهـا، وهكـذا الأقـوال التـي يكفـر قائلها، قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحـق، وقـد تكـون عنـده ولم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها، وقد يكون قد عرضت له شـبهات يعـذره الله بهـا، فمن كان من المؤمنين مجتهدًا في طلب الحق وأخطأ؛ فإن الله يغفر له خطأه كائنًا ما كـان؛ سواء كان في المسائل النظرية أو العملية، هذا الذي عليه أصـحاب النبـي ﷺ وجمـاهير أئمة الإسلام»[3].

خامسًا: نسبية الخلاف المتعلق بتحقيق المناط:

إن الأصل في الخـلاف المتعلـق بتحقيـق المنـاط، وإدراج الجزئـي المعـين في نطـاق القاعدة الكلية التي تشمله: أنه من جنس الخلاف في الفروعيات التي لا يشنع فيها على

(١) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٣٢- ٣٦.
(٢) المرجع السابق: ٣/ ٢٢٩.
(٣) المرجع السابق: ٢٣/ ٣٤٥، ٣٤٦.

المخالف، ولا يقدح به في دينه ولا في عدالته؛ لارتباطه بالدراية بالواقع أكثر من ارتباطه بالعلم بالشرع، وإنما يتكلم فيه بالحجج العلمية، فمن تبين له صحة أحد القولين تبعه، ومن رجح القول الآخر اجتهادًا -إن كان من أهل الاجتهاد- أو تقليدًا -لمن يثق في دينه وعلمه إن كان من العوام- فلا تثريب عليه.

يقول الشاطبي -رحمه الله- عند الحديث عن هذا النوع من الاجتهاد-: «فأما الأول؛ فهو الاجتهاد المتعلق بتحقيق المناط، وهو الذي لا خلاف بين الأمة في قبوله، ومعناه: أن يثبت الحكم بمدركه الشرعي، لكن يبقى النظر في تعيين محله، وذلك أن الشارع إذا قال: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[1]، وثبت عندنا معنى العدالة شرعًا افتقرنا إلى تعيين من حصلت فيه هذه الصفة، وليس الناس في وصف العدالة على حدٍّ سواء، بل ذلك يختلف اختلافًا متباينًا، فإنا إذا تأملنا العدول وجدنا لاتصافهم بها طرفين وواسطة، طرف أعلى في العدالة لا إشكال فيه؛ كأبي بكر الصديق، وطرف آخر وهو أول درجة في الخروج عن معنى الوصف؛ كالمجاوز لمرتبة الكفر إلى الحكم بمجرد الإسلام، فضلًا عن مرتكبي الكبائر المحدودين فيها، وبينهما مراتب لا تنحصر، وهذا الوسط غامض، لابدَّ فيه من بلوغ حد الوسع، وهو الاجتهاد»[2].

ويُبين وجه الحاجة إلى هذا الاجتهاد ودقته؛ فيقول: «ويكفيك من ذلك أن الشريعة لم تنص على حكم كل جزئية على حدتها، وإنما أتت بأمور كلية وعبارات مطلقة تتناول أعدادًا لا تنحصر، ومع ذلك فلكل معين خصوصية ليست في غيره ولو في نفس التعيين،

(١) الطلاق: ٢.

(٢) الموافقات، للشاطبي: ٤/ ٨٩.

وليس ما به الامتياز معتبرًا في الحكم بإطلاق، ولا هو طردي بإطلاق، بـل ذلـك منقسـم إلى الضربين، وبينهما قسم ثالث يأخذ بجهة من الطرفين، فـلا يبقـى صـورة مـن الصـور الوجودية المعينة إلا وللعالم فيها نظر سهل أو صعب، حتى يحقق تحت أي دليـل تـدخل، فإذا أخذت بشبه من الطرفين فالأمر أصعب، وهذا كله بيِّنٌ لمن شدا في العلم»[1].

ولقد بين -رحمه الله- أن تعلق هذا الاجتهاد بالعلم بالواقع أكثر من تعلقه بـالعلم بالشرع؛ ولذلك لا يشترط فيه العلم بمقاصد الشرع، ولا العلم بالعربية، ولا غير ذلك من الشرائط المعتبرة في النوع الآخر من الاجتهـاد، وهـو الاجتهـاد في إدراك الأحكـام الشرعية، فيقول -رحمه الله-: «قد يتعلق الاجتهاد بتحقيق المناط، فلا يفتقر في ذلك إلى العلم بمقاصد الشارع، كما أنه لا يفتقر فيه إلى معرفة علم العربية؛ لأن المقصود من هذا الاجتهاد إنما هو العلم بالموضوع على ما هو عليه، وإنما يفتقر فيه إلى العلم بما لا يعـرف ذلك الموضوع إلا به، من حيث قصدت المعرفـة بـه، فلابـد أن يكـون المجتهـد عارفًـا ومجتهدًا من تلك الجهة التي ينظر فيها، ليتنـزل الحكم الشرعي على وفق ذلك المقتضى؛ كالمحدث العارف بأحوال الأسانيد وطرقها، وصحيحها من سقيمها، وما يحتج به مـن متونها مما لا يحتج به، فهذا يعتبر اجتهادًا فيما هو عارف به، كـان عارفًـا بالعربيـة أم لا، وعارفًا بمقاصد الشارع أم لا»[2].

ويضرب الشيخ عبد الله دراز مثالًا على ذلك، في تعليقه على هـذا الكتـاب، فيقـول: «خذ هذا المثال لزيادة الإيضاح: الحكم الشرعي أن مـن يعتريـه المـرض، أو يتـأخر بـرؤه بسبب استعمال الماء.. يرخص له في التيمم، فـإذا أردنـا معرفـة الحكـم الشرعـي بالنسـبة

(١) المرجع السابق: ٤/ ٩٢.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ١٦٥.

لمريض ليرخص له أو لا يرخص، فإننا لا نحتاج إلى اللغة العربية، ولا إلى معرفة مقاصد الشرع في باب التيمم، فضلًا عن سائر الأبواب، إنما يلزم أن نعرف بالطريق الموصل هل يحصل ضرر فيتحقق المناط؛ أم لا فلا يتحقق؛ ولا شأن لهذا بواحد من الأمرين، إنما يعرف بالتجارب في الشخص نفسه، أو في أمثاله، أو بتقرير طبيب عارف»[1].

وسيأتي عند الحديث التفصيلي عن الثوابت والمتغيرات في مختلف قضايا العمل الإسلامي تطبيق عملي لأهمية هذا الضابط، ودوره في حسم كثير من الفتن التي ذر قرنها في أوساط الحركة الإسلامية؛ لعدم تفريق بعض المنتسبين إليها بين الحكم الشرعي في ذاته، وبين تحقيقه في مناط معين، وأن كون الأول قطعيًّا لا يعني بالضرورة أن يكون كذلك عند التعيين:

- فتحريم الخمر -على سبيل المثال- قطعي، بل من المعلوم من الدين بالضرورة، وكون العلة في تحريمها هو الإسكار قطعي كذلك، ولكن تحقيق هذا المناط في جزئي بعينه قد يكون ظنيًّا، وتتفاوت فيه الآراء.

- وردُّ الحكم الشرعي كفر أكبر، وهو من المعلوم من الدين بالضرورة كذلك، ولكن تحقيقه في مناط معين؛ بأن يقال: قد تحقق الرد في هذه الصورة أو لم يتحقق.. قد يكون ظنيًّا.

- وأصل اعتبار الإكراه والجهل عند إجراء الأحكام قطعي كذلك، ولكن تحقيقه في مناط معين قد يكون ظنيًّا؛ لتفاوت درجات الإكراه، وأنواع الجهل، ومدى اعتبار الظروف

(١) المرجع السابق: ٤/ ١٦٥.

التي أحاطت بالجاهل أو المكره أو عدم اعتبارها، وللظنون في مثل ذلك مجال.

ونحن لا ننكر أن هناك صورًا يبدو فيها تحقيق المناط في غاية الجلاء، لا يختلف فيـه اثنـان من العقلاء، ومثل هذه الصور ليست هي التي توجب النـزاع ولا الاخـتلاف، وإنـما يتـأتى النـزاع والاختلاف عند الالتبـاس، أو في ذلـك الوسـط الغـامض الـذي يقـع بـين الطـرف الأعلى؛ الذي يقطع فيه بتحقق المناط، وبين الطرف الآخر؛ الذي يقطع فيـه بانتفائـه، والـذي لابد فيه من بلوغ حد الوسع وهو الاجتهاد، كما يقول الشاطبي – رحمه الله –.

سادسًا: ضرورة التحقق من اسـتيفاء الضـوابط الشرعيـة للهجـر، قبـل التثريـب عـلى المخالف:

فيجب الانتباه عند تطبيق الهجر الشرعي بسبب الإصرار على خطأ بيِّن، إلى استيفاء الضوابط الشرعية لهذا الهجر؛ من تحقق السبب الموجـب لـه، وتحقيـق الهجـر لمقاصـده الشرعية؛ من زجر المبتدع، ورجوع العامة عن مثـل حالـه، وصـيانة السـنة مـن شـائبة البدع، وألا يعارض المصلحة المبتغاة منه بمفسدة راجحـة، وأن تكـون درجـة الإنكـار تابعة لدرجة المخالفة.

- ويتم التحقق من وجود السبب الموجب للهجر بما يلي:

١- **التحقق من وجود ما يوجب الحسبة**: وهو هنا البدعة المتفق على كونهـا بدعـة، فإن كانت من مجاري الاجتهاد، وللنظر فيها مجال، لم يجـز الاحتسـاب في هـذه الحالة، وقد سبق من مقالات أهل العلم ما يدل عـلى عـدم الإنكـار في مجـاري الاجتهاد.

٢- **التحقق من بلوغ الحجة**: فقد يكون المتلبس بهذه البدعة جاهلًا بحكم ما تلبس به؛ لا سيَّما مع غلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة، وهذا يختلف بطبيعة الحال من بلد إلى آخر، كما يختلف من شخص إلى آخر، والعدل أن يعامل كل إنسان بحسبه.

٣- **والأصل في ذلك أن حكم الخطاب لا يثبت في حق المكلف إلا إذا بلغه**، على الأظهر من أقوال العلماء؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[٣].

ولهذا لم يأمر النبي ﷺ عمر وعمارًا لما أجنبا؛ فلم يصل عمر، وصلى عمار بالتمرغ.. أن يعيد واحدٌ منهما، ولم يأمر أبا ذر بالإعادة لما كان يجنب ويمكث أيامًا لا يصلي، ولم يأمر من صلى إلى بيت المقدس قبل بلوغ النسخ لهم بالقضاء، ولم يأمر من أكل من الصحابة حتى تبين له الحبل الأبيض من الحبل الأسود بالقضاء[٤].

وقال شيخ الإسلام -رحمه الله-: «إني من أعظم الناس نهيًا عن أن ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرساليَّة؛ التي من خالفها كان كافرًا تارة، وفاسقًا أخرى، وعاصيًا أخرى، وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة

(١) الأنعام: ١٩.
(٢) الإسراء: ١٥.
(٣) النساء: ١٦٥.
(٤) مجموع الفتاوى: ٣١/ ٢٨٨، ١١/ ٤٠٦، ٤٠٧.

خطأها، وذلك يعمُّ المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية، وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل، ولم يشهد أحد منهم على أحد بكفر ولا فسق ولا معصية»[1].

وإذا كان لا يجوز أن ينسب معين إلى كفر أو فسق أو معصية، بل لا يثبت حكم الخطاب في حقه ابتداءً إلا ببلوغ الحجة، فأولى ألا تُجْرَى عليه مقتضيات هذا الحكم، من هجر أو نحوه، إلا إذا بلغته الحجة بلوغًا معتبرًا ممن تقوم بمثله الحجة.

٤- **البدء بالوعظ والنصح**: وذلك أنه إذا كان الشرط السابق للتحقق من زوال الجهل، فإن هذا الشرط للتحقق من زوال الغفلة، وهو في حق من يغشى البدعة وهو عالم بها، فيجب أن يبدأ بوعظه وتذكيره بالله ﷻ، على أن يتم ذلك بشفقة ولطف، ودونما غضب أو عنف، بل ينظر إليه نظرة المترحم عليه، ويرى لإقدامه على المعصية أو البدعة مصيبة على نفسه؛ إذ المسلمون كنفس واحدة.

ولا يخفى أن هذا النصح من فروض الكفايات، وأن المسلمين في هذا كنفس واحدة، فإذا قام بهذا الواجب على وجهه بعض المسلمين ممن يوثق بعلمهم، ويتلقى النصح من مثلهم، فقد سقط التكليف به، وأمكن الانتقال إلى مرحلة العقوبة على هذا المنكر بالهجر ونحوه.

أما تحقيق الهجر لمقاصده الشرعية؛ فلما تمهد من أن هذا الهجر إنما شرع لغاية هي زجر المبتدع، ورجوع العامة عن مثل حاله، وصيانة السنة من شائبة البدع؛ فإن أدى الهجر إلى تحقيق

(١) المرجع السابق: ٣/ ٢٢٩.

هذه الغاية كان هجرًا مشروعًا مندوبًا إليه، وكان القيام به من جنس الجهاد في سبيل الله، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويتحقق ذلك بكون الهاجر من القوة المادية أو الأدبية بحيث يحدث من هجره زجر المبتدع وانكفاف العامة، أما إذا كان الهاجر ضعيفًا، وكان الظهور والغلبة للمبتدعة، ولم يحقق الهجر مصلحة من زجر المبتدع أو زجر العامة.. لم يشرع، بل قد يكون التأليف في هذه الحالة أنفع من الهجر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا الهجر يختلف باختلاف الهاجرين في قوتهم وضعفهم، وقلتهم وكثرتهم، فإن المقصود به زجر المهجور وتأديبه ورجوع العامة عن مثل حاله، فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يفضي هجره إلى ضعف الشر وخفيته كان مشروعًا، وإن كان لا المهجور ولا غيره يرتدع بذلك، بل يزيد الشر، والهاجر ضعيف، بحيث يكون مفسدة ذلك راجحة على مصلحته، لم يشرع الهجر، بل يكون التأليف لبعض الناس أنفع من الهجر، والهجر لبعض الناس أنفع من التأليف؛ ولهذا كان النبي ﷺ يتألف قومًا ويهجر آخرين، كما أن الثلاثة الذين خلفوا كانوا خيرًا من أكثر المؤلفة قلوبهم؛ لما كان أولئك كانوا سادة مطاعين في عشائرهم، فكانت المصلحة الدينية في تأليف قلوبهم، وهؤلاء كانوا مؤمنين، والمؤمنون سواهم كثير، فكان في هجرهم عز الدين، وتطهيرهم من ذنوبهم، وهذا كما أن المشروع في العدو القتال تارة، والمهادنة تارة، وأخذ الجزية تارة، كل ذلك بحسب الأحوال والمصالح.

وجواب الأئمة؛ كأحمد وغيره، في هذا الباب مبني على هذا الأصل؛ ولهذا كان يفرق بين الأماكن التي كثرت فيها البدع، كما كثر القدر في البصرة، والتنجيم

بخراسان، والتشيع بالكوفة، وبين ما ليس كذلك، ويفرق بين الأئمة المطاعين وغيرهم، وإذا عرف مقصود الشريعة سلك في حصوله أوصل الطرق إليه»[1].

ومن المعاصرين يؤكد الشيخ محمد بن صالح العثيمين على هذا المعنى، فيذكر أنه فيما عدا البدع المكفرة فإن الأصل هو ارتباط مشروعية الهجر بالمصلحة المترتبة عليه، فإن كان في الهجر مصلحة فعلناه، وإن لم يكن فيه مصلحة اجتنبناه.

ثم يبين وجه ذلك فيقول: «وذلك أن الأصل في المؤمن تحريم هجره؛ لقول النبيﷺ: «**لا يحل لرجل مؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث**»، فكل مؤمن وإن كان فاسقًا فإنه يحرم هجره ما لم يكن في الهجر مصلحة، فإذا كان في الهجر مصلحة هجرناه؛ لأن الهجر حينئذ دواء، أما إذا لم يكن فيه مصلحة، أو كان فيه زيادة في المعصية والعتو، فإن ما لا مصلحة فيه تركه هو المصلحة.

فإن قال قائل: يردُّ على ذلك أن النبي ﷺ هجر كعب بن مالك وصاحبيه الذين تخلفوا عن غزوة تبوك.

فالجواب: أن هذا حصل من النبي ﷺ وأمر الصحابة بهجرهم؛ لأن في هجرهم فائدة عظيمة، فقد ازدادوا تمسكًا بما هم عليه، حتى إن كعب بن مالك رضي الله عنه جاءه كتاب من ملك غسان، يقول فيه بأنه سمع «أن صاحبك -يعني الرسول ﷺ- قد جفاك، وأنك لست بدار هوان ولا مذلة؛ فالحق بنا نواسك»، فقام كعب مع ما هو عليه من الضيق والشدة، وأخذ الكتاب وذهب به وأحرقه في التنور.

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٢٠٦، ٢٠٧.

فهؤلاء حصل في هجرهم مصلحة عظيمة، ثم النتيجة التي لا يعادلها نتيجة أن الله أنزل فيهم قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1][2].

أما عدم معارضة المصلحة المبتغاة من الهجر بمفسدة راجحة؛ فلما تمهد في الأصول من أن مبنى الشريعة تحقيق أكمل المصلحتين، ودفع أعظم المفسدتين، فإذا كانت المصلحة المبتغاة من الهجر معارضة بمفسدة راجحة من تفويت مصلحة أرجح من المصلحة المترتبة على هذا الهجر، أو حصول مفسدة أعظم هي أسخط لله من مفسدة هذه المخالفة لم يشرع الهجر في هذه الحالة، وكان التأليف أنفع، وبمقاصد الشريعة أليق.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن الأمر والنهي وإن كان متضمنًا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة، فينظر في المعارض له، فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر.. لم يكن مأمورًا به، بل يكون محرمًا إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته، لكن اعتبار تقدير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة»[3].

(١) التوبة: ١١٧-١١٨.

(٢) المجموع الثمين من فتاوى محمد بن صالح العثيمين: ١/ ٣١، ٣٢.

(٣) مجموع الفتاوى: ١٨/ ٢٩.

ويقول في موضع آخر: «فإذا لم يكن في هجرانه انـزجار أحد ولا انتهـاء أحـد، بـل بطلان كثير من الحسنات المأمور بها لم تكن هجرةً مأمورًا بها، كما ذكـر أحمـد عـن أهـل خراسان إذ ذاك أنهم لم يكونوا يقوون بالجهمية، فإذا عجزوا عـن إظهـار العـداوة لهـم سقط الأمر بفعل هذه الحسنة، وكان مداراتهم فيه دفـع الضرر عـن المـؤمن الضـعيف، ولعله أن يكون فيه تأليف الفاجر القوي، وكذلك لما كثر القـدر في أهـل الـبصرة، فلـو ترك رواية الحديث عنهم لاندرس العلم والسنن والآثار المحفوظة فيهم»[1].

وأما ضرورة أن تكون درجة الإنكار تابعة لدرجة المخالفة؛ فلما تمهد من أن البـدع ليست سواء، فهنالك البدع المكفرة؛ كبدعة أهل الجاهلية في تشريع مـا لم يـأذن بـه الله، وكبدعة القاديانية، والبهائية، والعلمانية في واقعنا المعاصر.

وهذا كله من جنس الكفر والردة، وأحكامه مقررة في موضـعها في بـاب الـردة في كتب الفقه، وهنالك البدع التي تعتبر من جنس المعاصي، وهـي بـدورها تتفـاوت كـما تتفاوت المعاصي؛ فمنها الكبائر، ومنها ما هو دون ذلك، ويجب أن يكون الإنكـار عـلى كل بدعة بحسبها.

كما أن أهل البدع ليسوا سواء؛ فهنالك المعلـن ببدعتـه والـداعي إليهـا، وهنالـك الساكت المستتر ببدعته، وهنالك الجاهل المقلد الـذي لا بصـيرة لـه، والـذي يتبـين لـه الهدى ثم يتركه؛ تقليدًا أو تعصبًا ومعاداة لأصحابه، وهنالك المصرُّ على بدعته، والـذي تجري منه مجرى الزلة والفلتة، والإنكار على كل صنف من هؤلاء بحسبه، ونَظْمُ الجميع في نسق واحد ظلم واعتداء.

(١) المرجع السابق: ١٨/ ٢١٢.

يقول ابن القيم -رحمه الله-: «وأما أهل البدع الموافقون أهل الإسلام، ولكنهم مخالفون في بعض الأصول؛ كالرافضة والقدرية والجهمية وغلاة المرجئة ونحوهم، فهؤلاء أقسام:

أحدها: الجاهل المقلد الذي لا بصيرة له، فهذا لا يكفر ولا يفسق ولا ترد شهادته، إذا لم يكن قادرًا على تعلم الهدى، وحكمه حكم المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوًا غفورًا.

القسم الثاني: المتمكن من السؤال ومعرفة الهداية ومعرفة الحق، ولكن يترك ذلك اشتغالاً بدنياه ورئاسته ولذته ومعاشه.. وغير ذلك، فهذا مفرط مستحق للوعيد، آثم بترك ما وجب عليه من تقوى الله بحسب استطاعته، فهذا حكمه حكم أمثاله من تاركي بعض الواجبات؛ فإن غلب ما فيه من البدعة والهوى على ما فيه من السنة والهدى رُدَّتْ شهادته، وإن غلب ما فيه من السنة والهدى على ما فيه من البدعة والهوى قُبِلَتْ شهادته.

القسم الثالث: أن يسأل ويتبين له الهدى، ويتركه تقليدًا أو تعصبًا، أو بغضًا أو معاداة لأصحابه؛ فهذا أقل درجاته أن يكون فاسقًا، وتكفيره محل اجتهاد وتفصيل، فإن كان معلنًا داعية ردت شهادته وفتاويه وأحكامه مع القدرة على ذلك، ولم تقبل له شهادة ولا فتوى ولا حكم إلا عند الضرورة؛ كحال غلبة هؤلاء واستيلائهم، وكون

القضاة والمفتين والشهود منهم، ففي رد شهادتهم وأحكامهم إذ ذاك فساد كبير، ولا يمكن ذلك، فتقبل للضرورة»[1].

هذا، وقد أردنا بالتأكيد على ضرورة أن يدور الهجر في فلك ضوابطه الشرعية؛ لما يغشى ساحة العمل الإسلامي المعاصر من تهارج وتجاذب حول هذه النقاط؛ فمنهم من يرى ضرورة إعلان النكير على المخالف لشيء من أصول أهل السنة، والتثريب عليه بالهجر ونحوه، ويستخدم ذلك عامًّا؛ من غير علم ولا حلم ولا فقه، ولا اعتبار بالمآل، ولا نظر فيما يصلح ذلك وما لا يصلح، فيأتي احتسابهم بنقيض المقصود، ويزداد الواقع سوءًا وفتنة.

ومنهم من يرى التغاضي في سبيل طلب اجتماع الكلمة عن هذا الأمر بالكلية، فلا يفرق في تعامله بين صاحب سنة وصاحب بدعة، ولا بين محق ومبطل، تحت دعوى وحدة الصف واجتماع الكلمة.

والحق دائمًا بين إفراط من طرف، وتفريط من الطرف الآخر، ودين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه.

والذي نخلص إليه من هذه الضوابط أن للحركات الجهادية المعاصرة وظيفتين:

١- وظيفة البناء الإيماني والعقدي، وإحياء ما أماته الناس من شرائع الإسلام، وهي في هذا تدور في فلك المذهبية العلمية بالمعنى الخاص؛ (أهل السنة والجماعة)..

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، لابن القيم: ١٥٥، ١٥٦.

تدعو إلى أصول هذا المنهج وتنشئ رجالها على أساسه، وقاعدتها في هذا الإطار هم الملتزمون بهذا المنهج دون سواهم.

٢- وظيفة الدفاع عن الإسلام في مواجهة الكفر المطبق في هذه الأيام، وهي في هذه حركة جهادية عامة، تدور في فلك المذهبية الإسلامية بالمعنى العام، وتستوعب كل من ثبت لهم عقد الإسلام ممن تحقق لديهم «الالتزام المجمل بالإسلام والاستعداد للاشتراك في الجهاد»، وقاعدتها في هذا الإطار هي الأمة بمختلف طوائفها ممن تحقق لديهم هذا القدر، ولا تغلق بابها في هذا الإطار دون أحد.

وبهذا؛ يتمثل في هذه الحركات منهج أهل السنة والجماعة:

- فهي في التزامها في مرحلة البناء بالسنة؛ قولًا وعملًا، وتنشئة رجالها على ذلك، يتحقق فيها وصف أهل السنة.

- وهي في وقوفها في مرحلة الدفاع ومجاهدة أعداء الله عند دائرة المذهبية الإسلامية بالمعنى العام؛ «الالتزام المجمل بالإسلام والاستعداد للاشتراك في الجهاد».. يتحقق فيها وصف الجماعة؛ لما تحرص عليه من جمع كلمة الأمة في مرحلة المواجهة.

كما يتحقق فيها وصف الجماعة على كلا المعنيين:

- العلمي؛ المتمثل في الكتاب والسنة على رسم منهاج النبوة؛ «**ما أنا عليه وأصحابي**».

- العضوي؛ المتمثل في الدعوة إلى اجتماع الأمة بمختلف طوائفها حول الأئمة، أو حول أهل الحل والعقد عند خلو الزمان من الأئمة، واشتراك الجميع في الدفاع عن الإسلام وإقامة دولته.

وبهذا تصبح هي السفينة التي من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق، وتصبح المخرج من الفتنة في هذه الأحوال النكدة!

وبعد هذه المقدمات نخلص إلى الموضوع الأساسي الذي عقدنا له هذه الدراسة؛ وهو «**الثوابت والمتغيرات**»، أو «**المحكم والمتشابه**»في مسيرة العمل الإسلامي المعاصر.

ونودُّ أن نستعرض فيه قضايا العمل الإسلامي الخلافية كافة، المثارة في أوساط الحركة الإسلامية، للتمييز فيها بين ما كان محكمًا لا تحل مخالفته، وبين ما كان متشابهًا لا يحل التفرق أو التهارج بسببه، ونود أن نقدم بين يدي ذلك ببيان المقصود بكل من «**الثوابت والمتغيرات**»، أو المحكم والمتشابه، باعتبار هذه الألفاظ من المصطلحات التي تدور عليها هذه الدراسة من أولها إلى غايتها، فنقول:

المقصود بالثوابت والمتغيرات:

الثوابت والمتغيرات: تعبير يقصد به في المقام الأول التفريق بين مواضع الإجماع والنصوص القاطعة التي لا تحل المنازعة فيها، ويعد الخروج عنها خروجًا عن جماعة المسلمين واتباعًا لغير سبيل المؤمنين.. وبين موارد الاجتهاد التي لا يضيق فيها على المخالف؛ لظنية مداركها ثبوتًا أو دلالة، لتكون الأولى وحدها هي معقد الولاء والبراء،

وليسعنا في الثانية ما وسع سلفنا الصالح، فيتكلم الناس فيها بالبينات والحجج العلمية، مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين.

وعلى هذا؛ فإن الثوابت يقصد بها في هذه الدراسة: القطعيات ومواضع الإجماع التي أقام الله بها الحجة بينة في كتابه، أو على لسان نبيه ﷺ، ولا مجال فيها لتطوير أو اجتهاد، ولا يحل الخلاف فيها لمن علمها، بالإضافة إلى بعض الاختيارات العلمية الراجحة، التي تمثل مخالفتها نوعًا من الشذوذ أو الزلل.

قال الشافعي -رحمه الله-: «كل ما أقام به الله الحجة في كتابه أو على لسان نبيه منصوصًا بيِّنًا.. لم يحل الاختلاف فيه لمن علمه»[1].

وهي التي يسميها شيخ الإسلام ابن تيمية الشرع المنزل، وهو ما شرعه الله ورسوله من الأقوال والأعمال مما ليس للاجتهاد فيه مجال.

وحقيقته اتباع الرسل والدخول تحت طاعتهم، واتباع هذا الشرع واجب، ومن خرج عليه وجب قتله، وهو الشرع الذي يقاتل عليه المجاهدون، وليس لأحد معه إلا التسليم والإذعان.

وخلاصته النص الصحيح الذي لا معارض له، أو الإجماع الصريح الذي لا منازعة في ثبوته، إلا منازعة تعد من قبيل الزلة أو الفلتة التي لا يعتد بها ولا يعول عليها، وهو بهذا المعنى يقابل الشرع المؤول، وهو موارد الاجتهاد وكل ما لم يكن موضعًا لسنة صحيحة لا معارض لها أو إجماع.

(١) الرسالة، للإمام الشافعي: ٥٦٠.

يقول -رحمه الله-: «لفظ الشرع في هذه الأزمنة ثلاثة أقسام؛ أحدها: الشرع المنزل؛ وهو الكتاب والسنة، واتباعه واجب، من خرج عنه وجب قتله، ويدخل فيه أصول الدين وفروعه، وسياسة الأمراء، وولاة المال، وحكم الحكام، ومشيخة الشيوخ وغير ذلك، فليس لأحد من الأولين والآخرين خروج عن طاعة الله ورسوله»(١).

ويقول في موضع آخر في بيانه: «ومحمد ﷺ خاتم الرسل، فعلى جميع الخلق اتباعه واتباع ما شرعه من الدين، وهو ما أتى به من الكتاب والسنة، فما جاء به الكتاب والسنة، وهو الشرع الذي يجب على جميع الخلق اتباعه، وليس لأحد الخروج عنه، وهو الشرع الذي يقاتِل عليه المجاهدون؛ وهو الكتاب والسنة، وسيوف المسلمين تنصر هذا الشرع؛ وهو الكتاب والسنة، كما قال جابر بن عبد الله:

أمرنا رسول الله ﷺ أن نضرب بهذا -يعني: السيف- من خرج عن هذا؛ يعني: المصحف، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٢) (٣).

وقد جعل هذا النوع من الشرع في هذه الأمة بمثابة الدين المشترك، أو الدين الجامع بين الأنبياء، فقال -رحمه الله-: «فالأصول الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع؛ هي بمنزلة

(١) مجموع الفتاوى: ٣٥/ ٣٩٥.
(٢) الحديد: ٢٥.
(٣) المرجع السابق: ٣٥/ ٣٦٥، ٣٦٦.

الدين المشترك بين الأنبياء، وليس لأحد خروج عنها، ومن دخل فيها كان من أهل الإسلام المحض، وهم أهل السنة والجماعة»[1].

ومجال هذه الثوابت إنما يكون في كليات الشريعة وأغلب مسائل الاعتقاد، وأصول الفرائض، وأصول المحرمات، وأصول الفضائل والأخلاق، وأبرز ميادينها العقائد والعبادات والأخلاق وأصول المعاملات.

وهذا النوع هو الذي يميز القائلين به عن أهل الأهواء؛ لأن شعار الفرق المخالفة للسنة مفارقة الكتاب والسنة والإجماع، فكل من قال بالكتاب والسنة والإجماع فهو من أهل السنة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وشعار هذه الفرق مفارقة الكتاب والسنة والإجماع، فمن قال بالكتاب والسنة والإجماع كان من أهل السنة والجماعة»[2].

أما المتغيرات؛ فيقصد بها: موارد الاجتهاد، وكل ما لم يقم عليه دليل قاطع من نص صحيح أو إجماع صريح.

يقول الشافعي -رحمه الله-: «وما كان من ذلك يحتمل التأويل ويُدرك قياسًا، فذهب المتأول أو القايس إلى معنى يحتمله الخبر أو القياس، وإن خالفه فيه غيره.. لم أقل إنه يضيق عليه ضيق الخلاف في المنصوص»[3]، ومثَّل له بالأقراء واحتمال تفسيرها بالأطهار والحيض.

(١) المرجع السابق: ٣٥/ ٣٩٥.

(٢) مجموع الفتاوى: ٣/ ٢٤٥.

(٣) الرسالة، للإمام الشافعي: ٥٦٠.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والثاني: الشرع المؤول، وهو موارد النزاع والاجتهاد بين الأمة، فمن أخذ فيما يسوغ فيه الاجتهاد أُقر عليه، ولم تجب على جميع الخلق موافقته، إلا بحجة لا مرد لها من الكتاب والسنة»[1].

ويقول ابن القيم -رحمه الله-: «وأما الحكم المؤول؛ فهو أقوال المجتهدين المختلفة التي لا يجب اتباعها، ولا يكفر ولا يفسق من خالفها، فإن أصحابها لم يقولوا: هذا حكم الله ورسوله، بل قالوا: اجتهدنا برأينا، فمن شاء قبله ومن شاء لم يقبله، ولم يُلزموا به الأمة، قال أبو حنيفة: هذا رأيي، فمن جاءني بخير منه قبلناه، ولو كان هو عين حكم الله لما ساغ لأبي يوسف ومحمد وغيرهما مخالفته فيه، وكذلك مالك؛ استشاره الرشيد أن يحمل الناس على ما في الموطأ، فمنعه من ذلك، وقال: قد تفرق أصحاب رسول الله ﷺ في البلاد، وصار عند كل قوم علم غير ما عند الآخرين، وهذا الشافعي ينهى أصحابه عن تقليده، ويوصيهم بترك قوله إذا جاء الحديث بخلافه، وهذا الإمام أحمد ينكر على من كتب فتاواه ودوَّنها ويقول: لا تقلدني، ولا تقلد فلانًا، وخذ من حيث أخذوا، ولو علموا رضي الله عنهم أن أقوالهم يجب اتباعها، لحرموا على أصحابهم مخالفتهم، ولما ساغ لأصحابهم أن يفتوا بخلافهم في شيء، ولما كان أحدهم يقول القول ثم يفتي بخلافه، فيروى عنه في المسألة القولان والثلاثة وأكثر من ذلك، فالرأي والاجتهاد أحسن أحواله أن يسوغ اتباعه،والحكم المنزل لا يسوغ لمسلم أن يخالفه ولا يخرج عنه»[2].

ويذكر الشاطبي -رحمه الله- أن: «محال الاجتهاد المعتبر هي ما ترددت بين طرفين، وضح في كل منهما قصد الشارع في الإثبات في أحدهما والنفي في الآخر، فلم تنصرف البتة إلى طرف النفي ولا إلى طرف الإثبات»[3].

(١) مجموع الفتاوى: ٣٥/ ٣٩٥.

(٢) الروح، لابن القيم: ٢٧٦، ٢٧٧.

(٣) انظر: الموافقات ٤/ ١٥٥.

ويذكر من أمثلتها زكاة الحلي، فقد أجمع أهل العلم على عدم الزكاة في العروض، وعلى وجوب الزكاة في النقدين؛ لكونهما مُعَدَّين للتعامل والثمنية بخلقتهما، فصار الحلي المباح دائرًا بين الطرفين؛ لأنه أخذ وصفًا واحدًا من النقدين، وهو كونه من الذهب والفضة، وباستعماله للزينة لا للثمنية فقد الوصف الآخر، وشارك العروض في عدم قصده بالثمنية فجاء فيه الخلاف، كما ذكر من أمثلتها قبول رواية مجهول الحال وشهادته؛ لأنهم قد اتفقوا على قبول رواية العدل وشهادته، وعلى عدم قبول ذلك من الفاسق، وصار مجهول الحال دائرًا بينهما فوقع الخلاف فيه»[1].

ويذكر الغزالي في المستصفى أن: «المجتهَد فيه كلُّ حكم شرعي ليس فيه دليل قطعي»[2]، قال: «وإنما نعنى بالمجتهَد فيه ما لا يكون المخطئ فيه آثمًا، ووجوب الصلوات الخمس والزكوات، وما اتفقت عليه الأمة من جليَّات الشرع، فيها أدلة قطعية؛ يأثم فيها المخالف، فليس ذلك محل الاجتهاد»[3].

ويذكر الآمدي -رحمه الله- أنها «كل أمر لم يرد فيه دليل قاطع».

والمجال الأصلي لهذه المتغيرات إنما يكون في أحكام المعاملات، وفي بعض فروع العبادات والآداب، ولقد ذكرنا من قبل أنه لا يضيق فيها على المخالف، ولا يعقد على أساسها ولاء ولا براء، ولا يخرج المختلفون فيه عن دائرة الرحمة إلا إذا تدابروا وتقاطعوا

(١) المرجع السابق: ٤/ ١٥٥- ١٦٠.
(٢) المستصفى للغزالي: ٢/ ٣٥٤.
(٣) المرجع السابق.

بسببها، وأنها كانت ولا تزال من أعظم أسباب السعة واليسر في هـذا الـدين، وأن المحـذور ليس في تفاوت اجتهادات أهل العلم فيها، بل في تشرذم الناس وتباغضهم بسببها، وأنها متـى تجردت عن هذا التعصب البغيض كانت رحمة بالأمة وتوسعة عليها، وآيـة عـلى خلـود هـذا الدين واستيعاب أحكامه لكل جديد، وصـلاحية شريعتـه للتطبيـق في كـل زمـان ومكـان، ونختم هذا البيان بإيراد مقالة بعض أهل العلم من المعاصرين في هذه القضية.

يقول الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق: «علوم الإسلام تنقسم إلى قسمين بوجه عام:

قسـم نسـتطيع أن نسـميه القسـم الثابـت للـذي لا يقبـل التطـوير ولا الاجتهـاد ولا الإضافة، وهذا القسم هو العقائد (مسائل الإيمان)، والعبادات (أركان الإسلام الأربعـة)، والأخلاق (مجموعة الفضائل الخُلقيـة)؛ كالصـدق والإحسـان والشـجاعة... إلـخ، هـذه الأمور هي الثوابت في الدين، ولا يجوز أن نُجري عليها قط أمور الاجتهاد والإضافة.

فصفات الله سبحانه وتعالى، والملائكة، والجنـة والنـار، واليـوم الآخـر، وعـذاب القبر.. وغير ذلك من مسائل الغيب، لا وجه في هذا مطلقًا لأية إضافة جديدة؛ لأنـه لا وصول إلى علم جديد في هذا إلا بالوحي، ولا وحي بعد الرسول ﷺ.

وهـذا هـو خلافنـا الأسـاسي مـع التصـوف، فالمتصـوفة قـد ركـزوا ترَّهـاتهم وخزعبلاتهم وكشوفاتهم المزعومة في كشف حقـائق هـذه الأشـياء في ظـنهم؛ ولـذلك يقول قائلهم: اطلعنا على الجنة والنار، ورأينا كـذا وكـذا! ممـا لم يخـبر بـه الرسـول ﷺ، ويقول الآخر: أصعدني الله إلى سـماواته فرأيـت كـذا وكـذا! ويقـول الآخـر: التقيـت بالملائكة وشاهدت كذا وكذا! ويقول الآخر: نـزلت الأرض السفلى ورأيت وسمعت!

إلى آخر هذه الافتراءات والخزعبلات، وهذا الباب الغيبي لا يفتح أصلًا إلا بالوحي، ولا وحي بعد الرسول ﷺ.

وأما العبادات أيضًا فلا يجوز الإضافة فيها؛ لأن الإضافة فيها مبطلة؛ فالصلوات من فرائض ونوافل لا يجوز الزيادة فيها على المشروع، فركعة مضافة على الركعات الأربع تبطل الصلاة، واستحداث نافلة لم تكن على عهد النبي ﷺ يصدق عليه قوله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»، وكذلك إضافة هيئات جديدة أو صور جديدة لأي نوع من أنواع العبادة.

باختصار، لا جديد في الصلاة والصوم والحج، وفي فرضيات الزكاة، ويجب أن يبقى كل ذلك على الصورة والنحو المشروع.

كذلك الأخلاق وتربية النفس لا يجوز تغير هذه الموازين، وإلا اختل نظام الأخلاق وأصبح الحق باطلًا، والباطل حقًّا.

هذه الأمور الثلاثة هي من قسم الثوابت في الدين، وكل إضافة فيها تدخل في أبواب الابتداع، وإن كان ثم اجتهاد فيها فهو اجتهاد في الأخطاء والضرورات التي تقع لبعض الأفراد؛ كمن نسي ففعل كذا، أو أخطأ ففعل كذا، أو اضطر ففعل كذا، ففي هذه الأبواب من الخطأ والنسيان والضرورة ينحصر اجتهاد المجتهدين، وكل ذلك في هذه الأبواب الثلاثة: العقائد والعبادات والأخلاق[1].

(١) السلفيون والأئمة الأربعة، لعبد الرحمن عبد الخالق: ٢٤، ٢٥.

ثم يتحدث عن المتغيرات فيقول: والنصوص القرآنيـة والحديثيـة التـي نـــزلت في هـذه المعـاملات كانـت بمثابـة الضـوابط والأصـول العامـة، والإطـار الـذي يضيء للمسلمين الطريق، ويسمح لهم أن يشرعوا لأنفسهم على هديه كلما جدَّ لهم جديـد مـع أنفسهم أو مع أعدائهم؛ ولهذا هو أعظم المتغيرات في هذا الـدين، ولكنـه لـيس متغـيرًا مطلقًا، ولكنه متغير وفق ثوابت من القواعـد العامـة، والحـدود الفاصـلة بـين الحـلال والحرام، والمطلوب والممنوع.

والمهم أن باب المعاملات باب عظيم مـن أبـواب الاجتهـاد؛ وذلـك لاتسـاع شـؤون المعاملات وتعددها وتغيرها بتغير الزمان والمكـان والنـاس، ونسـتطيع أن نقـول: إن هـذا الباب إذا عُرفـت أصـوله وحـدوده المنصـوص عليهـا في الكتـاب والسـنة، واسـتطعنا أن نستوعب حاجة المسلمين ومشكلاتهم اليوميـة في شـؤون حيـاتهم المختلفـة؛ مـن سياسـية واقتصادية واجتماعية، استطعنا أن نصل إلى اجتهاد سليم وإلى رقي دائم وسير سليم في ظل نظام الإسلام وقانونه.

وهذه هي مشكلة المشاكل أيضًا؛ وذلـك أن الثابـت مـن أبـواب الإسـلام العلميـة (العقائد والعبادات والأخـلاق) لا يشـكل مشـكلة؛ لأنـه واضـح قريـب الفهـم قليـل الاختلاف فيه، وأما شؤون المعاملات والسياسة والاقتصاد والاجـتماع، فهـو مـع ثبـات أصوله متغير تغيرًا عظيمًا جدًّا؛ فأحوالنا السياسية تتغير كل يوم وتحتاج إلى اجتهاد جديـد مع هذا التغير، وكذلك معاملاتنا الاقتصـادية؛ فـنحن لا نعـيش في العـالم بمفردنـا، بـل يشاركنا فيه أمم وشعوب كثيرة، ولهـا معاملاتهـا ولهـم ضـغوطهم علينـا، فـما الواجـب معهم؟

أكتب هذه الرسالة وهذه مشكلة البترول قائمة؛ منا من يقول: يجب إدخال البترول في المعركة، ومنعه عن الدول التي تساعد إسرائيل، ويقول آخرون: لو منعناه انتهت الحضارة ودمرنا العالم، وهذا إفساد في الأرض، والله لا يحب الفساد، ويقول آخرون: بل لو منعناه حاربَنا الأعداءُ واستولوا عليه وخسرناه... إلخ.

وكل هذا يحتاج من علماء المسلمين -وإن لم يكن لهم اليوم في تصريف شؤون بلادهم شيء يذكر- إلى اجتهاد ومشاركة؛ لأنه من باب النصح للأمة، كما قال رسول الله ﷺ: «**الدين النصيحة**» ثلاثًا، قلنا: لمن؛ قال: «**لله ولرسوله ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم**»؛ فمن النصح لعامة المسلمين تقديم النصح لحلول هذه المشاكل التي لا تصيب واحدًا منا فقط، بل تقع على الأمة كلها، وهذه المشكلة واحدة من آلاف المشاكل الاقتصادية التي نواجهها الآن، وكل هذه المشاكل تحتاج من المسلمين إلى فهم وعلم واجتهاد، وهذا الفهم -كما أسلفنا القول مرارًا- يجب أن يكون في إطار النصوص والقواعد والحق الذي أنزله سبحانه وتعالى، وهذا الاجتهاد في هذه الأمور (المعاملات) هو أعظم المتغيرات في هذا الدين، وهو بالطبع متغير يخضع إلى الثابت الذي أنزله الله سبحانه وتعالى، وتكلم به رسوله ﷺ[1].

وينحو الدكتور يوسف القرضاوي في حديثه عن هذه القضية نفس المنحى تقريبًا، فيقول: «فمن أحكام الدين ما يتعلق بالعقائد التي تحدد نظرة الدين إلى المبدأ والمصير؛ إلى الله والكون والحياة والإنسان، أو ما يسميه علماء العقائد عندنا: الإلهيات والنبوات والسمعيات، وهذه حقائق ثابتة لا تتغير.

ومنها ما يتعلق بشعائر العبادات الرئيسية التي تحدد صلة الإنسان العملية بربه،

(١) المرجع السابق: ٢٦- ٢٨.

وهي التي تعتبر أركان الإسلام ومبانيه العظام، وهذه في أسسها العامة ثابتة، وإن كـان الاجتهاد يدخل عليها في كثير من التفاصيل.

ومنها ما يتعلق بالقيم الخلقية، ترغيبًا في الفضـائل، وترهيبًـا مـن الرذائـل، وهـذه تتميز بالثبات أيضًا في مجموعها.

وهذه الثلاثة لا يحتاج الناس إلى تغيرها، بل إلى ثباتهـا واسـتقرارها؛ لتسـتقر معهـا الحياة وتطمئن العقول والقلوب.

بقي أمر نظـم الحيـاة المختلفـة؛ مثـل: نظـام الأسرة والمواريـث ونحوهـا، ونظـام المعـاملات والمبـادلات الماليـة، ونظـام الجـرائم والعقوبـات، والأنظمـة الدسـتورية والإدارية والدولية ونحوها، وهي التي يفصـل أحكامهـا الفقـه الإسـلامي بمختلـف مدارسه ومذاهبه، وهذه ذات مستويين:

مستوى يمثل الثبات والدوام، وهو ما يتعلق بالأسس والمبادئ والأحكام التي لهـا صفة العموم، وهو ما جاءت به النصوص القطعية الثبوت، القطعيـة الدلالـة، التـي لا تختلف فيها الأفهام، ولا تتعدد الاجتهادات، ولا يؤثر فيها تغير الزمان والمكان والحال.

ومستوى يمثل المرونة والتغير، وهو ما يتعلق بتفصيل الأحكـام في شـؤون الحيـاة المختلفة، وخصوصًا ما يتصل بالكيفيات والإجراءات ونحوها، وهذه قلـما تـأتي فيهـا نصوص قطعية، بل إما أن يكون فيها نصـوص محتملـة، أو تكـون متروكـة للاجتهـاد؛ رحمة من الله تعالى غير نسيان»[1].

(١) بينات الحل الإسلامي، للدكتور يوسف القرضاوي: ٧٦، ٧٧.

الفصل الثاني

الثوابت والمتغيرات في منهج التلقي وقضية الاجتهاد والتقليد

أول ما يطالعنا عند الحديث عن قضايا العمل الإسلامي المعاصر، ونقاط التماسٍّ بين بعض فصائله، هو الحديث عن قضية الاجتهاد والتقليد، ومنهج التلقي من الكتاب والسنة، وبالتحديد: ما دور العقل مع النقل؟ وما الحجيات أو الأدلة الشرعية الكلية التي يحتج بها في مواضع النزاع؟ وما موقف كل من أهل العلم وطلبة العلم والعامة من قضية الاجتهاد والتقليد؟ هل الاجتهاد واجب بإطلاق؟ وهل التقليد محرم بإطلاق؟ وهل طلب العلم واجب على التعيين؟ إلى غير ذلك من الأسئلة التي يبتدئ بها مريد الهدى رحلته في الالتزام بالدين والتعرف على أحكامه ومخالطة حملته وعلمائه.

لقد كان من الإيجابيات التي تذكر للعمل الإسلامي المعاصر أنه كسر حاجز التقليد، وحمل على عاتقه تجديد العمل بالأدلة الشرعية، وأزال الغبار عن كتب السنة بعد أن أوشكت أن تكون نسيًا منسيًا، وأن تتحول إلى مجرد تراث بعد أن استعاض الناس عنها بكتب الفروع، وزهدوا في الرجوع إليها والتعويل عليها في التعرف على حكم ما ينزل بهم من النوازل، فجدد العمل الإسلامي الاهتمام بها والرجوع إليها، وأقبل عليها؛ دراسةً وتحقيقًا، عالًما ومتعلمًا، حتى أعاد للسنة منزلتها التي ينبغي أن تكون لها في أوساط المسلمين.

وقد يكون من بين الآثار الجانبية لهذا العمل بعض الغلو الذي تتسم به غالبًا ردود الأفعال، فإذا كان الناس يوجبون التقليد، حتى على المتخصصين من أهل العلم، فقد جاء من أبناء العمل الإسلامي من يحرمه حتى على العامة! وإذا كان الناس لا يعرفون أدلة على الفقه إلا مقالات الأئمة، فقد جاء من المنتسبين إلى العمل الإسلامي من يرد مقالات الأئمة كافة، ويقول: هم رجال ونحن رجال! ويشترط لصحة الفتوى أن تكون مصحوبة بالدليل، وإلا فهي رَدٌّ! مهما كانت مرتبة السائل ومرتبة المسؤول.

وعلى صعيد آخر إذا كان النـاس ينكـرون كـل صـورة مـن صـور التجديـد، ولا يدورون إلا في فلك المقالات المنقولة عن الأئمة، فقد وُجدت طائفـة مـن المنتسـبين إلى العمل الإسلامي تفتح الباب في هذا على مصراعيه، وتنـادى بالتجديـد لا في الظنيـات وموارد الاجتهاد، بل في الثوابت والقطعيات المحكمات، وتكـاد تهـدر دور النقـل مـع العقل؛ تحت دعوى التجديد والاستنارة ونحوه.

والمقصود في هذا الفصل أن نميز الثوابت من المتغيرات، والقطعيات من الظنيـات في ذلك كله، حتى لا نتجاوز محكمًا مقطوعًا بـه تحـت دعـوى التجديـد أو الإحيـاء، أو تتهارج صـفوفنا بسـبب الخـلاف في ظنـيٍّ متشـابه تحـت دعـوى السـلفية والتمسـك بالأصول، والمجافاة عن أهل البدع! وحتى يتـاح للعمـل الإسـلامي أن يجمـع كلمتـه حول الأصول الثابتة من الكتاب والسنة والإجماع، ويتغافر فيما وراء ذلك مـن مجـاري الاجتهاد ومسائل النظر؛ ليفرغ لإدارة المعركة مع العلمانيين وخصوم الإسـلام في هـذا العصر، وقد استباحوا بيضـة الإسـلام، ونـــزلوا بمحِـلات المسـلمين كافـة، وأصـبح جهادهم متعينًا على كل من يجد في قلبه حرمة لدينه ويرجو وقارًا لله ورسوله!

وقد قسمنا الدراسة في هذا الفصل إلى هذين المبحثين:

المبحث الأول: الثوابت والمتغيرات في منهج التلقي.

المبحث الثاني: الثوابت والمتغيرات في قضية الاجتهاد والتقليد.

المبحث الأول

الثوابت والمتغيرات في منهج التلقي

تتضمن مسائل هذا الباب عددًا من الثوابت والقطعيات، وأخرى من الظنيات وموارد الاجتهاد، وفيما يلي محاولة لإيجاز القول في هذه وفي تلك، وذلك في المطلبين الآتيين:

المطلب الأول

الثوابت في هذه القضية

هناك عدد من الثوابت في هذه القضية، يمكن إيجاز أهمها فيما يلي:

أن الشريعة موضوعة لإخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبدًا لمولاه:

وأن حقيقة الشرع اتباع الرسل والدخول تحت طاعتهم، وأن اتباع أهل العلم إنما يكون من جهة علمهم بالشريعة وقيامهم بحجتها وحكمهم بأحكامها، وأن تحكيم الرجال من غير التفات إلى كونهم وسائل لمعرفة الحكم الشرعي ضلال وبهتان، وأن من عُلم أو غلب على الظن خطؤه فيما أفتى به فلا يُتَّبَعُ في ذلك.

أن الحجة القاطعة والحكم الأعلى إنما هو الشرع لا غير:

فلا تحل معارضته بذوق أو وجد أو رأي أو قياس ونحوه، وأن قواطع الشريعة تتمثل في نص الكتاب والسنة وإجماع الأمة، فالأصول الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع هي بمنزلة الدين المشترك بين الأنبياء، ليس لأحد خروج عليها أو منازعة فيها، ومن دخل

فيها كان من أهل الإسلام المحض؛ وهم أهل السنة والجماعة؛ لأن دين الإسلام مبني على اتباع الكتاب والسنة وما اتفقت عليه الأمة، فهذه الثلاثة هي أصول معصومة.

قال الشافعي -رحمه الله-: «لم أسمع أحدًا نسبته إلى العلم، أو نسبته العامة إلى عالم، أو نسب نفسه إلى علم يحكي خلافًا في أن فرض الله تعالى اتباع أمر رسول الله ﷺ والتسليم لحكمه، فإن الله تعالى لم يجعل لأحد بعده إلا اتباعه، وأنه لا يلزم قول رجل قال إلا بكتاب الله ﷻ أو سنة رسوله ﷺ، وأن ما سواهما تبع لهما، وأنَّ فَرْضَ الله علينا وعلى من بعدنا وقبلنا قبول الخبر عن رسول الله ﷺ»[1].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فدين المسلمين مبني على اتباع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما اتفقت عليه الأمة، فهذه الثلاثة هي أصول معصومة»[2].

ويقول في موضع آخر: «وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسنة، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان، أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن، لا برأيه ولا ذوقه ولا معقوله، ولا قياسه ولا وَجْدِهِ»[3]، إلى أن يقول: «فكان القرآن هو الإمام الذي يقتدى به؛ ولهذا لا يوجد في كلام أحد من السلف أنه عارض القرآن بعقل ورأي وقياس، ولا بذوق ووجد ومكاشفة، ولا قال قط: قد تعارض في هذا العقل والنقل، فضلًا عن أن يقول: فيجب

(١) إيقاظ الهمم: ١٠٤.
(٢) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ١٦٤.
(٣) المرجع السابق: ١٣/ ٢٧، ٢٨.

تقديم العقل، والنقل -يعني القرآن والحديث وأقوال الصحابة والتابعين- إما أن يفوض، وإما أن يؤول»[1].

الأصل في فهم الكتاب والسنة، وما ورد فيهما من الألفاظ الشرعية، أن يكون على منهج السلف الصالح:

وأن ما عرف تفسيره منهما من جهة النبي ﷺ أو أصحابه.. لم يحتج معه إلى بيان آخر، وأن تأولهما على ظاهرهما بلا دلالة من رسول الله ﷺ، أو أحد من أصحابه، هو تأويل أهل البدع؛ ولهذا قال ﷺ في بيان الفرقة الناجية: «**ما أنا عليه وأصحابي**»، ولم يقل: ما أنا عليه فقط، وقال: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**»، ولم يقل: عليكم بسنتي فقط، وقال تعالى: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ**﴾[2]، فأضاف إلى مشاقة الرسول اتباع غير سبيل المؤمنين؛ وذلك لأن مشاقة الرسول إنما تظهر بمخالفة سنة المؤمنين، واتباع منهج غير منهج السلف الصالح.

قال أحمد بن حنبل: «أصول السنة عندنا التمسك بما عليه أصحاب رسول الله ﷺ، والاقتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة فهي ضلالة»[3].

وقال أيضا: «وأن تأويل من تأول القرآن، بلا سنة تدل على معنى ما أراد الله منه، أو أثر من أصحاب رسول الله ﷺ، ويعرف ذلك بما جاء عن النبي ﷺ أو عن أصحابه،

(١) شرح أصول أهل السنة والجماعة، للالكائي: ١/ ١٥٦.
(٢) النساء: ١١٥.
(٣) المرجع السابق.

فهم شاهدوا النبي ﷺ وشهدوا تنـزيله، وما قصه الله له في القرآن وما عني به، وما أراد أخاص هو أم عام، فأما من تأوله على ظاهره بلا دلالة من رسول الله ﷺ ولا أحد مـن أصحابه، فهذا تأويل أهل البدع»[1].

وقال الأوزاعي -رحمه الله-: «اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا، واسلك سبيل سلفك الصالح؛ فإنه يسعك ما وسعهم»[2].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وما ينبغي أن يُعلم أن الألفاظ الموجودة في القـرآن والحديث، إذا عرف تفسيرها وما أريـد بهـا مـن جهـة النبـي ﷺ، لم يحـتج في ذلـك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم»[3].

وقال سبحانه في موضع آخر: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[4].

فجعل التابعين لهم بإحسان مشاركين لهم فيما ذكر من الرضوان والجنة، وقـد قـال تعـالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾[5]، وقـال تعـالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ

(١) الإيمان، لابن تيمية: ٣٧٣، ٣٧٤.
(٢) شرح أصول أهل السنة والجماعة، للالكائي: ١/ ١٥٤.
(٣) الإيمان لابن تيمية: ٢٧١- ٢٧٣.
(٤) التوبة: ١٠٠.
(٥) الأنفال: ٧٥.

سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2].

فمن اتبع السابقين الأولين كان منهم، وهم خير الناس بعد الأنبياء، فإن أمة محمد خير أمة أخرجت للناس، وأولئك خير أمة محمد، كما ثبت في الصحاح من غير وجه أن النبيﷺ قال: «**خير القرون القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**».

ولهذا كان معرفة أقوالهم في العلم والدين وأعمالهم خيرًا وأنفع من معرفة أقوال المتأخرين وأعمالهم في جميع علوم الدين وأعماله؛ كالتفسير، وأصول الدين وفروعه، والزهد، والعبادة، والأخلاق، والجهاد، وغير ذلك، فإنهم أفضل ممن بعدهم كما دل عليه الكتاب والسنة، فالاقتداء بهم خير من الاقتداء بمن بعدهم، ومعرفة إجماعهم ونزاعهم في العلم والدين خير وأنفع من معرفة ما يذكر من إجماع غيرهم ونزاعهم؛ وذلك أن إجماعهم لا يكون إلا معصومًا، وإذا تنازعوا فالحق لا يخرج عنهم فيمكن طلب الحق في بعض أقاويلهم، ولا يحكم بخطأ قول من أقوالهم حتى يعرف دلالة الكتاب والسنة على خلافه، قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[3] [4].

أن صحيح المنقول لا يعارض صريح المعقول:

وأن دور العقل مع النقل كدور العامي مع المجتهد، بل هو دونه بكثير؛ لأن العامي

(١) الحشر: ١٠.

(٢) الجمعة: ٣

(٣) النساء: ٥٩.

(٤) مجموع الفتاوى: ١٣/ ٢٣ - ٢٥.

يمكن أن يصبح عالمًا بالتعلم، ولا يمكـن للعـالم أن يكـون نبيًـا أو رسـولًا بحـال مـن الأحوال، فلا يصح تقديم العقل على النقل، فيما يـوهم التعـارض، بـدعوى أن العقـل يشهد بضد ما دل عليه النقل، والعقل أصل النقل فإذا عارضه قدمنا العقل. فإن هذا لا يكون قط، بل إذا كان النقل صحيحًا فالذي يدعي أنه معقول إنما هو مجهول، ولو حقق النظر لظهر ذلك، وإذا كان النقل غير صحيح فإنه لا يصلح للمعارضة.

ونحن بهذا لا ننكر دور العقل فهو مناط التكليف، وهو كما يقول شـيخ الإسـلام ابـن تيمية: «شرط في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلـم والعمـل، لكنـه ليس مستقلًّا بذلك، لكنه غريزة في النفس وقوة فيها، بمنـزلة قوة البصر التي في العين، فـإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نـور الشـمس والنـار، وإن انفـرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجـز وحـده عـن دركهـا، وإن عـزل بالكليـة كانـت الأقـوال والأفعال مع عدمه أمورًا حيوانية، قد يكون فيها محبة ووجد وذوق، كما قد يحصل للبهيمة، فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصة، والأقوال المخالفة للعقل باطلة، والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه، لم تأت بما يعلم بالعقل امتناعه»[1].

أن حديث الآحاد وإن كان الأصل فيه أنه يفيد الظن، ولكـن إذا تلقتـه الأمة بالقبول والتصديق، أو احتـف بـه من القـرائن ما يوجـب العلـم، أو اتفقت الأمة على العمل به؛ فإنه يفيد العلم القطعي:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالخبر الذي تلقاه الأئمة بالقبول؛ تصديقًا له أو عملًا بموجبه، يفيد العلم عند جماهير الخلف والسلف، وهذا في معنى المتواتر»[2].

(١) مجموع الفتاوى: ٣/ ٣٣٨، ٣٣٩.

(٢) المرجع السابق: ١٨/ ٤٨.

ويقول في موضع آخر: «وخبر الواحد المتلقى بالقبول يوجب العلم عند جمهور العلماء، من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، وهو قول أكثر أصحاب الأشعري؛ كالإسفراييني وابن فورك، فإنه وإن كان في نفسه لا يفيد إلا الظن، لكن لما اقترن به إجماع أهل العلم بالحديث على تلقيه بالتصديق.. كان بمنزلة إجماع أهل العلم بالفقه على حكم، مستندين في ذلك إلى ظاهر أو قياس أو خبر واحد، فإن ذلك الحكم يصير قطعيًّا عند الجمهور، وإن كان بدون الإجماع ليس بقطعي؛ لأن الإجماع معصوم، فأهل العلم بالأحكام الشرعية لا يجمعون على تحليل حرام ولا تحريم حلال، كذلك أهل العلم بالحديث لا يجمعون على التصديق بكذب ولا التكذيب بصدق، وتارة يكون علم أحدهم لقرائن تحتف بالأخبار توجب لهم العلم، ومن علم ما علموه حصل له من العلم ما حصل لهم»[1].

ويقول ابن أبي العز في شرحه على الطحاوية: «وخبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول؛ عملاً به وتصديقًا له.. يفيد العلم اليقيني عند جماهير الأمة، وهو أحد قسمي المتواتر، ولم يكن بين سلف الأمة في ذلك نزاع»[2].

أن الإجماع منه ما هو قطعي ومنه ما هو ظني:

فحيث جزمنا بانتفاء المخالف فذلك القطعي، وحيث لم نقطع بانتفائه فذلك الظني وهو ما يسمى بالإجماع الإقراري والاستقرائي، وهو الذي عبر عنه أهل العلم بقولهم: لا نعلم لذلك مخالفًا، ودلالة الأول قطعية، ودلالة الثاني ظنية.

(١) المرجع السابق: ١٨/ ٤١.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية: ٣٣٩، ٣٤٠.

قال شيخ الإسلام: «والإجماع نوعان: قطعي؛ فهذا لا سبيل إلى أن يعلم إجماع قطعي على خلاف النص، وأما الظني؛ فهو الإجماع الإقراري والاستقرائي، بأن يستقرئ أقوال العلماء فلا يجد في ذلك خلافًا، أو يشتهر القول في القرآن ولا يَعلم أحدًا أنكره، فهذا الإجماع؛ وإن جاز الاحتجاج به، فلا يجوز أن تدفع النصوص المعلومة به؛ لأن هذا حجة ظنية لا يجزم الإنسان بصحتها، فإنه لا يجزم بانتفاء المخالف، وحيث قطع بانتفاء المخالف فالإجماع قطعي، وأما إذا كان يظن عدمه ولا يقطع به فهو حجة ظنية»[1].

القياس الصحيح حجة معتبرة في تقرير الأحكام:

وهذا الذي عليه جماهير علماء المسلمين من الأئمة الأربعة وغيرهم، وهو في المرتبة الرابعة في ترتيب الأدلة الشرعية؛ أي: بعد الكتاب والسنة والإجماع، وقد دل على حجيته الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وعمل الأئمة، ولم يخالف في ذلك إلا الظاهرية والنظامية وبعض فرق الشيعة.

والقول بحجية القياس من ضرورات خلود الشريعة وصلاحيتها لكل زمان ومكان؛ لأن النصوص محدودة ومتناهية، ووقائع الناس وأقضياتهم غير محدودة ولا متناهية، فكان في معرفة الأمثال، ورد النظير إلى النظير، ما يكفل شمول ما يتناهى من النصوص لما لا يتناهى من الحوادث، ويكشف عن حكم الشريعة فيما يتجدد من الحوادث والأقضيات.

(١) مجموع الفتاوى: ١٩/ ٢٦٧، ٢٦٨.

قال المزني: «الفقهاء من عصر رسول الله ﷺ إلى يومنا وهلمَّ جرًّا، استعملوا المقاييس في الفقه في جميع الأحكام في أمر دينهم، قال: وأجمعوا بأن نظير الحق حق، ونظير الباطل باطل، فلا يجوز لأحد إنكار القياس؛ لأنه التشبيه بالأمور والتمثيل عليها»[1].

(١) إعلام الموقعين: ١/ ٢٠٥.

المطلب الثاني

المتغيرات في هذه القضية

وهناك عدد من الظنيات وموارد الاجتهاد فيما يتعلق بهذه القضية نذكر منها:

ماهية الإجماع الذي يعتبر من أصول الشريعة الثابتة:

هل هو إجماع الصحابة فقط؟ أم إجماع السلف (القرون الثلاثة)؟ أم إجماع أهل المدينة؟ أم إجماع المجتهدين في أي عصر من العصور؛ كما هو رأي الجمهور؟

حكم منكر الإجماع:

منكر الإجماع من أهل العلم من ذهب إلى تكفيره، ومنهم من نازع في ذلك، وفصَّل شيخ الإسلام ابن تيمية؛ فقال: «وقد تنازع الناس في مخالف الإجماع، هل يكفر؟ على قولين، والتحقيق أن الإجماع المعلوم يكفر مخالفه كما يكفر مخالف النص بتركه، لكن هذا لا يكون إلا فيما عُلم ثبوت النص به، وأما العلم بثبوت الإجماع في مسألة لا نصَّ فيها فهذا لا يقع، وأما غير المعلوم فيمتنع تكفيره»[1].

الأدلة المختلف عليها عند الأصوليين:

وهي: الاستحسان، والاستصحاب، والمصالح المرسلة، والعرف، وسد الذرائع، وشرع من قبلنا، فقد أخذ بها قوم، ولم يعول عليها آخرون، وتفاوت الآخذون بها ما بين موسع ومضيق، وكل ذلك من الظنيات وموارد الاجتهاد.

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٩/ ٢٦٩، ٢٧٠.

تقديم بعض هذه الأدلة على بعض:

يقدم الإمام أحمد -رحمه الله- الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف على العمل بالقياس، وقد يأخذ بذلك غيره في بعض المسائل، ولكنه لا يلتزمه قاعدة مضطردة مثله، وفتوى الصحابي قد ينظر إليها مالك على أنها من جنس اتباع السنة؛ ولذلك يقدمها على بعض أخبار الآحاد، ولكن الأخذ بها عند الشافعي وأبي حنيفة تقليد لا يصار إليه إلا حيث لا توجد سنة.

ويرى مالك أن إجماع أهل المدينة حجة، ويقدمه على العمل ببعض أخبار الآحاد، باعتبار أن عمل أهل المدينة يمثل سنة مأثورة مشهورة، والسنة المشهورة تقدم على أخبار الآحاد، وكان شيخه ربيعة يقول: ألف عن ألف خير من واحد عن واحد، وبقية الأئمة ينازعونهم في ذلك.

وإذا عارض القياس خبر الآحاد فإن الجمهور على تقديم الخبر على القياس؛ لأن الخبر نص والقياس اجتهاد، والنص مقدم على الاجتهاد، ونسب إلى مالك ﷺ القول بتقديم القياس، وفصَّل الحنفية فقالوا بتقديم الخبر على القياس إذا كان الراوي معروفًا بالرواية والفقه، أما إذا كان معروفًا بالرواية دون الفقه فإن القياس يقدم على خبره، إلا إذا كان الخبر موافقًا لقياس آخر، فلا يترك الخبر إذن إلا لضرورة مخالفته لكل قياس.

ووجه ما ذهبوا إليه في هذا التفصيل أن النبي ﷺ أوتي جوامع الكلم، فلا يضبط حديثه ولا يحيط بمعانيه إلا من كان له حظ من الفقه والتمرس بالاجتهاد، وقد كانت الرواية بالمعنى شائعة، فإذا لم يكن الراوي فقيهًا، وكان ما رواه مخالفًا للقياس لم يترجح

نقل الخبر نقلاً صحيحًا، وقبوله حينئـذ يجعلـه ناسـخًا للنصـوص الدالـة عـلى اعتبـار القياس، ومعارضًا للإجماع الذي يؤيدها.

أما إذا كان الراوي ليس معروفًا لا بالرواية ولا بالفقه، فإن ظهر حديثـه المخـالف للقياس قبل انقراض الصحابة، وقبلوه أو سكتوا عـن الطعـن فيـه، فهـو مقبـول، وإن ردُّوه فهو مردود، وإن قبله بعضٌ وردَّه بعضٌ قُبـل إن وافـق قياسًـا ورواه عـن راويـه ثقات، أما إن ظهر بعد انقراض عصر الصحابة؛ أي: في عصر التابعين أو تابعيهم، قُبـل إن وافق قياسًا، فإن ظهر بعد ذلك لم يعول عليه؛ لعدم الاعتداد بها بعد القرون الثلاثة.

هذا؛ وإن ما ذكرنا من مـوارد الاجتهـاد في بعـض التفصـيلات المتعلقـة بمصـادر التشريع كان مجرد أمثلة، ويستطيع الباحث أن يقف من ذلـك عـلى الكثـير إن انتصـب للاستقراء والاستقصاء، ولكن الخوض فيما هو أكثر من ذلـك يخرجنـا عـن الموضـوع الأصلي لهذه الدراسة، لاسيما وأن أغلب هذه التفصيلات إنما يهتم بشأنها ويخاطَـب بهـا المتخصصون من طلبة العلم في الدراسات الشرعية، ولا مـدخل في ذلـك للعامـة، ولا لأشباه العامة، وهم أغلب من يتوجه إليهم الخطاب على صعيد الحركة الإسلامية.

المبحث الثاني

الثوابت والمتغيرات في قضية الاجتهاد والتقليد

في مسائل هذا الباب عدد من الثوابت وأخرى من المتغيرات، نوجز بيان أهمها في المطالب التالية:

المطلب الأول

الثوابت في هذه القضية

أن محالَّ الاجتهاد هي كل ما لم يرد فيه دليل قاطع من نص صحيح أو إجماع صريح:

أما ما كان موضعًا لدليل قاطع، وما اتفقت عليه الأمة من جليات الشرع، فلا مساغ فيه للاجتهاد، ولا يحل لأحد مخالفته كائنًا من كان، والواجب فيه هو الاتباع والإذعان.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[2].

(١) الأحزاب: ٣٦.

(٢) النساء: ١١٥.

قال الغزالي في المستصفى: «والمجتهَد فيه كُلُّ حكم شرعي ليس فيه دليل قطعي، وإنما نعني بالمجتهَد فيه ما لا يكون المخطئ فيه آثمًا، ووجوب الصلوات الخمس والزكوات، وما اتفقت عليه الأمة من جليات الشرع، فيها أدلة قطعية يأثم فيها المخالف، فليس ذلك محل الاجتهاد»[1].

أنه لا عصمة لأحد بعد النبي ﷺ إلا لإجماع الأمة:

وأن كل الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، والمقالات في هذا مستفيضة عن الأئمة.

أنه لا إثم على المجتهد في هذه المسائل وإن اخطأ:

قال ﷺ: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر**»[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومذهب أهل السنة والجماعة أنه لا إثم على من اجتهد وإن أخطأ»[3].

ويقول الآمدي في الإحكام: «اتفق أهل الحق من المسلمين على أن الإثم محطوط عن المجتهدين في الأحكام الشرعية»[4].

(١) المستصفى للغزالي: ٢/ ٣٥٤.

(٢) فتح الباري: ١٣/ ٣١٨.

(٣) مجموع الفتاوى: ١٩/ ١٢٣.

(٤) الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي: ٤/ ٢٤٤.

ويقول ابن القيم -رحمه الله-: «وأما الحكم المؤول، فهو أقوال المجتهدين المختلفة التي لا يجب اتباعها، ولا يكفر ولا يفسق من خالفها، فإن أصحابها لم يقولوا: هذا حكم الله رسوله، بل قالوا: اجتهدنا برأينا، فمن شاء قبله، ومن شاء لم يقبله، ولم يلزموا به الأمة، قال أبو حنيفة: هذا رأيي، فمن جاءني بخير منه قبلناه، ولو كان هو عين حكم الله لما ساغ لأبي يوسف ومحمد وغيرهما مخالفته فيه.

وكذلك مالك استشاره الرشيد أن يحمل الناس على ما في الموطأ، فمنعه من ذلك، وقال: لقد تفرق أصحاب رسول الله ﷺ في البلاد، وصار عند كل قوم علم غير ما عند الآخرين، وهذا الشافعي ينهى أصحابه عن تقليده، ويوصيهم بترك قوله إذا جاء الحديث بخلافه.

وهذا الإمام أحمد ينكر على من كتب فتاواه ودوَّنها، ويقول: لا تقلدني، ولا تقلد فلانًا ولا فلانًا، وخذ من حيث أخذوا، ولو علموا رضي الله عنهم أن أقوالهم يجب اتباعها لحرموا على أصحابهم مخالفتهم، ولما ساغ لأصحابهم أن يفتوا بخلافهم في شيء، ولما كان أحدهم يقول القول ثم يفتي بخلافه، فيروى عنه في المسألة القولان والثلاثة وأكثر من ذلك.

فالرأي والاجتهاد أحسن أحواله أن يسوغ اتباعه، والحكم المنزل لا يحل لمسلم أن يخالفه ولا يخرج عنه»[1].

عدم الإنكار على المخالف في المسائل الاجتهادية:

فهذه المسائل لا تنكر باليد، ولا يقدح بها في دين المخالف أو عدالته، وإنما يتكلم

(١) الروح، لابن القيم: ٢٧٦، ٢٧٧.

فيها بالبينات والحجج العلمية، فمن بان له رجحان أحد القولين عمل به؛ سـواء أكـان ذلك باجتهاد إن كان من أهله، أو بتقليد سائغ إن كان من العامة.

يقول النووي -رحمه الله- في معرض شرحه لحديث مسـلم: «**مـن رأى مـنكم منكـرًا فليغيره بيده**»، وبيان مراتب الناس في هذا الإنكار-: «ثم العلماء لا ينكرون مـا أجمـع عليـه الأئمة، وأما المختلف فيه فلا إنكار فيه؛ لأن على أحد المذهبين كل مجتهد مصيب، وهذا هو المختار عند كثير من المحققين أو أكثرهم، وعلى المذهب الآخر المصـيب واحـد، والمخطـئ غير متعين لنا، والإثم مرفوع عنـه، ولكـن إن ندبـه عـلى جهـة النصـيحة إلى الخـروج مـن الخلاف، فهو حسن محبوب مندوب إلى فعله، فإن العلماء متفقون على الحـث عـلى الخـروج من الخلاف إذا لم يلزم منه إخلال بسنة، أو وقوع في خلاف آخر»[1].

والمقصود بالخروج من الخلاف في هذا المقام هـو العمـل بـالأحوط؛ أي: الإتيـان بالفعل على وجه يكون موضع اتفاق الجميع.

ويذكر الغزالي في الإحياء أن ما فيه الحسبة: «كـل منكـر موجـود في الحـال، ظـاهر للمحتسب بغير تجسس، معلوم كونه منكرًا بغير اجتهاد»[2].

ويزيد الأمر جلاء عند حديثه عن الشرط الرابع للمنكر، فيقول: «أن يكـون كونـه منكرًا معلومًا بغير اجتهاد، فكل ما هو محلُّ اجتهاد فلا حسبة فيـه، فلـيس للحنفـي أن ينكر على الشافعي أَكْلَهُ الضَّبَّ والضَّبع، ومتروكَ التسمية، ولا للشافعي أن ينكـر عـلى

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ٢/ ٢٣.
(٢) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٢/ ٣٥٢.

الحنفي شربَه النبيذَ الذي ليس بمسكر، وتناولَه ميراثَ ذوي الأرحام، وجلوسَه في دار أخذها بشفعة الجوار، إلى غير ذلك من مجاري الاجتهاد»[1].

ويجعل السيوطي في كتابه «الأشباه والنظائر» هذا المعنى قاعدةً من قواعد الفقه الكلية، فيقول: «لا يُنْكَر المختلف فيه، وإنما يُنْكَرُ المجمع عليه»[2]، ويستثني صورًا يُنكَر فيها المختلف فيه:

أحدها: أن يكون ذلك المذهب بعيد المأخذ بحيث ينقض، ومن ثَمَّ وجب الحد على المرتهن بوطء المرهونة، ولم ينظر لخلاف عطاء.

الثانية: أن يترافع فيه لحاكم فيحكم بعقيدته؛ ولهذا يحد الحنفي بشرب النبيذ؛ إذ لا يجوز للحاكم أن يحكم بخلاف معتقده.

الثالثة: أن يكون للمنكر فيه حق؛ كالزوج يمنع زوجته من شرب النبيذ إذا كانت تعتقد إباحته، وكذلك الذميَّة على الصحيح[3].

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن تقليد بعض العلماء في مسائل الاجتهاد، فهل ينكر عليه أو يهجر؟ وكذلك من يعمل بأحد القولين، فأجاب: «الحمد لله، مسائل الاجتهاد من عمل فيها بقول بعض العلماء لم ينكر عليه ولم يهجر، ومن عمل بأحد

(١) المرجع السابق: ٢/ ٣٥٢- ٣٥٤.
(٢) الأشباه والنظائر للسيوطي: ١٥٨.
(٣) الأشباه والنظائر للسيوطي: ١٥٨.

القولين لم ينكر عليه، فإن كان الإنسان يظهر له رجحان أحد القولين عمل به، وإلا قلد بعض العلماء الذين يعتمد عليهم في بيان أرجح القولين»[1].

ويقول ابن القيم -رحمه الله-: «والصواب؛ ما عليه الأئمة، أن مسائل الاجتهاد ما لم يكن فيها دليل يجب العمل به وجوبًا ظاهرًا؛ مثل: حديث صحيح لا معارض له من جنسه فيسوغ فيها- إذا عدم فيها الدليل الظاهر الذي يجب العمل به- الاجتهاد لتعارض الأدلة أو لخفاء الأدلة فيها»[2].

ونفس هذا النص تقريبًا مثبتٌ في الفتاوى لابن تيمية بحروفه[3].

ويقول ابن قدامة: «لا ينبغي لأحد أن ينكر على غيره العمل بغير مذهبه، فإنه لا إنكار في المجتهدات».

ويقول ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم: «والمنكر الذي يجب إنكاره ما كان مجتمعًا عليه، فأما المختلف فيه، فمن أصحابنا من قال: لا يجب إنكاره على من فعله مجتهدًا أو مقلدًا لمجتهد تقليدًا سائغًا، واستثنى القاضي في الأحكام السلطانية ما ضعف فيه الخلاف»[4].

ويقرر هذا المعنى -أيضًا- الشيخ محمد بن عبد الوهاب عند حديثه عن التوسل؛

(١) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٢٥٧.
(٢) إعلام الموقعين، لابن تيمية: ٢/ ٣٠٠.
(٣) مجموع الفتاوى: ٢٢/ ٣٤٤، ٣٤٥.
(٤) نقلًا عن الاختلافات الفقهية، د. محمد أبو الفتح البيانوني: ٦٨.

فيقول: «فكون بعض العلماء يرخص بالتوسل بالصالحين، وبعضهم يخصُّه بالنبي ﷺ وأكثر العلماء ينهى عن ذلك ويكرهه، فهذه المسألة من مسائل الفقه، ولو كان الصواب عندنا قول الجمهور: إنه مكروه، فلا ننكر على من فعله، ولا إنكار في مسائل الاجتهاد»[1](*).

أن الاختلاف في الفروعيات ليس مقبولاً بإطلاق:

بل منه ما هو مقبول، ومنه ما هو مذموم، فما أقام الله به الحجة في كتابه، أو على لسان نبيه منصوصًا بيِّنًا لا يحل الاختلاف فيه لمن علمه، والاختلاف في ذلك مذموم، وما كان من ذلك يحتمل التأويل ويُدرك قياسًا فهو من مسائل الاجتهاد التي يقبل فيها الخلاف، ولا يضيق فيها على المخالف، ومن هذا يبدو خطأ من نازع في أن بعض الخلاف قد يكون توسعة ورحمة، وأطلق القول بأن الخلاف شر كله وعذاب كله؛ لأن الشر ليس في مجرد جريان الخلاف في الفروعيات، وإنما فيما قد يفضي إليه هذا الاختلاف من البغي والتعصب والتفرق المذموم، وأما مع بقاء العصمة والألفة وأخوة الدين فإنه توسعة ورحمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والنزاع في الأحكام قد يكون رحمة إذا لم يفض إلى شر عظيم من خفاء الحكم؛ ولهذا صنف رجل كتابًا سماه كتاب «الاختلاف»، فقال

(١) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، القسم الثالث، الفتاوى: ٦٨.

(*) التوسل المختلف فيه في هذا المقام هو مثل قول القائل: اللهم إني أسألك بجاه نبيك ﷺ أو بجاه الصالحين من عبادك كذا وكذا، وهو مختلف بطبيعة الحال عن التوجه بالدعاء إلى الميت مباشرة؛ الذي يعد شركًا بالإجماع.

أحمد: سمه كتاب «السعة»، ونُقل عن بعض العلماء أنه كان يقول: إجماعهم حجة قاطعة، واختلافهم رحمة واسعة»[1].

وقال الجصاص في أحكام القرآن: «قد يختلف المجتهدان في نفقات الزوجات، وقيم المختلفات، وأروش كثير من الجنايات، فلا يلحق واحدًا منهما لوم ولا تعنيف، وهذا حكم مسائل الاجتهاد، ولو كان هذا الضرب من الاجتهاد مذمومًا، لكان للصحابة من ذلك الحظ الأوفر، ولما وجدناهم مختلفين في أحكام الحوادث، وهم مع ذلك متواصلون، يسوغ كل واحد منهم لصاحبه مخالفته من غير لوم ولا تعنيف، فقد حصل منهم الاتفاق على تسويغ هذا الضرب من الاختلاف، وقد حكم الله تعالى بصحة إجماعهم، وثبوت حجته في مواضع كثيرة من كتابه، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**اختلاف أمتي رحمة**»، وقال: «**لا تجتمع أمتي على ضلال**».

فثبت بذلك أن الله تعالى لم ينهنا بقوله: ﴿**وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾[2] عن هذا الضرب من الاختلاف، وأن النهي منصرف إلى أحد وجهين: إما في النصوص، أو فيما قد أقيم عليه دليل عقلي أو سمعي لا يحتمل إلا معنى واحدًا، وفي فحوى الآية ما يدل على أن المراد هو الاختلاف والتفرق في أصول الدين لا في فروعه، وما يجوز ورود العبارة بالاختلاف فيه، وهو قوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ**﴾[3].

يعني بالإسلام، وفي ذلك دليل على أن التفرق المذموم المنهي عنه في الآية هو في أصول الدين والإسلام، لا في فروعه، والله أعلم»[4].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٤/ ١٥٩، ١٦٠.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

(٣) آل عمران: ١٠٣.

(٤) أحكام القرآن، للجصاص: ٢/ ٣١٤، ٣١٥.

وفي القرار الذي أصدره المجمع الفقهي لمكة المكرمة في دورته العاشرة المنعقدة في صفر ١٤٠٨هـ برئاسة الشيخ عبد العزيز بن باز، وهو ممهور بتوقيع اثني عشر عالمًا من أكابر علماء الأمة، ما يلي:

وأما الثاني: وهو اختلاف المذاهب الفقهية في بعض المسائل؛ فله أسباب علمية اقتضته، ولله سبحانه في ذلك حكمة بالغة، ومنها الرحمة بعباده وتوسيع مجال استنباط الأحكام من النصوص، ثم هي بعد ذلك نعمة وثروة فقهية تشريعية، تجعل الأمة الإسلامية في سعة من أمر دينها وشريعتها، فلا تنحصر في تطبيق شرعي واحد حصرًا لا مناص لها منه إلى غيره، بل إذا ضاق بالأمة مذهب أحد الأئمة الفقهاء في وقت ما أو في أمر ما، وجدت في المذاهب الأخرى سعة ورفقًا ويسرًا؛ سواء أكان ذلك في شؤون العبادة، أم في المعاملات وشؤون الأسرة والقضاء والجنايات، على ضوء الأدلة الشرعية.

فهذا النوع الثاني من اختلاف المذاهب - وهو الاختلاف الفقهي- ليس نقيصة ولا تناقضًا في ديننا، ولا يمكن أن لا يكون، فلا يوجد أمة فيها نظام تشريعي كامل بفقه واجتهاد ليس فيها هذا الاختلاف الفقهي الاجتهادي، فأين النقيصة في وجود هذا الاختلاف المذهبي الذي أوضحنا ما فيه من الخير والرحمة؟! وأنه في الواقع نعمة ورحمة من الله بعباده المؤمنين، وهو في الوقت ذاته ثروة تشريعية عظمى، ومزية جديرة بأن تتباهى بها الأمة الإسلامية.

أن زلة العالم لا يُعتد بها، ولا يبنى عليها:

لأنها لم تصدر عن اجتهاد معتبر، ولا هي من مسائله، وإنما كان صدورها لمجرد خفاء الدليل أو لعدم مصادفته، كما لا يشنع عليه بها، ولا ينتقص من أجلها أو يعتقد فيه تعمد

المخالفة، وبذلك يتم الجمع بين أمرين لا تقل أهمية أحدهما عن الآخر؛ وهما: النصيحة لله ولرسوله وكتابه ودينه، وتنزيهه عن الأقوال الباطلة المناقضة بما بعث الله به رسوله من الهدى والبينات، ومعرفة فضل الأئمة الأعلام ومقاديرهم وحقوقهم ومراتبهم، فلا نؤثمهم ولا نعصمهم، ولا نسلك بهم مسلك الرافضة في عليٍّ، ولا مسلكهم في الشيخين، بل نسلك مسلك علي والشيخين أنفسهم فيمن قبلهم من الصحابة، فإنهم لا يؤثمونهم ولا يعصمونهم، ولا يقبلون كل أقوالهم ولا يهدرونها، ولا منافاة بين هذين الأمرين لمن شرح الله صدره للإسلام.

يقول الشاطبي: «إن زلة العالم لا يصح اعتمادها من جهة، ولا الأخذ بها تقليدًا له؛ وذلك لأنها موضوعة على المخالفة للشرع، ولذلك عدت زلة، وإلا فلو كانت معتدًّا بها لم يجعل لها هذه الرتبة، ولا نسب إلى صاحبها الزلل فيها، كما أنه لا ينبغي أن ينسب صاحبها إلى التقصير، ولا أن يشنع عليه بها، ولا ينتقص من أجلها، أو يعتقد فيه الإقدام على المخالفة بحتًا، فإن هذا كله خلاف ما تقتضي رتبته في الدين»[1].

ويقول ابن القيم -رحمه الله-: «ومن له علم بالشرع والواقع، يعلم قطعًا أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثار حسنة، وهو من الإسلام وأهله بمكان، قد تكون منه الهفوة والزلة، هو فيها معذور، بل ومأجور لاجتهاده، فلا يجوز أن يتبع فيها، ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته ومنزلته من قلوب المسلمين»[2].

(١) الموافقات للشاطبي: ٤/ ١٧٠، ١٧١.

(٢) إعلام الموقعين، لابن القيم: ٣/ ٢٩٥.

ويقول الحافظ الذهبي - في دفع العتاب عن الإمام محمد بن نصر المروزي -رحمه الله تعالى-: «ولو أننا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأً مغفورًا له، قمنا عليه وبدعناه وهجرناه، لما سلم معنا لا ابن نصر ولا ابن منده، ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى الحق، وهو أرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى ومن الفظاظة»[1].

وقال في ترجمة إمام الأئمة ابن خزيمة (٣١١هـ) -رحمه الله تعالى-: «وكتابه في التوحيد مجلد كبير، وقد تأول في ذلك حديث الصورة، فليعذر من تأول بعض الصفات، وأما السلف فما خاضوا في التأويل، بل آمنوا وكفوا وفوضوا علم ذلك إلى الله ورسوله، ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده -مع صحة إيمانه وتوخيه لاتباع الحق- أهدرناه وبدعناه، لقلَّ من يسلم من الأئمة معنا، رحم الله الجميع بمنه وكرمه»[2].

ويقول الصنعاني: «وليس أحد من أفراد العلماء إلا وله نادرة ينبغي أن تغمر في جنب فضله وتجتنب»[3].

عدم مشروعية تقليد المجتهد لغيره، في خلاف ما أداه إليه اجتهاده:

فقد اتفقوا على أنه إذا فرغ من الاجتهاد، وغلب على ظنه حكم، فلا يجوز له أن يقلد مخالفه، ويعمل بنظر غيره ويترك نظر نفسه.

(١) سير أعلام النبلاء: ١٤/ ٤٠.
(٢) المرجع السابق: ١٤/ ٣٧٤.
(٣) سبل السلام للصنعاني.

قال الغزالي في المستصفى: «وقد اتفقوا على أنه إذا فرغ من الاجتهاد، وغلب على ظنه حكم، فلا يجوز له أن يقلد مخالفه، ويعمل بنظر غيره ويترك نظر نفسه»[1].

أن الاجتهاد المعتبر شرعًا هو الصادر عن أهله:

فلا يعتبر الاجتهاد شرعًا إلا إذا صدر عن أهله، الذين اضطلعوا بمعرفة ما يفتقر إليه الاجتهاد، وإلا كان خبطًا في عماية واتباعًا للهوى، وكل اجتهاد صدر على غير هذا الوجه فلا مرية في عدم اعتباره؛ لأنه ضد الحق الذي أنزله الله.

قال الشاطبي -رحمه الله-: «الاجتهاد الواقع في الشريعة ضربان؛ أحدهما: الاجتهاد المعتبر شرعًا؛ وهو الصادر عن أهله الذين اضطلعوا بمعرفة ما يفتقر إليه الاجتهاد، وهذا هو الذي تقدم الكلام فيه، والثاني: غير المعتبر؛ وهو الصادر عمن ليس بعارف بما يفتقر الاجتهاد إليه؛ لأن حقيقته أنه رأي بمجرد التشهي والأغراض، وخبط في عماية، واتباع للهوى، فكل رأي صدر على هذا الوجه فلا مرية في عدم اعتباره؛ لأنه ضد الحق الذي أنزل الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3]، وهذا على الجملة لا إشكال فيه»[4].

---

(١) المستصفى للغزالي: ٢/ ٣٨٤.

(٢) المائدة: ٤٩.

(٣) ص: ٢٦.

(٤) الموافقات للشاطبي: ٤/ ١٦٧.

أن التقليد جائز للعاجز عن الاجتهاد:

قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾[1].

فهذه الآية نصٌّ في وجوب رجوع الجاهل إلى أهل الذكر، وسؤالهم عما لا يعلمه، وروى ابن ماجه وأبو داود وأحمد، بأسانيدهم عن ابن عباس ﷺ أن رجلًا أصابه جرح في رأسه على عهد رسول الله ﷺ، ثم أصابه احتلام، فأُمر بالاغتسال، فاغتسل؛ فكزَّ فمات! فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**قتلوه قتلهم الله! ألا سألوا إذ لم يعلموا؛ فإنما شفاء العِيِّ السؤال**»[2].

وفي رواية أبي داود أنه ﷺ قال: «**قتلوه قتلهم الله! ألا سألوا إذا لم يعلموا؛ فإنما شفاء العِيِّ السؤال**»[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والذي عليه جماهير الأمة أن الاجتهاد جائز في الجملة، والتقليد جائز في الجملة، لا يوجبون الاجتهاد على كل أحد ويحرِّمون التقليد، ولا يوجبون التقليد على كل أحد ويحرِّمون الاجتهاد، وأن الاجتهاد جائز للقادر على الاجتهاد، والتقليد جائز للعاجز عن الاجتهاد»[4].

وقال ابن قدامة: «وأما التقليد في الفروع فهو جائز إجماعًا؛ فكانت الحجة فيه

(١) النحل: ٤٣-٤٤.

(٢) سنن ابن ماجه: ١/ ١٨٩.

(٣) سنن أبي داود: ١/ ٨٢.

(٤) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٢٠٤.

الإجماع».. إلى أن قال: «وذهب بعض القدرية إلى أن العامة يلزمهم النظر في الدليل وفي الفروع أيضًا، وهو باطل بإجماع الصحابة»[1].

ويقول الرازي في المحصول: «يجوز للعامي أن يقلد المجتهد في فروع الشريعة خلافًا لمعتزلة بغداد»، ثم استدل على ذلك بقوله: «لنا وجهان؛ الأول: إجماع الأمة قبل حدوث المخالف؛ لأن العلماء في كل عصر لا ينكرون على العامة الاقتصار على مجرد أقاويلهم، ولا يلزمونهم أن يسألوهم عن وجه اجتهادهم»[2].

ويقول محمد الأمين الشنقيطي: «ولم يخالف في جواز التقليد للعامي إلا بعض القدرية، والأصل في التقليد قوله تعالى: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[3] [4].

وجوب اتباع المُقْصِر الذي لم يبلغ رتبة الاجتهاد لإمام من الأئمة:

حتى لا ينفرد بفهم ليس له فيه سلف في مسألة من المسائل، وإلا كان مبتدعًا في الدين، ومتبعًا لغير سبيل المؤمنين في هذه المسألة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[5].

(١) روضة الناظر، لابن قدامة: ٢٠٦.

(٢) المحصول في علم أصول الفقه، للرازي، تحقيق د. طه العلواني: ٢/ ق٣/ ١٠١.

(٣) التوبة: ١٢٢.

(٤) مذكرة أصول الفقه، للشنقيطي: ٣١٥.

(٥) النساء: ١١٥.

أن التقليد منه ما هو مشروع ومنه ما هو ممنوع:

فالتقليد المشروع هو عمل العامي بمذهب المجتهد دون معرفة دليله معرفة تامة، وقد قال بمشروعية هذا النوع من التقليد جمهور العلماء.

أما التقليد الممنوع فهو التقليد فيما قامت الأدلة على خلافه، أو تقليد إمام بعينه دون سواه؛ بحيث تُقبل جميع أقواله وإن خالف بعضُها الحق، وتُرد جميع أقوال غيره وإن شهدت لها النصوص وقامت على صوابها البينة، أو تقليد القادر على الاستنباط والنظر، وإلى هذه الأنواع تنصرف جميع الأدلة التي استشهد بها جمهور العلماء على بطلان التقليد(*).

(*) هذا بالنسبة للفروع، أما التقليد في الإيمان والتوحيد، فالذي عليه الأئمة الأربعة وجمهور السلف، هو صحة إيمان المقلد متى حصل له العقد الجازم والإيمان الراسخ، والأصل في ذلك أن النبي ﷺ كان يقبل الإيمان من جميع الناس حتى من لم يكن منهم أهلًا للنظر؛ كالصبيان والإماء والأعراب، وغيرهم، فلو كان النظر التفصيلي وتحصيل الأدلة واجبًا على الجميع ما أقر إيمان هؤلاء حتى تحصل لهم الأدلة، ومن ناحية أخرى فإن الاستدلال والنظر ليس هو المقصود فيه نفسه، وإنما هو طريق إلى حصول العلم وبرد الخاطر، فمن حصل له هذا الاعتقاد الذي لا شك فيه من غير دلالة قاطعة فقد صار مؤمنًا، وزال عنه كلفة طلب الأدلة.

وقد خالف في ذلك جمهور المعتزلة، فذهبوا إلى عدم صحة إيمان المقلد؛ لأنه لا يصح إيمان إلا بدليل، وهو قول مردود؛ لمخالفته لما عليه أئمة السلف وفقهاء المذاهب الأربعة، فضلًا عما يترتب عليه من القول بتكفير عوام المسلمين، وذهب كثيرٌ من المتكلمين إلى الشهادة لهذا المقلد بالإيمان، مع تفسيقه بترك الاستدلال.

قال النووي -رحمه الله- في معرض شرحه لحديث: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله**»-: «وفيه دلالة ظاهرة لمذهب المحققين والجماهير من السلف والخلف؛ أن الإنسان إذا اعتقد دين الإسلام اعتقادًا جازمًا لا تردُّدَ فيه.. كفاه ذلك، وهو مؤمن من الموحدين، ولا يجب عليه=

مشروعية دارسة الفقه على الطريقة المذهبية بشرط عدم التعصب:

وأن يترقى بعد ذلك بدارسة الفقه المقارن، والمقابلة بين مدارك الأئمة، حتى يبلغ درجة الاستقلال بالنظر، والدليل على ذلك عمل من مضى من أهل العلم، وإجماع أهل العلم المعاصرين، أو على الأقل لا يعرف لذلك مخالف من المعاصرين.

يقول الشيخ الألباني، فيما ينقله عنه محمد عيد عباسي في كتاب بدعة التعصب المذهبي: «ومن الجدير بالذكر أن هذا هو رأي أستاذنا -حفظه الله- نفسه، فقد ذكر أكثر من مرة، أن

=تعلم أدلةالمتكلمين، ومعرفة الله تعالى بها، خلافًا لمن أوجب ذلك وجعله شرطًا في كونه من أهل القبلة، وزعم أنه لا يكون له حكم المسلمين إلا به، وهذا المذهب قول كثير من المعتزلة وبعض أصحابنا المتكلمين، وهو خطأ ظاهر، فإن المراد التصديق الجازم وقد حصل؛ ولأن النبي ﷺ اكتفى بالتصديق بما جاء به ﷺ، ولم يشترط المعرفة بالدليل، فقد تظاهرت بهذا أحاديث في الصحيحين يحصل بمجموعها التواتر بأصلها والعلم القطعي»[صحيح مسلم بشرح النووي: ١/ ٢١١، ٢١٢].

وفي إرشاد الفحول للشوكاني نقلَ عن الأستاذ أبي منصور قوله: «فلو اعتقد من غير معرفة بالدليل فاختلفوا فيه، فقال الأئمة: إنه مؤمن من أهل الشفاعة؛ وإن فسق بترك الاستدلال، وبه قال أئمة الحديث، وقال الأشعري وجمهور المعتزلة: لا يكون مؤمنًا حتى يخرج فيها عن جملة المقلدين».

ثم يعقب الشوكاني على ذلك بقوله: «وما حكاه الأستاذ منصور عن أئمة الحديث من أنه مؤمن وإن فسق، فلا يصح التفسيق عنهم بوجه من الوجوه، بل مذهب سابقهم ولا حقهم الاكتفاء بالإيمان الجملي، وهو الذي كان عليه خير القرون ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، بل حرم كثير منهم النظر في ذلك وجعله من الضلالة والجهالة، ولم يخف هذا من مذهبهم حتى على أهل الأصول والفقه.

أما القول بنفي الإيمان حتى يخرج المرء عن جملة المقلدين، فيا له من قول تقشعر له الجلود، وترجف عند سماعه الأفئدة؛ لما يتضمنه من الجناية على جمهور هذه الأمة المرحومة، وتكليف لهم بما ليس في وسعهم ولا يطيقونه، وقد كفى الصحابةَ الذين لم يبلغوا درجة الاجتهاد ولا قاربوها الإيمانُ الجملي، ولم يكلفهم رسول الله ﷺ -وهو بين أظهرهم- بمعرفة ذلك، ولا أخرجهم عن الإيمان بتقصيرهم عن البلوغ إلى العلم بذلك». [إرشاد الفحول للشوكاني: ٢٦٦].

الواجب على الناس في زماننا هذا أن يبدؤوا بتعلم الفقه على طريق أحد المذاهب الأربعة، ويدرسوا الدين من كتبها، ثم يتدرجوا في طريق العلم الصحيح، بأن يختاروا كتابًا من كتب مذهبهم؛ ككتاب المجموع للنووي عند الشافعية، وكتاب فتح القدير لابن الهمام عند الحنفية، وغيرها من الكتب التي تبين الأدلة، وتشرح طريق الاستنباط، ثم يتركوا كل قول ظهر لهم ضعف دليله وخطأ استنباطه، ثم يتدرجوا خطة ثالثة بأن ينظروا في كتب المذاهب الأخرى، التي تناقش الأدلة أيضًا وتبين طريق الاحتجاج بها، ويأخذوا من هذه الكتب ما ظهر لهم صحته وصوابه، وهكذا.

فيرى شيخنا أن هذا هو السبيل الصحيح الممكن سلوكه في هذا الزمان؛ لأن سلوك السبيل الواجبة التي كان عليها السلف الصالح طفرة، غير ممكن اليوم؛ لأنه لا يوجد في الناس إلا أحد سبيلين: فإما أن يُتركوا دون تعليم ولا تفقيه ويخبطوا في دينهم خبط عشواء! وإما أن يتعلموا دينهم ويتفقهوا في أحكامه عن طريق أحد المذاهب الأربعة.

ولا شك أن هذا الطريق هو أخف ضررًا وأقل شرًّا من الطريق الأول؛ ولذلك ننصح به ونؤيده»[1].

ويقول الشيخ العباسي في موضع آخر: «والخلاصة أننا لا نمانع في الوقت الحاضر من دراسة الفقه على الطريقة المذهبية، ولكن بشرط واحد وهو عدم التعصب، فالتعصب المذهبي هو الذي نحاربه ونكرهه»[2](*).

(١) بدعة التعصب المذهبي، للشيخ محمد عيد عباسي: ٢/ ١١٢.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٦٢.

(*) لا يظهر لي وجه ما ذهب إليه الشيخان الجليلان؛ الألباني، والعباسي، من اعتبار دراسة طلبة العلم للفقه على الطريقة المذهبية، في بداية طريق التعلم مع عدم التعصب، من الأمور المباحة استثناء على سبيل الضرورة!

ويقول الشيخ الدهلوي: «إن هذه المذاهب الأربعة المحررة قد اجتمعت الأمـة، أو من يعتد به منها، على جواز تقليدها إلى يومنا هذا، وفي ذلك من المصالح ما لا يخفى، لا سيما في هذه الأيام التي قصرت فيها الهمم جدًّا، وأشربت النفوس الهوى، وأعجب كل ذي رأي برأيه»[1].

ويقول الشيخ حسن البنا -رحمه الله-: «ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفروعية، أن يتبع إمامًا من أئمة الدين، ويحسـن بـه مـع هـذا الاتبـاع أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلته، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صلاح من أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمـي -إن كـان مـن أهـل العلم- حتى يبلغ درجة النظر»[2].

استحسان ذكر الأدلة للمستفتي إذا كان أهلاً لفهمها، وإن كان ذلك ليس بشرط:

يقول ابن القيم -رحمه الله-: «ينبغي للمفتي أن يذكر دليل الحكم ومأخـذه مـا أمكنه ذلك، ولا يلقيه إلى المستفتي ساذجًا مجردًا عن دليله؛ فهذا لضيق عطنه وقلـة بضاعته في العلم»[3].

وهل كانت بداية طلب العلم عبر التاريخ إلا على هذا الوجه؟! بل ألا يتقيد أغلب طلبة الحـديث اليـوم باختيارات شيخنا الألباني -رحمه الله ونفع بعلومه- وترجيحاته العلمية، حتى توشك أن تكون عنـدهم مذهبًا خامسًا؟! وما هم على ذلك بملومين؛ ما داموا متبعين غير متعصبين.

(١) المرجع السابق: ٢/ ١١٢.

(٢) مجموعة رسائل حسن البنا: ١/ ٢٥٥.

(٣) إعلام الموقعين، لابن القيم: ٤/ ١٦١.

وقال في موضع آخر: «ينبغي للمفتي أن يفتي بلفظ النص مهما أمكنه، فإنه يتضمن الحكم والدليل عليه في أحسن بيان، وقول الفقيه المعيَّن ليس كذلك، وقد كان الصحابة والتابعون والأئمة الذين سلكوا على منهاجهم يتحرون ذلك غاية التحري»[1].

وأما أن ذلك ليس بشرط؛ فمن أدلته ما يلي:

- الإجماع الذي نقله غير واحد من الأصوليين، على أنه لم يزل أهل العلم يستفتون فيفتون ويُتبعون من غير إبداء المستند، وأن ذلك قد شاع وذاع، ولم ينكر عليه فكان إجماعًا.

قال الآمدى: «وأما الإجماع؛ فإنه لم تزل العامة في زمن الصحابة والتابعين -قبل حدوث المخالفين- يستفتون المجتهدين، ويتبعونهم في الأحكام الشرعية، والعلماء منهم يبادرون إلى إجابة سؤالهم من غير إشارة إلى ذكر الدليل، ولا ينهونهم عن ذلك من غير نكير، فكان إجماعًا على جواز اتباع العامة للمجتهد مطلقًا»[2].

وفي المعتمد لأبي حسين البصري: «والدليل على ذلك إجماع الأمة قبل حدوث المخالف؛ فإن الصحابة ومن بعدهم كانوا يفتون العامة في غامض الفقه، ولا يعرِّفونهم أدلتهم، ولا ينهونهم عن ذلك، ولا يلزمونهم سؤالَهم إياهم، ولا ينكرون عليهم اقتصارهم على مجرد أقاويلهم»[3].

(١) المرجع السابق: ٤/ ١٧٠.
(٢) الإحكام في أصول الأحكام: ٤/ ٢٢٦.
(٣) المعتمد: ٢/ ٩٣٤، ٩٣٥.

بل يذهب الشاطبي في الموافقات إلى أبعد من هذا؛ فيقول: «فتاوى المجتهدين بالنسبة إلى العوام كالأدلة الشرعية بالنسبة إلى المجتهدين، والدليل عليه أن وجود الأدلة بالنسبة إلى المقلدين وعدمها سواء؛ إذ كانوا لا يستفيدون منها شيئًا، فليس النظر في الأدلة والاستنباط من شأنهم، ولا يجوز ذلك لهم البتة، وقد قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[1]، والمقلد غير عالم، فلا يصح له إلا سؤال أهل الذكر، وإليهم مرجعه في أحكام الدين على الإطلاق، فهم إذن القائمون له مقام الشارع، وأقوالهم قائمة مقام الشارع»[2].

- أن المتتبع لكتب الحديث يرى استدلال تابعي التابعين بأقوال من قبلهم من التابعين، واستدلال هؤلاء بأقوال وأعمال من قبلهم من الصحابة، وهو استدلال بأقوال وأعمال لم تذكر مع أدلتها، فدلَّ ذلك على عدم اشتراط ذكر الأدلة لصحة الفتوى، أو جواز العمل بها، بل إننا لو تتبعنا آثار أئمة السلف، وأشد الناس إنكارًا على التقليد، لوقفنا على ما لا يحصى من الفتاوى العارية عن الأدلة.

- أن إيراد الأدلة للعامي لا يخرجه عن دائرة التقليد من الناحية الفقهية البحتة؛ لأن المفتي يورد الدليل موردًا يجعله منتجًا للحكم الذي قال به وذهب إليه، ولا يملك المستفتي إلا تقليده في هذا الفهم، فالتقليد كما يكون في الحكم يكون في فهم دليل الحكم، ومجرد المعرفة بالدليل لا تُخرج عن ربقة التقليد؛ ذلك أن المعرفة المعتبرة بالدليل، والتي تخرج عن نطاق التقليد هي التي يغلب معها الظن بحصول المقتضى وعدم المانع.

---

(١) النحل: ٤٣.

(٢) الموافقات: ٤/ ٢٩٢، ٢٩٣.

وقد سبق قول الشاطبي: «فتاوى المجتهدين بالنسبة إلى العوام كالأدلة الشرعية بالنسبة إلى المجتهدين، والدليل عليه أن وجود الأدلة بالنسبة إلى المقلدين وعدمها سواء، إذ كانوا لا يستفيدون منها شيئًا، فليس النظر في الأدلة والاستنباط من شأنهم، ولا يجوز ذلك لهم البتة، وقد قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، والمقلد غير عالم، فلا يصح له إلا سؤال أهل الذكر، وإليهم مرجعه في أحكام الدين على الإطلاق، فهم إذن القائمون له مقام الشارع، وأقوالهم قائمة مقام الشارع»[2].

أما ما ورد من عبارات الأئمة في النهي عن تقليدهم، حتى يحتاط المرء لدينه، فهي حق ويجب أن تُنزَّل على منازلها الصحيحة:

- فهي تنهى الناس عن اتباعهم فيما قامت الأدلة على خلافه.
- وهي تنهى أمثالهم من المجتهدين عن تقليدهم؛ لأن عليهم أن يأخذوا من حيث أخذوا.
- وتنهى أكابر أصحابهم وتلاميذهم من العلماء عن تقليدهم كذلك؛ حثًّا لهم على دوام النظر في مدارك أقوالهم؛ ليعملوا بما تبين لهم أنه حق حسبما يقتضيه اجتهادهم، وضمانًا لحيوية الفقه الإسلامي، وعدم إصابته بالجمود، أو تخلفه عن الوفاء بالمصالح المتجددة.

ومما يدل على هذا التخصيص، وعلى أن العامة غير مخاطبين بهذه المقالات، ما نقل عن هؤلاء الأئمة أنفسهم، وغيرهم من أهل العلم؛ ومن ذلك:

---

(١) النحل: ٤٣.

(٢) المرجع السابق.

ما قاله مالك -رحمه الله-: «يجب على العوام تقليد المجتهدين في الأحكـام، كـما يجـب على المجتهدين الاجتهاد في أعيان الأدلة»، وهو قول جمهور العلماء خلافًا لمعتزلة بغداد.

وما قاله ابن عبد البر- بعد أن حمل على التقليد وساق الأدلة على بطلانه-: «وهذا كلـه في غير العامة، فإن العامة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلـة تنـزل بهـا؛ لأنهـا لا تتبـين موقع الحجة، ولا تصل كذلك بعدم الفهم إلى علم».

ثم قال: «ولم يختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائهـا، وأنهـم المـرادون بقولـه تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْـلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

وأجمعوا على أن الأعمى لا بد له من تقليد قائده، وكذلك لم يختلـف العلـماء في أن العامة لا يجوز لها الفتيا؛ وذلك -والله أعلم- لجهلها بالمعاني التـي فيهـا يجـوز التحليـل والتحريم والقول في العلم»[2].

وما قاله العز بن عبد السلام- بعد إنكاره التقليد وبيان بطلانه-: «ويستثنى مـن ذلـك العامة، فإن وظيفـتهم التقليـد؛ لعجـزهم عـن التوصـل إلى معرفـة الأحكـام بالاجتهـاد، بخلاف المجتهد فإنه قادر على النظر المؤدي إلى الحكم»[3].

وما قاله ابن القيم - بعد أن ساق في إبطال التقليد نحوًا من ثمانين دليلًا-: «أما من قلد فـيما ينـزل به من أحكام شريعته عالمًا يتفق له على علمه، فيصدر في ذلك عما يخبره.. فمعذورٌ؛ لأنه قد

(١) النحل: ٤٣.

(٢) راجع: جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر: ٢/ ١٤٠.

(٣) قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام: ٢/ ١٣٥.

أدى ما عليه، وأدى ما لزمه فيما نزل به؛ لجهله، ولابد له من تقليد عالم فيما جهله؛ لإجماع المسلمين أن المكفوف يقلد من يثق بخبره في القبلة؛ لأنه لا يقدر على أكثر من ذلك»[1].

وقال في موضع آخر: «ولا ندعي أن الله فرض على جميع خلقه معرفة الحق بدليله في كل مسألة من مسائل الدين دقه وجله! وإنما أنكرنا ما أنكره الأئمة ومن تقدمهم من الصحابة والتابعين، وما حدث في الإسلام بعد انقضاء القرون الفاضلة في القرن الرابع المذموم على لسان رسول الله ﷺ من نصب رجل واحد وجعل فتاويه بمنزلة نصوص الشارع، بل تقديمها عليه! وتقديم قوله على أقوال من بعد رسول الله ﷺ من جميع علماء أمته! والاكتفاء بتقليده عن تلقي الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله وأقوال الصحابة، وأن يضم إلى ذلك أنه لا يقول إلا بما في كتاب الله وسنة رسوله»[2]!!

أن الدليل الصحيح الذي لا معارض له، لا يجوز ردُّه بقول أحد الناس، وإلا كان إخلالاً بأصل الدين:

قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا ﴾[3].

وقد أخرج الترمذي في تفسير هذه الآية عن عدي بن حاتم، أنه قال: يا رسول الله، ما عبدوهم! فقال ﷺ: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟**»[4]، قال: فقلت: بلى، قال: «**فتلك عبادتهم**».

(١) إعلام الموقعين، لابن القيم: ٢/ ١٩٩.
(٢) المرجع السابق: ٢/ ٢٤٤.
(٣) التوبة: ٣١.
(٤) المرجع السابق: ٢/ ٢٤٤.

وعلى هذا؛ فإن كل من اتبع غيره في خـلاف الـدين، وهـو يعلـم أنـه خـلاف الـدين، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله، فهو كافر مشرك(*)، ولا يدخل في ذلك تقليـد العامي لأهل العلم؛ لأن العامي فريضته التقليد، ولا مـن بقـي اعتقـاده في تحليـل الحـلال وتحريم الحرام ثابتًا، ولكنه أطاع غيره في معصية الله؛ لأن هذا له حكم أمثاله من العصاة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهؤلاء الذين اتخذوا أخبارهم ورهبـانهم أربابًـا، حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، يكونون على وجهين:

أحدهمـا: أن يعلموا أنهم بدلوا دين الله فيتبعونهم على التبديل، فيعتقـدون تحليـل مـا حـرم الله، وتحريم ما أحل الله اتباعًا لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل... فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركًا، وإن لم يكونوا يُصَلُّون لهـم ويسـجدون لهم، فكان من اتبع غيره في خلاف الدين؛ مع علمه أنه خلاف الدين، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله مشركًا مثل هؤلاء.

والثـــاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليـل الحـرام ثابتًـا(*)، لكـنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعـاصي التـي يعتقـد أنها معاصٍ، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ، أنه قال: «**إنما الطاعة في المعروف**»، وقال: «**على المسلم السـمع والطاعة فيما أحب أو كره، ما لم يؤمر بمعصية**»، وقال: «**لا طاعـة لمخلـوق في معصية الخالق**»، وقال: «**من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه**».

(*) ولا يتصور ذلك إلا إذا اعتقد أن للأحبار والرهبان حق النسخ والتبديل، وقد كان، فإن مما يذكره القـوم منسوبًا للمسيح عليه السلام: «ما تربطونه في الأرض يكون مربوطًا في السماوات، وما تحلونه في الأرض يكـون محلولًا في السماوات».

(*) كذا في الأصل؛ ولعلها: «بتحريم الحرام وتحليل الحلال».

ثم ذلك المحرم للحلال والمحلل للحرام؛ إن كان مجتهدًا قصده اتباع الرسول ﷺ، لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر، وقد اتقى الله ما استطاع، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه، بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه، ولكن من علم أن هذا خطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه، وعدل عن قول الرسول، فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله، لا سيما إن اتبع في ذلك هواه، ونصره باللسان واليد، مع علمه بأنه مخالف للرسول، فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه؛ ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه»[1].

تميز طالب العلم ببعض الأحكام في هذه القضية عمن كان في درجة العامية البحتة:

سواء من حيث أهليته لفهم الدليل، أو أهليته للفتوى بما يعرفه من مقالات أهل العلم، على سبيل الحكاية لمذاهبهم والنقل لآرائهم، عند عدد كبير من الأصوليين، شريطة أن يكون عدلًا، متمكنًا من فهم كلام الأئمة، ضابطًا لما ينقله عنهم من الأحكام والفتاوى، ولا يخفى أنه لا مدخل لمن كان في مرتبة العامية البحتة في شيء من ذلك.

يقول ابن دقيق العيد: «توقيف الفتيا في حصول المجتهد يفضي إلى حرج عظيم، واسترسال القوم في أهويتهم، فالمختار أن الراوي عن الأئمة المتقدمين إذا كان عدلًا متمكنًا من فهم كلام الإمام، ثم حكى للمقلد قوله.. فإنه يكتفي به؛ لأن في ذلك مما يغلب على ظن العامي أنه حكم الله عنده، وقد انعقد الإجماع في زماننا على هذا النوع من الفتيا»[2].

(١) مجموع الفتاوى: ١٧/ ٧٠، ٧١.

(٢) راجع: إرشاد الفحول، للشوكاني، ٢٧٠.

المطلب الثاني

المتغيرات في هذه القضية

أما المتغيرات أو موارد الاجتهاد في هذه القضية فهي كثيرة، نذكر منها ما يلي:

تصويب المجتهدين وتخطئتهم:

«اختلف أهل العلم في هذه المسألة على مذاهب شتى، فمنهم من أطلق القول بـأن كل مجتهد في الظنيات مصيب، ومنهم من قال: إن المصيب واحـد، واختلـف الفريقـان جميعًا في أنه: هل في الواقعة التي لا نصَّ فيها حكم معين لله تعالى هو مطلوب المجتهد؟

فالذي ذهب إليه محققو المصوبة أنه ليس في الواقعة التي لا نصَّ فيها حكـم معـين يطلب بالظن، بل الحكم يتبع الظن، وحكم الله تعالى على كل مجتهد ما غلب عـلى ظنـه، وهو المختار، وإليه ذهب القاضي.

وذهب قوم من المصوبة إلى أن فيه حكمًا معينًا يتوجه إليه الطلب؛ إذ لا بد للطلـب من مطلوب، لكن لم يكلف المجتهد إصابته؛ فلذلك كان مصيبًا وإن أخطأ ذلك الحكـم المعين الذي لم يؤمر بإصابته، بمعنى أنه أدى ما كلف فأصاب ما عليه.

وأما القائلون بأن المصيب واحد؛ فقد اتفقوا على أن فيه حكمًا معينًا لله تعالى، لكـن اختلفوا في أنه هل عليه دليل أم لا؟

فقال قوم: لا دليل عليه، وإنما هو مثل دفين يعثر الطالب عليه بالاتفاق، فلمن عثر عليه أجران، ولمن حاد عنه أجر واحد؛ لأجل سعيه وطلبه.

والذين ذهبوا إلى أن عليه دليلًا؛ اختلفوا في أن عليه دليلًا قاطعًا أو ظنيًّا؟

فقال قوم: هو قاطع، ولكن الإثم محطوط عن المخطئ؛ لغموض الدليل وخفائه.

ثم الذين ذهبوا إلى أن عليه دليلًا ظنيًّا اختلفوا في أن المجتهد هل أُمر قطعيًّا بإصابة ذلك الدليل؟

فقال قوم: لم يكلف المجتهد إصابته لخفائه وغموضه؛ فلذلك كان معذورًا مأجورًا.

وقال قوم: أمر بطلبه، وإذا أخطأ لم يكن مأجورًا، ولكن حُطَّ الإثم عنه تخفيفًا»[1].

ويختار الغزالي بعد هذا العرض مذهب المصوبة، فيقول: «والمختار عندنا -وهو الذي نقطع به ونخطئ المخالف فيه- أن كل مجتهد في الظنيات مصيب، وأنها ليس فيها حكم معين لله تعالى»[2].

ويذكر النووي -رحمه الله- أن هذا المذهب هو المختار عند كثير من المحققين أو أكثرهم[3].

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فيذهب إلى أن الخطأ قد يراد به الإثم، وقد يراد به عدم العلم، فإن أريد به الأول فإن كل مجتهد اتقى الله ما استطاع فهو مصيب؛ فإنه مطيع لله ليس

(١) راجع: المستصفى: ٢/ ٣٦٣، ٣٦٤.
(٢) المرجع السابق.
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي: ٢/ ٢٣.

بآثم ولا مذموم، وإن أريد به الثاني فقد يعرف المجتهد المستدل الحق، وقد لا يعرفه، فإن الله قد يخص بعض المجتهدين بإصابة الحق في نفس الأمر، بحيث لو اطلع عليه الآخر لوجب عليه اتباعه، لكن سقط عنه وجوب اتباعه لعجزه عنه، وله أجر على اجتهاده.

يقول -رحمه الله-: «ليس كل من اجتهد واستدل يتمكن من معرفة الحق، ولا يستحق الوعيد إلا من ترك مأمورًا أو فعل محظورًا، وهذا هو قول الفقهاء والأئمة، وهو القول المعروف عن سلف الأمة وقول جمهور المسلمين، وهذا القول يجمع الصواب من القولين»[1].

ويقول في موضع آخر: «وهذا فصل الخطاب في هذا الباب، فالمجتهد المستدل من إمام وحاكم وعالم وناظر ومُفْتٍ... وغير ذلك، إذا اجتهد واستدل فاتقى الله ما استطاع؛ كان هذا هو الذي كلفه الله إياه، وهو مطيع لله مستحق للثواب إذا اتقاه ما استطاع، ولا يعاقبه الله البتة، خلافًا للجهمية المجبرة، وهو مصيب بمعنى أنه مطيع لله، لكن قد يعلم الحق في نفس الأمر، وقد لا يعلمه»[2].

تجزؤ الاجتهاد:

ومن موارد الاجتهاد كذلك: تجزؤ الاجتهاد؛ فإن من أهل العلم من ذهب إلى أن منصب الاجتهاد لا يقبل التجزئة، وأنه لابد للاجتهاد في بعض المسائل من تحصيل مكنة الاجتهاد المطلق في جميع المسائل؛ وذلك لأن كل ما يقدر جهله به يجوز تعلقه بالحكم المفروض، فلا يحصل له ظن عدم المانع؛ ولأن أكثر علوم الاجتهاد يتعلق بعضها ببعض،

(١) مجموع الفتاوى: ١٩/ ٣١٢.
(٢) المرجع السابق: ١٩/ ٢١٦.

ويأخذ بعضها بحجز بعض، فإن نقصت لم يقتدر على شيء من الاجتهاد، قالوا: ولهذا يفتضح أمر من ادَّعى الاجتهاد في مسألة ما، عندما يناظره فيها المجتهد المطلق، ويرد عليه من المسالك والمآخذ ما لا يتعقله.

ولكن جمهور أهل العلم على جواز ذلك، وأن من تحصلت له رتبة الاجتهاد في بعض المسائل فإن له أن يجتهد فيها، وإن لم تحصل له هذه المكنة بالنسبة لغيرها، وإلا لزم أن يكون المجتهد عالمًا بجميع المسائل، وهو خلاف الواقع، فإن كثيرًا من المجتهدين، ومنهم: مالك ابن أنس وأحمد وغيرهما، قد سئل في مسائل فأجاب في بعضها وأمسك عن بعضها الآخر.

وهذا هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، فقد قال في الفتاوى: «والاجتهاد ليس هو أمرًا واحدًا لا يقبل التجزؤ والانقسام، بل قد يكون الرجل مجتهدًا في فن أو باب أو مسألة دون فن وباب ومسألة، وكل أحد فاجتهاده بحسب وسعه»[1].

وجوب التمذهب بالنسبة للعامي:

فقد حكى شيخ الإسلام ابن تيمية في وجوب ذلك بالنسبة للعامي وجهين لأصحاب أحمد، ووجهين لأصحاب الشافعي، وذكر أن الجمهور من هؤلاء وهؤلاء لا يوجبون ذلك.

قال -رحمه الله-: «وأصل هذه المسألة أن العامي هل عليه أن يلتزم مذهبًا معينًا يأخذ بعزائمه ورخصة؟ فيه وجهان لأصحاب أحمد، وهما وجهان لأصحاب الشافعي،

(١) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٢١٢.

والجمهور من هؤلاء وهؤلاء لا يوجبون ذلك، والذين يوجبونه يقولون: إذا التزمه لم يكـن له أن يخرج عنه ما دام ملتزمًا له، أو ما لم يتبين له أن غيره أولى بالالتزام منه»[1].

واختار -رحمه الله- عدم الوجوب، وأن العامي يستفتي من اتفق، فقال: «وإذا نـزلت بالمسلم نازلة؛ فإنه يستفتي من اعتقد أنه يفتيه بشرع الله ورسوله، من أي مـذهب كـان، ولا يجب على أحد من المسلمين تقليد شخص بعينه من العلماء في كل ما يقـول، ولا يجـب عـلى أحد من المسلمين التزام مذهب شخص معين، غير الرسول ﷺ، في كل مـا يوجبـه ويخـبر به، بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ»[2].

ويقول ابن القيم -رحمه الله-: «وأيضًا فإنا نعلم بالضرورة أنه لم يكـن في عصر الصـحابة رجل واحد اتخذ رجلًا منهم يقلده في جميع أقواله فلم يُسقط منها شيئًا، وأسـقط أقـوال غـيره فلم يأخذ منه شيئًا، ونعلم بالضرورة أن هـذا لم يكـن في عصر التـابعين ولا تـابعي التـابعين، فليكذبنا المقلدون برجل واحد سلك سبيلهم الوخيمة في القرون الفضيلة على لسـان رسـول الله ﷺ، وإنما حدثت هذه البدعة في القرن الرابع المذموم على لسان رسول الله ﷺ»[3].

ويقول ابن أمير حاج، في شرحه على التحرير للكمال بن الهمام: «وقد انطـوت القـرون الفاضلة على عدم القول بذلك؛ يعنـى الالتـزام بمـذهب معـين، بـل لا يصـح للعـامي مذهب ولو تمذهب به، إنما المذهب يكون لمن له نوع نظر واستدلال وبصر بالمذهب على حسبه، أو لمن قرأ كتابًا في فروع ذلك المذهب وعرف فتاوى إمامه وأقواله، وأمـا مـن لم

(١) المرجع السابق: ٢٠/ ٢٢٢.
(٢) المرجع السابق: ٢٠/ ٢٠٨، ٢٠٩.
(٣) إعلام الموقعين: ٢/ ٢٠٨.

يتأهل لذلك البتة؛ بل قال: أنا حنفي أو شافعي، وغير ذلك لم يصر كذلك بمجرد القول، كما لو قال: أنا فقيه أو نحوي أو كاتب لم يصر كذلك بمجرد قوله، يوضحه أن قائله يزعم أنه متبع لذلك الإمام، سالك طريقه في العلم والمعرفة والاستدلال، فأما مع جهله وبعده جدًّا عن سيرة إمامه وعلمه بطريقه، فكيف يصح الانتساب إليه إلا بالدعوى المجردة والقول الفارغ عن المعنى؟! ومن هنا اشتهر قول العلماء: العامي لا مذهب له وإن مذهبه مذهب مفتيه»[1].

ولا ريب أن الراجح الذي عليه جمهور العلماء، أنه لا يجب على المقلد التمذهب بمذهب معين؛ إذ لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله ﷺ، ولم يوجب الله ولا رسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب إمام معين من المجتهدين، فيأخذ كل ما يقرره ويرد غيره؛ إذ ليس هذا المنصب لأحد بعد النبي ﷺ؛ فإن كل الناس من بعده يؤخذ من قوله ويترك.

وإنما أوردنا هذه المسألة بين المتغيرات؛ لأنه قد تطرأ ظروف عملية تحتم الأخذ بالقول المرجوح في هذه المسألة، وذلك عندما تسيطر العلمانية، ويفتح دعاتها بابًا إلى التفلت من الدين باسم الدين، وإلى التحلل من التكاليف الشرعية باسم التجديد والاستنارة ونحوه، فيجمعون شواذَّ الأقوال وزلات العلماء ويطيرون بها كل مطير، ويدعون الاجتهاد والإحياء، والعمل بالدليل وعدم التقليد، فَيَضِلُّون ويُضِلُّون!

ولعل هذا يفسر لنا سر إلزام الشيخ محمد بن إبراهيم، المفتي الأسبق للمملكة العربية السعودية، العلماء كافة في المملكة بالفتوى على المذهب الحنبلي وتشدده في

(١) نقلًا عن كتاب الفقه الإسلامي: ١٦٧، ١٦٨.

ذلك، وهو العالم المتبع؛ فلعله استشعر ببصيرته مثل هذه المستجدات فأراد أن يسد بذلك الذريعة إلى العبث في الدين، وأن يقطع به السبيل على أمثال هؤلاء المارقين المبطلين، والله أعلم.

إفراد مرتبة طلبة العلم، وأصحاب القدرة على فهم الأدلة، ممن لم يبلغوا مبلغ الاستقلال بالنظر باسم (الاتباع):

تمييز لها عن مرتبة الاجتهاد التي لم يرتفعوا إليها، ومرتبة العامية البحتة التي لم يهبطوا إليها؛ فقد ورد في كلام ابن عبد البر وابن خويز منداد مايدل على ذلك.

قال ابن عبد البر: «باب فساد التقليد ونفيه، والفرق بين التقليد والاتباع: التقليد عند جماعة العلماء غير الاتباع؛ لأن الاتباع هو أن تتبع القائل على ما بان لك من فضل قوله وصحة مذهبه، والتقليد أن تقول بقوله وأنت لا تعرف وجه القول ولا معناه»[1].

وقال أبو عبد الله بن خويز منداد: «كل من اتبعت قوله من غير أن يجب عليك قوله لدليل يوجب ذلك فأنت مقلده، والتقليد في دين الله غير صحيح، وكل من أوجب عليك الدليل اتباع قوله فأنت متبعه، والاتباع في دين الله مسوغ والتقليد ممنوع»[2].

والذي يتأمل في عبارات شيخ الإسلام لا يكاد يجد أثرًا لهذا التفريق، فهو يقول - بعد أن ذكر الخلاف في أهل الكتاب الذين تؤكل ذبائحهم، وأنه لا يشترط في أحدهم أن يكون حدُّه ممن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل-: «وهذه المسألة ونحوها فيها من أغوار الفقه وحقائقه ما لا يعرفه إلا من عرف أقاويل العلماء ومآخذهم، فأما من لم

(١) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر: ٢/ ١١٧.

(٢) راجع: الاجتهاد، للسيوطي: ١٠٢.

يعرف إلا قول عالم واحد وحجته، دون قول العالم الآخر وحجته، فإنه من العوام المقلدين، لا من العلماء الذين يرجحون ويزيفون»[1].

ومن تأمل كلامه -رحمه الله- وجده يقابل بين فريقين اثنين لا غير؛ العلماء المجتهدين، والعوام المقلدين، ويعتبر الإحاطة بقول عالم واحد وحجته لا تخرج الشخص من دائرة العوام المقلدين، ولم يخصه بتسمية خاصة.

وقد سئل عن الفرق بين الاجتهاد والاستدلال والتقليد والاتباع، فسلك في إجابته التقليد والاتباع في نسق واحد ولم يفرق بينهما، فقال في أول إجابته: «أما التقليد الباطل المذموم فهو قبول قول الغير بلا حجة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[2] [3].

إلى أن قال: «فهذا الاتباع والتقليد الذي ذمه الله هو اتباع الهوى؛ إما للعادة والنسب؛ كاتباع الآباء، وإما للرئاسة؛ كاتباع الأكابر والسادة والمتكبرين»[4].

ثم يجمل القول فيهما في النهاية؛ فيقول: «الناس في الاستدلال والتقليد على طرفي نقيض؛ منهم من يوجب الاستدلال حتى في المسائل الدقيقة؛ أصولها وفروعها، على كل أحد، ومنهم من يحرم الاستدلال في الدقيق على كل أحد، وهذا في الأصول والفروع، وخيار الأمور أوساطها»[5]؛ فقد جعلهما قسمين: الاستدلال والتقليد، فأجمل الاجتهاد

(١) مجموع الفتاوى:٣٥/ ١٣٣.
(٢) المائدة: ١٠٤.
(٣) المرجع السابق: ٢٠/ ١٥.
(٤) المرجع السابق:٢٠/ ١٦.
(٥) المرجع السابق: ٢٠/ ١٨.

والاستدلال في قسم، وأجمل التقليد والاتباع في قسم، ولا يخفى أن هذا اصطلاح، ولا مشاحة في الاصطلاح.

مبادرة المقصر إلى الالتزام بالدليل وتقديمه على الالتزام بالمذهب:

فمن الناس من يرى ضرورة المبادرة إلى العمل بالحديث، واطِّراح ما خالفه من أقوال أهل العلم بمجرد ثبوت الحديث؛ لما في ذلك من اتباع الرسول؛ الذي هو حقيقة التكليف، والاقتداء بأهل العلم الذين نصُّوا على اطراح أقوالهم عندما تظهر معارضتها للسنة.

ولا يعارض الآخرون في أصل المسألة لارتباطها بعقد الإيمان، فقد اتفق المسلمون أجمعون على أن من ردَّ على رسول الله ﷺ أمرًا من الدين؛ صح عنده أن رسول الله ﷺ قد أمر به، بلا تأول ولا شبهة.. فهو كافر بإجماع المسلمين، وإن عرف أن الدليل في مسألة ما على خلاف ما ذكره بعض أهل العلم فيها، فلا يحل له أن يترك الدليل؛ تعلقًا باجتهاد تبين خطؤه، ولكن المنازعة في مدى هذه المعرفة؛ لأن المعرفة المعتبرة في هذا المقام هي التي يغلب على الظن معها حصول المقتضى وعدم المانع، وهذه عملية اجتهادية لا مدخل فيها للعامة ولا لأشباه العامة، ولا تكون المقابلة في هذه الحالة بين عبارة المذهب وكلام النبي ﷺ، وإنما بين فقه من ساق هذا الدليل الجزئي المعارض بالسنة، وفقه صاحب المذهب بها.

ويتساءلون: كيف نترك الفتوى التي قال بها أهل الاجتهاد؛ بناء على النظر المعتبر في جملة النصوص والآثار، إلى حديث جزئي قد يكون منسوخًا أو مقيَّدًا أو مؤولًا أو نحوه؟ ويؤكدون أن هذا ليس من شأن العوام، وإنما هو لمن بلغ مرتبة النظر والاستدلال.

والمسألة في هذا الإطار؛ ما لم تبلغ مبلغ التعصب، وتفضي إلى التشاحن وفساد ذات البين، فهي في محل الاجتهاد.

الفصل الثالث

الثوابت وموارد الاجتهاد في قضية الإيمان

لقد كان الخلاف في حقيقة الإيمان أول خلاف نشأ بين أهل القبلة، منذ أن خرجت الخوارج على الأمة ببدعة التكفير بمطلق المعصية، واستحلوا بذلك دماء مخالفيهم، وكانوا أشد الناس قتالًا للأمة وتكفيرًا لها، وتراوحت ردود الأفعال لهذا الشطط ما بين تجهُّم غالٍ، يقصر الإيمان على مجرد التصديق الخبري، ويخرج العمل بقسميه -عمل القلب وعمل الجوارح- من حقيقة الإيمان، أو إرجاءٍ يغلِّب النظر في نصوص الوعد، ويُخرج أعمال الجوارح كلها من مسمى الإيمان، وإن أبقى فيه أعمال القلوب، ثم توالت الانشطارات وانشقاق الفرق عن جماعة المسلمين!

ولقد شهدت ساحة العمل الإسلامي المعاصر تهارجًا بين فريقين من المسلمين؛ أحدهما: يتهم الآخر بتهمة الخروج والتكفير، والآخر: يرد عليه باتهامه بالإرجاء أو التجهم، واستدل كل منهما على الآخر ببعض مقتطفات من مقالات أهل العلم، وقد تكون نفس النقول التي يستدل بها أحدهما لنصرة مذهبه، هي نفس النقول التي يستدل بها عليه الآخر لإبطاله!!

ومن هنا مسَّت الحاجة إلى أن نميز المحكم من المتشابه، وموضع الإجماع من محال النزاع في هذه القضية؛ حتى لا تختلط الأمور فنترخص في مجمع عليه أو ننكر في مجتهد فيه، وحتى يسهل تشخيص الخلل الذي ينسب إلى فريق من الناس ورده إلى الأصول المعتمدة لدى أهل السنة؛ للفصل بين ما كان مرده إلى خلل حقيقي في ضبط هذه الأصول، وبين ما كان مرده إلى الخصومة وفساد ذات البين، أو الخلل في تحقيق المناط، مع بقاء الأصول الضابطة لهذه القضية صحيحة ومعتمدة.

وعلى الرغم من أن الأصل في قضية الإيمان أنها من الثوابت الأساسية في الإسلام، إلا أن بعض المباحث الجزئية المتعلقة بها تدخل في مجاري الاجتهاد، وتخرج عن دائرة المحكم المقطوع به، على النحو الذي سنفصله في هذه الدراسة بإذن الله تعالى.

المبحث الأول

الثوابت والمحكمات في قضية الإيمان

أن المرجع في ضبط الأسماء والمصطلحات الشرعية إلى القرآن والسنة والآثار:

فالإيمان والكفر وغيرهما من الألفاظ الشرعية، يجب أن يرجع في بيانها أولًا إلى الكتاب والسنة والآثار، فقد بين النبي ﷺ المراد بهذه الألفاظ، بما لا يُحتاج معه إلى الاستدلال بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب ونحوه؛ ولهذا يجب الرجوع في مسميات هذه الأسماء إلى بيان الله ورسوله فإنه شافٍ كافٍ، وإن العدول عن هذا المنهج هو أول الطريق إلى الزيغ والابتداع.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وما ينبغي أن يُعلم: أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم»[1].

الإيمان حقيقة مركبة من القول والعمل:

والمقصود بالقول هنا: قول القلب؛ وهو تصديق القلب وإقراره ومعرفته، وقول اللسان؛ وهو النطق بالشهادتين، والإقرار بلوازمهما، والمقصود بالعمل: عمل القلب؛ وهو قبوله وانقياده، ومحبته وإخلاصه، وعمل الجوارح؛ وهو سائر ما افترض الله على عباده من أعمال الجوارح.

(١) الإيمان لابن تيمية: ٢٧١ – ٢٧٣.

قال البخاري -رحمه الله-: «لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أن أحدًا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص»[1].

وقد نقل هذا المعنى اللالكائي في كتابه «شرح أصول اعتقاد أهل السنة»، عن الجمِّ الغفير من أهل العلم؛ منهم: الشافعي وأحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه وأبي عبيد وأبي زُرعة... وغيرهم[2].

وقد صار هذا المعنى من المعلوم من مقالات السلف بالضرورة.

أصل الإيمان تصديق الخبر والانقياد للأمر:

فمن لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر؛ ولهذا لما جاء نفر من اليهود إلى النبي ﷺ، وقالوا: نشهد إنك لرسول ﷺ لم يكونوا مسلمين بذلك؛ لأنهم قالوا ذلك على سبيل الإخبار عما في أنفسهم، أي: نعلم ونجزم أنك رسول الله، قال: «**فلم لا تتبعوني؟!**»، قالوا: نخاف من يهود!!

فعلم أن مجرد العلم والإخبار عنه ليس بإيمان حتى يتكلم بالإيمان على وجه الإنشاء المتضمن للالتزام والانقياد، مع تضمن ذلك الإخبار عما في أنفسهم، فالمنافقون قالوا مخبرين كاذبين؛ فكانوا كفارًا في الباطن، وهؤلاء قالوها غير ملتزمين ولا منقادين، فكانوا كفارًا في الظاهر والباطن.

(١) فتح الباري: ١/ ٤٧.

(٢) راجع: السنة، للالكائي: ١/ ١٥١- ١٨٦.

وكذلك أبو طالب قد استفاض عنه أنه يعلم بنبوة محمد ﷺ، وأُنشد عنه:

ولقد علمت بأن دين محمد *** من خير أديان البرية دينا

لكن امتنع من الإقرار بالتوحيد والنبوة، حبًّا لدين سلفه وكراهة أن يعيره قومه، فلما لم يقترن بعلمه الباطن الحب والانقياد، الذي يمنع ما يضاد ذلك من حب الباطل وكراهة الحق.. لم يكن مؤمنًا [1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار، لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد، تصديق الرسول ﷺ فيما أخبر، والانقياد له فيما أمر، كما أن الإقرار بالله هو الاعتراف به، والعبادة له، والكفر هو عدم الإيمان؛ سواء كان معه تكذيب، أو استكبار، أو إباء، أو إعراض؛ فمن لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر»[2].

ويبين في موضع آخر أنه: «لا فرق بين من يعتقد أن الله ربه، وأن الله أمره بهذا الأمر؛ ثم يقول: إنه لا يطيعه؛ لأن أمره ليس بصواب ولا سداد، وبين من يعتقد أن محمدًا رسول الله، وأنه صادق واجب الاتباع في خبره وعمله، ثم يسبُّه أو يعيب أمرًا أو شيئًا من أحواله، أو يتنقصه انتقاصًا لا يجوز أن يستحقه رسول ﷺ.

وذلك أن الإيمان قول وعمل؛ فمن اعتقد الوحدانية في الألوهية لله سبحانه وتعالى، والرسالة لعبده ورسوله، ثم لم يُتْبِع هذا الاعتقاد موجبه من الإجلال والإكرام؛

(١) راجع: مجموع الفتاوى، ٧/ ٥٦١.
(٢) المرجع السابق: ٧/ ٦٣٨، ٦٣٩.

الذي هو حال في القلب يظهر أثـره عـلى الجـوارح، بـل قارنـه الاسـتخفاف والتسـفيه والازدراء بالقول أو بالفعل كان وجود ذلك الاعتقاد كعدمه، وكان ذلك موجبًا لفساد ذلك الاعتقاد ومزيلًا لما فيه من المنفعة والصلاح»[1].

ويقول ابن القيم -رحمه الله-: «فإن الإيمان ليس مجرد التصديق- كما تقـدم بيانـه- وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد، وهكذا الهدى ليس هو مجرد معرفة الحـق وتبينه، بل هو معرفته المستلزمة لاتباعه والعمل بموجبه، وإن سمي الأول هدى فليس هو الهدى التام المستلزم للاهتداء، كما أن اعتقاد التصديق وإن سمي تصديقًا، فليس هو التصديق المستلزم للإيمان، فعليك بمراجعة هذا الأصل ومراعاته»[2].

أن التولي عن الحكم بالشريعة كالتكذيب بها سواء، كلاهما كفر أكبر:

فقد تمهد أن أصل الإيمان هو الإقرار بما جاء به رسول الله ﷺ تصديقًا وانقيادًا، فمن لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر، وعلى هذا فردُّ الحكم الشرعـي كالتكـذيب به؛ كلاهما كفر أكبر ينتقض به عقد الإيمان، والمقصود برد الحكـم الشرعـي: عـدم قبولـه والامتناع من التزامه دينًا يُعبد الله به، وحكمًا واجب الاتباع في موارد النـزاع.

فهو يتعلق بالاعتراض على التشريع والامتناع من التزامه ابتداء؛ ولهذا يفـرق بينـه وبين الإصرار الذي هو مجرد المداومـة عـلى المعصـية وعـدم التوبـة منهـا، فهـو يتعلـق بالامتناع من تنفيذ الحكم، أما الرد فهو يتعلق بالاعتراض على تشريعه.

(١) الصارم المسلول: ٣٦٩، ٣٧٠.

(٢) الصلاة، لابن القيم: ٢٥.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[1]. ولم يكن كفر إبليس عن تكذيب، فإن الله باشره بالخطاب، وإنما كان عن امتناع واستكبار.

وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[2].

يقول الجصاص: «وفي هذه الآية دلالة على أن من رد شيئًا من أوامر الله تعالى، أو أوامر رسوله ﷺ فهو خارج من الإسلام؛ سواء رده من جهة الشك فيه، أو من جهة ترك القبول والامتناع من التسليم، وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه الصحابة في حكمهم بارتداد من امتنع الزكاة، وقتلهم وسبي ذراريهم؛ لأن الله تعالى حكم بأن من لم يسلم للنبي ﷺ قضاءه وحكمه، فليس من أهل الإيمان»[3].

وقد سبق قول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والكفر هو عدم الإيمان؛ سواء كان معه تكذيب أو استكبار أو إباء أو إعراض، فمن لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر»[4].

ويقول الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق: «وهذا الحكم لا خلاف فيه بتاتًا؛ أعني كفر من رد حكمًا من أحكام الله الثابتة في كتابه أو على لسان رسوله، خاصة إذا كان هذا الرد معللًا بأن هذا التشريع لا يناسب الناس، أو لا يوافق العصر، أو أنه وحشية، أو غير

(١) البقرة: ٣٤.
(٢) النساء: ٦٥.
(٣) أحكام القرآن، للجصاص:٣/ ١٨١.
(٤) مجموع الفتاوى:٧/ ٦٣٩.

ذلك؛ لأن حقيقة عيب التشريع هي عيب المشرع، والذي شرع هذا وحكـم بـه هـو الله سبحانه وتعالى، ولا يشك مسلم في أن عيب الله أو نسبة النقص أو الجهـل لـه كفـر بـه وخروج عن ملة الإسلام؛ ولذلك فالأمر الأول الذي ينبغي أن يتعلمه الـذين يـردون هذا الحكم أنهم ليسوا من جماعة المسـلمين، ولا ينتمـون إلى هـذه الأمـة أصـلًا، إلا أن يعلنوا توبتهم ورجوعهم إلى الله سبحانه وتعالى»[1].

ويقول الأستاذ عبد القادر عودة: «ومن المتفق عليه أن من ردَّ شيئًا من أوامر الله أو رسوله، فهو خارج عن الإسلام؛ سواء رده من جهة الشك، أو من جهة ترك القبول، أو الامتناع عن التسليم، ولقد حكم الصحابة بارتداد مانعي الزكاة واعتبروهم كفارًا خارجين عن الإسلام؛ لأن الله حكم بأن من لم يسلم بما جاء به الرسول، ولم يسلم بقضائه وحكمه، فليس من الإيمان، قال جل شأنه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[2] [3].

هذا؛ وإن أبرز صور التولي عن الحكم الشرعي في واقعنا المعاصر، تتمثل فيما يجري عليه العمل في بلاد المسلمين؛ من تحكـيم القـوانين الوضـعية بـما تتضـمنه مـن إبطـال الأحكام الشرعية في أغلب شؤون الدولة، وإباحة عامة للتحاكم إلى غير مـا أنـزل الله في ذلك كله، بل الإلزام به وفتنة من خالفه.

(١) الحدود الشرعية، لعبد الرحمن عبد الخالق: ٢٠.

(٢) النساء: ٦٥.

(٣) التشريع الجنائي: ٢/ ٧٠٨- ٧١٠.

زيادة الإيمان ونقصه، وتفاضل أهله:

لقد استفاضت النصوص التي تدل بمنطوقها ومفهومها على ذلك، وهذا هو المأثور عن الصحابة وأئمة التابعين وجماهير السلف.

قال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[3]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[5].

ومن السنة: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[6].

وفي أحاديث الشفاعة: «**فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه، فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من إيمان فأخرجوه، فمن وجدتم في قلبه وزن ذرة من إيمان فأخرجوه**»[7].

---

(١) الفتح: ٤.

(٢) المدثر: ٣١.

(٣) الأنفال: ٢.

(٤) التوبة: ١٢٤.

(٥) آل عمران: ١٧٣.

(٦) أخرجه مسلم.

(٧) فتح الباري: ١٣/ ٤٢١.

وفي رواية أخرى: «**فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأخرج من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان**»[1].

وأما المأثور في ذلك عن أهل العلم؛ فهو أشهر من أن يذكر، وأكثر من أن يحصى.

أن من اقتصر في تعريف الإيمان على التصديق من أهل السنة، بل ومن عامة المرجئة.. كان مقصوده التصديق الانقيادي المستلزم لقبول الأحكام والتزام الشرائع:

إذ لم يُؤْثَرْ إخراج أعمال القلوب من حقيقة الإيمان، وقصره على مجرد التصديق الخبري، إلا عن الجهمية، وقد كفرهم كثير من الأئمة بهذه المقولة.

يقول ابن القيم -رحمه الله-: «ونحن نقول: الإيمان هو التصديق، ولكن ليس التصديق مجرد اعتقاد صدق الخبر دون الانقياد له، ولو كان مجرد اعتقاد التصديق إيمانًا، لكان إبليس وفرعون وقومه وقوم صالح، واليهود الذين عرفوا أن محمدًا رسول الله كما يعرفون أبناءهم.. مؤمنين مصدقين، فالتصديق إنما يتم بأمرين؛ أحدهما: اعتقاد الصدق، والثاني: محبة القلب وانقياده»[2].

ويقول القسطلاني في تعريف الإيمان: «وهو لغةً: التصديق، وهو كما قال التفتازاني: إذعان لحكم المخبر وقبوله، فليس حقيقة التصديق أن يقع في القلب نسبة التصديق إلى الخبر أو المخبر من غير إذعان وقبول، بل هو إذعان وقبول لذلك بحيث يقع عليه اسم التسليم»[3].

(١) المرجع السابق: ١٣/ ٤٧٣، ٤٧٤.

(٢) الصلاة، لابن القيم: ١٩، ٢٠.

(٣) إرشاد الساري: ١/ ٨٢.

ويقول الكمال بن الهمام: «فلابد في تحقيق الإيمان من المعرفة، أعني إدراك مطابقة دعوى النبي للواقع، ومن أمر آخر: هو الاستسلام الباطن والانقياد لقبول الأوامر والنواهي، المستلزم ذلك الاستسلام والانقياد للإجلال، أي: لإجلال الإله تعالى، وعدم الاستخفاف بأوامره ونواهيه»[1].

وجاء في حاشية ابن عابدين: «معنى التصديق: قبول القلب وإذعانه لما علم بالضرورة أنه من دين محمد ﷺ بحيث تعلمه العامة من غير افتقار إلى نظر واستدلال؛ كالوحدانية والنبوة والبعث والجزاء، ووجوب الصلاة والزكاة وحرمة الخمر ونحوها»[2].

ويقول ابن أبي العز في شرحه على الطحاوية: «والكفر لا يختص بالتكذيب، بل لو قال: أنا أعلم أنك صادق، ولكن لا أتبعك، بل أعاديك وأبغضك وأخالفك لكان كفرًا أعظم، فعلم أن الإيمان ليس التصديق فقط، بل إذا كان الكفر يكون تكذيبًا، ويكون مخالفة ومعاداة بلا تكذيب، فكذلك الإيمان؛ يكون تصديقًا وموافقة وموالاة وانقيادًا، ولا يكفي مجرد التصديق»[3].

بطلان ما ذهب إليه الخوارج والمرجئة، من القول بأن الإيمان معنى واحد، لا يتجزأ ولا يتبعض، إذا ذهب بعضه ذهب كله:

وهو الأمر الذي أدى بالخوارج إلى إدخال الأعمال جميعًا في أصل الإيمان؛ تعلقًا بظواهر نصوص الوعيد، وأدى بالمرجئة إلى إخراج الأعمال جميعًا عن مسمى الإيمان تعلقًا بظواهر نصوص الوعد، ولا يستفاد من أحدهما إلا بطلان كلام الآخر.

(١) المسايرة للكمال بن الهمام الحنفي: ٣٠٨.

(٢) حاشية ابن عابدين: ٤/ ٢٢١.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية: ٣٢١.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما قول القائل: إن الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله.. فهذا ممنوع، وهذا هو الأصل الذي تفرعت عنه البدع في الإيمان؛ فإنهم ظنوا أنه متى ذهب بعضه ذهب كله ولم يبق منه شيء، ثم قالت الخوارج والمعتزلة: هو مجموع ما أمر الله به ورسوله ﷺ، وهو الإيمان المطلق كما قال أهل الحديث، قالوا: فإذا ذهب شيء منه، لم يبق مع صاحبه من الإيمان شيء، فيخلد في النار!

وقالت المرجئة على اختلاف فرقهم: لا تُذهِبُ الكبائرُ وتركُ الواجبات الظاهرة شيئًا من الإيمان؛ إذ لو ذهب شيء منه لم يبق منه شيء، فيكون شيئًا واحدًا يستوي فيه البر والفاجر، ونصوص الرسول وأصحابه تدل على ذهاب بعضه، وبقاء بعضه»[1].

أن الإيمان منه ما يلزم لثبوت عقد الإسلام والنجاة من الخلود في النار:

وهو الإيمان المجمل بما جاء به محمد ﷺ تصديقًا وانقيادًا، ومنه ما يلزم لدخول الجنة بغير سابقة عذاب؛ وهو الإيمان الواجب، ويتمثل في الإتيان بالواجبات، واجتناب المحرمات، ومنه ما يلزم لنيل الدرجات العلى في الجنة؛ وهو الإيمان الكامل، ويتمثل بالإضافة إلى ذلك في فعل النوافل والمستحبات، واجتناب المكروهات والمتشابهات.

يقول البيهقي رحمه الله، بعد أن أورد آية سورة الأنفال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[2].

(١) الإيمان لابن تيمية: ٢٠٩، ٢١٠.

(٢) الأنفال: ٢-٤.

«وبهذه الآية، وما في معناها من الكتاب والسنة، ذهب أكثر أصحاب الحديث إلى أن اسم الإيمان يجمع الطاعاتِ فرضَها ونفلَها، وأنها على ثلاثة أقسام: فقسم يكفر بتركه؛ وهو اعتقاد ما يجب اعتقاده، والإقرار بما اعتقده، وقسم يفسق بتركه أو يعصى ولا يكفر به إذا لم يجحده، وهو مفروض الطاعات؛ كالصلاة والزكاة والصيام والحج واجتناب المحارم، وقسم يكون بتركه مخطئًا للأفضل غير فاسق ولا كافر، وهو ما يكون من العبادات تطوعًا»[1].

ويقول شيخ الإسلام لبن تيمية: «ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار، لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد؛ تصديق الرسول فيما أخبر، والانقياد له فيما أمر، كما أن الإقرار بالله هو الاعتراف به، والعبادة له، والكفر هو عدم الإيمان؛ سواء كان معه تكذيب أو استكبار أو إباء أو إعراض، فمن لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر»[2].

ويقول في موضع آخر: «وأهل السنة والحديث يقولون: جميع الأعمال الحسنة واجبها ومستحبها من الإيمان؛ أي: من الإيمان الكامل بالمستحبات، ليست من الإيمان الواجب، ويفرقون بين الإيمان الواجب وبين الإيمان الكامل بالمستحبات، كما يقول الفقهاء: الغسل ينقسم إلى مجزئ وكامل، فالمجزئ ما أُتي فيه بالواجبات، والكامل ما أُتي فيه بالمستحبات، ولفظ الكمال قد يراد به الكمال الواجب، وقد يراد به الكمال المستحب»[3].

(١) الاعتقاد على مذهب السلف للبيهقي: ٩٨.
(٢) مجموع الفتاوى: ٧/ ٦٣٨-٦٣٩.
(٣) الإيمان لابن تيمية: ١٨٦.

انتقاض الإيمان بالردة:

فالإيمان ينتقض بالردة كما ينتقض الوضوء بالحدث، والردة كما تكون بمفارقة ملة الإسلام بالكلية إلى ملة أخرى أو إلى الإلحاد البحت، تكون أيضًا بعدم الإقرار بشيء مما أنـزل الله؛ تكذيبًا أو ردًّا، وأبواب الردة في كتب الفقه حافلة بإيراد الأمثلة على ذلك.

وعقوبة المرتد إذا أصر على ردته هي القتل، وحبوط جميع أعماله إذا مات على ذلك، وعدم إجراء أحكام الإسلام عليه بعد موته؛ من الغسل والدفن في مقابر المسلمين.. ونحوه؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1]، وقال ﷺ: «**من بدَّل دينه فاقتلوه**»[2].

الكفر كفران؛ أحدهما ينقل عن الملة، والآخر لا ينقل عنها:

فالكفر الوارد في النصوص قسمان؛ أحدهما: ينقل عن الملة، سواء سمي كفـرًا أكـبر أو كفرًا حقيقيًّا، وضابطه عدم الإقرار بشيء مما أنـزل الله تكذيبًا أو ردًّا، والثاني: كفر لا ينقل عن الملة، سواء أسمي كفرًا أصغر أم كفرًا مجازيًّا، وهو الوارد في نصوص الوعيـد التي اتفق أهل العلم على أنها لا تخرج من الإيمان إلا بالاستحلال؛ كقولـه ﷺ: «**اثنتـان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت**».

ومثل هذا التقسيم ينطبق على سائر ألفاظ الذم؛ من النفاق والشرك والظلم

(١) البقرة: ٢١٧.

(٢) رواه البخاري.

والفسق.. ونحوه، وقد عنون البخاري في صحيحه، فقال: باب كفران العشير وكفر دون كفر، وساق تحته قول النبي ﷺ: «**أُرِيْتُ النار؛ فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن**»، قيل: أيكفرن بالله يا رسول الله؟ قال: «**يكفرن العشير ويكفرن الإحسان؛ لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئًا، قالت: ما رأيت منك خيرًا قط!**»[1].

وعنون أيضًا فقال: باب ظلم دون ظلم، وساق ما رُوي عن علقمة عن عبد الله أنه لما نـزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾[2]. قال أصحاب رسول الله ﷺ: أيُّنا لم يظلم نفسه؟! فأنـزل الله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[3] [4].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والنفاق كالكفر نفاق دون نفـاق ؛ ولهـذا كثـيرًا مـا يقال: كفر ينقل عن الملة وكفر لا ينقل، ونفاق أكـبر ونفـاق أصـغر، كـما يقـال: الشرك شركان؛ أصغر، وأكبر»[5].

عدم تكفير أهل القبلة بمطلق الذنوب إلا بالاستحلال أو الجحود:

فقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن المعاصي مـن أمـور الجاهليـة، ولا يكفـر فاعلهـا بارتكابها؛ إلا بالاستحلال، وأن أصحاب الكبـائر في مشـيئة الله؛ إن شـاء الله عـذبهم، وإن

(١) فتاوى البخاري: ١/ ٨٣.
(٢) الأنعام: ٨٢.
(٣) لقمان: ١٣.
(٤) المرجع السابق: ١/ ٨٧.
(٥) مجموع الفتاوى: ٧/ ٥٢٤.

شاء غفر لهم، لا نشهد عليهم في الدنيا بكفر كما يقول الخوارج، ولا يحكم بخلودهم في النار كما يجزم بذلك الخوارج والمعتزلة.

ومن يمت ولم يتب من ذنبه *** فأمره مفوض لربه

والاستحلال تارة يؤول إلى كفر التكذيب؛ إذا كان إنكارًا للحكم الشرعي وتكذيبًا له، وتارة يؤول إلى كفر الرد؛ إذا كان امتناعًا عن قبول الحكم الشرعي أو التزامه، فقد سبق أن أصل الإيمان تصديق الخبر والانقياد للأمر، فكل ما آل إلى التكذيب أو الرد، فإنه يعود على أصل الإيمان بالنقض.

ومن الأدلة على ذلك:

تفريق الشريعة بين الشرك والكفر من ناحية، وبين بقية الذنوب من ناحية أخرى؛ وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1]؛ ففرَّق بين الشرك وبين ما دونه من المعاصي، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾[2]؛ ففرقت بين الكفر من ناحية، وبين الفسوق والعصيان من ناحية أخرى.

وقول النبي ﷺ في الحديث السابق عندما نزل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[3]، وشق ذلك على أصحاب النبي ﷺ

(١) النساء: ٤٨.

(٢) الحجات: ٧.

(٣) الأنعام: ٨٢.

وقالوا: وأينا لم يظلم نفسه؟! فقال ﷺ: «**لا، ليس كما تظنون، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا قول لقمان لابنه:** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾[1]؟!»[2].

ففرق ﷺ بين الشرك الذي هو أعظم الظلم، وبين ما دونه من المعاصي التي يظلم بها الإنسان نفسه، وصحح لأصحابه ما فهموه من هذه الآية على غير وجهه.

تفريق الشريعة بين العقوبة المقررة للكفر والردة، وبين العقوبات المقررة للمعاصي، فجعلت للكفر حدًّا واحدًا هو القتل؛ «**من بدل دينه فاقتلوه**»، وفاوتت بين عقوبات المعاصي؛ من القطع إلى الجلد إلى الرجم إلى القتل إلى التعزير، بحسب نوعها، ولو كان الجميع في مرتبة واحدة، وكانت المعاصي كلها من قبيل الردة لانطبق عليها جميعًا حد الردة بلا استثناء.

أحاديث الشفاعة؛ وفيها شفاعته ﷺ لأهل الكبائر من أمته، ولو كان هؤلاء كفارًا لكانوا مخلدين في نار جهنم، ولم تنفعهم شفاعة الشافعين.

بطلان ما ذهب إليه الخوارج والمرجئة، في باب الإيمان من أن الإيمان معنى واحد يذهب كله بذهاب بعضه. فقد ثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وأنه يتفاوت ويتبعض، وأنه قد يجتمع في الرجل كفر وإيمان، وشرك وتوحيد، ونفاق وإخلاص، وطاعة ومعصية، وأن من المعاصي ما ينقض أصل الإيمان، ومنها ما

(١) لقمان: ١٣.

(٢) رواه البخاري.

ينقض كماله الواجب، ويبقى أصحابها في مشيئة الله، إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم. والأدلة على ذلك مستفيضة من النصوص والآثار ومقالات أهل العلم.

إجماع أهل السنة والجماعة -من الصحابة والتابعين وتابعيهم وسائر أهل السنة والجماعة- على أن المعاصي من أمور الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، وقد عقد البخاري لذلك بابًا في صحيحه، فقال: باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك؛ لقول النبي ﷺ: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**»، وقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[1] [2].

قال أحمد بن حنبل: «ومن مات من أهل القبلة موحدًا يُصَلَّى عليه، ويُسْتَغْفَرُ له، ولا تترك الصلاة عليه لذنب أذنبه؛ صغيرًا كان أو كبيرًا، وأمره إلى الله ﷻ»[3].

وقال في موضع آخر: «ومن لقيه مصرًّا؛ غير تائب من الذنوب التي قد استوجب بها العقوبة... فأمره إلى الله ﷻ؛ إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له»[4].

وقال أبو زرعة: «ولا نكفر أهل القبلة بذنوبهم، ونكل أسرارهم إلى الله ﷻ»[5].

وقد سُئِلَ سهل بن عبد الله التستري: متى يعلم الرجل أنه على السنة والجماعة؟ فأجاب بذكر عشر خصال؛ منها: ولا يترك الصلاة على من يموت من أهل القبلة بالذنب[6].

---

(١) النساء: ٤٨.

(٢) فتح الباري: ١/ ٨٤.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة، للالكائي: ١/ ٢٦٤.

(٤) المرجع السابق: ١/ ١٦٢.

(٥) المرجع السابق: ١/ ١٧٧.

(٦) المرجع السابق: ١/ ١٨٣.

ويذكر البخاري في اعتقاده الذي ينقله -كما يقول- عن أكثر من ألف رجل من أهل العلم؛ أهل الحجاز ومكة والمدينة والكوفة والبصرة وواسط وبغداد والشام ومصر، أنهم «لم يكونوا يكفرون أحدًا من أهل القبلة بالذنب؛ لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1]»[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن العبد إذا فعل الذنب، مع اعتقاد أن الله حرمه عليه، واعتقاد انقياده لله فيما حرمه وأوجبه فهذا ليس بكافر، فأما إن اعتقد أن الله لم يحرمه، أو أنه حرمه لكن امتنع من قبول هذا التحريم، وأبى أن يذعن لله وينقاد؛ فهو إما جاهل أو معاند؛ ولهذا قالوا: من عصى الله مستكبرًا كإبليس كفر بالاتفاق، ومن عصى مشتهيًا لم يكفر عند أهل السنة والجماعة، وإنما يكفره الخوارج، فإن العاصي المستكبر وإن كان مصدقًا بأن الله ربه، فإن معاندته له ومحادَّته تنافي هذا التصديق.

وبيان هذا أن من فعل المحارم مستحلاً لها فهو كافر بالاتفاق، فإنه ما آمن بالقرآن من استحل محارمه، وكذلك لو استحلها من غير فعل؛ والاستحلال: اعتقاد أن الله لم يحرمها، وتارة بعدم اعتقاد أن الله حرمها، وهذا يكون لخلل في الإيمان بالربوبية، ولخلل في الإيمان بالرسالة، ويكون جحدًا محضًا غير مبني على مقدمة.

وتارة يعلم أن الله حرمها، ويعلم أن الرسول إنما حرم ما حرمه الله، ثم يمتنع عن التزام هذا التحريم ويعاند المحرِّم، فهذا أشد كفرًا ممن قبله، وقد يكون هذا مع علمه أن من لم يلتزم هذا التحريم عاقبه الله وعذبه، ثم إن هذا الامتناع والإباء إما لخلل في

(١) النساء: ٤٨.

(٢) المرجع السابق: ١/ ١٧٥.

اعتقاد حكمة الآمر وقدرته، فيعود هذا إلى عدم التصديق بصفة من صفاته، وقد يكون مع العلم بجميع ما يصدق به تمردًا أو اتباعًا لغرض النفس، وحقيقتـه كفـر؛ هـذا لأنـه يعترف لله ورسوله بكل ما أخبر به، وصدق بكل ما يصـدق بـه المؤمنـون، لكنـه يكـره ذلك ويبغضه ويسخطه لعدم موافقته لمراده ومشـتهاه، ويقـول: أنـا لا أقـر بـذلك ولا ألتزمه وأبغض هذا الحق وأنفر عنه، فهذا نوع غير النـوع الأول، وتكفـير هـذا معلـوم بالاضطرار من دين الإسلام، والقرآن مملوء من تكفير مثل هذا النوع، بل عقوبته أشد، وفي مثله قيل: أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه؛ وهـو إبلـيس ومـن سلك سبيله.

وبهذا يظهر الفرق بين العاصي، فإنه يعتقد وجـوب ذلـك الفعـل عليـه ويحـب أن يفعله، لكن الشهوة والنفرة منعته من الموافقة، فقد أتى من الإيمان بالتصديق والخضوع والانقياد، وذلك قول وعمل، لكن لم يكمل العمل»[1].

ويقول ملا علي القاري -في شرحه على الفقه الأكـبر-: «إن اسـتحلال المعصـية -صغيرة أو كبيرة- كفر، إذا ثبت كونها معصية بدلالة قطعية، وكذا الاستهانة بهـا كفـر؛ بأن يعدها هينـة سـهلة، ويرتكبهـا مـن غـير مبـالاة بهـا، ويجريهـا مجـرى المباحـات في ارتكابها»[2].

ويقول النووي -رحمه الله-: «واعلم أن مذهب أهل الحق، أنه لا يكفـر أحـد مـن أهل القبلة بذنب، ولا يكفر أهل الأهواء والبدع، وأن من جحـد مـا يعلـم مـن ديـن

(١) الصارم المسلول: ٥٢١، ٥٢٢.

(٢) شرح الفقه الأكبر لملا علي قاري: ١٢٦.

الإسلام ضرورة حُكم بردته وكفره، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة ونحوه ممن يخفى عليه، فيعرف ذلك، فإن استمر حُكم بكفره، وكذا حكم من استحل الزنا أو الخمر أو القتل، أو غير ذلك من المحرمات التي يعلم تحريمها ضرورة»[1].

ويقول -رحمه الله- في موضع آخر: «واعلم أن مذهب أهل السنة، وما عليه أهل الحق من السلف والخلف، أن من مات موحدًا دخل الجنة قطعًا على كل حال، فإن كان سالمًا من المعاصي؛ كالصغير والمجنون، والذي اتصل جنونه بالبلوغ، والتائب توبة صحيحة من الشرك أو غيره من المعاصي، إذا لم يحدث معصية بعد توبته والموفق الذي لم يبتلَ بمعصية أصلًا... فكل هذا الصنف يدخلون الجنة، ولا يدخلون النار أصلًا، لكنهم يَرِدونها على الخلاف المعروف في الورود، والصحيح أن المراد به المرور على الصراط، وهو منصوب على ظهر جهنم، أعاذنا الله منها ومن سائر المكروه.

وأما من كانت له معصية ومات من غير توبة.. فهو في مشيئة الله تعالى، فإن شاء تعالى عفا عنه وأدخله الجنة أولًا وجعله كالقسم الأول، وإن شاء عذبه القدر الذي يريده سبحانه وتعالى ثم يدخله الجنة، فلا يخلد في النار أحد مات على التوحيد ولو عمل من المعاصي ما عمل، كما أنه لا يدخل الجنة أحد مات على الكفر ولو عمل من أعمال البر ما عمل.

وهذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق في هذه المسألة، وقد تظاهرت أدلة الكتاب

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ١/ ١٥٠.

والسنة، وإجماع من يعتد به من الأمة على هذه القاعدة، وتواترت بذلك نصوص تُحَصِّلُ العلمَ القطعيَّ»[1].

أن المعاصي بريد الكفر، ويخشى على أصحابها من سوء الخاتمة:

فليس معنى الامتناع عن تكفير أصحاب المعاصي التهوين من شأن المعصية أو الإغراء بها، فقد قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]، وقال ﷺ: «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا نـزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾**[3]»[4].

ثبوت عقد الإسلام لكل من أقرَّ بالشهادتين حتى يتلبس بناقض جلي من نواقض الإسلام:

والإقرار المقصود في هذا المقام، هو الإقرار الالتزامي الذي يقصد به الإجابة إلى الإيمان، وليس مجرد الإقرار الخبري الذي لا يقصد به سوى الإخبار المجرد عن قول القلب، كما يقع في كثير من الأحيان من بعض المستشرقين أو بعض المشتغلين بالعلوم الكونية، عندما يرون إعجاز القرآن الكريم فينطق بعضهم بهذه الكلمة، مع بقائه على دين قومه؛ ولهذا لم ينفع اليهودَ الذين جاؤوا إلى النبي ﷺ هذا الإقرارُ الخبريُّ عندما قالوا له:

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ١/ ٢٣٧.
(٢) النور: ٦٣.
(٣) المطففين: ١٤.
(٤) المرجع السابق: ١/ ١٥٠.

نشهد إنك لرسول، مع امتناعهم عن اتباعه مخافة قومهم؛ لأن مجرد العلم والإخبار عنه ليس بإيمان، حتى يتكلم بالإيمان على وجه الإنشاء المتضمن للالتزام والانقياد.

يقول النووي -رحمه الله-: «واتفق أهل السنة، من المحدثين والفقهاء والمتكلمين، على أن المؤمن الذي يحكم بأنه من أهل القبلة، ولا يخلد في النار، لا يكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقادًا جازمًا خاليًا من الشكوك، ونطق بالشهادتين، فإن اقتصر على إحداهما لم يكن من أهل القبلة أصلًا، إلا إذا عجز عن النطق لخلل في لسانه، أو لعدم التمكن منه لمعالجة المنية، أو لغير ذلك؛ فإنه يكون مؤمنًا»[1].

ويقول الحافظ في الفتح- بعد أن فصَّل الحديث في كون الإيمان قولًا وعملًا-: «وهذا كله كما قلنا بالنظر إلى ما عند الله تعالى، أما بالنظر لما عندنا؛ فالإيمان هو الإقرار فقط، فمن أقر أجريت عليه الأحكام في الدنيا، ولم يحكم عليه بكفر، إلا إن اقترن به فعل يدل على كفره؛ كالسجود للصنم»[2].

والناقض المشار إليه قد يؤدي إلى سقوط ركن التصديق إذا كان تكذيبًا وإنكارًا، وقد يؤدي إلى سقوط ركن الانقياد إن كان ردًّا وإباءً واستكبارًا، ويحتاج تحقيق ذلك في معين إلى التحقق من توافر شروط وانتفاء موانع، على النحو الذي يجري عليه إثبات الجرائم في الأوساط القضائية.

وجوب التحقق إذا حدث لَوْثٌ في دلالة الشهادتين على الإقرار المجمل بالإسلام:

فإن حدث لَوْثٌ في دلالة الشهادتين على الإجابة إلى الإيمان، وإرادة الدخول في

(١)المرجع السابق: ١/ ١٤٩.
(٢) فتح الباري: ١/ ٤٦.

الإسلام، وجب التحقق، فيكف عن قائلها ويتثبت من أمره، حتى يستوفى منه ما يـدل على إقراره المجمل بالإسلام، وبراءته المجملة من كل دين يخالفه.

وقال الشافعي -رحمـه الله-: «والإقـرار بـالإيمان وجهـان؛ فمـن كـان مـن أهـل الأوثان، ومن لا دين له يدعي أنه دين نبـوة وكتـاب، فـإذا شـهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ فقد أقر بالإيمان، ومتى رجع عنه قتل.

ومن كان على دين اليهوديـة والنصرانيـة، فهـؤلاء يـدَّعون ديـن موسـى وعيسـى صلوات الله وسلامه عليهما، وقد بدلوا منه، وقد أُخذ عليهم فيهما الإيمان بمحمـد ﷺ فكفروا بترك الإيمان به واتباع دينه، مع ما كفروا به من الكذب على الله قبله.

فقد قيل لي: إن فيهم من هو مقيم على دينه، يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، ويقول: لم يبعث إلينا! فـإن كـان فـيهم أحـد هكـذا، فقـال أحـد منهم:أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله لم يكن هذا مستكمل الإقرار بالإيمان حتى يقول: وأن دين محمد حق أو فرض، وأبرأ مما خالف دين محمـد ﷺ أو خالف دين الإسلام، فإذا قال هذا فقد استكمل الإقرار بالإيمان، فإن رجع عنه استتيب، فإن تاب وإلا قتل.

وإن كانت طائفة تعرف ألا تقر بنبوة محمد ﷺ إلا عند الإسلام، أو تـزعم أن من أقر بنبوته لزمه الإسلام، فشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسـوله، فقد استكملوا الإقرار بالإيمان، فإن رجعوا عنه استتيبوا وإلا قتلوا»[1].

(١) الأم، للشافعي: ١٥٨، ١٥٩.

والذي يتدبر مقالة الشافعي ﷺ، يجد أن مناط الإيمان عنده هو القبول المجمل للإسلام والبراءة المجملة مما يخالفه، وأنه متى عَبَّرَتِ الشهادتان عن هذا ثبت بهما عقد الإسلام لا محالة.

أما إذا وجد ما يقدح في دلالتهما على هذا المعنى، فقد وجب التحقق من ثبوت هذا الإقرار المجمل؛ ولهذا جعل الإقرار بالشهادتين عند الوثني ومن لا يدين بدين كافيًا في ثبوت عقد الإسلام؛ لعدم وجود ما يقدح في دلالتهما على الإقرار المجمل بالإسلام.

وفرق في أهل الكتاب بين من كان منهم مقيمًا على دينه؛ يشهد لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة، لكنه لا يرى عموم بعثته ﷺ، ويقول: إنه لم يبعث إلينا! فهذا لا ينفعه الإقرار بالشهادتين في ثبوت عقد الإسلام؛ لأنه مع إقراره بهما لم ينخلع عن دينه، ولم يدخل في الإسلام؛ أي: لم يتحقق عنده مناط الإيمان، وهو الالتزام المجمل بالإسلام والبراءة المجملة مما يخالفه، فلا يكون بالنطق بهما قد استكمل الإقرار بالإيمان؛ لتخلف دلالتهما في هذه الحالة.

أما من كان من هؤلاء يرى أن من أقر بنبوته فقد لزمه الإسلام، فإنه يثبت له عقد الإسلام بالإقرار بالشهادتين؛ لعدم وجود ما يقدح في دلالتهما على هذا القبول المجمل.

فالقضية عند الشافعي إذن: هل يدل الإقرار بالشهادتين على القبول المجمل للإسلام، والانخلاع المجمل مما سواه من الأديان؟ أم لا؟

فإن دَلَّتَا على ذلك ثبت بهما عقد الإسلام لا محالة، وإن تخلفتا عن هذه الدلالة لعارض، فيجب التحقق من حصول هذا القبول المجمل.

وقال القاضي عياض: «اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال: لا إله إلا الله، تعبيرًا عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد بهذا مشركو العرب وأهل الأوثان ومن لا يوحـد، وهـم كانوا أول من دعي إلى الإسلام وقوتل عليه، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد، فـلا يكتفـى في عصمته بقول: لا إله إلا الله، إذا كان يقولهـا في كفـره وهـي مـن اعتقـاده؛ فلـذلك جـاء في الحديث الآخر: «**وأني رسول الله، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة**»[1].

والذي يتدبر كلام القاضي عياض، يجد تمام الموافقة بينه وبين كـلام الشـافعي ﷺ، فالقاضي يجعل عصمة المال والنفس مقرونة بالإقرار بالتوحيد، الذي يدل على الإجابـة إلى الإيمان؛ أي: القبول المجمل للإسلام، فإذا لم يدل على ذلك لم يكـن كافيًـا في ثبـوت هذه العصمة؛ ولهذا قبله من غير تحفظ من مشركي العرب والوثنيين؛ لعـدم وجـود مـا يقدح في هذه الدلالة، وتحفظ بالنسبة لغيرهم مـن أهـل الكتـاب، ممـن لا يعنـي إقـراره بالتوحيد التزامه المجمل بالإسلام، وبراءته المجملة مما يخالفه، فالعبرة بالإجابـة إلى الإيـمان المعبَّر عنها بالإقرار بالتوحيد، فهذا هو المناط في ثبوت عقد الإسلام.

ونقل الحافظ ابن حجر عن البغوي قوله: «الكـافر إذا كـان وثنيًّـا أو ثنويًّـا لا يقـر بالوحدانية، فإذا قال: لا إله إلا الله حُكِمَ بإسلامه، ثـم يجـبر عـلى قبـول جميـع أحكـام الإسلام، ويبرأ من كل دين خالف دين الإسلام، وأما من كان مقرًّا بالوحدانيـة منكـرًا للنبوة، فإنه لا يحكم بإسلامه حتى يقول: محمد رسول الله، فإن كان يعتقـد أن الرسـالة

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ١/ ٢٠٦، ٢٠٧.

المحمدية إلى العرب خاصة، فلابد أن يقول: إلى جميع الخلق، فإن كان كفره بجحود واجب أو استباحة محرم فيحتاج أن يرجع عمَّا اعتقده»[1].

ومن يدقق في كلام البغوي؛ يجد أن مناط ثبوت عقد الإسلام عنده هو القبول المجمل للإسلام، والبراءة المجملة من كل دين يخالفه؛ ولهذا اكتفي في الوثني والثنوي بالإقرار بالتوحيد؛ لدلالة هذا الإقرار على قبول الإسلام وعدم وجود ما يقدح في هذه الدلالة.

ولم يكتف به بالنسبة لمنكر النبوة أو منكر عمومها إلى جميع الخلق؛ لأنه لا يدل في هذه الحالة على قبول الإسلام، فأوجب أن يضاف إليه ما يدل على حصول هذا القبول العام.

وقال الحافظ في موضع آخر في الفتح: «وأن قول أصحابنا: من نطق بالتشهد في الأذان حُكم بإسلامه، إلا إذا كان عيسويًّا.. فلا يرد عليه مطلق حديث الباب؛ لأن العيسوية طائفة من اليهود حدثت في آخر دولة بني أمية، فاعترفوا بأن محمدًا رسول اللهﷺ ولكن إلى العرب فقط، وهم منسوبون إلى رجل يقال له: أبو عيسى أحدث لهم ذلك»[2].

فالمانع من ثبوت عقد الإسلام للعيسوي بالتشهد؛ أنه لا يحمل الدلالة على القبول المجمل للإسلام؛ لأن هؤلاء لا يقرون بعموم رسالته ﷺ، ولا يرونها ملزمة لهم.

ويقول النووي -رحمه الله-: «أما إذا أتى بالشهادتين، فلا يشترط معهما أن يقول: وأنا بريء من كل دين خالف دين الإسلام، إلا إذا كان من الكفار الذين يعتقدون اختصاص

(١) فتح الباري: ١٢/ ٢٧٩.
(٢) المرجع السابق: ٢/ ٢٧٩.

رسالة نبينا ﷺ إلى العرب، فإنه لا يحكم بإسلامه إلا بأن يتبرأ، ومـن أصـحابنا -أصـحاب الشافعي رحمه الله- من شرط أن يتبرأ مطلقًا، وليس بشيء»[1].

ولا يخفى أن كل هذه المقولات إنما تتحدث عن الكفار الأصليين، أو عمن ثبتت عليـه الردة بيقين، فلا وجه لتطبيقها على واقع المجتمعات الإسلامية، التـي لا يـزال النـاس فيهـا على أصل انتسابهم إلى الإسلام وإقرارهم المجمل به، وبراءتهم المجملة من كل دين يخالفـه، ولم يتلبسوا فيها بمكفرات يقينية قطعية تنسحب أحكامها على آحاد الناس.

ولكن تبقى القاعدة: إذا وردت الشبهة عـلى الإقـرار المجمـل بالإسـلام فقـد وجـب التحقق، كما هـو الحـال في المجتمعـات التـي يغلـب عـلى أهلهـا بعـض النحـل المكفـرة؛ كالقاديانية والبهائية والدروز والنصيرية ونحوها.

التلازم بين الظاهر والباطن في قضية الإيمان:

فقد صح عن النبي ﷺ قوله: «**ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كلـه، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب**»، وعلى هذا فإذا كان القلب عـامرًا بـالإيمان، انعكس ذلـك عـلى الجـوارح بالاسـتقامة عـلى أمـر الله؛ «**لـو خشـع قلـب هـذا لسـكنت جوارحه**»! إلا إذا حال دون ذلك عارض من إكراه ونحوه، وإذا كان البـاطن فاسـدًا كـان الظاهر بحسبه، ولا يتصـور وجـود الإيـمان الواجـب في القلـب مـع انعـدام جميـع أعـمال الجوارح، بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان ذلك لنقص الإيمان الذي في القلب، ومتـى زادت كان ذلك لزيادته، فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلـب ولازمه ودليله ومعلومه؛ ولهذا جعلت الأعمال الظاهرة في الشرع آيةً على ما في الباطن، فإن

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ١/ ١٤٩.

كان الظاهر فاسدًا حكم على الباطن بذلك، وإن كان مستقيمًا حكم على الباطن بذلك أيضًا، وهذه القاعدة -كما يقول الشاطبي رحمه الله-: كلية التشريع وعمدة التكاليف بالنسبة إلى إقامة حدود الشعائر الخاصة والعامة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإذا قام بالقلب التصديق به والمحبة له، لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة، فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه ودليله ومعلوله، كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضًا تأثير فيما في القلب، فكل منهما يؤثر في الآخر، لكن القلب هو الأصل والبدن فرع له، والفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه»[1].

ويقول ابن رجب: «وحركات الجسد تابعة لحركة القلب وإرادته، فإن كانت حركته وإرادته لله وحده فقد صلح وصلحت حركات الجسد كله، وإن كانت حركة القلب وإرادته لغير الله فسد وفسدت حركات الجسد بحسب فساد حركة القلب، ومعنى هذا أن كل حركات القلب والجوارح إذا كانت كلها لله، فقد كمل إيمان العبد بذلك باطنًا وظاهرًا، ويلزم من صلاح حركات القلب صلاح حركات الجوارح»[2].

ويقول الشاطبي: «ومن هنا جعلت الأعمال الظاهرة في الشرع دليلًا على ما في الباطن، فإن كان الظاهر منخرمًا حكم على الباطن بذلك، أو مستقيمًا حكم على الباطن بذلك أيضًا، وهو أصل عام في الفقه وسائر الأحكام والعاديَّات والتجريبيَّات، بل الالتفات إليها من هذا الوجه نافعٌ في جملة الشريعة جدًّا، والأدلة على صحته كثيرة جدًّا.

(١) مجموع الفتاوى: ٧/ ٥٤١.

(٢) جامع العلوم والحكم: ٦٥، ٦٦.

وكفى بذلك عمدة أنه الحاكم بإيمان المؤمن، وكفر الكافر، وطاعة المطيع وعصيان العاصي، وعدالة العدل وجرحة المجرَّح، وبذلك تنعقد العقود وترتبط المواثيق... إلى غير ذلك من الأمور، بل هو كلية التشريع وعمدة التكليف بالنسبة إلى إقامة حدود الشعائر الإسلامية الخاصة والعامة»[1].

وبعد؛ فقد كانت هذه هي أهم الثوابت في قضية الإيمان، أو بتعبير أدق فيما تكلم فيه المشتغلون بالعمل الإسلامي من مباحثه، ثم ننتقل بعد ذلك إلى بعض التفاصيل التي وقع فيها النزاع، واعتبرها أهل العلم من موارد الاجتهاد.

(١) الموافقات للشاطبي: ١/ ٢٣٣.

المبحث الثاني

موارد الاجتهاد في قضية الإيمان

محالُّ الاجتهاد في المباحث المتعلقة بالإيمان متعددة نذكر منها:

الترادف بين الإيمان والإسلام أو التفريق بينهما والقول بأنهما مراتب:

فقد ذهب كثير من أهل السنة إلى أن الإيمان والإسلام يجتمعان ويفترقان، وأن كل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، ومنهم من يرى أن الإسلام والإيمان شيء واحد؛ ومن هؤلاء البخاري - رحمه الله-، ونقله أبو عوانة الإسفراييني عن المزني صاحب الشافعي - رحمه الله-.

يقول الحافظ في الفتح: «تقدم أن المصنف يرى أن الإيمان والإسلام عبارة عن معنى واحد، فلما كان ظاهر سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام وجوابه يقتضي تغايرهما، وأن الإيمان تصديق بأمور مخصوصة، والإسلام إظهار أعمال مخصوصة أراد أن يرد ذلك بالتأويل إلى طريقته.

قوله: «وبيان»؛ أي: مع بيان أن الاعتقاد والعمل دين، وقوله: «وما بيَّن»؛ أي: مع ما بيَّن للوفد أن الإيمان هو الإسلام، وحيث فسره في قصتهم بما فسر به الإسلام هنا، وقوله: «وقول الله»، مع ما دلت عليه الآية أن الإسلام هو الدين، ودل عليه خبر أبي سفيان أن الإيمان هو الدين، فاقتضى ذلك أن الإسلام والإيمان أمر واحد، هذا محصل كلامه.

وقد نقل أبو عوانة الإسفراييني في صحيحه عن المزني صاحب الشافعي الجزم

بأنهما عبارة عن معنى واحد، وأنه سمع ذلك منه، وعن الإمام أحمد الجزم بتغايرهما، ولكلٍّ من القولين أدلة متعارضة، وقال الخطابي: صنَّف في المسألة إمامان كبيران، وأكثرا من الأدلة للقولين وتباينا في ذلك، والحق أن بينهما عمومًا وخصوصًا، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا»[1].

الاستثناء في الإيمان:

كأن يقول الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله، فإن من الناس من يوجبه ولا يجيز القطع، ومنهم من يجعله مستحبًّا فقط ويجوِّز القطع باعتبار آخر، وإن كان الصواب أنه يجوز باعتبار عدم التحقق من الإتيان به على وجه، أو على اعتبار الجهل بالعاقبة، أو على اعتبار التأدب مع الله، وتعليق الأمور كلها حاضرًا ومستقبلًا بمشيئته، ويجوز تركه إن قصد أصل الإيمان دون كماله، والدخول فيه دون تمامه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والاستثناء في الإيمان سنة عند أصحابنا وأكثر أهل السنة، ثم هنا ثلاثة أقوال؛ إما أن يقال: الاستثناء واجب فلا يجوز القطع، وهذا قول القاضي في عيون المسائل وغيره، وإما أن يقال: هو مستحب ويجوز القطع باعتبار آخر، وإما أن يقال: كلاهما جائز باعتبار، وإنما ذكر أن الاستثناء سنة بمعنى أنه جائز ردًّا على من نهى عنه»[2].

انتقاض الإيمان ببعض الفروع فعلاً أو تركًا:

وذلك كنقضه بترك المباني الأربعة مثلًا، فإنها موضع خلاف بين أهل العلم، يقول

(١) فتح الباري: ١/ ١١٤.

(٢) مجموع الفتاوى: ٧/ ٦٦٦.

شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد اتفق المسلمون على أنه من لم يأت بالشهادتين فهو كافر، وأما الأعمال الأربعة فاختلفوا في تكفير تاركها، ونحن إذا قلنا: أهل السنة متفقون على أنه لا يكفر بالذنب؛ فإنما نريد به المعاصي؛ كالزنا والشرب، وأما هذه المباني ففي تكفير تاركها نزاع مشهور، وعن أحمد في ذلك نزاع، وإحدى الروايات عنه: أنه يكفر من ترك واحدة منها، وهو اختيار أبي بكر وطائفة من أصحاب مالك كابن حبيب، وعنه رواية ثانية: لا يكفر إلا بترك الصلاة والزكاة فقط، ورواية ثالثة: لا يكفر إلا بترك الصلاة، والزكاة إذا قاتل الإمام عليها، ورابعة: لا يكفر إلا بترك الصلاة، وخامسة: لا يكفر بترك شيء منهن؛ وهذه أقوال معروفة للسلف»[1].

وكالخلاف في تكفير الساحر، ومن يأتي الكهنة والعرافين، وتكفير بعض أهل البدع ونحوه.

أنواع التأويلات التي ذهب إليها أهل العلم في النصوص التي يوهم ظاهرها تكفير أصحاب المعاصي:

وذلك بعد اتفاقهم جميعًا على أنه لا يحكم على أحد بمقتضاها بالخروج من الإسلام إلا إذا استحلها، ثم اختلفت تأويلاتهم بعد ذلك في بيان المقصود بهذه النصوص؛ فمنهم من حملها على الاستحلال، ومنهم من حملها على معنى العاقبة؛ أي: إنها تؤول بأصحابها إلى ذلك؛ لما تقرر من أن المعاصي بريد الكفر، ومنهم من تأول الكفر الوارد فيها على أنه كفر العمل، أو الكفر المجازي، أو الكفر الأصغر، أو أن المقصود به التغليظ والزجر، وليس الكفر الذي ينقل عن الملة، وتأول عدم دخول الجنة على معنى

(١) مجموع الفتاوى: ٧/ ٣٠٢.

عدم دخولها مع السابقين، أو أن هـذا جـزاؤه، وقـد يغفـر الله لـه، إلى غـير ذلـك مـن التأويلات؛ التي يجمع بينها نفي إرادة الكفر الأكبر وما يقتضيه من الخلود في النـار مـن هذه النصوص.

وعلى سبيل المثال؛ يذكر النووي في تأويل قوله ﷺ: «**ليس من رجـل ادَّعَـى لغـير أبيه وهو يعلمه، إلا كفر**» تأويلين؛ أحدهما: أنه في حق المستحل، والثاني: أنه كفر النعمة والإحسان[1].

ويذكر في تأويل قوله ﷺ: «**إذا كفَّر الرجل أخاه فقـد بـاء بهـا أحـدهما**»... خمسـة تأويلات؛ أحدها: أنه محمول على المستحل، والثاني: أن المعنـى رجعـت عليـه نقيصـته لأخيه ومعصية تكفيره، والثالث: أنه محمول على الخـوارج المكفـرين للمـؤمنين، وقـد ضُعِّف هذا الوجه؛ لما عليه المحققون من أن الخوارج لا يكفـرون كسـائر أهـل البـدع، والرابع: أن ذلك يؤول به الكفر، والخامس: رجع عليه تكفيره، فليس الراجـع حقيقـة الكفر، بل التكفير[2].

وفي تأويل «**من ادَّعى أبًا في الإسلام غـير أبيـه، يعلـم أنـه غـير أبيـه، فالجنـة عليـه حرام**»..يذكر تأويلين؛ أحدهما: أنه محمول على المستحل، والثاني: أن جزاءه أنها محرمـة عليه أولًا، عند دخول الفائزين وأهل السلامة، ثم إنه قد يجازى فيمنعها عند دخـولهم، ثم يدخلها بعد ذلك، وقد لا يجازى، بل يعفو الله سبحانه وتعالى عنه[3].

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ٢/ ٥٠.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق: ٢/ ٥٢.

وفي تأويل قوله ﷺ: «**وقتاله كفر**» أربعة أقوال؛ أحدها: أنه في المستحل والثاني: أن المراد كفر الإحسان والنعمة وأخوة الإسلام، لا كفر الجحود، والثالث: أنه يؤول إلى الكفر بشؤمه، والرابع: أنه كفعل الكفار[1].

هذا، ومما هو جدير بالذكر أن شيخ الإسلام ابن تيمية يذكر عن عامة علماء السلف أنهم كانوا «يقرون هذه الأحاديث ويمرُّونها كما جاءت، ويكرهون أن تتأول تأويلات تخرجها عن مقصود رسول الله ﷺ، وقد نقل كراهة تأويل أحاديث الوعيد عن سفيان وأحمد بن حنبل رضي الله عنه، وجماعة كثيرة من العلماء»[2].

يقول الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله-: «وهذه الأحاديث التي جاءت؛ «**ثلاث من كن فيه فهو منافق**» هذا على التغليظ، نرويها كما جاءت، ولا نفسرها، وقوله: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا ضُلاَّلاً؛ يضرب بعضكم رقاب بعض**»، ومثل: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار**»، ومثل: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»، ومثل: «**من قاله لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما**»، ومثل: «**كفرٌ بالله، تبرؤٌ من نسبٍ وإن دقَّ**».. ونحوه من الأحاديث مما قد صح وحُفظ فإنا نسلم به، وإن لم يعلم تفسيرها، ولا يتكلم فيه ولا يجادل فيه، ولا تفسر هذه الأحاديث إلا مثل ما جاءت، ولا نردها إلا بالحق منها»[3].

وقد ذكر علي بن المديني في اعتقاده قريبًا من هذا القول[4].

---

(١) المرجع السابق: ٢/ ٥٤.

(٢) مجموع الفتاوى: ٧/ ٦٧٣.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ١/ ١٦٢- ١٦٤.

(٤) المرجع السابق: ١/ ١٦٩، ١٧٠.

والذي يبدو لنا هو التفريق بين مقامين:

مقام الدعوة والإرشاد؛ وفيه يجب أن نطلـق هـذه النصـوص كـما أطلقهـا رسـول اللهﷺ، ولا يتأول لها بما يضعف أثرها المقصود بها، حتى تؤدي دورهـا في الزجـر عـن هذه المنكرات، وتعظيم خطرها، وتحذير الكافة من التلبس بها.

مقام التعليم وإجراء الأحكام، وفيه يجب أن يجمع بـين النصـوص الشرعيـة، وأن يبين مذهب أهل الحق في التعامل مع أصـحاب المعـاصي، وضـوابط إجـراء الأحكـام عليهم؛ منعًا للتهارج والتقاذف بأحكام الكفر بغير ضابط، مع ما قد يترتب عـلى ذلـك من استباحة الدماء والأموال والأعراض بغير سلطان من الله.

وكم أدى الخلط بـين هـذين المقـامين إلى كثـير مـن اللـبس والاضـطراب، في إجـراء الأحكام في واقعنا المعاصر، فرأينا فريقًا من النـاس ينطلقـون إلى عبـارات وردت في مقـام استجاشة العواطف، واستنفار الهمم، وإيقاد جذوة الإيمان، وتحريض الناس عـلى الجهـاد، فيستخدمونها في إجراء الحكم على المخالف، بطريقة لعلها لم تطـف بخيـال صـاحبها قـط، وما أشبه موقفهم هذا بموقف من بلغه أن عليًّا ﷺ كان يخطـب في الكوفـة ويسـتنفر أهلهـا بقوله: يا أشباه الرجال ولا رجال، فيقول: إن شبه الرجل هو الخنثى المشكل! ثـم يسـتقرئ كل أحكام الخنثى المشكل في كتب الفقه، ويجريها على أهل الكوفة!!

وبالمقابل رأينا فريقًا آخر يردون على هذا الفريق بإبراز عـوارض الأهليـة؛ مـن الجهـل والإكراه والتأويل، وما قام منها لدى بعض خصوم الشريعة، في محاولة مـنهم لكـبح جمـاح

الفريق الأول، فيستغرقون في ذلك ويوغلون، ويكونون في مقام المجادل عن المبطلين والمدافع عن المضلين، أو هكذا تبدو صورتهم، وقد يشنع عليهم بذلك وهم به كافرون!

ولا تضبط هذه المسألة إلا بالتفريق بين المقامين؛ مقام الدعوة والإرشاد من ناحية، ومقام التعليم وإجراء الأحكام من ناحية أخرى، وإشاعة العلم بأصول أهل السنة والجماعة الضابطة لمسائل الأسماء والأحكام؛ حتى يكون الناس منها على بصيرة، وحتى يردوا إليها ويحاكموا في ضوئها جموح الأقلام، وما ورد في مقام إيقاظ الهمم من المبالغات والمجازات.

تحقيق المناط في قضية رد الحكم الشرعي:

لقد سبق أن الاجتهاد في تحقيق المناط من الاجتهادات الباقية المتجددة التي لا يخلو منها زمان ولا يكاد ينفك منها أحد؛ لأنها تتعلق بتطبيق القواعد الكلية والنصوص الشرعية على الجزئيات والوقائع التي يمكن أن تندرج تحتها، وهو مجال لتفاوت الاجتهادات وتباين التقديرات، خاصة في الوسط الغامض الذي يقف بين طرفين، يتضح في أحدهما تحقق المناط، وفي الآخر عدم تحققه.

ومن الأمثلة الدالة على ذلك: تحقيق المناط في قضية رد الحكم الشرعي، فقد اتفق أهل العلم على أن رد التشريع كفر بذاته، لا يشترط أن يكون معه تكذيب، وقد نقلنا ذلك عن الجصاص، وعن عبد القادر عودة، وعن عبد الرحمن عبد الخالق... وغيرهم، فالقاعدة في أصلها محكمة، ولكن المنازعة تحدث عند التعيين، ولا أدل على ذلك من أن الجصاص نفسه ذكر مثالًا على تطبيق هذه القاعدة؛ وهو حكم الصحابة بالردة على الممتنع من أداء الزكاة، باعتبار ذلك صورة من صور الردة، قال: «وذلك يوجب صحة ما ذهب إليه

الصحابة، في حكمهم بارتداد من امتنع من أداء الزكـاة، وقـتلهم وسـبي ذراريهـم؛ لأن الله تعالى حكم بأن من لم يسلم للنبي ﷺ قضاءه وحكمه فليس من أهل الإيمان»[1].

ولكن هذا المثال لا يسلم للجصاص بإطلاق، فقد وُجد من أهـل العلـم مـن ينازعـه فيه، رغم اتفاقهم جميعًا على أصل القاعدة، وهو كفر من رد شـيئًا مـن أوامـر الله تعـالى، أو أوامر رسوله ﷺ، فإطلاق القول بالحكم بالردة على من امتنع من أداء الزكـاة أيـام أبي بكـر موضع نظر؛ لأن الذين امتنعوا عن الزكاة في ذلك الوقت كانوا أنواعًـا؛ مـنهم مـن ارتـدوا عن الدين وتركوا الصلاة والزكاة وأنكروا الشرائع؛ وهؤلاء كفار بـلا نـزاع، ومـنهم مـن منع الزكاة مع بقائه على أصـل الـدين؛ وهـؤلاء هـم أهـل بغـي، وفي أمـر هـؤلاء عـرض الخلاف، ووقعت الشبهة لعمر ﷺ، فراجعه أبو بكر وناظره حتى شرح الله صدره لمـا شرح له صدر أبي بكر ﷺ.

يقول الخطابي -رحمه الله- في معرض بيانه لأصناف أهل الردة أيام أبي بكر ﷺ-: «ممـا يجب تقديمه في هذا، أن يعلم أن أهل الردة كانوا صنفين:

- صنف ارتدوا عن الدين ونابذوا الملة وعادوا إلى الكفـر، وهـم الـذين عنـاهم أبـو هريرة بقوله: وكفر من كفر من العرب، وهذه الفرقة طائفتان:

إحداهما: أصحاب مسيلمة من بني حنيفة وغيرهم، الذين صـدَّقوه عـلى دعـواه في النبوة، وأصحاب الأسود العنسي ومن كان من مستجيبيه من أهل اليمن وغيرهم، وهذه الفرقة بأسرها منكرة لنبوة نبينا محمد ﷺ مدعيـة النبـوة

(١) أحكام القرآن، للجصاص: ٣/ ١٨١.

لغيره، فقاتلهم أبو بكر ﷺ، حتى قتل الله مسيلمة باليمامة، والعنسي بصنعاء، وانفضت جموعهم وهلك أكثرهم.

والطائفة الأخرى: ارتدوا عن الدين، وأنكروا الشرائع، وتركوا الصلاة والزكاة وغيرها من أمور الدين، وعادوا إلى ما كانوا عليه في الجاهلية، فلم يكن يُسجد لله تعالى في بسيط الأرض إلا في ثلاثة مساجد؛ مسجد مكة، ومسجد المدينة، ومسجد عبد القيس في البحرين، في قرية يقال لها: جُواثا.

والصنف الآخر هم الذين فرقوا بين الصلاة والزكاة؛ فأقروا بالصلاة، وأنكروا فرض الزكاة ووجوب أدائها إلى الإمام، فهؤلاء على الحقيقة أهل بغي، وإنما لم يدعوا بهذا الاسم في ذلك الزمان خصوصًا لدخولهم في غمار أهل الردة، فأضيف الاسم في الجملة إلى الردة؛ إذ كانت أعظم الأمرين وأهمهما، وأرخ قتال أهل البغي في زمن علي ابن أبي طالب ﷺ؛ إذ كانوا منفردين في زمانه لم يختلطوا بأهل الشرك، وقد كان في ضمن هؤلاء المانعين للزكاة من كان يسمح بالزكاة ولا يمنعها، إلا أن رؤساءهم صدوهم عن ذلك الرأي، وقبضوا على أيديهم في ذلك؛ كبني يربوع فإنهم قد جمعوا صدقاتهم، وأرادوا أن يبعثوا بها إلى أبي بكر ﷺ، فمنعهم مالك بن نويرة من ذلك وفرقها فيهم، وفي أمر هؤلاء عرض الخلاف ووقعت الشبهة لعمر ﷺ»[1].

ويقول الخطابي -رحمه الله- في معرض رده على الرافضة، الذين زعموا أن أبا بكر أول من سبى المسلمين، وأن القوم كانوا متأولين في منع الصدقة-: «وهؤلاء الذين زعموا ما ذكرناه، قوم لا خلاق لهم في الدين، وإن رأس مالهم البهت والتكذيب

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ١/ ٢٠٢، ٢٠٣.

والوقيعة في السلف، وقد بينا أن أهل الردة كانوا أصنافًا؛ منهم من ارتد عن الملة ودعا إلى نبوة مسيلمة وغيره، ومنهم من ترك الصلاة والزكاة وأنكر الشرائع كلها، وهؤلاء هم الذين سماهم الصحابة كفارًا، ولذلك رأى أبو بكر ﷺ سبي ذراريهم، وساعده على ذلك أكثر الصحابة، واستولد علي بن أبي طالب ﷺ جارية من سبي بني حنيفة، فولدت له محمدًا الذي يدعى ابن الحنفية، ثم لم ينقضِ عصر الصحابة حتى أجمعوا على أن المرتد لا يُسْبَى، فأما مانعو الزكاة منهم المقيمون على أصل الدين، فإنهم أهل بغي ولم يسموا على الانفراد منهم كفارًا، وإن كانت الردة قد أضيقت إليهم لمشاركتهم المرتدين في منع بعض ما منعوه من حقوق الدين، وذلك أن الردة اسم لغوي، وكل من انصرف عن أمرٍ كان مقبلًا عليه فقد ارتد عنه، وقد جد من هؤلاء القوم الانصراف عن الطاعة ومنع الحق، وانقطع عنهم اسم الثناء والمدح بالدين، وعَلَقَ بهم الاسم القبيح لمشاركتهم القومَ الذي كان ارتدادهم حقًّا!»[1].

ثم يرد الخطابي على شبهة قد تعرض في هذا المقام؛ وهي: كيف يعتبر هؤلاء بغاة وهم ينكرون الزكاة؟ فيقول: «فإن قيل: كيف تأولت أمر الطائفة التي منعت الزكاة على الوجه الذي ذهبت إليه، وجعلتهم أهل البغي؟ وهل إذا أنكرت طائفة من المسلمين في زماننا فرض الزكاة، وامتنعوا من أدائها يكون حكمهم حكم أهل البغي؟ قلنا: لا، فإن من أنكر فرض الزكاة في هذه الأزمان كان كافرًا بإجماع المسلمين، والفرق بين هؤلاء وأولئك، أنهم إنما عُذِروا بأسباب وأمور لا يحدث مثلها في هذا الزمان؛ منها قرب العهد بزمان الشريعة، والذي كان يقع فيه تبديل الأحكام بالنسخ، ومنها أن القوم كانوا جُهَّالاً بأمور الدين وكان عهدهم بالإسلام قريبًا فدخلتهم الشبهة؛ فعذروا، فأما اليوم وقد شاع دين الإسلام،

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ١/ ٢٠٣، ٢٠٤.

واستفاض في المسلمين علم وجوب الزكاة، حتى عرفها الخاص والعام، واشترك فيه العالم والجاهل، فلا يعذر أحد بتأويل يتأوله في إنكارها»[1].

والمقصود من هذا الاستطراد بيان أن الإطلاق الذي أطلقه الجصاص في تكفير الممتنع من أداء الزكاة، باعتبار الامتناع من أداء الزكاة صورة من صور الرد موضعُ نظر لم يوافق عليه كثير من أهل العلم، وفصلوا هذا التفصيل السابق، رغم أن القاعدة في أصلها محكمة، وهي موضع اتفاق من الجميع.

هذا، وقد استشكل بعض الفضلاء دلالة هذه الحادثة على ما سيقت من أجله، من أن تحقيق المناط في قضية رد التشريع من موارد الاجتهاد، وقرر أن الامتناع كالرد كلاهما كفر أكبر بلا تردد، وأن التكفير في كليهما يتعلق بورود الشبهة أو انتفائها، وأن الذين قاتلهم أبو بكر كانوا جميعًا كفارًا؛ لأنه لابد أن يكونوا قد أزال شبههم قبل القتال، فلا يبقى مستند لمن استثناهم الخطابي من التكفير لورود الشبهة وقرب عهدهم بالإسلام.

ونوجز تعليقنا عليه بما يلي:

إن الذي اعتمده الفقهاء والمحدثون، أن أهل الردة كانوا ثلاثة أصناف: صنف عاد إلى عبادة الأوثان، وصنف اتبعوا مسيلمة والأسود العنسي، وصنف ثالث استمر على أصل الإسلام ولكنهم جحدوا الزكاة، وتأولوا بأنها خاصة بزمن النبي ﷺ؛ وهم الذين ناظر عمرُ أبا بكر في قتالهم، ففيهم وقعت الشبهة، وحولهم دارت المناظرة.

(١) المرجع السابق: ١/ ٢٠٥.

وجمهور أهل العلم على أن هذا الصنف الثالث ليسوا بكفـار، وأنـه لا تـلازم بـين التكفير والمقاتلة، وهو الذي ذكره النووي والخطابي والحافظ ابن حجر والبـدر العينـي وابن قدامة والشوكاني وغيرهم.

يقول الحافظ في الفتح: «وإنما أطلق في أول القصة الكفر ليشمل الصنفين، فهو في حـق من جحد حقيقة، وفي حق الآخرين مجازٌ تغليبًا؛ وإنما قاتلهم الصديق ولم يعـذرهم بالجهـل لأنهم نصبوا القتال، وجهز إليهم من دعاهم إلى الرجوع، فلما أصروا قاتلهم»[1].

ويقول الخطابي عن هذا الصنف: «وهؤلاء في الحقيقة أهل بغي، وإن لم يدعوا بهـذا الاسم في ذلك الزمان خصوصًا لدخولهم في غمار أهل الردة، فأضيف الاسم في الجملة إلى الردة؛ إذ كانت أعظم الأمرين، وأرخ قتال أهل البغي في زمن علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ إذ كانوا منفردين في زمانه لم يختلطوا بأهل الشرك».

ويقول عنهم في موضع آخر: «فأما مانعو الزكاة منهم المقيمون عـلى أصـل الـدين فإنهم أهل بغي، ولم يسموا على الانفراد منهم كفارًا، وإن كانت الردة قد أضيفت إليهم لمشاركتهم المرتدين في منع بعض ما منعوه مـن حقـوق الـدين، وذلـك أن الـردة اسـم لغوي، وكل من انصرف عن أمر كان مقبلًا عليه فقد ارتد عنه، وقد وجـد مـن هـؤلاء القوم الانصراف عن الطاعة ومنع الحق وانقطع عنهم اسم الثناء والمدح بالدين، وعلق بهم الاسم القبيح لمشاركتهم القوم الذين كان ارتدادهم حقًّا»[2].

(١) فتح الباري: ١٢/ ٢٧٧.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: ١/ ٢٠٤.

ويسوق البدر العيني نفس كلام الخطابي بحروفه تقريبًا، ويلتزمه ويشرح به الحديث، بل لا ينسبه إلى الخطابي أصلًا، حتى إن الذي لم يطلع على كلام الخطابي يحسبه من كلام البدر العيني نفسه[1].

ويقول ابن قدامة في المغني: «وإنْ منعها معتقدًا وجوبها، وقدر الإمام على أخذها منه أخذها وعزره، ولم يأخذ زيادة عليها في قول أكثر أهل العلم؛ فأما إن كان المانع خارجًا عن قبضة الإمام قاتله؛ لأن الصحابة ﷺ قاتلوا مانعيها؛ فإن ظفر به وبماله أخذها منه من غير زيادة أيضًا، ولم يُسْبِ ذريته؛ لأن الجناية من غيرهم؛ ولأن المانع لا يُسْبَى فذريته أولى، وإن ظفر به دون ماله دعاه إلى أدائها واستتابه ثلاثًا، فإن تاب وأدى، وإلا قتل، ولم يحكم بكفره، وعن أحمد ما يدل على أنه يكفر بقتاله عليها»[2].

ثم ساق -رحمه الله- أدلته على عدم كفره، ورد على ما استدل به أحمد رحمه الله.

وابن حزم يذكر أحوال الناس بعد موت النبي ﷺ فيقول: «انقسمت العرب بعد موت النبي ﷺ على أربعة أقسام...»[3]، ثم يذكر هذه الطائفة فيقول: «وطائفة بقيت على الإسلام أيضًا، إلا أنهم قالوا: نقيم الشعائر إلا الزكاة»! ولم يقل: وطائفة ارتدت بترك الزكاة.

ويقول القاضي عياض في وصف هذه الطائفة: «وصنف ثالث استمروا على الإسلام لكنهم جحدوا الزكاة، وتأولوا بأنها خاصة بزمن النبي ﷺ وهم الذين ناظر

(١) عمدة القاري للبدري العيني: ٨/ ٢٤٤.
(٢) المغني، لابن قدامة: ٢/ ٤٣٤- ٤٣٦.
(٣) راجع: فتح الباري، ١٢/ ٢٧٦.

عمر أبا بكر في قتالهم، كما وقع في حديث الباب»[1].

ويسوق الشوكاني في نيل الأوطار كلام الخطابي، ويكتفي به ولا يزيد عليه في هذا الباب، وفي ذلك دلالة على التزامه به وأنه موضع قبول عنده[2].

وإذا كان من أهل العلم من أطلق القول بكفر هذه الطائفة، فإن القضية تصبح من موارد الاجتهاد، ويصبح قولنا: إن إطلاق القول بتكفير الممتنع من أداء الزكاة موضع نظر، وأنه ليس موضع إجماع أهل العلم؛ لأن الامتناع عن فعل طاعة، أو عن الإقلاع عن معصية، قد يكون كفرًا إذا كان مرده إلى تكذيب الحكم الشرعي أو رده، وقد يكون معصية إذا كان من جنس الإصرار على المعاصي، مع بقاء الإقرار بما أنـزل الله تصديقًا وانقيادًا، فلا تصح التسوية بينه وبين الرد؛ لأن الرد لا يكون إلا كفرًا أكبر في جميع الأحوال، إلا إذا كان مردُّه إلى عارض من عوارض الأهلية.

أما ما ذكر من أن تكفيرهم هو المتعين؛ لإصرارهم على إنكار وجوب الزكاة بعد إزالة الشبهة من قبل جيوش الصحابة، فلعل هؤلاء هم الذين أنكروا وجوب دفعها إلى أبي بكر، لا أنكروا وجوب إخراجها بالكلية، فقد كان في هؤلاء من يسمح بالزكاة ولا يمنعها، إلا أن رؤساءهم صدوهم عن ذلك الرأي، وقبضوا على أيديهم في ذلك؛ كبني يربوع فإنهم قد جمعوا صدقاتهم وأرادوا أن يبعثوا بها إلى أبي بكر ﷺ، فمنعهم مالك بن نويرة من ذلك وفرقها فيهم! ويكون هذا نوعًا من البغي والامتناع عن طاعة من

(١) المرجع السابق.

(٢) نيل الأوطار، للشوكاني: ٤/ ١٢٧- ١٣٠.

وجبت طاعته من الأئمة، فلا يكون كفرًا في هذه الحالة؛ لأنه خروج على الإمام، وليس خروجًا عن الدين، والله أعلم.

بل ومن الأدلة على ذلك كذلك، أن الأستاذ عبد القادر عودة- الذي نقل هذه القاعدة كذلك، قال-: «ومن المتفق عليه أن من ردَّ شيئًا من أوامر الله أو أوامر رسوله، فهو خارج عن الإسلام، سواء رده من جهة الشك أو من جهة ترك القبول أو الامتناع عن التسليم، ولقد حكم الصحابة بارتداد مانعي الزكاة، واعتبروهم كفارًا خارجين عن الإسلام؛ لأن الله حكم بأن من لم يسلم بما جاء به الرسول، ولم يسلم بقضائه وحكمه.. فليس من أهل الإيمان، قال جل شأنه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[1]

وقد فصل في أمر استحداث شرائع جديدة على خلاف حكم الله، ولم يطلق القول في اعتبار هذا الاستحداث صورة من صور الرد، بل فصَّل، فقال: «ومن المتفق عليه أن من يستحدث من المسلمين أحكامًا غير ما أنزل الله، ويترك الحكم بكل أو بعض ما أنزل الله، ومن غير تأويل يعتقد صحته، فإنه يصدق عليهم ما وصفهم به الله تعالى من الكفر، والظلم، والفسق، كلٌّ بحسب حاله، فمن أعرض عن الحكم بحد السرقة أو القذف أو الزنا؛ لأنه يفضل غيره من أوضاع البشر؛ فهو كافر قطعًا، ومن يحكم به لعلة

(١) النساء: ٦٥.

أخرى غير الجحود والنكران؛ فهو ظالم إن كان في حكمه مضيعًا لحق أو تاركًا لعـدل أو مساواة، وإلا فهو فاسق»[1].

ونفس هذا التردد أو قريب منه، تجده عند صاحب المنار عندما يقول: «ولعمـري، إن الشبهة في هؤلاء الأمراء الواضعين للقـوانين أشـد، والجـواب عـنهم أعسر، وهـذا التأويل في حقهم لا يظهر، وإن العقل ليعسر عليه أن يتصور أن مؤمنًا مذعنًا لـدين الله، يعتقد أن كتابه يفرض عليه حكمًا ثم هو يغيره باختياره، ويستبدل به حكمًا آخر بإرادته، إعراضًا عنه وتفضيلًا لغيره عليه، ويعتد مع ذلك بإيمانه وإسلامه»[2]!

والخلاصة التي نريد أن نصل إليها، أن المحْكَم في هذه القضية هـو القـول بـأن رد الحكم الشرعي كفر، وهذا موضع اتفاق والحمد لله، أما أن هذا الحاكم بعينه قـد تحقـق فيه هذا المناط، بلا عارض من جهـل أو تأويـل أو إكـراه يعـذر بـه مثلـه فهـذا في محـل الاجتهاد، ولا يتسنى اعتباره في واقع الالتبـاس وعـدم التمايـز، وادعـاء الإسـلام مـن حكام الأمة كافة، والقناطير المقنطرة من الدجل السياسي الذي يمارسه هـؤلاء. أقـول: لا يتسنى اعتباره- والحـال كـذلك- محكـمًا مـن أصـل الـدين، معلومًـا مـن الإسـلام بالضرورة، يكفر مخالفه كما يكفـر مـن ينـازع في تكفـير اليهـود والنصـارى والـوثنيين وأضرابهم.

(١) التشريع الجنائي الإسلامي، للأستاذ عبد القادر عودة: ٢/ ٧٠٨- ٧١٠.

(٢) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا: ٦/ ٤٠٧.

الفصل الرابع

الثوابت وموارد الاجتهاد في قضية التوحيد

لا منازعة بين جمهور المشتغلين بالعمل الإسلامي المعاصر على أهمية هذه القضية، باعتبارها أول واجب على المكلفين، وأول ما بدأت به دعوة الرسل أجمعين، والشرط الذي لا يصح عمل من الأعمال إلا به، ولا تقبل طاعة من الطاعات إلا باستيفائه، والذي من مات عليه دخل الجنة يومًا من الدهر، وإن أصابه قبل ذلك ما أصابه، ومن مات غير محقق له مات خالدًا مخلدًا في نار جهنم، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً[1]، فهو أصل الدين والمهم الذي ابتعث الله به النبيين أجمعين. نقول لا منازعة بينهم في ذلك على الأقل على مستوى التنظير والعقد المجمل، وإن تفاوتت جهودهم بعد ذلك في تحقيق مقتضى ذلك على مستوى العمل والتطبيق.[2]

إلا أن بعض التفاصيل المتعلقة بهذه القضية كانت ولا تزال موضع نزاع بين أهل العلم، سواء أكانت هي بطبيعتها من الفروع وللاجتهاد فيها مساغ، أو للمنازعة في تحقيق مناطاتها بالنسبة لواقع معين، فنشأ عن ذلك كثير من الخلل والتهارج.

(١) لا يستثنى من ذلك إلا أهل الفترة الذين لم تبلغهم النذارة، فإن لأهل العلم في مآلهم في الآخرة اجتهادات متعددة، لعل أرجحها أنهم يمتحنون في عرصات يوم القيامة، فمن أطاع دخل الجنة ومن عصى دخل النار، وستأتي الإشارة إليهم بمزيد من التفصيل في موضعها من هذه الدراسة.

(٢) وقد ينسب إلى بعض رموز وقادة التيار الإسلامي بعض الزلات التي تناقض ذلك فتكون من الباطل الذي يجب إنكاره، بالغة منزلة قائله ما بلغت، ولكن لا ينبغي ولا يجمل أن يوقف بالدعوات عند حدود كلمات نقلت عن بعض الرموز، وتجاوزتها قواعدهم، واستقر العمل على خلافها في مسيرتهم، وقد نسب شيء من ذلك عبر التاريخ إلى بعض من عرفوا بالخير، فأنكر عليهم ما أساءوا فيه، وأثني عليهم بما أحسنوا، ولا يخفى أن الأرضى لله عز وجل والأنفع لعباده هو السعي لتصحيح أغلاط من عرف عنهم سابقة في عمل الخير وكثرت آثارهم الصالحات، مع الإشادة بما عندهم من الخير والثناء عليهم به، أما إهالة التراب على آثار هؤلاء جميعًا خيرها وشرها، صوابها وخطئها، حقها وباطلها، فهو المنهج الذي لاتصلح به دنيا، ولا يقام به دين!

وقد شهدت ساحة العمل الإسلامي بعض المنازعات المتعلقة بهذه التفاصيل؛ ولأن الأمر ماسٌّ بالتوحيد أو حائم حوله، فقد تميزت هذه المنازعات بحساسية خاصة، تختلف عن مثيلاتها التي تحدث في باب الفروع العملية أو بعض الفروع العلمية الأخرى، وقد أدى ذلك إلى كثير من التناوش والتقاذف بالمناكر، الأمر الذي يمثل بابًا من الخلل، أو عقبة من العقبات التي يجب تنحيتها من طريق العمل الإسلامي، حتى يغذَّ السير في الطريق إلى هدفه المنشود بلا مضيعات ولا صوارف.

ونود في هذه الدراسة أن نميز الثوابت من المتغيرات، والمحكم من المتشابه في هذه القضية الكبرى، آملين أن يمتهد بذلك سبيلٌ إلى الاجتماع حول المحكم الجلي، والتغافر في المتشابه الخفي، والتفرغ لمواجهة المنكر الأكبر الذي ضيع الأصول والفروع، وهدم التوحيد والأعمال معًا، وأوشك أن يأتي على بنيان الإسلام كله من القواعد، فإن هذا هو واجب الوقت الذي لا يجوز أن يُقتطع المسلمون دون تحقيقه بخلاف فروعي، أو أن يُصرفوا عن إقامته بتناوش جانبي، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[1]

(١) الأنفال: ٤٦.

المبحث الأول

الثوابت في هذه القضية

الأصل في هذه القضية أنها من الثوابت المحكمات، وأنها لا تتطرق إليها الظنون ولا الاحتمالات؛ لأنها أعظم حقيقة في الإسلام، بل أعظم حقيقة في هذا الوجود! وأية حقيقة أولى بالإحكام والثبات من حقيقة التوحيد، التي حملها أنبياء الله جميعًا على مدار التاريخ، منذ آدم إلى محمد ﷺ بلا نسخ ولا تبديل؟! ولكن بعض التفاصيل والجزئيات المتعلقة بها قد تكون -كما سبق- موضعًا لتفاوت الإفهام؛ إما لأنها بطبيعتها فروعية، أو للمنازعة في تحقيق مناطها في واقع معين، وسوف نبدأ هنا بعرض الأصول الثابتة المحكمة في هذه القضية، ثم نردفها بالحديث عن هذه التفاصيل الجزئية المتشابهة.

ونستطيع أن نوجز أهم هذه الثوابت المحكمة في النقاط الآتية:

التوحيد دعوة الرسل أجمعين، وأول ما يخاطب به الناس من أمور الدين، وهو معقد النجاة في الدنيا والآخرة:

أما أنه دعوة الرسل أجمعين؛ فلقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[1]، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾[2]، وقوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ

(١) الأنبياء: ٢٥.

(٢) النحل: ٣٦.

ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[1]، وقوله: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾[2]، وقوله ﷺ: «**الأنبياء إخوة لعَلَّات؛ أمهاتهم شتى ودينهم واحد**»[3].

فالدين واحد وهو التوحيد، والشرائع متفاوتة؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾[4]. وقد انعقد على هذا المعنى إجماع المسلمين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وعبادة الله وحده هي أصل الدين، وهو التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنـزل به الكتب، فقال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[7]»[8].

وأما أنه أول ما يخاطب به الناس من أمور الدين؛ فلأن سائر الأعمال لا تُقبل ولا تصح إلا به، فكما لا تقبل صلاة إلا بوضوء، لا تقبل عبادة بلا توحيد، قال تعالى:

(١) الأحقاف: ٢١.
(٢) آل عمران: ٦٤.
(٣) رواه البخاري.
(٤) المائدة: ٤٨.
(٥) الزخرف: ٤٥.
(٦) النحل: ٣٦.
(٧) الأنبياء: ٢٥.
(٨) مجموع الفتاوى: ٣/ ٣٩٧.

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾[1]، وقال تعالى عن أنبيائه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2].

ولهذا قال ﷺ لمعاذ عندما بعثه إلى اليمن: «**يا معاذ، إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ﷻ، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوقَّ كرائم أموالهم**»[3].

وأما أنه معقد النجاة في الدنيا؛ فلأنه بالإقرار بالتوحيد والرسالة يثبت عقد الإسلام، وتعصم الدماء والأموال إلا بحقه، قال ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله؛ عصم مني ماله ونفسه، إلا بحقه، وحسابه على الله**»[4].

وقد سبق قول الحافظ ابن حجر: «أما بالنظر إلى ما عندنا فالإيمان هو الإقرار فقط، فمن أقر أجريت عليه أحكام الدنيا، ولم يحكم عليه بكفر، إلا إن اقترن به فعل يدل على كفره؛ كالسجود لصنم»[5].

(١) الزمر: ٦٥-٦٦.
(٢) الأنعام: ٨٨.
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي: ١/ ١٩٦.
(٤) رواه البخاري.
(٥) المرجع السابق: ١/ ٢٢٠.

فكل من أقر بالتوحيد والرسالة إقرارًا التزاميًّا، قاصدًا به الإجابةَ إلى الإيمان، فقد ثبت له عقد الإسلام، ووجب له بمقتضاه عصمة دمه وماله إلا بحق الإسلام؛ من ردة بعد إسلام، أو زنًا بعد إحصان، أو قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق... ونحوه.

وأما أنه معقد النجاة في الآخرة؛ فلقوله ﷺ وقد سئل: ما الموجبتان؟ فقال: «**من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار**»، وقوله ﷺ: «**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة**»(رواه مسلم)، وقوله ﷺ: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بها عبد غير شاكٍّ فيهما، إلا دخل الجنة**»(رواه مسلم)، وفي رواية: «**فيحجب عن الجنة**»؛ ولقوله ﷺ لمعاذ: «**يا معاذ، تدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟**»قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإن حق الله على العباد، أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله ﷻ ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا**»، قال: قلت: يا رسول الله ﷺ، أفلا أبشر الناس؟ قال: «**لا تبشرهم فيتكلوا**»[1] (رواه مسلم).

قال النووي -رحمه الله-: «إن مذهب أهل السنة بأجمعهم، من السلف الصالح وأهل الحديث والفقهاء، والمتكلمين على مذهبهم من الأشعريين، أن أهل الذنوب في مشيئة الله تعالى، وأن كل من مات على الإيمان وتشهَّد مخلصًا من قلبه بالشهادتين، فإنه يدخل الجنة، فإن كان تائبًا أو سليمًا من المعاصي دخل الجنة برحمة الله رب العالمين، وحرم على النار بالجملة، وإن كان هذا من المخلطين، بتضييع ما أوجب الله تعالى عليه، أو بفعل ما حرم عليه، فهو في المشيئة، لا يقطع في أمره بتحريمه على النار، ولا

(١) مجموع الفتاوى: ١/ ٣١٠.

باستحقاقه الجنة لأول وهلة، بل يقطع بأنه لابد من دخوله الجنة آخرًا، وحاله قبل ذلك في خطر المشيئة؛ إن شاء الله تعالى عذبه بذنبه، وإن شاء عفا عنه بفضله»[1].

أن الإقرار بالتوحيد لا يتحقق بمجرد الإقرار بتفرد الله بصفات الخلق والرزق والتدبير الكوني:

فقد أقر بأغلب هذه المعاني عامة المشركين إبان البعثة، ولم تنفعهم في النجاة من الشرك، ولم يثبت لهم بإقرارهم بها عقد الإسلام.

قال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[4].

قال شيخ الإسلام: «ودين الإسلام مبني على أصلين؛ وهما: تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأول ذلك: ألا تجعل مع الله إلهًا آخر، فلا تحبَّ مخلوقًا كما تحب

(١) المرجع السابق: ١/ ٣١٢.
(٢) المؤمنون: ٨٤-٨٩.
(٣) الزخرف: ٩.
(٤) يونس: ٣١.

الله، ولا ترجوه كما ترجو الله، ولا تخشاه كما تخشى الله، ومن سوَّى بين المخلوق والخالق في شيء من ذلك فقد عدل بالله، وهو من الذين بربهم يعدلون، وقد جعل مع الله إلهًا آخر، وإن كان مع ذلك يعتقد أن الله وحده خلق السموات والأرض، فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[1]، وكانوا مع ذلك مشركين يجعلون مع الله آلهة أخرى، قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[3]؛ فصاروا مشركين لأنهم أحبوهم كحبه، لا أنهم قالوا: إن آلهتهم خلقوا كخلقه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾[4][5].

عبادة الله وحده هي فيصل التفرقة بين التوحيد والشرك:

والمقصود بهذا أن يعبد الله وحده، فلا يعبد معه أو من دونه آلهة أخرى، فلا يتوجه بشيء من العبادات إلا إليه، ولا يتحاكم ابتداء في أي شأن من الشؤون إلا إليه، وهذه هي دعوة الرسل جميعًا، وموطن الخصومة بينهم وبين أعدائهم من المشركين على مدار التاريخ، وقد سبق من الأدلة ما يقرر هذه الحقيقة.

---

(١) لقمان: ٢٥.

(٢) الأنعام: ١٩.

(٣) البقرة: ١٦٥.

(٤) الرعد: ١٦.

(٥) المرجع السابق: ٣/ ٢٧٢.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾[2].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3].

شمول العبادة لأعمال القلوب وأعمال الجوارح، واستيعابها لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[4]، فكل موقف لله فيه أمر أو نهي فهو من الدين، والإتيان به على وجهه عبادة، والتفريط في ذلك معصية.

أما قصر العبادة على جانب الشعائر فإن أريد به أن يكون مصطلحًا فقهيًّا، للتفريق بين ما كان عبادة محضة يتمحض الحق فيه لله ﷻ، وبين ما كان من جنس المعاملات التي تبدو حقوق العباد فيها أغلب، مع التقيد بأمر الله في الجانبين فالأمر محتمل، أما إن أريدَ به إخراج جانب من جوانب الحياة من دائرة التكليف والتقيد بشرائع الدين، وهو ما يسمى بالفصل بين الدين والدولة، فذلك ردة عن الإسلام؛ لأن أصحابه إما أن

(١) الأنعام: ١٦٢-١٦٣.
(٢) الأنعام: ١١٤.
(٣) الأنعام: ١٤.
(٤) الأنعام: ١٦٢- ١٦٣.

يقولوا: إن الإسلام لم ينظم شيئًا يتعلق بأمور الدولة، وذلك تكذيب بـعشرات الآيـات ومئات الأحاديث، وإما أن يقولوا: إن تنظيماته في هذا المجـال لا تحقـق المصـلحة، ولا تفي بحاجات العباد، وذلك ردٌّ لأحكام الله وسبٌّ له تبارك وتعالى، وكلا الأمـرين ممـا علم كفر قائله بالضرورة.

دعاء غير الله -فيما لا يقدر عليه إلا الله- شرك أكبر:

فالدعاء صورة من صور العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1]؛ ولقوله ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»، والتوجه لغير الله بالعبادة شرك أكبر بلا نـزاع، ومثل الدعاء في ذلك سائر صور التنسك والتعبد؛ من النذر والذبح، والركوع والسجود، والحب والخشية والرجاء... ونحوه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والدعاء من جملة العبادات، فمن دعا المخلوقين من الموتى والغائبين واستغاث بهم - مع أن هذا أمر لم يأمر به الله ولا رسوله أمر إيجاب ولا استحباب - كان مبتدعًا في الدين، مشركًا برب العالمين، متبعًا غير سبيل المؤمنين»[2].

وقال في موضع آخر: «فإن المسلمين متفقون على ما علمـوه بالاضـطرار مـن ديـن الإسلام، أن العبد لا يجوز له أن يعبد، ولا يدعو، ولا يستغيث، ولا يتوكل إلا على الله، وأن من عبد ملكًا مقربًا، أو نبيًّا مرسلاً، أو دعاه أو استغاث به فهـو مشرك، فـلا يجـوز عند أحد من المسلمين أن يقول القائل: يا جبرائيل، أو يا ميكائيل، أو يا إبـراهيم، أو يـا

(١) غافر: ٦٠.

(٢) مجموع الفتاوى:١/ ٣١٢.

موسى، أو يا رسول الله اغفر لي، أو ارحمني، أو ارزقني، أو انصرني، أو أغثني، أو أجرني من عدوي أو نحو ذلك؛ بل هذا كله من خصائص الإلهية»[1].

وقال في موضع ثالث: «فمن اعتقد في بشر أنه إله، أو دعا ميتًا، أو طلب منه الرزق والنصر والهداية، وتوكل عليه، أو سجد له... فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا ضُرِبَتْ عنقه»[2].

تفرد الله جل وعلا بالأمر والتشريع المطلق، فمن جعل شيئًا من ذلك لغيره فقد أشرك:

فقد تمهد في أصول التوحيد أن الأمر المطلق - بقسميه الكوني والشرعي- لله جل وعلا وحده، وأن من نازع الله في شيء من ذلك فقد أشرك.

أما أن الأمر المطلق لله جل وعلاه وحده؛ فلأنه أظهر خصائص الربوبية، ولصريح آيات القرآن الكريم؛ قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5].

وأما أن من نازع الله في شيء من ذلك، أو عدل عن شرعه إلى غيره... فقد أشرك؛ فالأدلة كثيرة مستفيضة، نذكر منها: قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ

(١) المرجع السابق: ٣/ ٢٧٢.
(٢) المرجع السابق: ٣/ ٤٢٢.
(٣) الأعراف: ٥٤.
(٤) آل عمران: ١٥٤.
(٥) يوسف: ٤٠.

﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[1]، وفي تفسيرها قول النبي ﷺ فيما يرويه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما، عن عدي بن حاتم: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟**» قال: فقلت: بلى، قال: «**فتلك عبادتهم**»! فبيَّن النبي ﷺ أن عبادتهم إياهم كانت في تحليل الحرام وتحريم الحلال، لا أنهم صلُّوا لهم، وصاموا لهم، ودعوهم من دون الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[2]، وقد ورد في سبب نزول هذه الآية، عن ابن عباس قال: جاءت اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: أنأكل مما قتلنا ونترك ما قتل الله؟! فأنزل الله: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الآية.

ويقول ابن كثير في تفسيرها: «﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[3]؛ أي: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره، فقدمتم عليه غيره، فهذا هو الشرك»[4].

ويقول الشنقطي – رحمه الله– في أضواء البيان، في تفسير هذه الآية–: «فتوى سماوية من الخالق جل وعلا، صرح فيها بأن متبع تشريع الشيطان، المخالف لتشريع الرحمن مشرك بالله».

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه، وحرم الحلال المجمع عليه، أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافرًا ومرتدًا باتفاق الفقهاء، وفي

(١) التوبة: ٣١.
(٢) الأنعام: ١٢١.
(٣) الأنعام: ١٢١.
(٤) تفسير ابن كثير: ٢/ ١٧١.

مثل هذا نـزل قوله الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1]؛ أي: هو المستحل للحكم بغير ما أنـزل الله»[2].

الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه، وما وصفه به رسول الله ﷺ، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل:

فمن الثوابت المحكمة عند أهل السنة الإيمان بأنه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[3].

المتضمن لإثبات الوصف ونفي الكيف، بلا تشبيه ولا تعطيل، وهم بهذا وسط بين المشبهة الذين غلوا في الإثبات فصاروا يعبدون صنمًا، والمعطلة الذين غلوا في التنـزيه فصاروا يعبدون عدمًا، وقد قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[4].

فسبح نفسه تعالى عما وصفه به المخالفون للرسل، وسلم على المرسلين لسلامة مـا قـالوه من النقص والعيب.

قال أبو زرعة وأبو حاتم -رحمهما الله- في اعتقادهما -: «إن الله ﷻ على عرشه بائن من خلقه، كما وصف نفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، بلا كيف، أحاط بكل شيء علمًا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[5][6].

(١) المائدة: ٤٤.
(٢) مجموع الفتاوى: ٣/ ٦٢٧.
(٣) الشورى: ١١.
(٤) الصافات: ١٨٠.
(٥) الشورى: ١١.
(٦) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ١/ ١٧٧.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفته به رسله؛ نفيًا وإثباتًا، فيُثْبَتُ لله ما أثبته لنفسه، ويُنْفَى عنه ما نفاه عن نفسه، وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات، من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه، مع إثبات ما أثبته من الصفات، من غير إلحاد لا في أسمائه ولا في آياته، فإن الله تعالى ذمَّ الذين يلحدون في أسمائه وآياته، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2].

فطريقتهم إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات، إثباتًا بلا تشبيه، وتنـزيهًا بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وفي قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ردٌّ للتشبيه والتمثيل، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ردٌّ للإلحاد والتعطيل»[3].

الإيمان بأن القرآن كلام الله منـزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود:

فهذا الذي اتفق عليه سلف الأمة وعامة أهل السنة.

(١) الأعراف: ١٨٠.

(٢) فصلت: ٤٠.

(٣) مجموع الفتاوى: ٣/ ٢٦٧.

يقول سفيان الثوري: «القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، من قال غير هذا فهو كفر»[1].

وقال أحمد بن حنبل: «القرآن كلام الله وليس بمخلوق، ولا تضعف أن تقول: ليس بمخلوق؛ فإن كلام الله منه، وليس منه شيء مخلوق»[2].

وقال علي بن المديني: «والقرآن كلام الله ليس بمخلوق، ولا تضعف أن تقول: ليس بمخلوق؛ فإن كلام الله ﷻ ليس ببائن منه، وليس منه شيء مخلوق، يؤمن به، ولا يناظر فيه أحدًا»[3].

وقال البخاري: وأن كلام الله غير مخلوق؛ لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾[4].

قال أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: «قال ابن عيينة: فبيَّن الله الخلق من الأمر؛ لقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5][6].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن مذهب سلف الأمة وأهل السنة: أن القرآن كلام الله منزل، غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود»[7].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ١/ ١٥١.

(٢) المرجع السابق: ١/ ١٥٧.

(٣) المرجع السابق: ١/ ١٦.

(٤) الأعراف: ٥٤.

(٥) الأعراف: ٥٤.

(٦) المرجع السابق: ١/ ١٧٤، ١٧٥.

(٧) مجموع الفتاوى: ٣/ ٤٠١.

الإيمان برؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، وأن أحدًا لن يرى ربه بعينه في هذه الحياة الدنيا:

أما رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة بأبصارهم؛ فقد تواترت بها النصوص التي تلقاها السلف والأئمة بالقبول، واتفق على القول بموجبها عامة أهل السنة والجماعة؛ نذكر من هذه النصوص:

عن أبي هريرة قال: قال أناس: يا رسول الله ﷺ، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «**هل تضارُّون في الشمس ليس دونها سحاب؟**»قالوا: لا يا رسول الله، قال: «**هل تضارون في القمر ليلة البدر، ليس دونه سحاب؟**»، قالوا: لا يا رسول الله، قال: «**إنكم ترونه يوم القيامة كذلك**»[1]!

وحديث: «**إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ نادى منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟! ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة، ويُجِرْنا من النار؟! فيُكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة**».

يقول أحمد بن حنبل: «ومن لم يعرف تفسير الحديث ويبلغه عقله، فقد كُفي ذلك وأحكم له، فعليه الإيمان به والتسليم له؛ مثل حديث الصادق المصدوق وما كان مثله في القدر، ومثل أحاديث الرؤية كلها، وإن نَبَتْ عن الأسماع واستوحش منها المستمع، فإنما عليه الإيمان بها وألا يرد منها جزءًا واحدًا، وغيرها من الأحاديث المأثورات عن الثقات»[2].

(١) فتح الباري: ١١/ ٤٤٥.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ١/ ١٥٧.

ويقول الطبري -رحمه الله-: «وأما الصواب من القول لدينا في رؤية المؤمنين ربَّهم يوم القيامة، وهو ديننا الذي ندين الله به، وأدركنا عليه أهل السنة والجماعة.. فهو أن أهل الجنة يرونه على ما صحت به الأخبار عن رسوله الله ﷺ»[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذه الأحاديث وغيرها في الصحاح، وقد تلقاها السلف والأئمة بالقبول، واتفق عليها أهل السنة والجماعة، وإنما يكذب بها أو يحرفها الجهمية، ومن تبعهم من المعتزلة والرافضة ونحوهم، الذين يكذِّبون بصفات الله ورؤيته وغير ذلك، وهم المعطلة شرار الخلق والخليقة»[2].

وأما أن أحدًا لن يرى ربه بعينه في الدنيا حتى يموت؛ فلما صح من قوله ﷺ في حديث النوَّاس بن سمعان: «**وأعلموا أن أحدًا منكم لن يرى ربه حتى يموت**» (رواه مسلم).

ويذكر شيخ الإسلام ابن تيمية إجماع المسلمين على أن النبي ﷺ لم ير ربه بعينيه في الأرض، وأن من زعم أنه رأى ربه بعينه قبل الموت فدعواه باطلة بالاتفاق.

ويقول -رحمه الله-: «وقد اتفق المسلمون على أن النبي ﷺ لم ير ربه بعينه في الأرض، وأن الله لم ينزل إلى الأرض»[3].

ويقول: «وكذلك كل من ادعى أنه رأى ربه بعينيه قبل الموت، فدعواه باطل باتفاق أهل السنة والجماعة؛ لأنهم اتفقوا جميعهم على أن أحدًا من المؤمنين لا يرى ربه بعيني

(١) المرجع السابق: ١/ ١٨٥.
(٢) مجموع الفتاوى: ٣/ ٣٩١.
(٣) المرجع السابق: ٣/ ٣٨٧.

رأسه حتى يموت، وثبت ذلك في صحيح مسلم، عن النواس بن سمعان، عن النبي ﷺ أنه لما ذكر الدجال قال: «**واعلموا أن أحدًا منكم لن يرى ربه حتى يموت**»[1].

الموالاة الدينية للمؤمنين، والبراءة الدينية من الكافرين، شرط في ثبوت عقد الإيمان:

قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾[3]، فجعل اجتنابَ الطاغوت والكفرَ به قسيمَ الإيمان بالله والإنابة إليه.

وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ۚ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾[5].

يقول الطبري -رحمه الله-: «﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾؛ يعني بذلك فقد برئ من الله وبرئ الله منه، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر»[1].

---

(١) المرجع السابق: ٣/ ٣٨٩.

(٢) البقرة: ٢٥٦.

(٣) الزمر: ١٧.

(٤) الممتحنة: ٤.

(٥) آل عمران: ٢٨.

والأصل في هذه القضية أن الموالاة الدينية للمؤمنين، والبراءة الدينية من الكافرين جزء من أصل عمل القلب الذي لا يثبت عقد الإسلام إلا باستيفائه، ونقيض ذلك هو النفاق الأكبر، فالذي لا يستشعر ولاءً دينيًّا يربطه بجماعة المسلمين، وبراءً دينيًّا يفصله عن جماعة الكافرين لم يدخل في الإسلام بعد وإن أعلنه بلسانه، بل ذلك هو النفاق الأكبر.

وقد قيدنا الولاء والبراء هنا بقيد «الديني»؛ لأن غيره قد يتخلف، فقد يتقاتل المسلمون ويتعادون على زعامة ولُعَاعَة من الدنيا، وقد يحب بعضهم أحدًا من الكافرين لقرابة أو لمصلحة، وقد ينصره في موقف غضبًا أو حمية، وكل ذلك يوجب نقص الإيمان، ولكنه لا يفضي بالضرورة إلى نقضه، إلا أن المحكم هنا هو الولاء والبراء الديني، فمن والى كافرًا لكفره أو عادى مسلمًا لإسلامه فذلك يوجب نقض الإيمان.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإذا قوي ما في القلب من التصديق والمعرفة والمحبة لله ورسوله أوجب بغض أعداء الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾[2]، وقال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[3].

وقد تحصل للرجل مُوَادَّتُهم لرحم أو حاجة؛ فتكون ذنبًا ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافرًا، كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة لما كاتَب المشركين ببعض أخبار النبي ﷺ؛ وأنزل الله فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم

(١) راجع تفسير الطبري: ٣/ ٢٢٨.

(٢) المائدة: ٨١.

(٣) المجادلة: ٢٢.

﴿ بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾[1].

وكما حصل لسعد بن عبادة لما انتصر لابن أُبَيٍّ في قصة الإفك، فقال لسعد بن معاذ: كذبت والله، لا تقتله ولا تقدر على قتله! قالت عائشة: وكان قبل ذلك رجلاً صالحًا، ولكن احتملته الحمية.

ولهذه الشبهة سمى عمرُ حاطبًا منافقًا، فقال: دعني يا رسول الله ﷺ أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «**إنه شهد بدرًا**»، فكان عمر متأولًا في تسميته منافقًا للشبهة التي فعلها، وكذلك قول أسيد بن حضير لسعد بن عبادة: كذبت، لعمر الله لنقتلنه، إنما أنت منافق تجادل عن المنافقين هو من هذا الباب، وكذلك قول من قال من الصحابة عن مالك بن الدخشم: منافق، وإن كان قال ذلك لما رأى فيه من نوع معاشرة ومودة للمنافقين»[2].

وقد سئل في موضع آخر عن حكم قتل المتعمد، وما هو؟ هل هو القتل على مال أو حقد أو على دين؟ فأجاب: «الحمد لله، أما إذا قتله على دين الإسلام، مثلما يقاتل النصراني المسلمين على دينهم؛ فهذا كافر شر من الكافر المعاهد، فإن هذا كافر محارب بمنزلة الكفار الذين يقاتلون النبي ﷺ وأصحابه، وهؤلاء مخلدون في جهنم كتخليد غيرهم من الكفار، وإما إذا قتله قتلًا محرمًا؛ لعداوة أو مال أو خصومة ونحو ذلك، فهذا من الكبائر، ولا يكفُر بمجرد ذلك عند أهل السنة والجماعة»[3].

---

(١) الممتحنة: ١.

(٢) مجموع الفتاوى: ٧/ ٥٢٢، ٥٢٣.

(٣) المرجع السابق: ٣٤/ ١٣٧.

يقول الطبري -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى-: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[1]:

«يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾: ومن يتولى اليهود والنصارى دون المؤمنين فإنه منهم، يقول: فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم، فإنه لا يتولى متولٍّ أحدًا إلا وهو به وبدينه وما هو عليه راضٍ، وإذا رضيه ورضي دينه فقد عادى ما خالفه وسخطه، وصار حكمُه حكمَه؛ ولذلك حكم من حكم من أهل العلم لنصارى بني تغلب في ذبائحهم ونكاح نسائهم وغير ذلك من أمورهم بأحكام نصارى بني إسرائيل؛ لموالاتهم إياهم، ورضاهم بملتهم، ونصرتهم لهم عليها، وإن كانت أنسابهم لأنسابهم مخالفة، وأصل دينهم لدينهم مفارقًا»[2].

ويقول صاحب المنار -تعليقًا على كلام الطبري-: «وقد قيد ابن جرير الولاية بكونها لأجل الدين، كما كانت الحال في ذلك العصر؛ إذ قام المشركون وأهل الكتاب يعادون المسلمين ويقاتلونهم لأجل دينهم، وقد تقع الموالاة والمحالفة والمناصرة بين مختلفين في الدين لمصالح دنيوية، فإذا حالف المسلمون أمة غير مسلمة على أمة مثلها؛ لاتفاق مصلحة المسلمين مع مصلحتها، فهذه المحالفة لا تدخل في عموم كلامه؛ لأنه اشترط أن يكون ذلك لمقاومة المسلمين»[3].

فتأمل -رحمك الله- كيف بيَّن أن مناط التكفير بموالاة اليهود والنصارى هو الرضا بهم وبدينهم، والسخط لما خالف ذلك ومعاداته.

---

(١) المائدة: ٥١.

(٢) تفسير الطبري: ٦/ ١٧٩.

(٣) تفسير المنار: ٦/ ٤٣٠، ٤٣١.

ويقول ابن الجوزي- في زاد المسير-: «قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾[1]؛ فيه قولان؛ أحدهما: من يتولهم في الدين فإنه منهم في الكفر، والثاني: من يتولهم في العهد فإنه منهم في مخالفة الأمر»[2].

ويقول الخازن في تفسيره: «﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾؛ يعني ومن يتولَّ اليهود والنصارى دون المؤمنين؛ فينصرهم على المؤمنين فهو من أهل دينهم وملتهم؛ لأنه لا يتولَّى متولٍّ أحدًا إلا وهو راضٍ به وبدينه، وإذا رضيه ورضي دينه صار منهم، وهذا تعليم من الله تعالى، وتشديد عظيم في مجانبة اليهود والنصارى، وكل من خالف دين الإسلام»[3].

فتأمل قوله: «لأنه لا يتولَّى متولٍّ أحدًا إلا وهو راضٍ به وبدينه، وإذا رضيه ورضي دينه صار منهم»!

وقال أبو حيان - في البحر-: « ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾؛ قال ابن عباس: فإنه منهم في حكم الكفر؛ أي: ومن يتولهم في الدين، وقال غيره: ومن يتولهم في الدنيا فإنه منهم في الآخرة، وقيل: ومن يتولهم منكم في العهد فإنه منهم في مخالفة الأمر، وهذا تشديد عظيم في الانتفاء من أهل الكفر وترك موالاتهم، وإنحاء على عبد الله بن أُبَيٍّ ومن اتصف بصفته، ولا يدخل في الموالاة لليهود والنصارى من غير مصافاة، ومن تولاهم بأفعاله دون معتقده ولا إخلال إيمان؛ فهو منهم في المقت والمذمة، ومن تولاهم

(١) المائدة: ٥١.

(٢) زاد المسير، لابن الجوزي: ٢/ ٥٢.

(٣) مجموعة من التفاسير: ٢/ ٣٠.

في المعتقد فهو منهم في الكفر، وقد استدل بهذا ابن عباس وغيره على جواز أكل ذبائح نصارى العرب، وقال: من دخل في دين قوم فهو منهم»[1].

وقال الماوردي في تفسيره: «﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾؛ يحتمل وجهين؛ أحدهما: موالاتهم في العهد؛ فإنه منهم في مخالفة الأمر، الثاني: موالاتهم في الدين؛ فإنه منهم في حكم الكفر، وهذا قول ابن عباس».

وقال القرطبي - في تفسير قوله تعالى -: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ﴾[2]. «يدل بهذا على أنه من اتخذ كافرًا وليًّا، فليس بمؤمن إذا اعتقد اعتقاده ورضي أفعاله»[3].

وقال ابن عطية - في تفسير قوله تعالى -: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾: «إنحاء على عبد الله بن أُبَيٍّ وكل من اتصف بهذه الصفة من موالاتهم، ومن تولاهم بمعتقده ودينه؛ فهو منهم في الكفر واستحقاق النقمة والخلود في النار، ومن تولاهم بأفعاله من العضد ونحوه، دون معتقد ولا إخلال بإيمان فهو منهم في المقت والمذمة الواقعة عليهم وعليه، وبهذه الآية جوَّز ابن عباس وغيره ذبائح النصارى من العرب، وقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، فقال: من دخل في دين قوم فهم منهم»[4].

(١) البحر المحيط، لأبي حيان: ٣/ ٥٠٧.
(٢) المائدة: ٨١.
(٣) تفسير القرطبي: ٦/ ٢٥٤.
(٤) تفسير ابن عطية: ٤/ ٤٧٨.

وقال الألوسي: «﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾؛ أي: من جملتهم، وحكمه حكمهم؛ كالمستنتج مما قبله، وهو مُخْرَج مَخْرَج التشديد والمبالغة في الزجر؛ لأنه لو كان المتولي منهم حقيقة لكان كافرًا، وليس بمقصود.

وقيل: المراد: ومن يتولهم منكم فإنه كافر حقيقة، وحكي عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولعل ذلك إن كان توليهم من حيث كونهم يهودًا أو نصارى، وقيل: لا؛ بل لأن الآية نزلت في المنافقين، والمراد أنهم بالموالاة يكونون كفارًا مجاهرين»[1].

وفي محاسن التأويل للقاسمي: «واعلم أن الموالاة التي هي المباطنة والمشاورة وإفضاء الأسرار للكفار لا تجوز، فإن قيل: قد جوز كثير من العلماء نكاح الكافرة، وفي ذلك من الخلطة والمباطنة بالمرأة ما ليس بخافٍ؛ فجواب ذلك: أن المراد موالاتهم في أمر الدين، وفيما فيه تعظيم لهم»[2] إلى أن قال: «فحصل من هذا أن الموالي للكافر الفاسق عاصٍ، ولكن أين تبلغ معصيته؟ يحتاج إلى تفصيل:

- إن كانت الموالاة بمعنى الموادة؛ وهو يوده لمعصيته كان ذلك كالرضا بالمعصية، وإن كانت الموالاة كفرًا كفر، وإن كانت فسقًا فسق، وإن كانت لا توجب كفرًا ولا فسقًا.. لم يكفر ولم يفسق.

- وإن كانت الموالاة بمعنى المحالفة والمناصرة؛ فإن كانت محالفة على أمر مباح أو واجب؛ كأن يدفع المؤمنون عن أهل الذمة من يتعرض لهم، ويحالفونهم على ذلك،

(١) روح المعاني، للألوسي: ٦/ ١٥٧.
(٢) محاسن التأويل، للقاسمي: ٤/ ٨٠- ٨٢.

فهذا لا حرج فيه، بل هو واجب، وإن كانت على أمر محظور؛ كأن يحالفوهم على أخذ أموال المسلمين والتحكم عليهم، فهذه معصية بلا إشكال.

وكذلك إن كانت بمعنى أنه يُظهر سر المسلمين، ويحب سلامة الكافرين، لا لكفرهم، بل ليد لهم عليه، أو لقرابة، أو نحو ذلك فهذا معصية بلا إشكال، لكن لا تبلغ حد الكفر؛ لأنه لم يُرْوَ أن رسول الله ﷺ حكم بكفر حاطب بن أبي بلتعة»[1].

فتأمل كيف فصَّل -رحمه الله- وجعل الباعث إلى الموالاة هو المرجع الأول في تكييفها، وبيان درجتها من المخالفة.

ونقل القاسمي -رحمه الله- عن الراضي بالله قوله: «إن مناصرة الكفار على المسلمين توجب الكفر؛ لأنه ﷺ قال للعباس: «**ظاهرُك علينا**»، وقد اعتذر بأنه خرج مُكْرَهًا، وأما مجرد الإحسان إلى الكافر فجائز، وكذلك أن يضيق لضيقه في قضية معينة لأمر مباح فجائز، كما كان من ضيق المسلمين من غَلَبِ فارسٍ الرومَ.

فصار تحقيق المذهب، أن الذي يوجب الكفر من الموالاة، أن يحصل من الموالي الرضا بالكفر، والذي يوجب الفسق أن يحصل الرضا بالفسق»[2].

وقال عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: «وأما قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ

(١) محاسن التأويل: ٤/ ٨٠- ٨٢.
(٢) المرجع السابق.

حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[2]. فقد فسرته السنة، وقيدته وخصته بالموالاة المطلقة العامة، وأصل الموالاة: هو الحب والنصرة والصداقة، ودون ذلك مراتب متعددة، ولكل ذنب حظه وقسطه من الوعيد والذم»[3].

على أنه يجب التفريق بين الولاء والبراء الديني المقصود في هذا المقام، وبين ما يقع بين الفرق من عداوات بسبب نزاعها على بعض الأصول والقواعد الكلية في الدين، فإن في مثل هذا التنازع لابد من اعتبار عنصر التأويل، فالخوارج عندما اجتمعوا على أصولهم الفاسدة، وعقدوا ولاءهم وبراءهم على أساسها، وحاربوا أهل السنة عليها لا يفعلون ذلك على ما يعتقدونه في أهل السنة من الاستقامة على السنة، بل على ما ينسبونه إليهم من الزيغ والتفريط في الدين، فهم وإن كانوا في واقع الأمر يحاربونهم على ما عندهم من الحق والدين، وهذا في النظر المجرد بعيدًا عن عنصر التأويل، ناقض لأصل الدين، إلا أن اعتبار التأويل الذي حمل هؤلاء على هذه المقاتلة، ينفي عنها هذا التكييف؛ لأنهم يعاملونهم على ما يعتقدون أنه حق، وعلى ما يزعمون أنهم تلبسوا به من الباطل، فينتفي في حقهم هذا المناط المكفر.

وإن عدم اعتبار هذا المعنى يؤدي إلى خلل بيِّن عند إجراء الأحكام، وحسبنا أن نسوق هذا المثال من حاشية ابن عابدين، وهو غيض من فيض في هذه القضية، يقول -عفا الله عنا وعنه- في بيانه لحقيقة المقصود بالخوارج -: «قوله: ويكفرون أصحاب نبينا ﷺ؛ علمتَ

(١) المجادلة: ٢٢.

(٢) المائدة: ٥٧.

(٣) الرسائل المفيدة، لعبد اللطيف آل الشيخ: ١/ ١٥١.

أن هذا غير شرط في مسمى الخوارج، بل هو بيان لمن خرجوا على سيدنا علي ﷺ، وإلا فيكفي فيهم اعتقادهم كفرَ من خرجوا عليه، كما وقع في زماننا في أتباع عبد الوهاب، الذين خرجوا من نجد وتغلبوا على الحرمين، وكانوا ينتحلون مذهب الحنابلة، لكنهم اعتقدوا أنهم هم المسلمون، وأن من خالف اعتقادهم مشركون، واستباحوا بذلك قتل أهل السنة وقتل علمائهم، حتى كسر الله تعالى شوكتهم، وخرب بلادهم، وظفر بهم عساكر المسلمين!! عام ثلاث وثلاثين ومائتين وألف»[1].

وإن هذا المقولة لو صدرت بدون تأويل لامتهد سبيل إلى الحكم على صاحبها بالردة؛ لانعدام الولاء الديني بينه وبين فريق من المؤمنين، بسبب ما يحملونه من الحق والدعوة إلى التوحيد، ولكن عنصر التأويل هو الذي نفى عن هذه المقولة هذا الوصف، وأصبحت من جنس ما يتنازع فيه الناس - بحق أو بباطل- من أمور الدين، بل لو لم يعتبر جانب التأويل لاعتبرنا كل نزاع ديني يفضي إلى العدواة أو التقاتل ناقضًا لأصل الدين؛ لاعتقاد كل فريق أن الآخر يقاتله في الدين، ويعاديه على ما معه من الحق المبين، وهو باطل بالضرورة.

فالمقصود إذن بالموالاة الدينية للمؤمنين، والبراءة الدينية من الكافرين؛ هو الولاء والبراء الديني على أصل النِّحْلة، أو على ما عُلم بالضرورة من الدين، فهذا الذي يرتبط بأصل الإيمان، ويفضي تخلفه إلى النفاق الأكبر.

منحى آخر في تحديد ما يرتبط من الولاية بأصل الدين:

هذا؛ وقد نحى بعض الباحثين في هذه القضية منحى آخر، فذهب إلى أن مطلق

(١) حاشية ابن عابدين: ٤/ ٢٦٢.

تولي المؤمنين والبراءة من الكافرين يرتبط بأصل الدين، فالمناط المكفر إذن في هذا الباب هو مطلق تولي الكافرين، سواء أكان ذلك بالقلب أو بالفعل أو بكليهما، فمن أحبهم ووادَّهم، أو دافع عنهم وأعانهم على المسلمين بالبدن أو بالمال أو بالرأي، أو جمع في موالاته لهم بين الحب والنصرة فهو مرتد عن الإسلام، ولا علاقة لذلك بالباعث على هذه الموالاة؛ أي: سواء أكان ذلك بغضًا للإسلام وللمسلمين، أو حبًّا لنفسه لتحقيق مصلحة شخصية.

ووجه ما ذهب إليه هؤلاء أن ركني الموالاة الحب والنصرة؛ حسب الاستطاعة، ولا يتحقق الإيمان المجمل إلا بإفرادهما لله ورسوله ﷺ والمؤمنين، وأنَّ بذل واحد منهما لغير المسلمين يعني تخلف الموالاة وانخرامها بالكلية، كما أن ركني الإيمان المجمل التصديق والانقياد؛ فلا يتحقق الإيمان المجمل إلا باجتماعهما، ولكن يكفي في الكفر أن يتخلف أحدهما فحسب.

وخرَّجوا مقالات أهل العلم الواردة في تقييد المناط المكفر بالموالاة على الدين، بأن المقصود بها مظاهرة المشركين على المسلمين في مواجهة يقاتل فيها كل معسكر تحت رايته وينتصر لدينه، دون اشتراط التحقق من حقيقة الاعتقاد القلبي، أي: هوية الراية التي يقف تحتها كل فريق، وليست البواعث الفردية التي تحمل الآحاد على الانحياز إلى هذا المعسكر أو ذاك.

فالعبرة إذن بأن تكون الخصومة على الجملة خصومة على الدين، فيقف أهل الإسلام تحت راية الإسلام، ويقف أهل الكفر تحت راية الكفر، ولا اعتبار بعد ذلك بالبواعث الشخصية التي تكمن في نفوس آحاد المتقاتلين.

أما ما قد يقع من خصومات دنيوية بين المسلمين وغيرهم بسبب مصالح شخصية، وليس انتصارًا للدين والشريعة، فهذه هي التي ينصرف إليها - في تقديرهم - اعتبار البواعث الفردية، وعليها تحمل مقالات أهل العلم السابقة، فلا يطلق القول فيها بتكفير أحد من المسلمين بمعزل عن بواعثه ومقاصده، وحولها اختلف علماء أهل السنة على كفر صاحبها أو عدم كفره، مع اتفاقهم على أن ذلك معصية عظيمة، وسيأتي تفصيل القول في هذا المناط في قسم المتغيرات إن شاء الله.

ولا يسعنا بعد هذا العرض، إلا أن نقر ابتداءًا بأن المناط المكفر بذاته في قضية الموالاة من الدقائق التي تحتاج إلى تدبر وإمعان نظر، وقد تحاشت في الدخول في تحديده كثير من الدراسات المتخصصة التي أفردها بعض فضلاء المعاصرين لدراسة هذه القضية، ولعل ما أوردناه في هذه الدراسة يكون دعوة لهؤلاء ولأمثالهم لكي يدلوا بدلوهم في هذه القضية، سائلين الله ﷻ أن يهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه.

بطلان كل ما يعارض القرآن والسنة من الأقوال والأعمال، وانعدام الشرعية عن كل نظام يقوم على هذه المعارضة:

إذا تقرر أن الحجة القاطعة والحكم الأعلى هو الشرع لا غير، وأن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ عيار على مقالات البشر كافة وأعمالهم، ما وافقهما منها قُبِل، وما خالفهما رُدَّ، فإن مقتضى ذلك بالضرورة بطلان وإهدار كل ما يعارض الكتاب والسنة من الأقوال والأعمال والمناهج.

قال ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**» (رواه البخاري)، وقال ﷺ: «**كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل، وإن كان مائة شرط**»[1]، ومعنى «ليس في كتاب الله»؛ أي: يعارض كتاب الله، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من أهل العلم.

يقول الشافعي -رحمه الله-: «كل مسألة صح فيها الخبر عن رسول الله ﷺ عن أهل النقل بخلاف ما قلت، فأنا راجع عنها في حياتي وبعد مماتي».

ويقول أبو حنيفة: «إذا قلت قولًا يخالف كتاب الله وخبر الرسول ﷺ، فاتركوا قولي».

ويقول مالك -رحمه الله-: «إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه»[2].

وأولى بالبطلان وانعدام الشرعية، كل نظام وضعي قام على محادَّة أحكام الله ومراغمة شرائعه، والتحاكم ابتداءًا إلى غير الكتاب والسنة، وإن تقرير بطلان هذه الأنظمة أولى من تقرير بطلان زلات العلماء، والأقوال الفقهية التي ثبتت معارضتها للنصوص، بسبب خفاء الأدلة أو عدم مصادفتها؛ لأن هذه الزلات أو الأقوال الفقهية الشاذة لأصحابها شبهة تعلق بالشريعة بوجه من الوجوه، وتحاكم إليها على الجملة؛ ولهذا كان لا يشنع عليهم بهذه الزلات، وإن كانوا لا يقلَّدون فيها، ولا يتابَعون عليها؛ لأنها من قبيل الخطأ المحض، أما هذه الأنظمة فهي تقوم ابتداء على رد الشرع، وإخراج أعمالها من ربقة التقيد بالأحكام الشرعية، وإقصائها عن نطاق التكليف بالكلية.

---

(١) صحيح الجامع الصغير: ٤٥٣٠.

(٢) راجع في مثل هذه المقولات على سبيل المثال: مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٢١٠- ٢١٢.

وقد تمهد أن الإقرار بالحاكمية العليا والسيادة المطلقة لأحد من دون الله يعد إشراكًا بالله، فإن الشارع وحده هو صاحب الحق في توجيه الخطاب الملزم لجميع المكلفين، على سبيل الاقتضاء أو التخيير أو الوضع، وأن الإسلام هو الاستسلام لله وحده، والإقرار له وحده بالسيادة العليا والتشريع المطلق، فمن لم يستسلم له كان معاندًا مستكبرًا عن عبادته، ومن استسلم له ولغيره كان مشركًا، والمعاند المستكبر عن عبادته، والمشرك به كلاهما كافر.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالإسلام يتضمن الاستسلام لله وحده، فمن استسلم له ولغيره كان مشركًا، ومن لم يستسلم له كان مستكبرًا عن عبادته، والمشرك به والمستكبر عن عبادته كافر، والاستسلام له وحده يتضمن عبادته وحده وطاعته وحده، فهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره»[1].

الإيمان بالقدر، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه:

فالقدر كما يقول ابن عباس نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبُه توحيدَه.

فالذي اتفق عليه عامة أهل السنة في هذه القضية، أن الله قد سبق علمه بما كان وما سيكون، وأنه كتب ذلك عنده في اللوح المحفوظ، وأن مشيئته تعالى نافذة وقدرته شاملة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يقع في الكون إلا ما يريد، وأنه تعالى هو

(١) مجموع الفتاوى: ٣/ ٩١.

الخالق لذلك كله، فهو يـدور حـول إطـلاق علـم الله بكـل شيء وكتابتـه لكـل شيء، ومشيئته النافذة وقدرته الشاملة على كل شيء، وخلقه لكل شيء.

والأدلة على ذلك مستفيضة من الكتاب والسنة والإجماع؛ نذكر منها إجمالًا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[2]، وقوله ﷺ: «**كل شيء بقدر؛ حتى العجز والكيس**» (أخرجه مسلم).

أما دليل العلم فنذكر قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[4]، وقوله ﷺ: «**ما منكم من نفس إلا وقد عُلم منزلها من الجنة والنار**» (رواه البخاري).

وأما الأدلة على الكتابة، فنذكر منها قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[6].

وقوله ﷺ: «**ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا وقد كُتبت شقيةً أو سعيدةً**» (رواه مسلم).

---

(١) الأحزاب: ٣٨.
(٢) القمر: ٤٩.
(٣) الطلاق: ١٢.
(٤) سبأ: ٣.
(٥) يس: ١٢.
(٦) الحج: ٧٠.

وقوله لسراقة بن مالك، وقد سأله: فيم العمل اليوم؟ فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما نستقبل؟ قال: «**بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير**»، قال: ففيم العمل؟! فقال: «**اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ**»، وفي رواية: «**كل عامل ميسَّر لعمله**».

وأما الأدلة على المشيئة، فنذكر منها: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2]، وقوله ﷺ: «**قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد؛ يصرفها كيف يشاء**» (رواه مسلم).

وأما أدلة الخلق، فنذكر منها: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾[4].

يقول أحمد بن حنبل: «ومن السنة اللازمة؛ التي من ترك منها خصلة لم يقلها ويؤمن بها لم يكن من أهلها: الإيمان بالقدر؛ خيره وشره، والتصديق بالأحاديث فيه، والإيمان بها، لا يقال: لِمَ؟ ولا: كيف؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها»[5].

وقد سئل الكلبي -رحمه الله- عن القدرية: من هم؟ فقال: إن القدرية من قال: إن الله لم يخلق أفاعيل العباد، وإن المعاصي لم يقدرها الله على العباد ولم يخلقها، فهؤلاء

(١) الإنسان: ٣٠.
(٢) يس: ٨٢.
(٣) الزمر: ٦٢.
(٤) الصافات: ٩٦.
(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة: ١/ ١٥٧.

قدرية لا يُصلى خلفهم، ولا يُعاد مريضهم، ولا تُشهد جنائزهم، ويستتابون من هذه المقالة، فإن تابوا.. وإلا ضُربت أعناقهم[1].

وقد نقل البخاري عن أكثر من ألف رجل من أهل العلم: أن الخير والشر بقدر؛ لقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾[2]؛ ولقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، ولقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[3][4].

وقال الطبري: «والصواب لدينا في القول فيما اختلف فيه من أفعال العباد وحسناتهم وسيئاتهم أن جميع ذلك من عند الله مقدره ومدبره، لا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يحدث شيء إلا بمشيئته، له الخلق والأمر»[5].

وقال النووي: «واعلم أن مذهب أهل الحق إثبات القدر، ومعناه أن الله تبارك وتعالى قدَّر الأشياء في القدم، وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها سبحانه»[6].

(١) المرجع السابق:١/ ١٧٢.
(٢) الفلق: ١-٢.
(٣) القمر: ٤٩.
(٤) المرجع السابق:١/ ١٧٥.
(٥) المرجع السابق: ١/ ١٨٥.
(٦) صحيح مسلم بشرح النووي: ١/ ١٥٤.

المبحث الثاني

موارد الاجتهاد في قضية التوحيد

أما المتشابهات أو مواضع الاجتهاد المتعلقة بتفاصيل هذه القضية، فهي كثيرة نذكر منها:

التقسيم المعهود للتوحيد إلى توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات:

فإن هذا التقسيم اصطلاحي، الهدف منه تقريب القضية وتنظيم دراستها، كما اصطلح أهل العلم على أسماء اصطلاحية للعلوم؛ كعلم أصول الفقه، وعلم مصطلح الحديث، وعلم النحو والصرف، وعلم البلاغة ... ونحوه، وكما اصطلحوا داخل العلم الواحد على تعريفات وأسماء اصطلاحية لكثير من مباحثه، فاصطلحوا في علم الأصول على المصالح المرسلة، والاستحسان، والاستصحاب، وسد الذرائع، واصطلحوا في الدلالة على دلالة العبارة، ودلالة الإشارة، ودلالة النص، ودلالة الاقتضاء، ومفهوم المخالفة... ونحوه، واصطلحوا في مفهوم المخالفة على مفهوم اللقب، ومفهوم الوصف، ومفهوم الشرط، ومفهوم الغاية، ومفهوم العدد، واصطلحوا في دلالة الألفاظ على الخاص والعام، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين... ونحوه.

وعلى هذا فلا مُشاحة في الاصطلاح إذا بقي مضمون التوحيد ذاته موضع قبول واتفاق من الناس كافة، فإذا اتفق الناس على توحيد الله تعالى بأفعاله خلقًا وملكًا ورزقًا وتدبيرًا، وتوحيد الله تعالى بأفعال عباده صلاةً ونسكًا ودعاءً واستغاثةً... إلخ، وتوحيد

الله تعالى بأسمائه وصفاته إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل، فقد انحلت العقدة وزال الخلاف، وبقي ما وراء ذلك من الاصطلاحات في إطار النظر والمدارسة.

لقد رأينا للسلف تقسيمًا آخر للتوحيد: التوحيد العلمي وأدخلوا فيه توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، والتوحيد العملي وقصروه على توحيد الألوهية، وهذه طريقة أخرى في عرض المضمون الواحد، ولا حرج في ذلك ولا غضاضة.

وقد تشيع الداروينية أو الإلحاد أو العلمانية في مجتمع من المجتمعات، فيصطلح الناس على تقسيم الحديث في الربوبية إلى قسمين: توحيد الخالقية، وتوحيد الحاكمية، إبرازًا لخرق الأولى لتوحيد الربوبية في جانب الخلق عندما يتبنى دعاتها القول بنظرية الخلق الذاتي أو التلقائي، وإبرازًا لخرق الثانية للربوبية في جانب الأمر عندما يتبنى دعاتها الفصل بين الدين والحياة، أو الكفر بمرجعية الوحي في علاقة الدين بالدولة، وذلك تأسيسًا على أن جماع الربوبية هو الخلق والأمر، وانطلاقًا من مثل قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[2].

والأصل فى ذلك كله أن التقاسيم اصطلاحية لا يدخلها الابتداع، وأن العبرة كما يقولون: بالمقاصد والمعاني وليس بالألفاظ والمباني.

هذا؛ وإن كان تتابع أهل العلم على استخدام هذا التقسيم، واستقراره عبر قرون طويلة، يجعله جزءًا من التراث السلفي، فينبغي قبوله على ألا يكون في ذاته معقدَ ولاءٍ وبراء.

(١) الأعراف: ٥٤.

(٢) طه: ٥٠.

إلحاق قضية التشريع بتوحيد الربوبية، أو إلحاقها بتوحيد الألوهية:

فإن ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[1] يرجح إلحاقها بتوحيد الألوهية؛ باعتبار أن الحكم عبادة لا يجوز أن تصرف لغير الله، وهذا الذي اختاره الشيخ عبد المجيد الشاذلي في كتابه «حدُّ الإسلام».

وإن ظاهر قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[2].

وما ورد في تفسيرها من حديث عدي بن حاتم يرجح إلحاقها بتوحيد الربوبية، وهذا هو الذي اختاره الشيخ ابن عثيمين حفظه الله، قال: «إن الحكم بما أنزل الله تعالى من توحيد الربوبية؛ لأنه تنفيذ لحكم الله الذي هو مقتضى ربوبيته وكمال ملكه وتصرفه؛ ولهذا سمى الله تعالى المتبوعين في غير ما أنزل الله تعالى أربابًا لمتبعيهم؛ فقال سبحانه: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[3] فسمى الله تعالى المتبوعين أربابًا؛ حيث جُعِلوا مشرعين مع الله تعالى، وسمى المتبعين عبادًا؛ حيث إنهم ذلوا لهم وأطاعوهم في مخالفة حكم الله سبحانه وتعالى»[4].

وقد لا يبعد من يقول بإلحاقها بتوحيد الأسماء والصفات، باعتبار أن من أسمائه تعالى «الحَكَم»، ومن صفاته أنَّ له الخلق والأمر، وأنه هو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

---

(١) يوسف: ٤٠.

(٢) التوبة: ٣١.

(٣) التوبة: ٣١.

(٤) التشريع الجنائي الإسلامي:٢/ ٧٠٨- ٧١٠.

وقد يمكن الجمع بين هذه الثلاثة بأن يقال: إنها من حيث تفرد الله بها كتفرده بـالخلق؛ هي من توحيد الربوبية، ومن ناحية وجوب الانقياد لها والالتزام بها ديانة وعبادة؛ فهي مـن قبيل توحيد الألوهية أو توحيد العبادة، ومن حيث وجـوب إثباتهـا صـفة لله جـل وعـلا، وعدم تعطيلها؛ فهي من جنس توحيد الصفات، والأمر في ذلك واسع.

اعتبار الموالاة والمعاداة من معاني التوحيد أو من لوازمه:

فقد سئل الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب عن ذلك، فقال: «إن الجواب أن يقال: الله أعلم، لكن حسْب المسـلم أن يعلـم أن الله افـترض عليـه عـداوة المشركين وعدم موالاتهم، وأوجب عليه محبة المؤمنين وموالاتهم، وأخبر أن ذلـك مـن شروط الإيمان، ونفى الإيمان عمن يوادُّ مـن حـادَّ الله ورسـوله، ولـو كـانوا آبـاءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.

وأما كون ذلك من معنى «**لا إله إلا الله**» أو لوازمها، فلـم يكلفنـا الله بالبحـث عن ذلك، وإنما كلفنا بمعرفة أن الله تعالى فرض ذلك وأوجبه، وأوجب العمل بـه، فهذا هو الفرض والحتم الذي لا شك فيه، ومن عرف أن ذلك مـن معناهـا أو مـن لازمها فهو حسن وزيادة خير، ومن لم يعرفه فلم يكلف بمعرفتـه، لاسـيما إذا كـان الجدال والمنازعة فيه مما يفضي إلى شر واختلاف، ووقوع فُرقة بين المؤمنين، فالـذين قاموا بواجبات الإيمان وجاهدوا في سبيل الله وعادوا المشركـين ووالَـوا المسـلمين، فالسكوت عن ذلك متعين، وهذا ما ظهر لي، على أن الاخـتلاف قريـب مـن جهـة المعنى، والله تعالى أعلم»[1].

(١) الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة، للشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب: ١٥٧.

نقض الإيمان ببعض شعب الموالاة لأعداء الله، والتي لا تكون على أساس الدين:

فلقد تقدم أن موالاة الكافر على دينه كفر بلا نزاع، وأن هذا من المحكم المقطوع به بإطلاق؛ لارتباطه بأصل عمل القلب، الذي لا يثبت عقد الإيمان إلا باستيفائه، أما الموالاة التي لا تكون على الدين، بل تكون على الزعامات والأهواء والمصالح، فهذه شعب متفاوتة؛ منها ما يكون كفرًا، ومنها ما هو دون ذلك، وإلحاق صورة من الصور بما هو كفر، وإلحاق أخرى بما هو دون ذلك من محالِّ الاجتهاد التي قد تتفاوت فيها الآراء، ولا أدلَّ على ذلك من اختلاف الفقهاء في حكم الجاسوس؛ بين القتل والتعزير أو التفويض إلى نظر الإمام، وتلبس الجاسوس بشيء من الموالاة لأعداء الله لا يتمارى فيه اثنان.

فقد سئل الشافعي -رحمه الله- عمن وقع منه مثل ما وقع من حاطب بن أبي بلتعة: هل يعاقب أم يترك؟ فأجاب: «إن العقوبات غير الحدود، فأما الحدود فلا تعطل بحال، وأما العقوبات فللإمام تركها على الاجتهاد، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**تجافوا لذوي الهيئات**»، وقد قيل في الحديث: «**ما لم يكن حدٌّ**»، فإذا كان هذا من الرجل ذي الهيئة بجهالة، كما كان هذا من حاطب بجهالة، وكان غير متهم أحببت أن يتجافى له، وإذا كان من غير ذي الهيئة كان للإمام -والله تعالى أعلم- تعزيره»[1].

ويؤكد أبو بكر الجصاص أن ما وقع من حاطب ليس كفرًا، ويبين أنه لو كان كفرًا لما كان شهوده بدرًا مانعًا من إطلاق الكفر عليه، واستحقاقه النار إذا كفر،

(١) الأم: ٤/ ٢٥٠.

فيقول: «فإن قيل: قد أخبر النبي ﷺ أنه إنما منع عمر من قتله؛ لأنه شهد بدرًا، وقال: «**ما يدريك؟! لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم**»؛ فجعل العلة المانعة من قتله كونه من أهل بدر، قيل له: ليس كما ظننتَ؛ لأن كونه من أهل بدر لا يمنع أن يكون كافرًا مستحقًّا للنار إذا كفر، وإنما معناه: ما يدريك؟! لعل الله قد علم أن أهل بدر -وإن أذنبوا- لا يموتون إلا على التوبة، ومن علم الله منه وجود التوبة إذا أمهله فغير جائز أن يأمر بقتله، أو يفعل ما يقتطعه به عن التوبة، فيجوز أن يكون مراده أن أهل بدر وإن أذنبوا فإن مصيرهم إلى التوبة والإنابة»[1].

وفي زاد المعاد لابن القيم، في معرض حديثه عن اللطائف المستفادة من فتح مكة: «وفيها جواز قتل الجاسوس وإن كان مسلمًا؛ لأن عمر رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ قَتْلَ حاطب بن أبي بلتعة لما بعث يخبر أهل مكة بالخبر، ولم يقل رسول الله ﷺ: لا يحلُّ قتله؛ إنه مسلم، بل قال: «**وما يدريك؟! لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم**»، فأجاب بأن فيه مانعًا من قتله؛ وهو شهوده بدرًا، وفي الجواب بهذا كالتنبيه على جواز قتل جاسوس ليس له مثل هذا المانع، وهذا مذهب مالك، وأحد الوجهين في مذهب أحمد، وقال الشافعي وأبو حنيفة: لا يقتل، وهو ظاهر مذهب أحمد، والفريقان يحتجون بقصة حاطب، والصحيح أن قتله راجع إلى رأي الإمام، فإن رأى في قتله مصلحة للمسلمين قتله، وإن كان استبقاؤه أصلح استبقاه، والله أعلم»[2].

(١) أحكام القرآن، للجصاص: ٥/ ٣٢٦.

(٢) زاد المعاد: ٣/ ٤٢٢-٤٢٣.

ويقول ابن العربي -رحمه الله-: «من كثر تطلعه على عورات المسلمين، وينبِّه عليهم، ويعرِّف عدوهم بأخبارهم لم يكن بذلك كافرًا إذا كان فعله لغرض دنيوي، واعتقاده على ذلك سليم، كما فعل حاطب بن أبي بلتعة حين قصد بذلك اتخاذ اليد، ولم ينو الردة عن الدين»[1].

على هذا يتفرع القول في مسألة التجسس، فإن من دلَّ على عورات المسلمين رغبة منه عن دينه، أو مشايعة لأهل الكفر على دينهم كان مرتدًا، وإن فعل ذلك لرحم أو حاجة، مع بقائه على الدين كان فسقًا يوجب التعزير، الذي قد يصل إلى القتل بنظر الإمام، أو يعفى عنه اعتبارًا لسابقة فضل أو بلاء في الإسلام ونحوه.

التحالف مع غير المسلمين لمصلحة المسلمين:

فقد جاءت النصوص بالنهي عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، والولاية في هذه النصوص هي ولاية التناصر والمحالفة، وهي مقيدة بما كان منها من دون المؤمنين، أو ضد جماعة المسلمين، كما قال ابن جرير- في تفسير قوله تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾[2].

«والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله -تعالى ذكره- نهى المؤمنين جميعًا أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصارًا وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله ﷺ،

(١) أحكام القرآن، لابن العربي:٤/ ١٧٨٣.
(٢) المائدة: ٥١.

وأخبر أنه من اتخذهم نصيرًا وحليفًا ووليًّا من دون الله ورسوله والمؤمنين؛ فإنه منهم في التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين، وإن الله ورسوله منه بريئان»[1].

فهذا النهي إذن متوجه لأفراد المسلمين وجماعاتهم دون جملتهم، ويكون المحظور إذن في باب الولاية أمران:

- أن يوالي أفرادٌ أو جماعاتٌ من المسلمين اليهودَ والنصارى، ويتعاهدون على التناصر من دون المؤمنين؛ رجاءَ نصرتهم إذا دارت على المسلمين الدوائر[2].
- أن يوالي أفرادٌ أو جماعاتٌ من المسلمين اليهودَ والنصارى، ويتحزب معهم ضدَّ بقية المسلمين.

(١) جامع البيان، للطبري:٦/ ٢٧٦.

(٢) يقول صاحب المنار في بيان المقصود بهذه الآية: «عُلم مما سبق أن المراد بالولاية ولاية التناصر والمحالفة، وقيده بعضهم بكونها على المؤمنين، وأن النهي لأفراد المسلمين وجماعاتهم دون جملتهم، وأنه يشمل المؤمنين الصادقين وغيرهم؛ لأنه مقدمة للإنكار على مرضى القلوب الذين يتخذون لهم اليد عندهم؛ لعدم ثقتهم ببقاء الإسلام وثبات أهله، ولولا هذا لَجُوِّزَ أن يكون النهي لجملة المسلمين أيضًا، لا لأن من أصول الدين ألا يحالف أهله من يخالفهم فيه، كيف وقد كان النبي ﷺ حالف يهود المدينة عقب الهجرة؟! بل لأن القوم كانوا في حنق شديد على الإسلام، وحسد للعرب على ما آتاهم الله من فضله؛ فلا يوثق بوفائهم بعد ما كان من خيانتهم وغدرهم، ولكن هذا غير مراد من الآية، بل السياق يدل على الوجه الأول، وهو أن يوالي أفراد أو جماعات من المسلمين أولئك اليهود والنصارى المعادين للنبي والمؤمنين، ويعاهدوهم على التناصر من دون المؤمنين، رجاءَ أن يحتاجوا إلى نصرهم إذا خذل المسلمون وغلبوا على أمرهم»! (٦/ ٤٢٥، ٤٢٦).

أما أن يقع التحالف بين جماعة المسلمين وبين غير المسلمين؛ لأجل فائدة المؤمنين؛ بجلب مصلحة لهم، أو دفع ضر عنهم؛ فهو موضع الاجتهاد، والجمهور على الجواز.

قال النووي -رحمه الله-: «قال القاضي: قال الطبري: لا يجوز الحِلْفُ اليوم؛ فإن المذكور في الحديث والموارثة به وبالمؤاخاة كله منسوخ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[1].

وقال الحسن: كان التوارث بالحلف فنسخ بآية المواريث، قلت: أما ما يتعلق بالإرث فيستحب فيه المخالفة عند جماهير العلماء، وأما المؤاخاة في الإسلام، والمحالفة على طاعة الله، والتناصر في الدين، والتعاون على البر والتقوى وإقامة الحق فهذا باقٍ لم ينسخ، وهذا معنى قوله ﷺ في هذه الأحاديث: «**وأيما حِلف كان في الجاهلية؛ لم يزده الإسلام إلا شدة**»، وأما قوله ﷺ: «**لا حِلف في الإسلام**»فالمراد به حِلف التوارث، والحِلف على ما منع الشرع منه، والله أعلم»[2].

وقال ابن الأثير -رحمه الله-: «أصل الحِلف: المعاقدة والمعاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق، فما كان منه في الجاهلية على الفتن والقتال بين القبائل والغارات فذلك الذي ورد النهي عنه في الإسلام بقوله ﷺ: «**لا حِلف في الإسلام**»، وما كان منه في الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام؛ كحِلف المطيبين وما جرى مجراه؛ فذلك الذي قال فيه ﷺ: «**وأيما حِلف كان في الجاهلية؛ لم يزده الإسلام إلا شدة**»؛ يريد من المعاقدة على الخير ونصرة الحق، وبذلك يجتمع الحديثان، وهذا هو الحِلف الذي يقتضيه

(١) الأنفال: ٧٥.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: ١٦/ ٨١، ٨٢.

الإسلام، والممنوع منه ما خالف حكم الإسلام، وقيل: المحالفة كانت قبل الفتح، وقوله: «**لا حِلف في الإسلام**»قاله زمن الفتح؛ فكان ناسخًا»[1].

وقال صاحب المنار: «وعلى هذا يجوز لحكام المسلمين أن يحالفوا الدول غير المسلمة لأجل فائدة المؤمنين؛ بدفع الضر أو جلب المنفعة، وليس لهم أن يوالوهم في شيء يضرُّ بالمسلمين وإن لم يكونوا من رعيتهم، وهذه الموالاة لا تختص بوقت الضعف، بل هي جائزة في كل وقت»[2].

قلت: ولو كان التحالف - بمعنى التناصر- من أصول التوحيد ما بقي مشروعًا منذ البيعة حتى نزول هذه الآية في المدينة، والتوحيد أول ما دعا إليه الرسل، وفاصلوا عليه أقوامهم، ولا تَدَرُّجَ في شأنه ولا هوادة.

(١) نقلًا من كتاب: التحالف السياسي في الإسلام، لمنير الغضبان: ٩.

(٢) تفسير المنار: ٣/ ٢٨٠.

الفصل الخامس

الثوابت والمتغيرات
في عوارض الأهلية

لا نـزاع في أصل اعتبار عارض الجهل والتأويل والإكـراه عنـد إجـراء الأحكـام؛ سواء أكانت المخالفة في شيء من أصول الدين، أم في شيء من فروعـه، فمـن ثبـت لـه عقد الإسلام بالإقرار المجمل بما جاء به محمد ﷺ تصـديقًا وانقيـادًا؛ «أي: الشـهادة لله بالوحدانية، ولمحمد ﷺ بالرسالة، والبراءة من كل دين يخالف ديـن الإسـلام»(*) فـإن

(*) لا نعرف تحديدًا فقهيًّا حاسمًا لمفردات ما يشتمله هذا الإقرار المجمل، ولم نعثر عـلى ذلـك في كتـاب مـن الكتب، ولكن إذا حاولنا الاجتهاد الشخصي في ذلك، في ضوء الأصول العامة للشريعة فيمكننـا القـول بأن هذا الإقرار يشتمل على ما يلي:

الشهادة لله بالوحدانية:

وهي تقتضي نفي التعدد، ونفي استحقاق العبادة لغير الله.

فمن قال: إن الله ثالث ثلاثة؛ كالنصـارى، أو دان باسـتحقاق مـا سـوى الله لجـزء مـن العبـادة؛ كعبَّـاد الأصنام الذين كانوا يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى.. لم يتحقق عنده هذا الإقرار المجمـل، أما من كان عقده المجمل أنه لا يعبد إلا الله، ثم دخلت عليه الشبهة في بعض صور ظنها ليست من فعل العبادة التي لا يجوز أن تصرف لغير الله فذلك من التفاصيل التي لابد فيها من النذارة، وتقام الحجة بهـا على أصحابها، وهم مسلمون إلا أن يعاندوا بعد البلاغ.

الشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة:

وهذا يقتضي تعظيمه ﷺ، والتدين بطاعته فيما جاء به من الدين، فمن أهانـه ﷺ أو سـوغ الخـروج عـلى شريعته -بلا تأول- فيما يعلم أنه قد جاءت فيه شريعة ملزمة- لم يتحقق عنده هذا العقد المجمل.

البراءة من كل دين يخالف دين الإسلام:

وهذه تقتضي ولاءً دينيًّا للإيمان وأهله، وبراءة دينية من الكفر وأهله، بها يمتاز المؤمن من المنافق.

هذا القدر هو ضرورة كل مقرٍّ بالإيمان غير مغلوب على عقله، فإن كل مقر بالشهادتين من المسلمين يـدرك منها ابتداءً أن الله واحد في ذاته، وأنه لا يعبد غيره، كما يقع في قلبه تعظيم النبـي الـذي جـاءه بهـذا الـدين، ويعتبر نفسه أحد المخاطَبين بما جاء به من تكاليف دينية، كـما ينشـأ لديـه انـتماء ومحبـة لهـذا الـدين وأهلـه، وانفصال نفسي عما عداه من الملل الأخرى، والتي قال عنها الإسلام: إنها محرفة ومنسوخة وباطلة.

الأصل هو اعتبار عارض الجهل والتأويل والإكراه عند إجراء الحكم عليـه، ووجـوب التحقق من انتفاء هذه العوارض قبل دمغه بـالحكم الـذي يقتضـيه مـا تلـبس بـه مـن المخالفة، على تفصيل يطلب في مظانِّه من كتب الأصول.

وفي مسائل هذا الباب عدد من الثوابت المحكمات، وأخرى مـن مـوارد الاجتهـاد والمتشابهات، وسوف نوجز القول في هذه وتلك في المباحث الآتية.

المبحث الأول

عـــارض الجهـــل

في هذا العـارض جملـة مـن الثوابـت المحكمـة، وأخـرى مـن المتغـيرات ومـوارد الاجتهاد، وفيما يلي محاولة لإيجاز القول في هذه وفي تلك.

المطلب الأول

الثوابت في هذه القضية

أن معرفة الله ﷻ، وما يجب له، وما يستحيل عليه إنما تكون بالشرع؛

هذه المسألة موضع خلاف بين المعتزلة وأهل السنة والجماعة:

- فالمعتزلة يقولون: إن معرفة الله تجبُ عقلًا، وكذلك الطريق إليها هو العقل.
- وأهل السنة يقولون: إن وجوب المعرفة وطريقها هو الشرع.
- ولبقية الفرق في ذلك آراء وأهواء.

والحق الذي لا معدل عنه، أن ما يتعلق بذات الله ﷻ - ما يجب له وما يستحيل عليه - لا سبيل للبشر إلى إدراكه، ما لم يخبرهم بذلك وحي معصوم؛ إذ الإنسان أسير لما يراه ويُحِسُّه ويتصوره ويتخيله، والله جل وعلا فوق ذلك كله؛ لأنه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1].

(١) الشورى: ١١.

هذا فضلًا عن تفاوت العقول البشرية في تصوراتها وقدراتها، فما يتصـوره عمـرٌو قد يعجز عن تصوره زيد، وما يتصوره عمرٌو على وجه، قد يتصوره زيد على وجه آخر، ولا مخرج من هذه المتناقضات إلا بالوحي المعصوم.

قال اللالكائي - في كتابه: "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة"-: «سياق ما يدل من كتاب الله ﷻ، وما روي عن رسول الله ﷺ على أن وجوب معرفة الله تعالى وصفاته بالسمع لا بالعقل، قال الله تعالى يخاطب نبيه ﷺ بلفظ خاص والمراد به العام: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[1].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[2]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[3]؛ فأخبر الله نبيه ﷺ في هذه الآية أن بالسمع والوحي عرف الأنبياء قبله التوحيد، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴾[4].

(١) محمد: ١٩.
(٢) الأنعام: ١٠٦.
(٣) الأنبياء: ٢٥.
(٤) سبأ: ٥٠.

وقد استدل إبراهيم بأفعاله المحكمة المتقنة على وحدانيته؛ بطلوع الشمس وغروبها، وظهور القمر وغيبته، وظهور الكواكب وأفولها، ثم قال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾[1]؛ فعلم أن الهداية وقعت بالسمع.

وكذلك وجوب معرفة الرسل بالسمع، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[3]، وقال تبارك وتعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[4]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[5]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا

(١) الأنعام: ٧٧.
(٢) الأعراف: ١٥٨.
(٣) الإسراء: ١٥.
(٤) النساء: ١٦٥.
(٥) القصص: ٤٤-٤٧.

﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[1]. فدل على أن معرفة الله والرسل بالسمع كما أخبر الله ﷻ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة»[2].

وقال الغزالي في فيصل التفرقة: «قد ظن بعض الناس أن مأخذ التكفير من العقل لا من الشرع، وأن الجاهل بالله تعالى كافر، والعارف به تعالى مؤمن، فيقال له: الحكم بإباحة الدم والخلود في النار حكم شرعي، لا معنى له قبل ورود الشرع، وإن أراد به المفهوم من الشارع أن الجاهل بالله تعالى هو الكافر، فهذا لا يمكن حصره فيه؛ لأن الجاهل بالرسول ﷺ وبالآخرة أيضًا كافر، ثم إن خصص ذلك بالجهل بذات الله تعالى؛ بجحد وجوده أو وحدانيته، ولم يطرده في الصفات فربما سوعد عليه، وإن جعل المخطئ في الصفات أيضًا جاهلًا أو كافرًا؛ لزمه تكفير من نفى صفة البقاء، وصفة القدم، ومن نفى الكلام وصفًا زائدًا على العلم، ومن نفى السمع والبصر زائدًا على العلم، ومن نفى جواز الرؤية، ومن أثبت الجهة وأثبت إرادة حادثة، لا في ذاته ولا في محل، وتكفير المخالفين فيه، وبالجملة يلزمه التكفير في كل مسألة تتعلق بصفات الله تعالى! وذلك حكم لا مستند له، وإن خصصت ببعض الصفات دون بعض؛ لم يجد لذلك فصلًا ومردًّا، ولا وجه له إلا الضبط بالتكذيب، ليعم المكذب بالرسول ﷺ وبالمعاد، ويخرج منه المؤول»[3](*).

---

(١) طه: ١٣٣-١٣٤.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: ١٩٣- ١٩٦.

(٣) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، للغزالي: ١١١، ١١٢.

(*) أورد بعض الفضلاء على مقولة الغزالي أنها تتضمن الاعتراض على تكفير الجاهل بالله ﷻ، والجاهل برسوله، والجاهل بالآخرة، وأنه فرق فيها بين الصفات، فكفَّر بالجهل ببعضها، ولم يكفِّر بالجهل في بعضها الآخر، وأن عبارته في تكفير الجاهل بوحدة الله أو وحدانيته ليست قاطعة. =

ويقول القرطبي - في تفسير آية: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1] -: «وفي هذا دليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع، خلاف المعتزلة القائلين بأن العقل يقبح ويحسن، ويبيح ويحظر»[2].

ويقول ابن القيم -رحمه الله-: «إن الله سبحانه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وهذا كثير في القرآن، يخبر أنه

= ولنا على هذا الإيراد أن أغلبه قد بُني على قراءة متعسفة لهذه المقولة؛ فالغزالي لم يعترض على كفر الجاهل بالله تعالى، وإنما اعترض تحديدًا على ما يلي:

أن يكون مأخذ ذلك العقل.

حصر الكفر في الجاهل بالله.

لأن الجاهل بالرسول وبالآخرة كافر كذلك، تأمل قوله: «وإن أراد به المفهوم من الشارع أن الجاهل بالله تعالى هو الكافر، فهذا لا يمكن حصره فيه؛ لأن الجاهل بالرسول ﷺ وبالآخرة أيضًا كافر»، فهو لم ينفِ الكفر عن الجاهل بالله، بل نفى حصر الكفر في ذلك، وقال: إن الجاهل بالرسول أو بالآخرة كافر كذلك.

إطلاق القول بتكفير الجاهل أو المخطئ في الصفات.

لأن هذا يقتضي تكفير معظم الفرق المتنازعة في باب الصفات، وقد نص كثير من أهل العلم على أن الجهل ببعض الصفات ليس كفرًا، وأعتقد أن هذه النقطة لا ينازع فيها هؤلاء الفضلاء الذين أوردوا هذه الإيردات.

لقد أراد الغزالي بهذا النص أن يبين أن مأخذ التكفير هو الشرع، وأن المتأول في باب الصفات لا يكفر، وأن مناط الكفر في ذلك هو التكذيب.

وقد ذكر الغزالي في كتابه هذا خمس درجات للتأويل، فإن خرج التأويل عنها كان كذبًا بلا نزاع، وإن المطعن الأساسي في عبارة الغزالي هو اللين الذي جاء في عبارته بشأن الجاهل بالله والوحدانية، وتعليقه على كفره بقوله: «فربما سوعد عليه»، ولو جزمت العبارة بكفره لاستقامت المقولة.

(١) الإسراء: ١٥.

(٢) تفسير القرطبي: ١٠/ ٢٣١.

إنما يعذب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة»[1].

ويقول الشنقيطي: «والآيات القرآنية مصرحة بكثرة على عدم الاكتفاء بما نصب من الأدلة، وما ركز من الفطرة، بل إن الله تعالى لا يعذب أحدًا حتى يقيم عليه الحجة بإنذار الرسل، فمن ذلك قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فإنه قال فيها: ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، ولم يقل: حتى نخلق عقولًا، وننصب أدلة، ونركز فطرة»[2].

أصل اعتبار عارض الجهل عند إجراء الأحكام:

والأصل في اعتبار هذا العارض؛ أن حكم الخطاب لا يثبت في حق المكلَّف إلا إذا بلغه، على الأظهر من أقوال العلماء؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ﴾[5].

ولهذا لم يأمر النبي ﷺ عمرَ وعمارًا لما أجنبا؛ فلم يصل عمر، وصلى عمار بالتمرغ أن يعيد واحد منهما، ولم يأمر أبا ذر بالإعادة لما كان يجنب ويمكث أيامًا لا يصلي، ولم يأمر من صلى إلى بيت المقدس قبل بلوغ النسخ لهم بالقضاء، ولم يأمر مَن أكل مِن الصحابة حتى تبين له الحبل الأبيض من الحبل الأسود بالقضاء.

(١) طريق الهجرتين، لابن القيم: ٤١٣.
(٢) أضواء البيان، للشنقيطي: ٢/ ٢٠١.
(٣) الأنعام: ١٩.
(٤) الإسراء: ١٥.
(٥) النساء: ١٦٥.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأصل هذا أن حكم الخطاب؛ هل يثبت في حق المكلف قبل أن يبلغه؟ فيه ثلاثة أقوال في مذهب أحمد وغيره، قيل: يثبت، وقيل: لا يثبت، وقيل: يثبت المبدأ دون الناسخ، والأظهر أنه لا يجب قضاء شيء من ذلك، ولا يثبت الخطاب إلا بعد البلاغ؛ لقوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾؛ ولقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ﴾، ومثل هذا في القرآن متعدد، بيَّن سبحانه أنه لا يعاقِب أحدًا حتى يبلغه ما جاء به الرسول.

ومن علم أن محمدًا رسول الله فآمن بذلك، ولم يعلم كثيرًا مما جاء به لم يعذبه الله على ما لم يبلغه، فإنه إذا لم يعذبه على ترك الإيمان بعد البلوغ، فإنه ألَّا يعذبه على بعض شرائطه إلا بعد البلاغ أولى وأحرى»[1].

وقال ابن العربي -رحمه الله-: «الطاعات كما تسمى إيمانًا كذلك المعاصي تسمى كفرًا، ولكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد به الكفر المخرج من الملة، فالجاهل والمخطئ من هذه الأمة؛ ولو عمل من الكفر والشرك ما يكون صاحبه مشركًا أو كافرًا؛ فإنه يعذر بالجهل والخطأ، حتى يتبين له الحجة التي يكفر تاركها بيانًا واضحًا ما يلتبس على مثله، وينكر ما هو معلوم بالضرورة من دين الإسلام؛ مما أجمعوا عليه إجماعًا قطعيًّا يعرفه كل أحد من المسلمين من غير نظر وتأمل، كما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى، ولم يخالف في ذلك إلا أهل البدع»[2].

(١) مجموع الفتاوى: ٢/ ٤١، ٤٢.

(٢) محاسن التأويل، للقاسمي: ٥/ ١٣٠٧.

ويقول الحافظ الذهبي -رحمه الله-: «فلا يأثم أحد إلا بعد العلم وبعد قيام الحجة عليه، والله لطيف رؤوف بهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1].

وقد كان سادة الصحابة بالحبشة، وينـزل الواجب والتحريم على النبي ﷺ فلا يبلغهم إلا بعد أشهر، فهم في تلك الأمور معذورون بالجهل حتى يبلغهم النص، وكذا يعذر بالجهل من لم يعلم حتى يسمع النص، والله أعلم»[2].

أن من الجهل ما يعذر فيه صاحبه، ومنه ما لا يعذر فيه:

وذلك بناء على أن العلم نوعان:

- **علم عامة**: وهو ما لا يسع أحدًا غير مغلوب على عقله جهلُه؛ كوجوب المباني الخمسة، ونحوه من المعلوم من الدين بالضرورة، وهذه لا عذر لأحد فيها بالجهل، ولا يخفى أن من هذا النوع ما يتعلق بالأمور العلمية الاعتقادية، ومنه ما يتعلق بالأمور العملية الفقهية.

- **علم خاصة**: وهو ما ينوب العباد من فروع الفرائض، ولم يرد فيه نص قاطع أو إجماع صريح، وهذا الذي يعذر فيه الجاهل بجهله، ومن أمثلته كثير من التفاصيل والفروع المتعلقة بالمباني الخمسة؛ كبعض تفاصيل التوحيد، والصلوات والزكوات والصيام والحج، ونحوه.

---

(١) الإسراء: ١٥.

(٢) الكبائر، للذهبي: ١٢.

قال الشافعي -رحمه الله-: «العلم علمان: علم عامة لا يسع بالغًا غير مغلوب على عقله جهلُه، قال: ومثل ماذا؟ قلت: مثل: الصلوات الخمس، وأن لله على الناس صوم شهر رمضان، وحج البيت إذا استطاعوه، وزكاة في أموالهم، وأنه حرم عليهم الزنا والقتل والسرقة والخمر، وما كان في معنى هذا مما كلف العباد أن يعقلوه ويعملوه، ويعطوه من أنفسهم وأموالهم، وأن يكفوا عنه ما حرم عليهم منه.

وهذا الصنف كله من العلم موجودٌ نصًّا في كتاب الله، وموجودٌ عامًّا عند أهل الإسلام، ينقله عوامُّهم عمن مضى من عوامهم، يحكونه عن رسول الله، ولا يتنازعون في حكايته ولا وجوبه عليهم؛ وهذا العلم العامُّ الذي لا يمكن فيه الغلط من الخبر ولا التأويل، ولا يجوز فيه التنازع.

قال: فما الوجه الثاني؟ قلت له: ما ينوب العباد من فروع الفرائض، وما يخص به من الأحكام وغيرها، مما ليس فيه نص كتاب، ولا في أكثره نص سنة، وإن كانت في شيء منه سنة فإنما هي من أخبار الخاصة، لا أخبار العامة، وما كان منه يحتمل التأويل ويستدرك قياسًا»[1].

ويذكر -رحمه الله- أن هذه الدرجة من العلم «ليس تبلغها العامة، ولم يكلفها كل الخاصة، ومن احتمل بلوغها من الخاصة فلا يسعهم كلهم كافة أن يعطلوها، وإذا قام بها من خاصتهم من فيه الكفاية لم يحرج غيره ممن تركها، إن شاء الله، والفضل فيها لمن قام بها على من عطلها»[2].

(١) الرسالة، للشافعي: ٣٥٧- ٣٥٩.

(٢) المرجع السابق: ٣٦٠.

نسبية العذر بالجهل:

فما يعذر به في دار الحرب غير ما يعذر به في دار الإسلام، وما يعذر بـه مـن نشـأ في بادية أو كان حديث عهد بالإسلام، ليس كما يعذر به من نشأ بين المسـلمين ومـن كـان عريقًا في الإسلام، والعذر بالجهل في الأزمنة التـي نقصـت فيهـا آثـار النبـوة وخلافـة النبوة، وطويت فيها أعلام السنة وانتشر فيها دعاة الضلالة، لـيس كالعـذر بالجهـل في أزمنة التمكين وغلبة السنة وظهور دعاتها، وكل حالة بحسبها؛ ولهذا فإن العذر بالجهل مما تتغير فيه الفتوى بتغير الزمان والمكان والأحوال والأشخاص ونحوه.

ومن ناحية أخرى؛ فإن القطع والظن في المسائل إنما يكـون بحسـب مـا وصـل إلى الإنسان من الأدلة، وبحسب قدرته على الاستدلال، والناس يختلفـون في هـذا وهـذا، فكون المسألة قطعية أو ظنية ليس صفة ملازمة لكثير من المسائل، وإنما هو أمـر إضـافي بحسب حال المعتقدين، فإن الإنسان قـد يقطـع بأشـياء علمهـا بـالضرورة، أو بالنقـل المعلوم صدقه عنده، وغيره قد لا يعرف ذلك لا قطعًا ولا ظنًّا، وقد يبلغ الإنسان مبلغًا من الفهم وسرعة الإدراك يعرف به من الحق ويقطع بما لم يتصـوره غـيره ولم يعرفـه؛ لا علمًا ولا ظنًّا، فالقطع والظن إذن في كثير من المسائل هـو صـفة لحـال النـاظر المسـتدل المعتقد، أكثر من كونه صفة ذاتية ملازمة للأقوال والمعتقدات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنـة التـي يندرس فيها كثير من علوم النبوات، حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله بـه رسـوله مـن الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيرًا مما يبعث الله به رسـوله، ولا يكـون هنـاك مـن يبلغـه ذلك، ومثل هذا لا يكفر؛ ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم

والإيمان، وكان حديث العهد بالإسلام، فأنكر شيئًا من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة؛ فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول؛ ولهذا جاء في الحديث «**يأتي على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة ولا صومًا ولا حجًّا؛ إلا الشيخ الكبير، والعجوز الكبيرة، يقول: أدركنا آباءنا وهم يقولون: لا إله إلا الله، وهم لا يدرون صلاة ولا زكاة ولا حجًّا**»، فقال: «**ولا صوم ينجيهم من النار**»[1].

ثم ساق -رحمه الله- قصة الرجل الذي أمر أهله بإحراقه بعد موته، وتذرية رماده في يومٍ راحٍ؛ لعله يضل ربه أو يفلت من عقوبته!!

ويقول في موضع آخر: «ولهذا لم يحكم النبي ﷺ بكفر الذي قال: «**إذا أنا مت فأحرقوني ثم ذروني في اليم، فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين**» مع شكه في قدرة الله وإعادته؛ ولهذا لا يكفِّر العلماء من استحل شيئًا من المحرمات لقرب عهده بالإسلام، أو لنشأته ببادية بعيدة؛ فإن حكم الكفر لا يكون إلا بعد بلوغ الرسالة، وكثير من هؤلاء قد لا يكون قد بلغته النصوص المخالفة لما يراه، ولا يعلم أن الرسول بُعث بذلك، فيطلق أن هذا القول كفر، فيكفر من قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها دون غيره، والله أعلم»[2].

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة: «الجهل بالأحكام الإسلامية في غير الديار الإسلامية هو جهل قوي، إلى درجة أن جمهور الفقهاء قال: إنه تسقط عنه التكليفات الشرعية، حتى أنه لو أسلم رجل في دار الحرب ولم يهاجر إلى الديار الإسلامية، ولم

(١) مجموع الفتاوى: ١١/ ٤٠٧، ٤٠٨.
(٢) المرجع السابق: ٢٨/ ٥٠١.

يعلم أنه عليه الصلاة والصوم والزكاة، ولم يـؤد فروضًـا مـن هـذه الفـرائض؛ فإنـه لا يؤديها قضاء إذا علم، وقال زفر: يجـب عليـه أن يؤديهـا إذا علـم، ووجهـه أنـه بقبولـه الإسلام صار ملتزمًا أحكامه وعليه أداؤها، ويعذر إذا لم يؤدها في وقتها، ولكن إذا علم فحكم الالتزام ثابت، ويجب عليه قضاء ما التزم.

ووجهة جمهور الفقهاء أن دار الحرب ليست موضع علم بالأحكام الشرعيـة، فلـم تستفض فيها مصادر الأحكام ولم تشتهر، فكان الجهل جهلاً بالدليل، والجهل بالـدليل يسقط التكليف، إذا لم يتوجه الخطاب»[1].

ويقول الشيخ الألباني في أحد أشرطته المسجلة: هناك ثلاثة مجتمعات:

- **الأول**: الإسلامي الذي فهم العقيدة الصـحيحة؛ فمـن عـاش في هـذا المجتمـع لا يُعذر بجهله.
- **الثاني**: المجتمع الكافر الذي قد يسلم بعض أفراده؛ فمن أين له أن يعـرف العقيـدة الصحيحة؟! فهو معذور بجهله.
- **الثالث**: مجتمع بينهما؛ فهو في الظاهر مسلم وعلامات الإسلام ظاهرة، ولكن كبـار أهله منحرفون عن العقيدة الصحيحة؛ فمن أين يتلقى أفراد هذا الشـعب العقيـدة الصحيحة؟! فيكونون -والحال هذه- معذورين[2].

(١) أصول الفقه، للإمام أبي زهرة:٣٢٩، ٣٣٠.

(٢) الألباني: فتاوى جدة، الشريط العاشر، ١٥/ ٦/ ١٤١٠هـ.

لا عذر بالجهل في الإقرار المجمل بالإسلام، والبراءة المجملة من كل دين يخالفه:

فكل من لم يدن بدين الإسلام فهو كافر في أحكام الدين بيقين، سواء أكان ذلك عنادًا أم جهلًا، أما مآله في الآخرة فهو من موارد الاجتهاد، وسيأتي ذكره في المتغيرات.

يقول الغزالي في المستصفى - في معرض رده على الجاحظ فيما ذهب إليه من القول بأنه: لا يأثم من اليهود والنصارى وغيرهم إلا المعاند فقط-: «وهذا الذي ذكره ليس بمحال عقلًا لو ورد الشرع به، وهو جائز، ولو ورد التعبد كذلك لوقع، ولكن الواقع خلاف هذا؛ فهو باطل بأدلة سمعية ضرورية، فإنا كما نعرف أن النبي ﷺ أمر بالصلاة والزكاة ضرورة، فيعلم أيضًا ضرورة أنه أمر اليهود والنصارى بالإيمان به واتباعه، وذمهم على إصرارهم على عقائدهم؛ ولذلك قاتل جميعهم، وكان يكشف عن مؤتزر من بلغ منهم ويقتله.

ويعلم قطعًا أن المعاند العارف مما يقل، وإنما الأكثر المقلدة الذين اعتقدوا دين آبائهم تقليدًا، ولم يعرفوا معجزة الرسول عليه السلام وصدقه، والآيات الدالة في القرآن على هذا لا تحصى؛ كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾[5]، أي: شك، وعلى الجملة ذمَّ الله تعالى والرسول ﷺ المكذبين من الكفار فيما لا ينحصر في الكتاب والسنة.

---

(١) ص: ٢٧.

(٢) فصلت: ٢٣.

(٣) الجاثية: ٢٤.

(٤) المجادلة: ١٨.

(٥) البقرة: ١٠.

وأما قوله:كيف يكلفهم ما لا يطيقون؟! قلنا: نعلم ضرورة أنه كلفهـم، أمـا أنهـم يطيقون أو لا يطيقون فلننظر فيه، بل نبه الله تعالى على أنه أقدرهم عليه بـما رزقهـم مـن العقل، ونصب من الأدلة، وبعث من الرسل المؤيَّدين بالمعجزات الذين نبهوا العقـول، وحركوا دواعي النظر، حتى لم يبق على الله لأحد حجة بعد الرسل»[1].

ويقول ابن القيم -رحمه الله- في معرض حديثه عـن طبقـة المقلـدين وجهـال الكفـرة وأتباعهم: «والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك لـه، والإيـمان بـالله ورسـوله واتباعه فيما جاء به، فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يكن كافرًا معانـدًا فهـو كـافر جاهل! فغاية هذه الطبقة أنهم كفار جهال غير معاندين، وعـدم عنـادهم لا يخـرجهم عـن كونهم كفارًا، فإن الكافر من جحد توحيد الله وكذب رسوله؛ إما عنـادًا أو جهـلًا وتقليـدًا لأهل العناد»[2].

ويقول في موضع آخر: «بل الواجب على العبد أن يعتقد أن كل من دان بدين غـير دين الإسلام فهو كافر، وأن الله - سبحانه وتعالى - لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجـة عليه بالرسول، هذا في الجملة؛ والتعيين موكول إلى علـم الله وحكمـه، هـذا في أحكـام الثواب والعقاب، وأما في أحكام الدنيا فهي جارية على ظـاهر الأمـر، فأطفـال الكفـار ومجانينهم كفار في أحكام الدنيا لهم حكم أوليائهم، وبهذا التفصيل يـزول الإشـكال في المسألة»[3].

(١) المستصفى: ٢/ ٣٥٩.

(٢) طريق الهجرتين، لابن القيم: ٤١١.

(٣) المرجع السابق: ٤٣١.

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة: «قد ذكر علماء الأصول من ذلك – أي: من الجهل الذي لا يعذر فيه صاحبه – جهل غير المسلم بالوحدانية، وجهله بالرسالة المحمدية، إذا بُلِّغ الدعوة الإسلامية على الوجه الصحيح، وأقيمت الأدلة القاطعة بصدقها، فإنهم قالوا: إن ذلك جهل لا يُعذر صاحبه»[1].

ولا يخفى أن الحديث في هذا المقام يتعلق بالجهال من الكفار الأصليين؛ الذين وصفهم بأنهم جحدوا توحيد الله وكذبوا رسله، ولم يتحقق لديهم الإقرار المجمل بالإسلام، والبراءة المجملة من كل دين يخالفه، ومن كان كذلك لم يعذر بجهله بالاتفاق.

ولكن موضع الخلل هو قياس المقرِّين بالإسلام في الجملة على هؤلاء الكفار الأصليين، ذلك أن عامة المسلمين وجهلاءهم يقرون في الجملة لله بالوحدانية ولمحمد بالرسالة، فهم في الجملة لم يجحدوا التوحيد، ولم يكذبوا الرسل، وإن خفيت عليهم بعض التفاصيل.

ويرى فريق آخر من الباحثين أن مفهوم النقول السابقة ليس محصوراً في الكفار الأصليين، بل هي أعم وأشمل من ذلك، فهي تشمل الكفار الأصليين وغيرهم من المنتسبين إلى الإسلام الذين لم يحققوا حقيقة الإسلام، فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يكن كافرًا معاندًا، فهو كافر جاهل.

أن من تفاصيل التوحيد ما يعذر فيه بالجهل بيقين:

وذلك كالجهل ببعض صفات الله ﷻ، والتحاكم إلى بعض جزئيات الشرائع

(١) أصول الفقه، لأبي زهرة: ٢٧٧.

الوضعية، فيما ظن أن الشريعة قد أحالت فيه إلى التجربة والخبرة البشرية، باعتباره من الشؤون الدنيوية؛ «**أنتم أعلم بشؤون دنياكم**»، وكموالاة من يُجهل أحوالهم من المشركين والمرتدين ونحوه.

ومن الأمثلة التي أوردها أهل العلم على ما يعذر فيه بالجهل مما يتعلق بالتوحيد:

أولاً: الجهل ببعض أسماء الله وصفاته:

فقد أخرج ابن أبي حاتم في مناقب الشافعي، عن يونس بن عبد الأعلى، سمعت الشافعي يقول: «لله أسماء وصفات لا يسع أحدًا ردُّها، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فقد كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل؛ لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا الرؤية والفكر، فنثبت هذه الصفات وننفي عنه التشبيه كما نفى عن نفسه، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[1]»[2].

وقال ابن قتيبة: «قد يغلط في بعض الصفات قوم من المسلمين، فلا يكفرون بذلك»[3].

وقد سبق قول الغزالي عند مناقشته لمن قال: إن الجاهل بالله تعالى هو الكافر: «وإن جعل المخطئ في الصفات أيضًا جاهلًا أو كافرًا لزمه تكفير من نفى صفة البقاء وصفة القدم، ومن نفى الكلام وصفًا زائدًا على العلم، ومن نفى السمع والبصر زائدًا على

(١) الشورى: ١١.
(٢) فتح الباري: ١٣/ ٤٠٧.
(٣) المرجع السابق: ٦/ ٥٢٣.

العلم، ومن نفى جواز الرؤية، ومن أثبت الجهة، وأثبت إرادةً حادثة، لا في ذاته ولا في محل، وتكفير المخالفين فيه.

وبالجملة؛ يلزمه التكفير في كل مسألة تتعلق بصفات الله تعالى، وذلك حكم لا مستند له، وإن خصصت بعض الصفات دون بعض لم يجد لذلك فصلًا ومردًّا»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولهذا كان الصواب أن الجهل ببعض أسماء الله وصفاته لا يكون صاحبه كافرًا؛ إذا كان مقرًّا بما جاء به الرسول ﷺ، ولم يبلغه ما يوجب العلم بما جهله على وجه يقتضي كفره إذا لم يعلمه»[2].

وقد ساق -رحمه الله- عددًا من الأمثلة على ذلك، نذكر منها:

جهل أم المؤمنين عائشة بأن الله قد أحاط بكل شيء علمًا:

قال -رحمه الله-: «فهذه عائشة أم المؤمنين، سألت النبي ﷺ: هل يعلم الله كل ما يكتم الناس؟ فقال لها النبي ﷺ: «**نعم**»، وهذا يدل على أنها لم تكن تعلم ذلك، ولم تكن قبل معرفتها بأن الله عالم بكل شيء يكتمه الناس كافرة، وإن كان الإقرار بذلك بعد قيام الحجة من أصول الإيمان، وإنكار علمه بكل شيء كإنكار قدرته على كل شيء، هذا مع أنها كانت ممن يستحق اللوم على الذنب؛ ولهذا لهزها النبي ﷺ، وقال: «**أتخافين أن يحيف الله عليك ورسوله؟!**»، وهذا الأصل مبسوط في غير هذا الموضع.

---

(١) فيصل التفرقة: ١١١.

(٢) مجموع الفتاوى: ٧/ ٥٣٨.

فقد تبين أن هذا القول كفر(*)، ولكن تكفير قائله لا يحكم به حتى يكون قد بلغه من العلم ما تقوم به عليه الحجة التي يكفر تاركها»(١).

جهل بعض الصحابة برؤية الله يوم القيامة:

ولذلك سألوا: هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فلم يكونوا يعلمون أنهم يرونه، قال: «وكثير من الناس لا يعلم ذلك؛ إما لأنه لم تبلغه الأحاديث، وإما لأنه ظن أنه كذب وغلط»(٢).

ثانيًا: جهل الذين يتأولون للحلوليين ويحسنون الظن بهم:

فإن فيمن يتأولون لبعضهم ويحسنون الظن بهم من أهل العلم والفضل خلقًا كثيرًا، نذكر منهم على سبيل المثال: ابن حجر الهيتمي، والسيوطي والألوسي، والقاسمي.. ونحوهم، ولهم في الدفاع عن ابن عربي وتعظيم شأنه مقالات كثيرة، ولمزيد من التفصيل في ذلك نسوق مواقف هؤلاء الأئمة:

الحافظ السيوطي الذي كتب رسالة سماها «تنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي»، ذكر فيها أن الناس افترقوا فيه فريقين: الفرقة المصيبة تعتقد ولايته، والأخرى بخلافها، ثم قال:

(*) لعل مرجع اسم الإشارة هنا، إلى قول الرجل الذي أوصى أولاده بإحراقه بعد موته، وتذرية رماده في يوم راحٍ لعله يضل ربه: «فوالله، لئن قدر عليَّ ربي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا»!

(١) مجموع الفتاوى: ١١/ ٤١٢، ٤١٣.

(٢) المرجع السابق: ٢٠/ ٢٦.

«والقول الفصل عندي فيه، طريقة لا يرضاها الفريقان، وهي اعتقاد ولايته وتحريم النظر في كتبه»[1]!!

وابن عابدين صاحب الحاشية على الدر المختار، الذي عقد مطلبًا في حاشيته، عنون له بقوله: «مطلب في حال الشيخ الأكبر سيدي محيى الدين ابن عربي، نفعنا الله تعالى به»! وقد دافع في هذا المطلب عنه، وقال: «ومن أراد شرح كلماته التي اعترض عليها المنكرون فليرجع إلى كتاب: الرد المتين على منتقصي العارف محيي الدين، لسيدي عبد الغني النابلسي»[2].

وابن حجر الهيتمي صاحب الزواجر، الذي صرح بأنه يعتقد جلالته ولا يعتقد عصمته[3].

والألوسي في روح المعاني، فلا تكاد تخلو تفسيراته الإشارية في هذا التفسير من النقل عن ابن عربي، في الفتوحات المكية وفصوص الحِكَم وغيرها، والإشارة إليه بقوله: «قال الشيخ الأكبر قدس الله سره»!

وحسبك هذه العبارة في تفسيره: «ولمولانا الشيخ الأكبر -قُدِّس سرُّه- في هؤلاء القوم ونحوهم كلام تقف الأفكار دونه حسرى، فمن أراده فليرجع إلى الفصوص يرى العجب العجاب، والله تعالى الهادي إلى سبيل الرشاد»[4].

(١) حاشية ابن عابدين: ٤/ ٢٣٨.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ٢٣٨.
(٣) راجع: الزواجر، لابن حجر الهيتمي.
(٤) روح المعاني: ٨/ ١٦٢.

أو هذه العبارة، في بيان موقفه من أقطاب الصوفية عمومًا، ومنهم القائلون بوحدة الوجود: «ومن ذلك كتب كثير من الصوفية – قدس الله تعالى أسرارهم – فإنه قد هدي بها أرباب القلوب الصافية، وضل بها الكثير حتى تركوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، وعطلوا الشرائع، واستحلوا المحرمات، وزعموا – والعياذ بالله تعالى – أن ذلك هو الذي يقتضيه القول بوحدة الوجود، التي هي معتقد القوم، نفعنا الله تعالى بفتوحاتهم»[1]!

ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية، بعد أن أورد طائفة من مقولات هؤلاء المارقين: «ومن قال: إن لقول هؤلاء سرًّا خفيًّا وباطنَ حقٍّ، وأنه من الحقائق التي لا يطلع عليها إلا خواص خواص الخلق.. فهو أحد رجلين: إما أن يكون من كبار الزنادقة أهل الإلحاد والمحال، وإما أن يكون من كبار أهل الجهل والضلال، فالزنديق يجب قتله، والجاهل يُعرَّف حقيقة الأمر، فإن أصر على هذا الاعتقاد الباطل بعد قيام الحجة عليه.. وجب قتله»[2].

وقال في موضع آخر: «فكل من كان أخبر بباطن هذا المذهب ووافقهم عليه كان أظهر كفرًا وإلحادًا، وأما الجهال الذين يحسنون الظن بقول هؤلاء ولا يفهمونه، ويعتقدون أنه من جنس كلام المشايخ العارفين، الذين يتكلمون بكلام صحيح لا يفهمه كثير من الناس، فهؤلاء تجد فيهم إسلامًا وإيمانًا، ومتابعة للكتاب والسنة بحسب إيمانهم التقليدي، وتجد فيهم إقرارًا لهؤلاء وإحسانًا للظن بهم، وتسليمًا لهم بحسب جهلهم وضلالهم، ولا يتصور أن يثني على هؤلاء إلا كافر ملحد، أو جاهل ضال»[3].

(١) المرجع السابق: ٧/ ٧.
(٢) مجموع الفتاوى: ٢/ ٣٧٨.
(٣) المرجع السابق: ٢/ ٣٦٨.

إلى أن قال: «فهذا كله كفر باطنًا وظاهرًا بإجماع كل مسلم، ومن شك في كفر هؤلاء بعد معرفة قولهم ومعرفة دين الإسلام فهو كافر، كمن يشك في كفر اليهود والنصارى والمشركين»[1].

وقال في موضع آخر - وهو في معرض إجابته على سؤال حول ابن عربي، وما نسب إليه في كتبه من القول بالحلول ووحدة الوجود ونحوه -: «ولكن هؤلاء التبس أمرهم على من لم يعرف حالهم، كما التبس أمر القرامطة الباطنية لمَّا ادعوا أنهم فاطميون وانتسبوا إلى التشيع، فصار المتبعون مائلين إليهم، غير عالمين بباطن كفرهم؛ ولهذا كان من مال إليهم أحد رجلين؛ إما زنديقًا منافقًا، وإما جاهلًا ضالًّا.

وهكذا هؤلاء الاتحادية؛ فرؤوسهم هم أئمة كفر يجب قتلهم، ولا تقبل توبة أحد منهم إذا أُخذ قبل التوبة، فإنه من أعظم الزنادقة؛ الذين يظهرون الإسلام ويبطنون أعظم الكفر، وهم الذين يفهمون قولهم ومخالفتهم لدين المسلمين.

ويجب عقوبة كل من انتسب إليهم، أو ذب عنهم، أو أثنى عليهم، أو عظَّم كتبهم، أو عُرف بمساعدتهم ومعاونتهم، أو كره الكلام فيهم، أو أخذ يعتذر لهم بأن هذا الكلام لا يُدْرَى ما هو، أو من قال إنه صنف هذا الكتاب؟! وأمثال هذه المعاذير التي لا يقولها إلا جاهل أو منافق، بل تجب عقوبة كل من عرف حالهم، ولم يعاون على القيام عليهم، فإن القيام على هؤلاء من أعظم الواجبات؛ لأنهم أفسدوا العقول والأديان على خلق من المشايخ والعلماء والملوك والأمراء، وهم يسعون في الأرض فسادًا، ويصدون عن سبيل الله، فضررهم في الدين أعظم من ضرر من يفسد على المسلمين دنياهم ويترك

(١) المرجع السابق.

دينهم؛ كقُطَّاع الطريق وكالتتار الذين يأخذون منهم الأموال ويبقـون لهـم ديـنهم، ولا يستهين بهم من لم يعرفهم؛ فضلالهم وإضلالهم أعظم من أن يوصف، وهم أشبه الناس بالقرامطة الباطنية.

ولهذا هم يريدون دولة التتار ويختارون انتصارهم على المسلمين، إلا من كان عاميًّا من شيعهم وأتباعهم، فإنه لا يكون عارفًا بحقيقة أمرهم.

ولهذا يقرون اليهود والنصارى على ما هم عليه، ويجعلونهم على حق، كـما يجعلـون عُبَّاد الأصنام على حق، وكل واحدة من هذه من أعظم الكفر، ومن كـان محسـنًا للظـن بهم، وادَّعى أنه لم يعرف حالهم.. عُرِّف حالهم، فإن لم يباينهم ويظهر لهم الإنكـار، وإلا ألحق بهم وجعل منهم»[1].

فتأمل في تفريقه بين رؤوسهم الذين جعلهم أئمة كفر وأوجب قتـالهم، وبـين مـن انتسب إليهم وذبَّ عنهم فأوجب عقوبتهم، وبـين مـن كـان جـاهلًا بحقيقـة أمـرهم، حيث أوجب تعريفه بما يزيل عنه اللبس في أمرهم، وكل طائفة بحسبها، وقد جعـل الله لكل شيء قدرًا.

ثالثًا: جهل عـوام المنتسـبين إلـى بعـض الفـرق الغاليـة؛ كالجهميـة الاتحاديـة ونحوها، ممن لا يعرفون أسرارهم وحقائقهم:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما المنتسبون إلى الشيخ يونس؛ فكثير مـنهم كـافر بالله ورسوله، لا يقرون بوجوب الصلوات الخمس، وصيام شهر رمضان، وحج البيت

(١) مجموع الفتاوى: ٢/ ١٣١- ١٣٣.

العتيق، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، بل لهم من الكلام في سب الله ورسوله والقرآن والإسلام، ما يعرفه من عرفهم.

وأما من كان فيهم من عامتهم، لا يعرف أسرارهم وحقائقهم، فهذا يكون معه إسلام عامة المسلمين، الذي استفاده من سائر المسلمين لا منهم، فإن خواصهم مثل الشيخ سلول، وجهلان، والصهباني وغيرهم؛ فهؤلاء لم يكونوا يوجبون الصلاة، بل ولا يشهدون للنبي ﷺ بالرسالة»[1]!

وقال بالنسبة لعوام الجهمية: «وهؤلاء الاتحادية وأمثالهم، إنما أُتوا من قلة العلم والإيمان بصفات الله التي يتميز بها عن المخلوقات، وقلة اتباع السنة وطريقة السلف في ذلك، بل قد يعتقدون من التجهم ما ينافي السنة، تلقيًا لذلك عن متفلسف أو متكلم، فيكون ذلك الاعتقاد صادًّا لهم عن سبيل الله، كلما أرادت قلوبهم أن تتقرب إلى ربها، وتسلك الصراط المستقيم إليه وتعبده، كما فطروا عليه وكما بلغتهم الرسل من علوه وعظمته- صرفتهم تلك العوائق المضلة عن ذلك، حتى تجد خلقًا من مقلدة الجهمية يوافقهم بلسانه، وأما قلبه فعلى الفطرة والسنة، وأكثرهم لا يفهمون من النفي الذي يقولونه بألسنتهم، بل يجعلونه تنزيهًا مطلقًا مجملًا! ومنهم من لا يفهم قول الجهمية، بل يفهم من النفي معنى صحيحًا، ويعتقد أن المثبت يثبت نقيض ذلك، ويُسمع من بعض الناس ذكر ذلك.

مثل أن يفهم من قولهم: ليس في جهة، ولا له مكان، ولا هو في السماء- أنه ليس في جوف السماوات؛ وهذا معنى صحيح، وإيمانه بذلك حق، ولكن يظن أن الذين

(١) المرجع السابق: ٢/ ١٠٦، ١٠٧.

قالوا هذا النفي اقتصروا على ذلك، وليس كذلك، بل مرادهم أنه ما فوق العرش أصلًا ولا فوق السماوات إلا عدم محض! ليس هناك إلـه يعبـد ولا رب يـدعى ويسـأل، ولا خالق خلق الخلائق، ولا عُرج بالنبي إلى ربه أصلًا، هذا مقصودهم»[1].

رابعًا: جهل عوام القبوريين في بعض ما يتلبسون به من عبادة غير اللّه، حتى تقوم عليهم الحجة التي يكفر معاندها:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فكل عبادة غير معمول بها فلابد أن يُنهى عنها، ثـم إن علم أنها منهي عنها وفعلها استحق العقاب، فـإن لم يعلـم لم يسـتحق العقـاب، وإن اعتقد أنها مأمور بها، وكانت من جنس المشروع؛ فإنه يثاب عليها، وإن كانت من جنس الشرك؛ فهذا الجنس ليس فيه شيء مأمور بها، لكن قد يحسب بعـض النـاس في بعـض أنواعه أنه مأمور به، وهذا لا يكون مجتهدًا؛ لأن المجتهـد لابـد أن يتبـع دلـيلًا شرعيًّـا، وهذه لا يكون عليها دليل شرعي، لكن قد يفعلها باجتهاد مثله، وهو تقليده لمـن فعـل ذلك من الشيوخ والعلماء، والذين فعلوا ذلك قد فعلوه لأنهـم رأوه ينفـع، أو لحـديث كذب سمعوه، فهؤلاء إذا لم تقم عليهم الحجة بالنهي لا يعذبون، وأما الثواب فإنـه قـد يكون ثوابهم أنهم أرجح من أهل جنسهم، وأما الثواب بالتقرب إلى الله لـه فـلا يكـون بمثل هذه الأعمال»[2].

قال -رحمه الله-: «ونحن نعلم بالضرورة أن رسـول الله ﷺ لم يشرع لأمتـه أن يـدعوا أحدًا من الأموات؛ لا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرهم، لا بلفـظ الاسـتغاثة ولا بغيرهـا، كما أنه لم يشرع لأمته السجود للميت ولا إلى ميت ونحو ذلك، بل نعلم أنـه نهـى عـن كـل

(١) المرجع السابق: ٤/ ٥٨، ٥٩.
(٢) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٣٢، ٣٣.

هذه الأمور، وأن ذلك من الشرك الذي حرم الله تعالى ورسوله، لكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين، لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يبين لهم ما جاء به الرسول ﷺ»[1].

ويقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، في التعليق على هذه المقولة: «ومراد شيخ الإسلام ابن تيمية بهذا الاستدراك، أن الحجة إنما تقوم على المكلفين، ويترتب حكمها بعد بلوغ ما جاءت به الرسل من الهدى ودين الحق وزبدة الرسالة ومقصودها، الذي هو توحيد الله، وإسلام الوجوه له، وإنابة القلوب إليه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2] وقد مثل العلماء هذا الصنف بمن نشأ ببادية، أو ولد في بلاد الكفار ولم تبلغه الحجة الرسالية؛ ولذلك قال الشيخ: لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين، وقد صنف رسالة مستقلة في أن الشرائع لا تلزم قبل بلوغها، وأكثر العلماء يسلمون هذا في الجملة، ويرتبون عليه أحكامًا كثيرة في العبادات والمعاملات وغيرها، فمن بلغته دعوة الرسل إلى توحيد الله ووجوب الإسلام له، وفقه أن الرسل جاءت بهذا، لم يكن له إِذَن عذر في مخالفتهم وترك عبادة الله، وهذا هو الذي يجزم بتكفيره إذا عبد غير الله وجعل معه الأنداد والآلهة، والشيخ وغيره من المسلمين لا يتوقفون في هذا، وشيخنا -رحمه الله- قد قرر هذا وبينه وفاقًا لعلماء الأمة واقتداء بهم، ولم يكفر إلا بعد قيام الحجة وظهور الدليل، حتى إنه -رحمه الله- توقف في تكفير الجاهل من عُبَّاد القبور، إذا لم يتيسر له من ينبهه»[3].

(١) مصباح الظلام، للشيخ عبد اللطيف آل الشيخ: ١٩٧.
(٢) الإسراء: ١٥.
(٣) المرجع السابق: ٣٢٤-٣٢٥.

ويقول الشيخ سليمان بن سحمان النجدي: «ونحن نقول فيمن مات: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾[1]، ولا نكفر إلا من بلغته دعوتنا للحق، ووضحت له المحجة، وقامت عليه الحجة، وأصرَّ مستكبرًا معاندًا؛ كغالب من نقاتلهم اليوم، يصرون على ذلك الإشراك، ويمتنعون من فعل الواجبات، ويتظاهرون بأفعال الكبائر المحرمات.

وغير الغالب إنما نقاتله لمناصرته لمن هذه حاله ورضاه به، ولتكثير سواد من ذُكر، والتغليب معه، فله حينئذ حكمه في حِلِّ قتاله، ونعتذر عمن مضى بأنهم مخطئون معذورون؛ لعدم عصمتهم من الخطأ، والإجماع في ذلك ممنوع قطعيًّا، ومن شن الغارة فقد غلط، ولابد أن يغلط؛ فقد غلط من هو خير منه؛ كمثل عمر بن الخطاب ﷺ، فلما نبهته المرأة رجع في مسألة المهر وفي غير ذلك، يعرف ذلك في سيرته، بل غلط الصحابة وهم جمع، ونبينا ﷺ بين أظهرهم، سار فيهم نوره، فقالوا: اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط!!

فإن قلت: هذا فيمن ذهل فلما نبه انتبه، فما القول فيمن حرر الأدلة، واطلع على كلام الأئمة القدوة، واستمر مصرًّا على ذلك حتى مات؟! قلت: ولا مانع أن نعتذر لمن ذكر، ولا نقول: إنه كافر؛ لعدم من يناضل في هذه المسألة في وقته بلسانه وسيفه وسنانه، فلم تقم عليه حجة، ولا وضحت له المحجة، بل الغالب على زمن المؤلفين المذكورين التواطؤ على هجر كلام أئمة السنة في ذلك رأسًا، ومن اطلع عليه أعرض عنه قبل أن يتمكن في قلبه، ولم يزل أكابرهم تنهى أصاغرهم عن مطلق النظر في ذلك، وصولة الملوك قاهرة لمن وقر في قلبه شيء من ذلك، إلا من شاء الله منهم.

---

(١) البقرة: ١٣٤.

هذا وقد رأى معاوية وأصحابه ﷺ منابذة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، بل وقتاله ومناجزته الحرب، وهم في ذلك مخطئون بالإجماع، واستمروا في ذلك الخطأ حتى ماتوا، ولم يشتهر عن أحد من السلف تكفير أحد منهم إجماعًا، بل ولا تفسيقه، بل أثبتوا لهم أجر الاجتهاد، وإن كانوا مخطئين، كما ذلك مشهور عند أهل السنة.

ونحن كذلك لا نقول بكفر من صحت ديانته وشهر صلاحه، وعلم ورعه وزهده، وحسنت سيرته، وبلغ من نصحه الأمة ببذل نفسه لتدريس العلوم النافعة والتأليف فيها، وإن كان مخطئًا في هذه المسألة أو غيرها؛ كابن حجر الهيتمى، فإنا نعرف كلامه في «الدر المنظم»ولا ننكر سعة علمه؛ ولهذا نعتني بكتبه كشرح الأربعين والزواجر وغيرهما، ونعتمد على نقله؛ لأنه من جملة علماء المسلمين»[1].

وقال الشيخ أبو بطين -رحمه الله-: «ومن قال: لا إله إلا الله، ومع ذلك يفعل الشرك الأكبر؛ كدعاء الموتى والغائبين، وسؤالهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات، والتقرب إليهم بالنذور والذبائح- هذا مشرك شاء أم أبى، والله لا يغفر أن يشرك به، ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار، ومع أن هذا الفعل شرك ومن فعله فهو كافر.

ولكن على ما قاله الشيخ لا يقال: فلان كافر، حتى يبين له ما جاء به الرسول ﷺ، فإن أصرَّ بعد البيان حُكِم بكفره وحَلَّ دمُه ومالُه، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾[2]، أي: شرك، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾»[1].

(١) الهدية السنية، للشيخ سليمان بن سحمان النجدي: ٤٦- ٤٨.
(٢) البقرة: ١٩٣.

وقال الشوكاني -رحمه الله- في التعليق على حادثة سجود معاذ للنبي ﷺ: «وفي هـذا الحديث دليل على أن من سجد لغير الله جاهلًا لم يكفر»[٢](*).

ويقول الشيخ الألباني -حفظه الله- في أحد أشرطتـه السـمعية، وقـد وجـه إليـه هـذا السؤال -: هل يعذر بالجهل من كان في بلدة يقام فيهـا الـذبح للأوليـاء، والطـواف حـول قبورهم، وهم يدَّعون الإسلام، والطابع هذا في جميع البلاد، ويعتقد أن هذا الرجـل الـذي يطوف حوله ينفع ويضر، وهذا هو الاعتقاد السائد في هذا البلد؟

فأجاب: «هناك ثلاثة مجتمعات: مجتمع إسلامي صحيح، ومجتمـع كـافر، ومجتمـع اسمًا إسلامي؛ فالذي وجد في المجتمع الثاني والثالث معذور، حجة الله عليه لم تقم.

معذور بمعنى أننا لا نحكم عليه بأنه من أهل الكفر الخالدين في النار، وليس معناه أن يدخل الجنة (ترانـزيت)! لا يدخل الجنة إلا كما قال ﷺ - في حجة الوداع -: «**نفس مؤمنة**».

---

(١) الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة، للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب: ١٢٦.

(٢) نيل الأوطار:٦/ ٢٢٣.

(*) ولا يخفى أن العذر بالجهل في مثل ذلك لا يُفتعل افتعالًا، وإنما ينهض حيث توجد مظنته؛ ولهذا يختلـف من سجد للأولياء يظن ذلك من باب التوقير الواجب لهم، وأنه يثاب عليه صاحبه باعتباره قربة إلى الله، وبين من سجد للبقر من الهندوس أو النار من المجوس ونحوه، فـإن الشـبهة في الأولى قائمـة، واحـتمال الجهل قريب ومتوجه، وأما في الثانية فإن الأمر جدٌّ مختلف، والعذر فيها ليس بمتوجه؛ إذ لم تـرد شريعـة قط بتعظيم الأبقار أو النار! ولكن وردت الشرائع بمحبـة الصـالحين وتـوقيرهم، وفي التـبرك بآثـارهم خلاف معتبر، بل جاءت الشرائع السابقة بسجود إخوة يوسف ليوسف، وسجود أبويه لـه، ومـن قبـل ذلك سجود الملائكة لآدم؛ سجود تحية، وليس سجود عبادة، والتدرج مـن التـوقير المشروع إلى التـبرك الممنوع محتمل الوقوع، واحتمال اللبس في ذلك قريب. فتأمل.

ولكن أريد من قولي: إنه معذور؛ أي: لا يحكم له بالنار التي وُعد بها الكفار، له معاملة يوم القيامة معروفة في بعض الأحاديث الثابتة؛ فإن أطاع دخل الجنة، وإن عصى دخل النار»[1].

أن من تفاصيل التوحيد ما لا يعذر فيه بالجهل بيقين:

وذلك كنسبة الصاحبة أو الولد إلى الله، أو العداوة الدينية لجماعة المسلمين، أو سبِّ الله تعالى وسبِّ رسوله ﷺ ونحوه، مما لا يتصور ورود عارض الجهل فيه على أحد من المسلمين؛ لكونه من المعلوم بالضرورة من الدين.

(١) الألباني: فتاوى جدة، الشريط الحادي عشر، ١٦/ ٦/ ١٤١٠هـ.

المطلب الثاني

المتغيرات في هذه القضية

ومن موارد الاجتهاد في هذه القضية ما يلي:

الجهل بعموم قدرة الله ﷻ، وإنكار مَعاد الأبدان إذا تفرقت:

وأساس الاختلاف في هذه المسألة؛ تفاوت أهل العلم في فهم قصة الرجل الذي أوصى أولاده بإحراقه، وتذرية رماده في يوم راحٍ؛ لعله يضل ربه!! فإن ربه إن قدر عليه سيعذبه عذابًا ما عذبه لأحد، فمن أهل العلم من استشكل المغفرة لهذا الرجل مع إنكاره للبعث والقدرة، وتأول الحديث على أن «**قدر**»بمعنى: ضيَّق.

قال البدر العيني: «فإن قلت: إن كان هذا الرجل مؤمنًا فلِمَ شك في قدرة الله تعالى؛ حيث قال: «**فوالله لئن قدر عليَّ ربي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا**»؟! وإن لم يكن فكيف غفر له؟!

قلت: كان مؤمنًا بدليل الخشية، ومعنى قدر، مخففًا ومشددًا: حكم وقضى، أو ضيَّق»[1].

أو أن يكون الرجل قد قال ذلك في حال دهشته وغلبة الخوف عليه، حتى ذهب بعقله لما يقول، وهو اختيار الحافظ ابن حجر -رحمه الله-، قال في الفتح: «وأظهر الأقوال أنه قال ذلك في حال دهشته وغلبة الخوف عليه، حتى ذهب بعقله لما يقول، ولم

(١) عمدة القاري: ١٦/ ٦٢.

يقل قاصدًا لحقيقة معناه، بل في حالة كان فيها كالغافل والذاهل والناسي، الذي لا يؤاخذ بما يصدر منه»[1].

ومن أهل العلم من صار مع ظاهر هذا الحديث، وجزم بأن الرجل قال ما قال عن جهل، وهو معذور بجهله، وأن الجهل في مثل ذلك لا يعد كفرًا، ويعذر به صاحبه، ومنهم من شدد النكير على التأولات التي ذهب إليها الفريق الأول، وشن الغارة عليها، واعتبرها من قبل التحريف وإبعاد النجعة، ومن هؤلاء الخطابي وشيخ الإسلام ابن تيمية.

قال الخطابي: «فإن قلت: كيف يغفر له وهو منكر للقدرة على الإحياء؟! قلت: ليس بمنكر، إنما هو رجل جاهل؛ ظن أنه إذا صنع به هذا الصنيع تُرك فلم ينشر ولم يعذب، وحيث قال: «**من خشيتك**»عُلم منه أنه رجل مؤمن، فعل ما فعل من خشية الله، ولجهله حَسِب أن هذه الحيلة تنجيه»[2].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في عدة مواضع قصة هذا الرجل، ثم قال في التعليق عليها: «فهذا رجل شك في قدرة الله، وفي إعادته إذا ذري، بل اعتقد أنه لا يعاد، وهذا كفر باتفاق المسلمين، لكن كان جاهلًا لا يعلم ذلك، وكان مؤمنًا يخاف الله أن يعاقبه، فغفر له بذلك».

ويعلق عليها في موضع آخر فيقول: «فهذا الرجل ظن أن الله لا يقدر عليه إذا تفرق هذا التفرق، فظن أنه لا يعيده إذا صار كذلك، وكل واحد: من إنكار قدرة الله

(١) راجع: فتح الباري، ٦/ ٥٢٣.
(٢) عمدة القاري: ١٦/ ٦٢.

تعالى، وإنكار معاد الأبدان وإن تفرقت كُفْر، لكنه كـان مـع إيمانـه بـالله وإيمانـه بـأمره وخشيته منه جاهلًا بذلك، ضالًّا في هذا الظن مخطئًا؛ فغفر الله له ذلك.

والحديث صريح في أن الرجل طمع ألَّا يعيده إذا فعل ذلك، وأدنى هذا أن يكـون شاكًّا في المعاد، وذلك كفر، إذا قامت حجة النبوة على منكره حكم بكفره، وهو بـيِّن في عدم إيمانه بالله تعالى.

ومن تأول قوله: «**لئن قدر الله عـلى**»بمعنـى: قضى، أو بمعنـى: ضـيق، فقـد أبعـد النجعة، وحرَّف الكلم عن مواضعه، فإنه إنما أمر بتحريقه وتفريقه لـئلا يُجمـع ويعـاد، وقال: «**إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذروني في الريح في البحر، فوالله لئن قدر عليَّ ربي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا**»! فذكر هذه الجملة الثانيـة بحـرف الفـاء عقيـب الأولى يدل على أنه سبب لها، وأنه فعل ذلك لئلا يقدر الله عليه إذا فعل ذلك!! فلو كان مقرًّا بقدرة الله عليه إذا فعل ذلك كقدرته عليه إذا لم يفعل، لم يكـن في ذلـك فائـدة لـه؛ ولأن التقدير عليه والتضييق موافقان للتعذيب، وهو قد جعل تفريقه مغايرًا لأن يقـدر الرب، قال: «**فوالله! لئن قدر الله علي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحـدًا مـن العـالمين**»، فـلا يكون الشرط هو الجزاء؛ ولأنه لو كان مراده ذلك لقال: فوالله لئن جازاني ربي، أو لـئن عاقبني ربـى ليعـذبني عـذابًا، كـما هـو الخطـاب المعـروف في مثـل ذلـك؛ ولأن لفـظ «**قدر**»بمعنى: ضيق، لا أصل له في اللغة، ومن استشـهد عـلى ذلـك بقولـه: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾[1]، وقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾[2] فقد استشهد بما لا يشهد لـه، فـإن اللفـظ

(١) سبأ: ١١.

(٢) الطلاق: ٧.

كان بقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾؛ أي: اجعل ذلك بقدر، ولا تزد ولا تنقص، وقوله: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾؛ أي: جُعل رزقه بقدر يغنيه من غير فضل؛ إذ لو ينقص الرزق عن ذلك لم يعش.

وأما «**قدر**»بمعنى: قدَّر، أي: أراد تقدير الخير والشر، فهو لم يقل: إن قدَّر عليَّ ربي العذاب، بل قال: «**لئن قدر علي ربي**»، والتقدير يتناول النوعين، فلا يصح أن يقال: لئن قضى الله علي؛ لأنه قد مضى وتقرر عليه ما ينفعه وما يضره؛ ولأنه لو كان المراد التقدير أو التضييق لم يكن ما فعله مانعًا من ذلك في ظنه.

ودلائل فساد هذا التحريف كثيرة ليس هذا موضع بسطها، فغاية ما في هذا أنه كان رجلًا لم يكن عالمًا بجميع ما يستحقه الله من الصفات، وبتفصيل أنه القادر، وكثير من المؤمنين قد يجهل مثل ذلك، فلا يكون كافرًا»[1].

وقال في موضع آخر: «فهذا الرجل كان قد وقع له الشك والجهل في قدرة الله تعالى على إعادة ابن آدم، بعد ما أحرق وذري، وعلى أنه يعيد الميت ويحشره إذا فعل به ذلك، وهذان أصلان عظيمان؛ أحدهما متعلق بالله تعالى؛ وهو الإيمان بأنه على كل شيء قدير، والثاني متعلق باليوم الآخر؛ وهو الإيمان بأن الله يعيد هذا الميت، ويجزيه على أعماله.

ومع هذا فلما كان مؤمنًا بالله في الجملة، ومؤمنًا باليوم الآخر في الجملة؛ وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت، وقد عمل عملًا صالحًا؛ وهو خوفه من الله أن يعاقبه على ذنوبه- غفر الله له بما كان منه من الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح»[2].

(١) مجموع الفتاوى: ١١/ ٤٠٩- ٤١١.

(٢) المرجع السابق:١٢/ ٤٩١.

فالذي كان مع هذا الرجل، ونفى عنه الكفر بهذه المقولة؛ هو الإيمان المجمل بالله واليوم الآخر، والخوف من أن يعاقبه الله على ذنوبه، فشفع له ذلك عند الله، وعذر بجهله فيما وراء ذلك من التفاصيل.

وتأمل عبارات شيخ الإسلام:

- «وكل واحد: من إنكار قدرة الله تعالى، وإنكار معاد الأبدان وإن تفرقت- كُفْر، لكنه كان مع إيمانه بالله وإيمانه بأمره وخشيته منه جاهلًا بذلك، ضالًّا في هذا الظن مخطئًا؛ فغفر الله له ذلك».

- «فغاية ما في هذا أنه كان رجلًا لم يكن عالمًا بجميع ما يستحقه الله من الصفات، وبتفصيل أنه القادر، وكثير من المؤمنين قد يجهل مثل ذلك فلا يكون كافرًا».

- «ومع هذا فلما كان مؤمنًا بالله في الجملة، ومؤمنًا باليوم الآخر في الجملة؛ وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت، وقد عمل عملًا صالحًا؛ وهو خوفه من الله أن يعاقبه على ذنوبه- غفر الله له بما كان منه من الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح».

فيفرق شيخ الإسلام بين الإيمان المجمل بالله ﷻ واليوم الآخر؛ فهذا هو معقد النجاة، ولا عذر لأحد في نقضه، وبين تفاصيل ما يجب لله - سبحانه وتعالى - من الكمالات وما يتصف به من الصفات؛ فهذا الذي لا يثبت حكمه في حق أحد حتى تقوم عليه الحجة الرسالية.

وإذا تقرر العذر بالجهل في بعض متعلقات القدرة وبعض متعلقات العلم، صح العذر بالجهل في بعض متعلقات الحكم وبعض متعلقات العبادة، ولا فرق.

تكفير عوام الرافضة:

فقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن في تكفيرهم وتخليدهم في النار قولين مشهورين لأهل العلم؛ فقال رحمه الله [وأما تكفيرهم وتخليدهم، ففيه أيضا للعلماء قولان مشهوران، وهما روايتان عن أحمد. والقولان في الخوارج والمارقين من الحرورية والرافضة ونحوهم. والصحيح أن هذه الأقوال التي يقولونها، التي يعلم أنها مخالفة لما جاء به الرسول- كفر، وكذلك أفعالهم التي هي من جنس أفعال الكفار بالمسلمين هي كفر أيضًا، وقد ذكرت دلائل ذلك في غير هذا الموضع، لكن تكفير الواحد المعين منهم والحكم بتخليده في النار موقوف على ثبوت شروط التكفير وانتفاء موانعه، فإنَّا نطلق القول بنصوص الوعد والوعيد والتكفير والتفسيق، ولا نحكم للمعين بدخوله في ذلك العام حتى يقوم فيه المقتضي الذي لا معارض له، وقد بسطت هذه القاعدة في «قاعدة التكفير».

ولهذا لم يحكم النبي ﷺ بكفر الذي قال: «**إذا أنا مت فأحرقوني، ثم ذروني في اليم، فوالله لئن قدر الله عليَّ ليعذبني عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين**»، مع شكه في قدرة الله وإعادته؛ ولهذا لا يكفر العلماء من استحل شيئًا من المحرمات لقرب عهده بالإسلام، أو لنشأته ببادية بعيدة، فإن حكم الكفر لا يكون إلا بعد بلوغ الرسالة، وكثير من هؤلاء قد لا يكون قد بلغته النصوص المخالفة لما يراه، ولا يعلم أن الرسول بعث بذلك، فيطلق أن هذا القول كفر، فيكفر من قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها دون غيره، والله أعلم»[1].

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٥٠٠، ٥٠١.

مآل من مات ولم تبلغه الدعوة على وجهها:

من مات على غير الإسلام والتوحيد، ولم تكن قد بلغته الدعوة على وجهها، فإن مآله في الآخرة موضع نظر بين أهل العلم.

فمنهم من جزم بعدم عذره وأنه معذب لا محالة، وهم المعتزلة وكثير من الحنفية.

قال أبو حنيفة -رحمه الله-: «لا عذر لأحد من الخلق في جهله معرفة خالقه؛ لأن الواجب على جميع الخلق معرفة الرب سبحانه وتعالى وتوحيده؛ لما يرى من خلق السماوات والأرض وخلق نفسه وسائر ما خلق الله تعالى، فأما الفرائض؛ فمن لم يعلمها ولم تبلغه فإن هذا لم تقم عليه حجة حكمية»[1].

ومنهم من جزم بعذره، وأنه لا يُعَذَّبُ أحدٌ إلا إذا قامت عليه الحجة الرسالية؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2].

يقول ابن القيم -رحمه الله-: «إن العذاب يُستحق بسببين؛ أحدهما: الإعراض عن الحجة، وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها، والثاني: العناد لها بعد قيامها، وترك إرادة موجبها؛ فالأول كفر إعراض، والثاني كفر عناد، وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها؛ فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل»[3].

---

(١) راجع: بدائع الصنائع، للكاساني، ٩/ ٤٣٧٨.

(٢) الإسراء: ١٥.

(٣) طريق الهجرتين: ٤١٤.

ويقول الشنقيطي: «والآيات القرآنية مصرحة بكثرة، على عدم الاكتفاء بما نصب من الأدلة، وما ركز من الفطرة، بل إن الله تعالى لا يعذب أحدًا حتى يقيم عليه الحجة بإنذار الرسل، فمن ذلك قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، فإنه قال فيها: ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، ولم يقل: حتى نخلق عقولًا، وننصب أدلة، ونركز فطرة»(١).

وهؤلاء فريقان:

منهم من أطلق القول بعذرهم، وأن الرحمة تشملهم ابتداء:

قال الغزالي: «بل أقول: إن أكثر نصارى الروم والترك في هذا الزمان تشملهم الرحمة- إن شاء الله تعالى - أعني: الذين هم في أقاصي الروم والترك، ولم تبلغهم الدعوة، فإنهم ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: لم يبلغهم اسم محمد ﷺ أصلًا؛ فهم معذورون.

الصنف الثاني: بلغهم اسمه ونعته، وما ظهر عليه من المعجزات، وهم المجاورون لبلاد الإسلام، والمخالطون لهم، وهم الكفار الملحدون.

الصنف الثالث: هم بين الدرجتين؛ بلغهم اسم محمد ﷺ ولم يبلغهم نعته وصفته، بل سمعوا أيضًا منذ الصبا أن كذابًا اسمه محمد -نعوذ من ذلك بالله تعالى- ادَّعى النبوة!! كما سمع صبياننا أن كذابًا يقال له: المقفع، بعثه الله تحديًا بالنبوة كاذبًا.

(١) أضواء البيان، للشنقيطي:٢/ ٢٠١.

فهؤلاء عندي في أوصافه في معنى الصنف الأول، فإنهم مع أنهم لم يسمعوا اسمه، سمعوا ضد أوصافه، وهذا لا يحرك النظر في الطلب»[1].

ومنهم من قال: يمتحنون في عرصات يوم القيامة:

وقد صحت في هذا القول بعض النصوص، وذهب إلى القول به عدد كبير من أهل العلم؛ منهم ابن تيمية، وابن القيم، وابن حجر، وابـن حـزم، وابـن كثـير، والبيهقـي، ونسبه أبو الحسن الأشعري إلى أهل السنة والجماعة.

قال ﷺ: «**أربعة يوم القيامة يدلون بحجة: رجل أصـم لا يسـمع، ورجـل أحمـق، ورجل هرَم، ومن مات في الفطرة؛ فأما الأصم فيقول: يا رب، جاء الإسلام وما أسـمع شيئًا، وأما الأحمق فيقول: جاء الإسلام والصبيان يقذفونني بالبعر، وأما الهـرم فيقـول: لقد جاء الإسلام وما أعقل، وأما الـذي مـات عـلى الفطـرة فيقـول: يـا رب، مـا أتـاني رسولك، فيأخذ مـواثيقهم ليطيعنـه، فيرسـل إلـيهم رسـولاً أن ادخلـوا النـار»! قـال: «فوالذي نفسي بيده، لو دخلوها لكانت عليهم بردًا وسلامًا**»[2].

قال ابن كثير -رحمه الله- بعد أن ساق النصوص التـي تشـير إلى امتحـان هـؤلاء في عرصات يوم القيامة: «وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقـد صرحـت بـه الأحاديـث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض، وهذا القول هو الذي حكاه الشيخ أبوالحسـن علي بن إسماعيل الأشعري عن أهل السنة والجماعة، وهو الـذي نصره الحـافظ أبـو بكـر البيهقي في كتاب «الاعتقاد »، وكذلك غيره من محققي العلماء والحفاظ والنقاد»[3].

(١) فيصل التفرقة: ١٠٥، ١٠٦.

(٢) رواه أحمد والطبراني وابن حبان، وصححه الألباني [الصحيحة: ١٤٤٣].

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٠.

وأجاب عمن ضعفوا هذه الأحاديث بقوله: «إن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح كما قد نص على ذلك كثير من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ما هو ضعيف يتقوى بالصحيح والحسن، وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متصلة متعاضدة على هذا النمط، أفادت الحجة عند الناظر فيها»[1].

وقال ابن حزم -رحمه الله-: «أما من لم يبلغه ذكره ﷺ؛ فإن كان موحدًا فهو مؤمن على الفطرة الأولى صحيح الإيمان، لا عذاب عليه في الآخرة، وهو من أهل الجنة، وإن كان غير موحد فهو من الذين جاء النص بأنه يوقد له نار يوم القيامة، فيؤمرون بالدخول فيها؛ فمن دخلها نجا، ومن أبى هلك»[2]!

وقال الشنقيطي: «الظاهر أن التحقيق في هذه المسألة التي هي: هل يعذر المشركون بالفترة أو لا؟ هو أنهم معذورون بالفترة في الدنيا، وأن الله يوم القيامة يمتحنهم بنار يأمرهم باقتحامها؛ فمن اقتحمها دخل الجنة، وهو الذي كان يصدق الرسل لو جاءته في الدنيا، ومن امتنع دخل النار وعذب فيها، وهو الذي كان يكذب الرسل لو جاءته في الدنيا؛ لأن الله يعلم ما كانوا عاملين لو جاءتهم الرسل»[3].

المنازعة في مدى قيام الحجة في قضية بعينها، أو في شخص بعينه:

إذا ثبت أصل العذر بالجهل، كما تقرر فيما سبق، فإن المنازعة قد تقع في التعيين في قضية بعينها، أو بالنسبة لشخص بعينه، وهذا مما تتفاوت فيه التقديرات، وهو من موارد الاجتهاد بلا نزاع.

(١) المرجع السابق: ٣/ ٣١.
(٢) الإحكام: ٥/ ٦٨٦.
(٣) أضواء البيان: ٣/ ٤٣٨.

يقول ابن القيم -رحمه الله-: «إن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان دون زمان، وفي بقعة وناحية دون أخرى، كما أنها تقوم على شخص دون آخر؛ إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون؛ وإما لعدم فهمه كالذي لا يفهم الخطاب، ولم يحضر ترجمان يترجم له، فهذا بمنزلة الأصم الذي لا يسمع شيئًا ولا يتمكن من الفهم، وهو أحد الأربعة الذين يدلون على الله بالحجة يوم القيامة، كما تقدم في حديث الأسود وأبي هريرة وغيرهما»[1].

المنازعة فيمن تقوم بمثله الحجة:

فالحجة على العامة لا تقوم إلا من خلال من يثقون به من أهل العلم؛ لأن العامة فرضهم سؤال أهل الذكر، ولا شأن لهم بالنظر في النصوص، أو استثمار الأحكام الشرعية منها، وقد تقوم عليهم برجل، ولا تقوم عليهم بآخر، ولا ضابط لمن ترد إليه الفتوى بالنسبة لهم إلا التسامح والاستفاضة، وفي مثل هذا تتفاوت الاجتهادات.

والحجة على أهل العلم تقوم بالأدلة الشرعية المعتبرة من الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وقد يحسن عرضها رجل ولا يحسن عرضها آخر، وكم من حامل حق لا بصيرة له في إحيائه! وكم من قضية عادلة أضاعها محامون فاشلون! فليس كل من حفظ دليلًا أو دليلين في مسألة تقوم بمثله الحجة، بل الأصل في الحجة أنها لا تقام إلا بالمجتهد أو بذي سلطان أو أمير مطاع، وهو الذي يعبر عنه الفقهاء بالاستتابة، وهي أقرب إلى عمل القضاء.

(١) طريق الهجرتين: ٤١٤٠.

المبحث الثاني

عارض الإكراه

في هذا العارض بدوره جملة من الثوابت، وعدد من المتغيرات وموارد الاجتهاد، وفيما يلي محاولة لإيجاز القول في هذه وفي تلك.

المطلب الأول

الثوابت في هذه القضية

أصل اعتبار عارض الإكراه عند إجراء الأحكام:

والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[1].

يقول ابن كثير -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: «ولهذا اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي؛ إبقاءً لمهجته، ويجوز له أن يأبى، كما كان بلال ﷺ يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر! ويأمرونه بالشرك بالله؛ فيأبى عليهم وهو يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ!!»[2].

(١) النحل: ١٠٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٨٨.

وقوله ﷺ لعمار: «**إن عادوا فعد**»، وذلك عندما حمله المشركون على أن يسبَّ رسول الله ﷺ ويذكر آلهتهم بخير، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «**كيف تجد قلبك؟**»، قال: مطمئنًا بالإيمان، فقال: «**إن عادوا فعُدْ**»!!

تقسيم الإكراه إلى قسمين؛ إكراه مُلجئ، وإكراه غير مُلجئ:

أما الإكراه الملجئ؛ فهو كما يقول الحنفية: ما يعدم الرضا ويفسد الاختيار، وهو الإكراه التام الذي يجعل المكرَه كالآلة في يد المكرِه، ويكون بما يعرض النفس أو أحد الأعضاء للتلف، ويلحق به الضرب الشديد المفضي إلى إزهاق الروح، وإتلاف أحد الأعضاء.

وأما الإكراه غير الملجئ؛ فهو الذي يعدم الرضا ولا يذهب الاختيار، وهو الإكراه الناقص، ويكون بالتهديد بالحبس والقيد، وبالضرب غير المبرح، وإتلاف بعض المال ونحوه.

اتفاق الفقهاء على اعتبار الإكراه الملجئ، ومنازعتهم في بعض صور الإكراه غير الملجئ:

فالإكراه بالقتل أو القطع أو الجرح أو الضرب المفضي إلى شيء من ذلك؛ لا خلاف على اعتباره وترتيب آثاره عليه، عند أهل العلم، فيسقط التبعة عن الأقوال، كما يسقط التبعة عن كثير من الأعمال، على التفصيل التالي:

تفاوت أثر الإكراه على حكم الأفعال المكرَه عليها بين الوجوب والحرمة والجواز:

يتفاوت أثر الإكراه على حكم الأفعال المكرَه عليها، ويمكن التمييز في ذلك بين ثلاثة أنواع:

- نوع يجب فيه إعطاء التقية عند جمهور العلماء؛ وذلك كالإكراه على شرب الخمر وأكل الميتة ولحم الخنـزير، فمن أكره بالقتل أو بإتلاف أحد الأعضاء على شيء من ذلك، وجب عليه عند جمهور العلماء أن يعطي التقية؛ لأن حفظ الحياة أعظم في نظر الشرع من رعاية هذه المحرمات، وقد قال تعالى بعد ذكر هذه المحرمات: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾[1].

قال العز بن عبد السلام: «وكذلك من أكره على شرب الخمر، أو غُصَّ ولم يجد ما يسيغ به الغصة سوى الخمر، فإنه يلزمه ذلك؛ لأن حفظ الحياة أعظم في نظر الشرع من رعاية المحرمات المذكورات»[2].

- نوع يحرم فيه ذلك؛ كالإكراه على القتل والزنا ونحوه، مما فيه مظلمة لآدمي ولا يمكن استدراكه، فقد اتفق أهل العلم على أن الإكراه لا يبيح القتل، وليس لأحد أن يدفع القتل عن نفسه بقتل غيره؛ إذ ليست عصمة نفسه بأولى من عصمة نفس أخيه، ويلحق بالقتل القطع والجرح والضرب المفضي إلى الموت، وفي إيجاب القصاص في هذه الحالة خلاف.

وكذلك الزنا بالنسبة للرجل، أما المرأة فإن الجمهور على سقوط الإثم عنها بالإكراه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

(١) الأنعام: ١١٩.
(٢) قواعد الأحكام، للعز بن عبد السلام.
(٣) النور: ٣٣.

ولاعتبارات أخرى ذكروها في التفرقة في الحكم بين الرجل والمرأة، وإن كان بعضها لا يخلو من مقال.

يقول العز بن عبد السلام - في معرض بيانه لاجتماع المفاسد، ووجوب درء الأفسد فالأفسد إن تعذر درؤها جميعًا -: «أحدها: أن يكره على قتل مسلم بحيث لو امتنع منه قتل، فيلزمه أن يدرأ مفسدة القتل بالصبر على القتل؛ لأن صبره على القتل أقل مفسدة من إقدامه عليه، وإن قدر على دفع المكروه بسبب من الأسباب لزمه ذلك؛ لقدرته على درء المفسدة، وإنما قدم درء القتل بالصبر لإجماع العلماء على تحريم القتل واختلافهم في الاستسلام للقتل، فوجب تقديم درء المفسدة المجمع على وجوب درئها، على درء المفسدة المختلف في وجوب درئها، وكذلك لو أكره على الزنا واللواط؛ فإن الصبر مختلف في جوازه، ولا خلاف في تحريم الزنا واللواط.

كذلك لو أكره بالقتل على شهادة زور أو على حكم بباطل، فإن كان المكرَه على الشهادة به أو الحكم به قتلًا أو قطع عضو وإحلال بضع محرم؛ لم تجز الشهادة ولا الحكم؛ لأن الاستسلام للقتل أولى من التسبب إلى قتل مسلم بغير ذنب، أو قطع عضو بغير جرم، أو إتيان بضع محرم»[1].

ويقول الجصاص في أحكام القرآن: «وقالوا فيمن أكره على قتل رجل، أو على الزنا بامرأة: لا يسعه الإقدام عليه؛ لأن ذلك من حقوق الناس، وهما متساويان في الحقوق،

(١) قواعد الأحكام، للعز بن عبد السلام: ١/ ٩٣.

فلا يجوز إحياء نفسه بقتل غيره بغير استحقاق، وكذلك الزنا بالمرأة فيه انتهاك حرمتها بمعنى لا تبيحه الضرورة، وإلحاقها بالشين والعار»[1].

- نوع يجوز فيه إعطاء التقية، وإن كان الصبر أولى؛ كالإكراه على الكفر قولًا، أو عملًا (على خلاف)... ونحوه.

قال ابن بطال: «أجمعوا على أن من أكره على الكفر واختار القتل، أنه أعظم أجرًا عند الله ممن اختار الرخصة، وأما غير الكفر؛ فإن أكره على أكل الخنزير وشرب الخمر -مثلاً- فالفعل أولى، وقال بعض المالكية: بل يأثم إن منع من أكل غيرها، فإنه يصير كالمضطر إلى أكل الميتة إذا خاف على نفسه الموت فلم يأكل»[2].

وقال الجصاص في أحكام القرآن: «فأحكام الإكراه مختلفة على الوجوه التي ذكرنا؛ منها ما هو واجب فيه إعطاء التقية؛ وهو الإكراه على شرب الخمر وأكل الميتة، ونحو ذلك مما طريق حظره السمع، ومنها ما لا يجوز فيه إعطاء التقية؛ وهو الإكراه على قتل من لا يستحق القتل، ونحو الزنا، ونحو ذلك مما فيه مظلمة لآدمي ولا يمكن استدراكه، ومنها ما هو جائز له فعل ما أكره عليه والأفضل تركه؛ كالإكراه على الكفر»[3].

(١) أحكام القرآن، للجصاص: ٥/ ١٦.
(٢) فتح الباري: ١٢/ ٣١٧.
(٣) أحكام القرآن، للجصاص: ٥/ ١٦.

المطلب الثاني

المتغيرات في هذه القضية

أما موارد الاجتهاد في هذه القضية فهي كثيرة، نذكر منها:

المنازعة في بعض صور الإكراه غير الملجئ؛ كالضرب الخفيف، والحبس اليسير، والإيذاء المعنوي، وإتلاف بعض المال ونحوه:

فابن حزم -رحمه الله- يطلق القول باعتبار كل ذلك من الإكراه، والإيذاء المعنوي معتبر بالنسبة لذوي المروءات عند جمهور الفقهاء.

فقد جاء في الدر المختار: «أن أدنى مراتب الإكراه ما يوجب غمًّا يعدم الرضا»، ثم قال: «هو يختلف باختلاف الأشخاص، فإن الأشراف يغمون بكلام خشن، والأراذل ربما لا يغمون إلا بالضرب المبرح»[1]!!

ويجعل المالكية من صور الإكراه المعتبر: الصفع لذوي المروءات والجاه في الملأ[2].

ويجعل ابن قدامة من الحنابلة: السب والشتم في حق ذوي المروءات من صور الإكراه المعتبر[3].

(١) حاشية ابن عابدين: ٦/ ١٢٩.
(٢) الخرشي على خليل: ٣/ ١٧٣.
(٣) المغني: ٧/ ٣٨٤.

والحبس اليسير والضرب الخفيف؛ يعتبره الحنفية من الإكراه المعتبر بالنسبة لذوي المروءات[1]، ويعتبره المالكية مطلقًا[2]، وهو أحد الأقوال عند الشافعية.

الترخص في أعمال الكفر تحت تأثير الإكراه:

إذا كان الإجماع قد انعقد على جواز النطق بكلمة الكفر تحت تأثير الإكراه، فإن الترخص في أفعال الكفر موضع خلاف بين أهل العلم؛ فمنهم من سوَّى بين الأقوال والأفعال في جواز الترخص فيها في حالة الإكراه، ومنهم من فرق بينهما؛ فأجاز الأولى، ومنع من الثانية.

وممن ذهبوا إلى التسوية بينهما:

- محمد بن الحسن من الحنفية، فقد ذكر في معرض بيانه لوجوب التورية عند الإكراه على الكفر: «إذا أكرهه الكفار على أن يشتم محمدًا ﷺ، فخطر بباله أن يشتم محمدًا آخر غيره، فلم يفعل وقد شتم النبي ﷺ- كان كافرًا، وكذلك لو قيل له: لتسجدن إلى هذا الصليب، فخطر بباله أن يجعل السجود لله، فلم يفعل وسجد للصليب- كان كافرًا، فإن أعجلوه عن الرؤية ولم يخطر بباله شيء، وقال ما أكره عليه أو فعل لم يكن كافرًا، إذا كان قلبه مطمئنًا بالإيمان»[3].

- السيوطي، فقد ذكر في الأشباه والنظائر، أن تلفظ المكره بالكفر وإتيانه بعمل الكفر، يحتمل أن يكون أفضل من صبره حتى يقتل، إذا كان المكره ممن يتوقع منهم نكاية في العدو

(١) حاشية ابن عابدين: ٦/ ١٣٠.
(٢) راجع: الخرشي على خليل، ٣/ ١٧٣.
(٣) أحكام القرآن، للجصاص: ٥/ ١٣.

والقيام بأحكام الشرع، وذلك كأن يكون عالمًا بأحكام الشرع وليس في الناس مثله، وغير ذلك ممن تقتضي المصلحة بقاءه حيًّا[1].

- العز بن عبد السلام، فقد جعلهما مما يباح؛ لاشتماله على المصالح والمفاسد مع رجحان مصالحه على مفاسده، فقال -رحمه الله-: «ما يكفر به من الأفعال المناقضة للتعظيم والإجلال إذا فعله بالإكراه، ولا يتصور الإكراه على الكفر بالجنان، ولا على جحد ما يجب الإيمان به؛ إذ لا اطلاع للمكرِه على ما يشتمل عليه الجنان؛ من كفر وإيمان، وجحد وعرفان»[2].

- شيخ الإسلام ابن تيمية، فقد ذكر عذر النجاشي في عدم حكمه بالقرآن؛ لعدم إقرار قومه له على ذلك، وعذر من يتولى قاضيًا بين المسلمين والتتار أو إمامًا، ولا يتمكن من إقامة العدل.

يقول -رحمه الله-: «ونحن نعلم قطعًا أنه لم يكن يمكنه أن يحكم بينهم بحكم القرآن، والله قد فرض على نبيه بالمدينة أنه إذا جاءه أهل الكتاب لم يحكم بينهم إلا بما أنزل الله إليه، وحذره أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه، وهذا مثل الحكم في الزنا للمحصن بحدِّ الرجم، وفي الديات بالعدل، والتسوية في الدماء بين الشريف والوضيع؛ النفس بالنفس، والعين بالعين، وغير ذلك.

والنجاشي ما كان يمكنه أن يحكِّم القرآن؛ فإن قومه لا يقرونه على ذلك، وكثيرًا ما يتولى الرجل بين المسلمين والتتار قاضيًا، بل وإمامًا، وفي نفسه أمور من العدل يريد أن

(١) الإكراه وأثره في التصرفات، للدكتور عيسى محمد شقرة: ١٢١، ١٢٢.
(٢) قواعد الأحكام، للعز بن عبد السلام: ١/ ٩٩.

يعمل بها فلا يمكنه ذلك، بل هناك من يمنعه ذلك، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وعمر ابن عبد العزيز عودي وأوذي على بعض ما أقامه من العدل، وقيل: إنه سُمَّ على ذلك!

فالنجاشي وأمثاله سعداء في الجنة، وإن كانوا لم يلتزموا من شرائع الإسلام ما لا يقدرون على التزامه، بل كانوا يحكمون بالأحكام التي يمكنهم الحكم بها»[1].

- الخازن، فقد ذكر أيضًا في معرض بيانه لوجوب التورية عند الإكراه على الكفر، إذا قيل له: اكفر بالنبي، فيقول: هو كافر بالنبي؛ يريد بالنبي المكان المرتفع من الأرض، وكذلك لو أكره على السجود لصنم أو صليب، فسجد جاعلاً سجوده لله سبحانه[2].

وممن ذهبوا إلى التفريق بينهما:

الإمام أحمد، فقد روى الأثرم عنه أنه سئل عن الرجل يُؤْسَرُ، فيُعرض على الكفر ويكره عليه؛ أله أن يرتد؟ فكرهه كراهة شديدة، وقال: ما يشبه هذا عندي الذين أنزلت فيهم الآية من أصحاب النبي ﷺ أولئك كانوا يرادون على الكلمة، ثم يتركون يعملون ما شاؤوا، وهؤلاء يريدونهم على الإقامة على الكفر وترك دينهم؛ وذلك لأن الذي يكره على كلمة يقولها ثم يخلى لا ضرر فيها، وهذا المقيم بينهم يلتزم بإجابتهم إلى الكفر المقام عليه، واستحلال المحرمات، وترك الفرائض والواجبات، وفعل المحذورات والمنكرات، وإن كان امرأة تزوجوها واستولدوها أولادًا كفارًا، وكذلك الرجل، وظاهر حالهم المصير إلى الكفر الحقيقي والانسلاخ من الدين الحنيف[3].

(١) مجموع الفتاوى: ١٩/ ٢١٨، ٢١٩.
(٢) تفسير الخازن: ٣/ ١٤٦.
(٣) المغني: ١٠/ ٩٨.

وإن كان لا يخفى أن حديثه يتجه إلى صورة خاصة من صور الإكراه، ليس بالضرورة أن تتحقق في كل إكراه على عمل من أعمال الكفر.

المنازعة في اعتبار الإكراه، الذي يكون بالتهديد بإلحاق الأذى بأحد أصوله، أو فروعه أو ذي رحم ونحوه:

فالجمهور على اعتبار ذلك من قبيل الإكراه، ونازع في ذلك أبو حنيفة- رحمه الله - وإن كان قد اعتبر هذا الإكراه في العقود استحسانًا، وفرق في ذلك بين القريب والأجنبي؛ فاعتبره في القريب، ولم يعتبره في الأجنبي.

قال البخاري -رحمه الله-: «وإن قيل له: لتشربن الخمر، أو لتأكلن الميتة، أو لتبيعن عبدك، أو لتقر بِدَيْنٍ، أو تهب هبة، أو تحل عقدة؛ أو لنقتلن أباك أو أخاك في الإسلام، وما أشبه ذلك- وسعه ذلك؛ لقول النبي ﷺ: «**المسلم أخو المسلم**»، وقال بعض الناس: لو قيل له: لتشربن الخمر، أو لتأكلن الميتة؛ أو لنقتلن ابنك أو أباك أو ذا رحم محرم- لم يسعه؛ لأن هذا ليس مضطرًا، ثم ناقض فقال: إن قيل له: لنقتلن أباك أو ابنك، أو لتبيعن هذا العبد؛ أو تقر بدَيْن أو بهبة- يلزمه في القياس، ولكنا نستحسن ونقول: البيع والهبة وكل عقده في ذلك باطل؛ فرقوا بين كل ذي رحم محرم وغيره بغير كتاب ولا سنة»[1].

قال ابن بطال: «معناه: أن ظالمًا لو أراد قتل رجل، فقال لولد الرجل مثلًا: إن لم تشرب الخمر، أو تأكل الميتة؛ قتلت أباك، وكذا لو قال له: قتلت ابنك، أو ذا رحم لك، ففعل، لم يأثم عند الجمهور.

(١) فتح الباري: ١٢/ ٣٢٣، ٣٢٤.

وقال أبو حنيفة: يأثم؛ لأنه ليس بمضطر؛ لأن الإكراه إنما يكون فيما يتوجه إلى الإنسان في خاصة نفسه لا في غيره، وليس له أن يعصي الله له حتى يدفع عن غيره، بل الله سائل الظالم، ولا يؤاخذ الابن؛ لأنه لم يقدر على الدفع إلا بارتكاب ما لا يحل له ارتكابه، قال: ونظيره في القياس ما لو قال: إن لم تبع عبدك، أو تقر بدين، أو تهب هبة- أن كل ذلك ينعقد، كما لا يجوز له أن يرتكب المعصية في الدفع عن غيره، ثم ناقض هذا المعنى فقال: ولكنا نستحسن ونقول: البيع وغيره من العقود كل ذلك باطل، فخالف قياس قوله بالاستحسان الذي ذكره.

فلذلك قال البخاري بعده: فرقوا بين كل ذي رحم محرم وغيره بغير كتاب ولا سنة؛ يعنى أن مذهب الحنفية في ذي الرحم بخلاف مذهبهم في الأجنبي، فلو قيل لرجل: لتقتلن هذا الرجل الأجنبي، أو لتبيعن كذا؛ ففعل؛ لينجيه من القتل لزمه البيع، ولو قيل له ذلك في ذي رحمه لم يلزمه ما عقده!

والحاصل أن أصل أبي حنيفة اللزوم في الجميع قياسًا، لكن يستثنى من له منه رحم استحسانًا، ورأي البخاري أن لا فرق بين القريب والأجنبي في ذلك؛ لحديث: «**المسلم أخو المسلم**»؛ فإن المراد به أخوة الإسلام لا النسب؛ ولذلك استشهد بقول إبراهيم: «هذه أختي»، والمراد أخوة الإسلام، وإلا فنكاح الأخت كان حرامًا في ملة إبراهيم، وهذه الأخوة توجب حماية أخيه المسلم والدفع عنه، فلا يلزمه ما عقده ولا إثم عليه فيما يأكل ويشرب للدفع عنه، فهو كما لو قيل له: لتفعلن كذا، أو لنقتلنك؛ فإنه يسعه إتيانها، ولا يلزمه الحكم، ولا يقع عليه الإثم»[1].

(١) فتح الباري:١٢/ ٣٢٣، ٣٢٤.

المنازعة في وجوب أكل الميتة وشرب الخمر ونحوه، على من هُدد على ذلك بالقتل:

فإن من أهل العلم من يرى وجوب ذلك، فإن امتنع كان آثمًا، ومـنهم مـن يكتفـي باستحباب ذلك عليه، فإن صبر فلا حرج، قال العز بن عبد السلام: «وكذلك من أكره على شرب الخمر، أو غُصَّ ولم يجد ما يسيغ به الغصة سوى الخمر- فإنـه يلزمـه ذلـك؛ لأن حفظ الحياة أعظم في نظر الشرع من رعاية المحرمات المذكورات»[1].

وقال ابن بطال: «وأما غير الكفر؛ فـإن أكـره عـلى أكـل الخنـزير وشرب الخمـر مـثلًا فالفعل أولى، وقال بعض المالكية: بل يأثم إن منع من أكل غيرها، فإنـه يصـير كالمضـطر عـلى أكل الميتة إذا خاف على نفسه الموت فلم يأكل»[2].

(١) قواعد الأحكام، للعز بن عبد السلام:١/ ٩٣.

(٢) فتح الباري:١٢/ ٣١٧.

المبحث الثالث

عـــارض التأويـــل

في هذا العارض كذلك طائفة من الثوابت، وأخرى من المتغيرات، وفيما يلي محاولة لإيجاز القول في هذه وتلك.

المطلب الأول

الثوابت في هذه القضية

أصل اعتبار التأويل عند إجراء الأحكام:

ولا أدل على ذلك من إجماع الأئمة الأربعة وجماهير السلف على عدم تكفير أصحاب الأهواء، من كان منهم على أصل الإيمان بالله ورسوله، رغم أن ما ينتحلونه من العقائد لو انتحله غيرهم بلا تأويل، بل لمجرد الرد لنصوص الشريعة- لكان كافرًا بلا نزاع، لا سيَّما من اجترأ منهم على استحلال دماء المسلمين؛ كالخوارج وأمثالهم، فإن من استحل دم المسلم- لا سيَّما إذا تقرب إلى الله بقتله - فهو كافر بالإجماع، ولكن الخوارج لم يكفروا بذلك عند جمهور أهل العلم؛ اعتبارًا لما قام لديهم في ذلك من التأويلات رغم فسادها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «لكن المقصود هنا: لا يُجعل أحد بمجرد ذنب يذنبه ولا ببدعة ابتدعها؛ ولو دعا الناس إليها كافرًا في الباطن، إلا إذا كان منافقًا، فأما من كان في قلبه الإيمان بالرسول وما جاء به، وقد غلط في بعض ما تأوله من البدع، فهذا ليس بكافر

أصلاً، والخوارج كانوا مـن أظهـر النـاس بدعـة وقتـالًا للأمـة وتكفـيرًا لهـا، ولم يكـن في الصحابة من يكفرهم، لا علي بـن أبي طالـب ولا غـيره، بـل حكمـوا فـيهم بحكمهـم في المسلمين الظالمين المعتدين، كما ذكرت الآثار عنهم بذلك في غير هذا الموضع.

وكذلك سائر الثنتين وسبعين فرقة، من كان منهم منافقًا فهو كافر في الباطن، ومن لم يكن منافقًا، بل كان مؤمنًا بالله ورسوله في الباطن، لم يكن كافرًا في الباطن، وإن أخطأ في التأويل،كائنًا ما كان خطؤه، وقد يكون في بعضهم شعبة مـن شـعب النفـاق، الـذي يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار، ومـن قـال: إن الثنتـين وسـبعين فرقـة، كـل واحد منهم يكفر كفرًا ينقل عن الملة؛ فقد خـالف الكتـاب والسـنة وإجمـاع الصـحابة رضوان الله عليهم أجمعين، بل وإجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة، فليس فيهم من كفر كل واحد من الثنتين وسبعين فرقة، وإنما يكفر بعضهم بعضًا ببعض المقالات، كـما قـد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع[1].

ويقول في موضع آخر: «وحقيقة الأمر في ذلك: أن القول قد يكون كفـرًا فيطلـق القـول بتكفير صاحبه، ويقال: من قال كذا فهو كـافر، لكـن الشـخص المعـين الـذي قالـه لا يحكـم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها، وهكذا الأقوال التي يكفر قائلهـا، قـد يكـون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد تكون عنده ولم تثبـت عنـده، أو لم يـتمكن من فهمها، وقد يكون قد عرضت له شبهات يعذره الله بها، فمن كان من المـؤمنين مجتهـدًا في

(١) مجموع الفتاوى: ٧/ ٢١٧، ٢١٨.

طلب الحق وأخطأ، فإن الله يغفر له خطأه كائنًا ما كان، سواء كان في المسائل النظرية أو العملية، هذا الذي عليه أصحاب النبي ﷺ وجماهير أئمة الإسلام»[1].

ويقول ابن قدامة: «ومن اعتقد حِلَّ شيء أُجمع على تحريمه وظهر حكمه بين المسلمين، وزالت الشبهة فيه للنصوص الواردة فيه؛ كلحم الخنزير والزنا وأشباه هذا، مما لا خلاف فيه- كفر؛ لما ذكرنا في تارك الصلاة، وإن استحل قتل المعصومين وأخذ أموالهم بغير شبهة ولا تأويل فكذلك، وإن كان بتأويل كالخوارج، فقد ذكرنا أن أكثر الفقهاء لم يحكموا بكفرهم، مع استحلالهم دماء المسلمين وأموالهم وفعلهم لذلك متقربين به إلى الله تعالى! وكذلك لم يحكم بكفر ابن ملجم مع قتله أفضل الخلق في زمنه متقربًا بذلك! ولا يكفر المادح له على هذا المتمني مثل فعله، فإن عمران بن حطان قال فيه يمدحه لقتل علي:

يا ضربة من تقي ما أراد بها *** إلا ليبلغ عند الله رضوانا
إني لأذكره يوما فأحسبه *** أوفى البرية عند الله ميزانا

وقد عرف من مذهب الخوارج تكفير كثير من الصحابة ومن بعدهم، واستحلال دمائهم وأموالهم، واعتقادهم التقرب بقتلهم إلى ربهم، ومع هذا لم يحكم الفقهاء بكفرهم؛ لتأويلهم، وكذلك يُخَرَّجُ في كل محرم استُحل بتأويلٍ مثل هذا»[2].

وقد كان الإمام أحمد -رحمه الله- يقول بتكفير الجهمية ومن يقولون بخلق القرآن، ومن مقالاته في ذلك:

(١) المرجع السابق: ٢٣/ ٣٤٥، ٣٤٦.
(٢) المغني لابن قدامة: ١٠/ ٨٣.

«من لم يؤمن بالرؤية فهو جهمي، والجهمي كافر»[1].

«القرآن كلام الله، وليس بمخلوق، ومن قال: إن القرآن مخلوق؛ فهو كافر بالله، القرآن علم من علم الله، ومن زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر بالله تعالى»[2].

ومع هذا؛ فإنه -رحمه الله- لم يكن يكفر أعيانهم، وكان يترحم على ولاة الأمر الذين يقولون بمقالاتهم ويمتحنون الناس بها ويستغفر لهم؛ لعلمه بأنهم لم يبينْ لهم أنهم مكذبون للرسول ولا جاحدون لما جاء به، ولكنهم تأولوا فأخطؤوا، وقلدوا من قال لهم ذلك.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- عن الإمام أحمد -: «بل نصوصه صريحة بالامتناع من تكفير الخوارج والقدرية وغيرهم، وإنما كان يكفر الجهمية المنكرين لأسماء الله وصفاته؛ لأن مناقضة أقوالهم لما جاء به الرسول ﷺ ظاهرة بينة؛ ولأن حقيقة قولهم تعطيل الخالق، وكان قد ابتلي بهم حتى عرف حقيقة أمرهم، وأنه يدور على التعطيل، وتكفير الجهمية مشهور عن السلف والأئمة.

لكن ما كان يكفر أعيانهم، فإن الذي يدعو إلى القول أعظم من الذي يقول به، والذي يعاقب مخالفه أعظم من الذي يدعو فقط، والذي يكفر مخالفه أعظم من الذي يعاقبه، ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية: إن القرآن مخلوق، وإن الله لا يُرى في الآخرة... وغير ذلك، ويدعون الناس إلى ذلك، ويمتحنونهم ويعاقبونهم إذا لم يجيبوهم، ويكفرون من لم يجبهم، حتى إنهم كانوا إذا أمسكوا الأسير لم يطلقوه حتى يقر

(١) مسائل الإمام أحمد: ٢/ ١٥٢.
(٢) المرجع السابق.

بقول الجهمية: إن القرآن مخلوق... وغير ذلك، ولا يولون متوليًا، ولا يعطون رزقًا من بيت المال إلا لمن يقول ذلك! ومع هذا فالإمام أحمد -رحمه الله تعالى- ترحم عليهم واستغفر لهم؛ لعلمه بأنهم لم يبينْ لهم أنهم مكذبون للرسول ولا جاحدون لما جاء به، ولكن تأولوا فأخطؤوا، وقلدوا من قال لهم ذلك»[1].

وفي شرح الطحاوية لابن أبي العز: «ثم إذا كان القول في نفسه كفرًا قيل: إنه كفر، والقائل له يكفر بشروط وانتفاء موانع، ولا يكون ذلك إلا إذا صار منافقًا زنديقًا، فلا يتصور أن يكفر أحد من أهل القبلة المظهرين الإسلام، إلا من يكون منافقًا وزنديقًا، وكتاب الله يبين ذلك، فإنه صنف الخلق ثلاثة أصناف: صنف: كفار من المشركين ومن أهل الكتاب؛ وهم الذين لا يقرون بالشهادتين، وصنف: المؤمنون باطنًا وظاهرًا، وصنف: أقروا به ظاهرًا لا باطنًا، وهذه الأقسام الثلاثة مذكورة في أول سورة البقرة، وكل من ثبت أنه كافر في نفس الأمر وكان مقرًّا بالشهادتين؛ فإنه لا يكون إلا زنديقًا، والزنديق هو المنافق.

وهنا يظهر غلط الطرفين، فإنه من كَفَّر كُلَّ من قال القول المبتدع في الباطن، يلزمه أن يكفر أقوامًا ليسوا في الباطن منافقين، بل هم في الباطن يحبون الله ورسوله ويؤمنون بالله ورسوله وإن كانوا مذنبين، كما ثبت في صحيح البخاري عن أسلم مولى عمر ﷺ عن عمر: (أن رجلاً كان على عهد النبي ﷺ كان اسمهُ: عبد الله ، وكان يلقب حماراً ، وكان يُضحِكُ رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ قد جلده من الشراب، فأُتي به يوماً، فأمر به فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه! ما أكثر ما يُؤتى به! فقال رسول الله ﷺ: لا تلعنه فإنه

(١) مجموع الفتاوى: ٢٣/ ٣٤٨.

يحب الله ورسوله) وهذا أمر متيقنٌ به في طوائف كثيرة، وأئمة في العلم والدين وفيهم بعض مقالات الجهمية أو المرجئة أو القدرية أو الشيعة أو الخوارج، ولكن الأئمة في العلم والدين لا يكونون قائمين بجملة تلك البدعة، بل بفرع منها؛ ولهذا انتحل أهل هذه الأهواء لطوائف من السلف المشاهير، فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضًا، ومن ممادح أهل العلم أنهم يخطِّئون ولا يكفرون»[1].

أن التأويل منه ما ينفي الإثم والكفر، ومنه ما ينفي الكفر فقط:

فالتأويلات الفروعية التي تدور في فلك أهل السنة والجماعة أنه لا إثم على المجتهد وإن أخطأ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومذهب أهل السنة والجماعة أنه لا إثم على المجتهد وإن أخطأ»[2].

ويقول الآمدي: «اتفق أهل الحق من المسلمين على أن الإثم محطوط عن المجتهدين في الأحكام الشرعية، وذهب بشر المريسي، وابن عُلية، وأبو بكر الأصم، ونفاة القياس؛ كالظاهرية والإمامية، إلى أنه ما من مسألة إلا والحق فيها متعين، وعليه دليل قاطع، فمن أخطأه فهو آثم غير كافر ولا فاسق.

وحجة أهل الحق في ذلك ما نُقل متواترًا لا يدخله ريبة ولا شك، وعلم علمًا ضروريًّا من اختلاف الصحابة فيما بينهم في المسائل، كما بيناه فيما تقدم، مع استمرارهم

(١) شرح العقيدة الطحاوية: ٢٩٨، ٢٩٩.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٩/ ١٢٣.

على الاختلاف إلى انقراض عصرهم، ولم يصدر من أحد منهم نكير ولا تأثيم لأحد، لا على سبيل الإبهام ولا التعيين، مع علمنا بأنه لو خالف أحد في وجوب العبادات الخمس وتحريم الزنا والقتل، لبادروا إلى تخطئته وتأثيمه»[1].

وقال الحافظ ابن حجر -بعد أن ساق حديث: «**من كان سامعًا مطيعًا، فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة**»-: «وقد استدل به الجمهور على عدم تأثيم من اجتهد؛ لأنه ﷺ لم يعنف أحدًا من الطائفتين، فلو كان هناك إثم لعنف من أثم»[2].

أما تأويلات أهل البدع من الفرق الضالة، فهي وإن كانت تنفي عنهم الكفر على الجملة، ولكنها لا تنفي عنهم الإثم ولا تدرأ عنهم التبديع والتعصية، فالاحتجاج بها لنفي وصف الابتداع عنهم خطأ، وإهدارها ليمتهد سبيل إلى تكفيرهم خطأ كذلك، فهي على فسادها تقبل في نفي الكفر، ولا تقبل في نفي الإثم والبدعة.

والدليل على ذلك اتفاق جمهور أهل العلم على تبديع الفرق الضالة الثنتين والسبعين من ناحية، وعلى عدم إخراج أعيانها من الملة من ناحية أخرى.

بل إن زلات العلماء- رغم الاتفاق على ردها وأنه لا يعتد بها؛ لأنها موضوعة على المخالفة للشرع- لا يجوز التشنيع على أصحابها أو حكايتها عنهم؛ لاعتبار جانب التأويل، وأنهم لا يقدمون على المخالفة بحتًا، ولكنهم تأولوا فأخطؤوا، فيرد خطؤهم، ويحفظ لهم قدرهم، بلا إفراط ولا تفريط.

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي: ٤/ ٢٤٤.

(٢) فتح الباري: ٧/ ٤١٠.

وقال الشاطبي -رحمه الله-: «إن زلة العالم لا يصح اعتمادها من جهـة، ولا الأخـذ بها تقليدًا له؛ وذلك لأنها موضوعة على المخالفة للشرع؛ ولذلك عدت زلـة، وإلا فلـو كانت معتدًّا بها لم يجعل لها هذه الرتبة، ولا نسب إلى صـاحبها الزلـل فيهـا، كـما أنـه لا ينبغي أن ينسب صاحبها إلى التقصير، ولا أن يشنع عليه بها، ولا ينتقص من أجلها، أو يعتقد فيه الإقدام على المخالفة بحتًا، فإن هذا كله خلاف ما تقتضي رتبته في الدين»[1].

ولكن لا يخفى أن من التأويلات ما يعدُّ كفرًا بلا نـزاع؛ كتأويل القاديانية آية خـتم النبوة بأن الخاتم بمعنى الحلية، فالنبي ﷺ حلية الأنبياء، وهذا لا يمنع من بعثة نبي بعد محمد، فانتهى بهم الأمر إلى القول بنبوة مرزا غلام أحمد!!

والضابط المعتبر في التفريق بين ما يعتبر من التأويلات، فيُنفى عن أصحابه وصف الكفر، وبين ما لا يعتبر- هو الإجماع، فالفِرق التي أجمع المسلمون على كفر أفرادها على اليقين هي التي يُقْضَى بفساد تأويلاتها فسادًا تامًّا، وعـدم الالتفـات إليهـا عنـد إجـراء الأحكام، وذلك على النحو الذي سنذكره في الفقرة التالية:

لا اعتبار لتأويلات الفرق التي أجمع المسلمون على ردتها وخروجها من الإسلام:

وذلك كتأويلات القاديانيـة والبهائيـة والقرامطـة وأمثـالهم، فـإنهم تـأولوا نصـوص الشريعة بما لا يحتمله شرع ولا عقل ولا لغـة، ولا يسـوغ فيهـا بوجـه مـن الوجـوه، وقـد أجمعت الأمة على ردتهم وعدم التعويل على مثل هذه التأويلات.

(١) الموافقات: ٤/ ١٧٠، ١٧١.

يقول الغزالي -رحمه الله- في بيان التأويلات التي يكفر بها أصحابها-: «وأما ما يتعلق من هذا الجنس بأصول العقائد المهمة، فيجب تكفير من يغير الظاهر بغير برهان قاطع؛ كالذي ينكر حشر الأجساد، وينكر العقوبات الحسية في الآخرة بظنون وأوهام واستبعادات من غير برهان قاطع، فيجب تكفيره قطعيًّا؛ إذ لا برهان على استحالة رد الأرواح إلى الأجساد، وذكر ذلك عظيم الضرر في الدين، فيجب تكفير كل من يتعلق به، وهو مذهب أكثر الفلاسفة، وكذلك يجب تكفير من قال: إن الله تعالى لا يعلم إلا نفسه، أو لا يعلم إلا الكليات، فأما الأمور الجزئية المتعلقة بالأشخاص فلا يعلمها؛ لأن ذلك تكذيب لرسول الله ﷺ قطعًا، وليس من قبيل الدرجات التي ذكرناها في التأويل.

فإن أدلة القرآن والأخبار على تفهيم حشر الأجسام، وتفهيم تعلق علم الله بتفصيل كل ما يجري على الأشخاص مجاوز جدًّا، لا يقبل التأويل، وهم معترفون بأن هذا ليس من التأويل، ولكن قالوا: لما كان صلاح الخلق في أن يعتقدوا حشر الأجساد بقصور عقولهم عن فهم المعاد العقلي، وكان صلاحهم في أن يعتقدوا أن الله سبحانه وتعالى عالم بما يجري عليهم ورقيب عليهم؛ ليورث ذلك رغبة ورهبة في قلوبهم- جاز للرسول الله ﷺ أن يفهمهم ذلك!! وليس بكاذب من أصلح غيره فقال ما فيه صلاحه، وإن لم يكن كما قال!

وهذا القول باطل قطعًا؛ لأنه تصريح بالتكذيب، ثم طلب عذرًا في أنه لم يكذب، ويجب إجلال منصب النبوة عن هذه الرذيلة، ففي الصدق وإصلاح الخلق به مندوحة عن الكذب، وهذه أول درجات الزندقة، وهي رتبة بين الاعتزال وبين الزندقة، فإن المعتزلة تقرب مناهجهم من منهج الفلاسفة إلا في هذا الأمر الواحد، وهو أن المعتزلي لا يجوز له

الكذب على رسول الله ﷺ بمثل هذا العذر، بل يؤول الظاهر مهما ظهر له بالبرهان خلافه، والفلسفي لا يقتصر على مجاوزته للظاهر على ما يقبل التأويل على قرب أو على بعد»[1].

لا منافاة بين اعتبار عارض التأويل، وبين عقوبة المبتدع ومنع بدعته:

فإن المقصود من العذر بالتأويل هو عدم تكفير أصحاب البدع في الدنيا، أو القطع بخلودهم في النار في الآخرة، وهذا لا يتنافى مع عقوبتهم لمنع بدعتهم، وتحذير الناس منها، والتشريب عليهم بالهجر وغيره من العقوبات الشرعية، بما لا يؤدي إلى مفسدة أعظم، ولقد ضرب عمر رضي الله عنه صَبِيغًا فأوجعه؛ لما تكلم في متشابه القرآن، ونفاه إلى البصرة، وقد مضى على ذلك عمل أهل العلم على مدار تاريخ الإسلام، بل إن من لم تنحسم فتنته منهم إلا بالقتل قتل؛ لأن القاعدة هي حسم المنكر بما ينحسم به؛ من الكلمة إلى السيف.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما قتل الداعية إلى البدع، فقد يقتل لكفِّ ضرره عن الناس، كما يقتل المحارب، وإن لم يكن في نفس الأمر كافرًا، فليس كل من أمر بقتله يكون قتله لردته، وعلى هذا قَتْلُ غيلان القدري وغيره قد يكون على هذا الوجه»[2].

ويقول في موضع آخر: «ومن لم يندفع فساده في الأرض إلا بالقتل قُتل؛ مثل المفرق لجماعة المسلمين، والداعي إلى البدع في الدين، قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[3].

(١) فيصل التفرقة بين الإيمان والزندقة: ٨٠- ٨٢.

(٢) مجموع الفتاوى: ٣٢/ ٢٤٩.

(٣) المائدة: ٣٢.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما**»، وقال: «**من جاءكم وأمركم على رجل واحد، يريد أن يفرق جماعتكم، فاضربوا عنقه بالسيف كائنًا من كان**»، وأمر النبي ﷺ بقتل رجل تعمد عليه الكذب، وسأله ابن الديلمي عمن لم ينته عن شرب الخمر، فقال: «**من لم ينته عنها فاقتلوه**»[1].

التفريق بين من يتحزب على أصل كلي من أصول أهل البدع، وبين من يُنْسَبُ إليه الغلط في أمر جزئي:

ذلك أن أهل الأهواء إنما عُدُّوا كذلك لمخالفتهم لأهل السنة في أصول وقواعد كلية في الدين، تحزبوا عليها وعقدوا ولاءهم وبراءهم عليها، وتميزوا بها عن عامة المسلمين.

يقول الشاطبي -رحمه الله-: «إن هذه الفرق إنما تصير فرقًا؛ بخلافها للفرقة الناجية في معنى كلي في الدين وقاعدة من قواعد الشريعة، لا في جزئي من الجزئيات؛ إذ الجزئي والفرع الشاذ لا ينشأ عنه مخالفة يقع بسببها التفرق شيعًا، وإنما ينشأ التفرق عند وقوع المخالفة في الأمور الكلية؛ لأن الكليات تقتضي عددا من الجزئيات غير قليل، وشاذها في الغالب لا يختص بمحل دون محل، ولا بباب دون باب.

واعتبر ذلك بمسألة التحسين العقلي، فإن المخالفة فيها أنشأت بين المخالفين خلافًا في فروع لا تنحصر، ما بين فروع عقائد وفروع أعمال.

ويجري مجرى القاعدة الكلية كثرة الجزئيات، فإن المبتدع إذا أكثر من إنشاء الفروع المخترعة، عاد ذلك على كثير من الشريعة بالمعارضة، كما تصير القاعدة الكلية معارضة أيضًا، وأما الجزئي فبخلاف ذلك، بل يعد وقوع ذلك من المبتدع له كالزلة والفلتة»[2].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الاعتصام للشاطبي: ٢/ ٢٠٠، ٢٠١.

أما من يعلق به طرف من مقولات أهل البدع في مسألة بعينها، ولم يبلغ الأمر لديه مبلغ الأصل الكلي، الذي يسري فيما لا ينحصر من فروع الشريعة، فإن هذا يكون من جنس الخطأ الذي يرد على صاحبه، ولا يخرج به من دائرة أهل السنة والجماعة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والخطأ المغفور في الاجتهاد هو في نوعي المسائل؛ الخبرية والعلمية(*)، كما قد بسط في غير موضع؛ كمن اعتقد ثبوت شيء لدلالة آية أو حديث، وكان لذلك ما يعارضه ويبين المراد ولم يعرفه؛ مثل من اعتقد أن الذبيح إسحاق لحديث اعتقد ثبوته، أو اعتقد أن الله لا يُرَى؛ لقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾[1]؛ ولقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾[2]، كما احتجت عائشة بهاتين الآيتين على انتفاء الرؤية في حق النبي ﷺ، وإنما يدلان بطريق العموم، وكما نقل عن بعض التابعين أن الله لا يُرَى، وفسروا قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[3] بأنها تنتظر ثواب ربها، كما نقل عن مجاهد وأبي صالح.

أو اعتقد أن الله لا يعجب، كما اعتقد ذلك شريح؛ لاعتقاده أن العجب إنما يكون من جهل السبب، والله منزه عن الجهل، أو اعتقد أن بعض الكلمات أو الآيات أنها ليست من القرآن؛ لأن ذلك لم يثبت عنده بالنقل الثابت، كما نقل عن غير واحد من السلف أنهم أنكروا ألفاظًا من القرآن؛ كإنكار بعضهم: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾[4]، وقال: إنما

(*) كذا بالأصل، ولعلها: «العملية».

(١) الأنعام: ١٠٣.

(٢) الشورى: ٥١.

(٣) القيامة: ٢٢-٢٣.

(٤) الإسراء: ٢٣.

هي «ووصى ربك»، وإنكار بعضهم قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[1]، وقال: إنما هو «ميثاق بني إسرائيل»، وكذلك هي في قراءة عبد الله، وإنكار بعضهم ﴿أَفَلَمْ يَأْيَسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[2]. وقال: إنما هي «أو لم يتبين الذين آمنوا»، وكما أنكر عمر على هشام ابن الحكم لما رآه يقرأ في سورة الفرقان على غير ما قرأها، وكما أنكر طائفة من السلف على بعض القراء بحروف لم يعرفوها، حتى جمعهم عثمان على المصحف الإمام.

وكما أنكر طائفة من السلف والخلف أن الله يريد المعاصي؛ لاعتقادهم أن معناه أن الله يحب ذلك ويرضاه ويأمر به، وأنكر طائفة من السلف والخلف أن الله يريد المعاصي؛ لكونهم ظنوا أن الإرادة لا تكون إلا بمعنى المشيئة لخلقها، وقد علموا أن الله خالق كل شيء، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، والقرآن قد جاء بلفظ الإرادة بهذا المعنى وبهذا المعنى، لكن كل طائفة عرفت أحد المعنيين وأنكرت الآخر.

وكالذي قال لأهله: «**إذا أنا مت أحرقوني، ثم ذروني في اليم، فوالله لئن قدر الله على ليعذبني عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين**»!!

وكما قد ذكر طائفة من السلف في قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾[3]؟! وفي قول الحواريين: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[4].

(١) آل عمران: ٨١.
(٢) الرعد: ٣١.
(٣) البلد: ٥.
(٤) المائدة: ١١٢.

وكالصحابة الذين سألوا النبـي ﷺ: هـل نـرى ربنـا يـوم القيامـة؟ فلـم يكونـوا يعلمون أنهم يرونه، وكثير من الناس لا يعلم ذلك؛ إما لأنه لم تبلغه الأحاديـث، وإمـا لأنه ظن أنه كذب وغلط»[1].

(١) مجموع الفتاوى: ٣٣/ ٢٠- ٣٦.

المطلب الثاني

المتغيرات في هذه القضية

أما مواضع الاجتهاد المتعلقة بهذه القضية فهي متعددة، نذكر منها:

المنازعة في مدى اعتبار بعض التأويلات في مسألة من المسائل:

بعد الاتفاق على أصل اعتبار التأويل عند إجراء الأحكام، قد يقع النزاع في اعتبار التأويل في مسألة بعينها؛ كاعتبار ما يتأوله الصوفية في النذور التي تقدم إلى أصحاب القبور على أن النذر لله والثواب لأوليائه! وفي الدعاء الذي يتوجهون به إلى أصحاب القبور على أن المقصود به هو طلب الشفاعة من الولي إلى الله، وأن الميت في قبره يسمع، كما ذهب إلى ذلك كثير من أهل العلم، وفي الطواف بالأضرحة على أنه طواف تحية، وليس طواف عبادة، فقصاراه أن يكون بدعة لا شركًا، وفي طلب المدد على أنه طلب للدعاء والشفاعة إلى الله، فيؤول إلى التوسل المختلَف فيه، ونحو ذلك من التأويلات التي تشيع في عالم الصوفية.

والاعتبار المتنازع عليه في هذا المقام ليس المقصود به نفي البدعة والإثم عن هذه الأعمال، وإدراجها بين المسائل الاجتهادية التي لا ينكر فيها على المخالف، وإنما المقصود به أن يكون شبهة تنفي عنهم وصف الشرك، حتى تقوم عليهم الحجة ويثبت قصدهم إلى الاعتقادات الشركية الفاسدة، بما تثبت به الاعتقادات المبيحة للدماء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فكل عبادة غير معمول بها فلا بد أن ينهى عنها، ثم إن علم أنها منهي عنها وفَعَلَهَا استحق العقاب، فإن لم يعلم لم يستحق العقاب، وإن

اعتقد أنها مأمور بها وكانت من جنس المشروع فإنه يثاب عليها، وإن كانت من جنس الشرك فهذا الجنس ليس فيه شيء مأمور به، لكن قد يحسب بعض الناس في بعض أنواعه أنه مأمور به، وهذا لا يكون مجتهدًا؛ لأن المجتهد لابد أن يتبع دليلًا شرعيًّا، وهذه لا يكون عليها دليل شرعي، لكن قد يفعلها باجتهاد مثله، وهو تقليده لمن فعل ذلك من الشيوخ والعلماء، والذين فعلوا قد فعلوه لأنهم رأوه ينفع، أو لحديث كذب سمعوه، فهؤلاء إذا لم تقم عليهم الحجة بالنهي لا يعذبون، وأما الثواب فإنه قد يكون ثوابهم أنهم أرجح من أهل جنسهم، وأما الثواب بالتقرب إلى الله فلا يكون بمثل هذه الأعمال»[1].

ومن هذه التأويلات المتنازع عليها: تأول بعض المنتسبين إلى العلم عدم تكفير كثير من الطواغيت في عالمنا المعاصر؛ ذهابًا منهم إلى أن هؤلاء الحكام لم يرفضوا الإسلام، ولم يقفوا من شرائعه مواقف الرد، فهم لم يستأنفوا تبديل الأحكام الشرعية، وإنما ورثوا هذا التبديل من عهود سابقة، وهم يريدون تطبيق الإسلام ولكن بإرادة واهنة وساعدٍ كَلِيلٍ؛ نظرًا لما تتعرض له البلاد من الضغوط العالمية، ولما تعج به من الفتن والاضطرابات الداخلية[2].

ولا شك أن مثل هذا التأول -على فساده- لا مناص من قبوله في نفي شبهة الكفر عن قائله؛ لتعلقه بتحقيق المناط ودراسة الواقع ونحوه، وهو من المتشابه؛ نظرًا لواقع الالتباس وعدم التمايز الذي يغشى الأمة في هذه الأيام.

---

(١) انظر على سبيل المثال: ما جاء في بيان العلماء الصادر بتاريخ ١٨/ ١١/ ١٩٨٨م، والمنشور بجريدة الأهرام في تاريخ ١٩/ ١١/ ١٩٨٨م، وفيه: «ونحن نعتقد في إيمان المسؤولين بمصر بأنهم لا يردون على الله حكمًا، ولا ينكرون للإسلام مبدأ، وأنهم يعملون على أن تبلغ الدعوة الإسلامية مداها؛ تحقيقًا وتطبيقًا، ولكن انتظار الظرف المناسب هو الذي يدعو إلى التريث؛ ولذلك نوجه إلى جمهور الشباب أن يكون وقَّافًا عند حدود الله، وأن يبتعد عما يسيء إلى الإسلام».

(٢) المرجع السابق.

المنازعة في مدى الاعتداد بالتأويل في بعض المسائل لإلحاقها بمسائل الاجتهاد:

لا منازعة في أنه لا عبرة بكل خلاف، وإنما الخلاف المعتبر هو الخلاف الذي له حظ من النظر، كما قال القائل:

وليس كل خلاف جاء معتبرا *** إلا خلافًا له حظ من النظر

ولأننا لو اعتبرنا كل خلاف لما انعقد إجماع قط، ولما انتهينا في مسألة إلى وجه قاطع قط، وفساد ذلك معلوم بالاضطرار.

ولهذا اتفق العلماء على أن زلات العلماء لا يعول عليها، ولا تعتبر قولًا يعتد به في مسائل الخلاف؛ لأنها لم تصدر عن نظر شرعي معتبر، وإنما كان صدروها لمجرد خفاء الدليل أو عدم مصادفته.

وإنما تقع المنازعة في ذلك عند التعيين، هل الخلاف الوارد في هذه المسألة خلاف معتبر؛ تصبح به المسألة من موارد الاجتهاد، أو تخرج به على الأقل من دائرة المجمع عليه، أم أنه خلاف شاذ لا يعتد به ولا يعول عليه، ولا تزال المسألة رغم وروده من قبيل المحكم المجمع عليه، وتمثل مخالفتها مشاقة لله ورسوله، واتباعًا لغير سبيل المؤمنين؟

وإن هذه النقطة تمثل سببًا من أعظم أسباب الخلل في واقعنا المعاصر؛ لأن الإفراط يأتي من الغلو الزائد في مسألة من مسائل الفروع، واعتبارها من الأصول ومن معاقد الولاء والبراء، والتفريط يأتي من التهاون في مسألة من مسائل الإجماع، واعتبارها من

موارد الاجتهاد التي لا يُضَيَّقُ فيها على المخالف، ولعل هذا هو الذي حدا بنا إلى كتابة هذا البحث ابتداء؛ للتمييز بين المحكم المجمع عليه الذي لا يجوز أن يتفرق الناس فيه، والمتشابه الظني الذي لا يجوز أن تتفرق الكلمة بسببه؛ حتى تستقيم المسيرة على الجادَّة، وتنضبط أقوالها وأفعالها بالكتاب والسنة على رسم منهاج النبوة.

الفصل السادس

جماعة المسلمين

تمهـــــد

لزوم جماعة المسلمين هو المخرج بنص حديث رسول الله ﷺ؛ كما جاء في حديث حذيفة: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني! فقلت: يا رسول الله، إنا كنَّا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «**نعم**»، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «**نعم، وفيه دَخَن**»، قلت: وما دَخنُه؟ قال: «**قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر**»، قلت: فهل بعد ذاك الخير من شر؟ قال: «**نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها**»، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «**فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تَعضَّ بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**».

وقد وقع في تحديد المقصود بهذه الجماعة خلاف عريض بين المنتسبين إلى العمل الإسلامي المعاصر، وتراوحت اجتهاداتهم في ذلك بين من اعتبر نفسه ومن تبعه على نحلته هو الجماعة، فمن لزمهم فقد لزم جماعة المسلمين، ومن فارقهم فقد فارق جماعة المسلمين، وبين من يبدع صور الاجتماع المنظم كافة، ولم ير اجتماعًا مشروعًا إلا الاجتماع على الإمامة العظمى فحسب.

ولا شك أن هذه القضية تحتوي قدرًا من الثوابت المحكمات التي لا يجوز أن يختلف الناس فيها بحال من الأحوال، وقدرًا من المتشابهات وموارد الاجتهاد التي لا

يُضَيَّقُ فيها على المخالف، ويجب أن يسعنا فيها الخلاف، وفيما يلي تفصيل القول في هـذه وفي تلك، وذلك في المبحثين الآتيين.

المبحث الأول

الثوابت في هذه القضية

لزوم منهج أهل السنة:

لا منازعة في لزوم الجماعة التي استثناها النبي ﷺ في حديثه عن الفرق بقوله: «**كلها في النار إلا الجماعة؛ ما أنا عليه وأصحابي**»، أي: الاستقامة على ما كان عليه الصحابة ﷺ، والسلف والأئمة من بعدهم، من لزوم الحق واتباع السنة.

والجماعة هنا تشير إلى المنهج أو الإطار العلمي الذي يجب أن يتقيد به مريد النجاة في هذا العصر وفي كل عصر، وهو اتباع الكتاب والسنة وما أجمع عليه سلف الأمة، فالأصول الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع هي بمنزلة الدين المشترك بين الأنبياء، ليس لأحد الخروج عنها، ومن دخل فيها كان من أهل الإسلام المحض، وهم أهل السنة والجماعة، ومن خرج عنها كان من أهل الفُرقة والضلالة.

قال أبو شامة: «حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به: لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك بالحق قليلًا والمخالف له كثيرًا؛ لأن الحق الذي كانت عليه الجماعة الأولى من النبي ﷺ وأصحابه ﷺ، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل»[1].

فالجماعة بهذا المعنى تشير إلى ما كان عليه السلف والأئمة؛ من الاعتقاد والتحليل والتحريم، واقترن بذكرهم، وأصبح علامة فارقة تميزهم عن أهل الأهواء.

(١) الباعث، لأبي شامة: ٢٢.

قال علي بن المديني -رحمه الله-: «السنة اللازمة التي من ترك منها خصلة لم يقلها أو يؤمن بها لم يكن من أهلها- الإيمان بالقدر؛ خيره وشره، ثم تصديق بالأحاديث والإيمان بها، لا يقال: لِمَ؟ ولا: كيف؟ إنما التصديق بها، والإيمان بها، وإن لم يتعلم تفسير الحديث ويبلغه عقله، فقد كُفي ذلك وأحكم له، فعليه بالإيمان به والتسليم له... إلخ»[1].

وقال الأوزاعي -رحمه الله-: «اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعهم»[2].

وسئل سهل بن عبد الله التستري - رحمه الله -: متى يعلم الرجل أنه على السنة والجماعة؟ قال: إذا عرف من نفسه عشر خصال: لا يترك الجماعة، ولا يسب أصحاب النبي ﷺ، ولا يخرج على هذه الأمة بالسيف، ولا يكذب بالقدر، ولا يشك في الإيمان، ولا يماري في الدين، ولا يترك الصلاة على من يموت من أهل القبلة بالذنب، ولا يترك المسح على الخفين، ولا يترك الجماعة خلف كل والٍ؛ جارَ أو عدلَ[3].وقال سفيان بن عيينة: «السنة عشرة، فمن كن فيه فقد استكمل السنة، ومن ترك منها شيئًا فقد ترك السنة: إثبات القدر، وتقديم أبي بكر وعمر، والحوض، والشفاعة، والميزان، والصراط، والإيمان قول وعمل، والقرآن كلام الله، وعذاب القبر، والبعث يوم القيامة، ولا تقطعوا بالشهادة على مسلم»[4].

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: ١/ ١٦٥.
(٢) المرجع السابق: ١/ ١٥٤.
(٣) المرجع السابق: ١/ ١٨٣.
(٤) المرجع السابق: ١/ ١٥٥، ١٥٦.

وقال عبد الله بن مسعود: «إن جمهور الجماعة الذين فارقوا الجماعة ، الجماعة ما وافق الحق ولو كنت وحدك، وفي طريق أخرى: فضرب على فخذي وقال: ويحك! إن جمهور الناس قد فارقوا الجماعة، وإن الجماعة ما وافق طاعة الله ﷻ»[1].

ويتحقق لزوم الجماعة في هذا الإطار بالالتزام المجمل بالإسلام عقيدة وشريعة، وموالاة دعاته، وعدم استبدال الحلول الوضعية به، مع عدم الالتزام المجمل بفرقة من الفرق الضالة، أو بأصل كلي من أصولها الظاهرة، ويقابل الجماعة بهذا المعنى التفرق في الدين، ويسمى المخالف لها مبتدعًا وضالًّا، وإن كان ملازمًا للإمام ومقيمًا على بيعته.

لزوم الأئمة في غير معصية:

لا منازعة في لزوم جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على إمام يسوسهم على مقتضى الكتاب والسنة «لزوم الأئمة في غير معصية»؛ ومن الأدلة على ذلك:

ما رواه الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات إلا مات ميتة جاهلية**».

وما رواه عبادة بن الصامت قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في العسر واليسر، في المنشط والمكره وأثرة علينا، وعلى ألا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم فيه من الله برهان.

وما رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة ثم مات؛ مات ميتة جاهلية**».

(١) المرجع السابق: ١/ ٩٦، ٧٠.

وقد ذكر الإمام أحمـد في اعتقـاده -رحمـه الله-: «السـمع والطاعـة للأئمـة وأمـير المؤمنين البر والفاجر، ومن ولي الخلافة فاجتمع الناس عليه ورضوا بـه، ومـن غلـبهم بالسيف حتى صار خليفة وسمي أمير المـؤمنين، والغـزو مـاضٍ مـع الأمـراء إلى يـوم القيامة؛ البر والفاجر، لا يترك»[1].

وقال أيضًا: «ومن خرج على إمام المسلمين، وقد كان الناس اجتمعوا عليه وأقـروا له بالخلافة، بأي وجه كان؛ بالرضا أو بالغلبة فقد شـق هـذا الخـارج عصـا المسـلمين، وخالف الآثار عن رسوله ﷺ، فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية، ولا يحل قتال السلطان ولا الخروج عليه لأحد من الناس، فمن فعل ذلك فهو مبتدع على غير السـنة والطريق»[2].

وقد ذكر علي بن المديني هذا الذي ذكره أحمد بن حنبل بحروفه تقريبًا[3].

وذكر البخاري في اعتقاده: «وألا تنازع الأمر أهله؛ لقول النبي ﷺ: «**ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، وطاعة ولاة الأمر، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**»، ثم أكد في قوله: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[4]»[5].

(١) المرجع السابق: ١/ ١٦٠.
(٢) المرجع السابق: ١/ ١٦١.
(٣) المرجع السابق: ١/ ١٦٧- ١٧٨.
(٤) النساء: ٥٩.
(٥) المرجع السابق: ١/ ١٧٥، ١٧٦.

وذكر أبو زرعة وأبو حاتم في اعتقادهما: «ولا نرى الخروج على الأئمة، ولا القتال في الفتنة، ونطيع من ولاه الله ﷻ أمرنا، ولا ننزع يدًا من طاعة، نتبع السنة والجماعة، ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة»[1].

والجماعة بهذا المعنى تقع في مقابلة البغي والتفرق في الراية، ويسمى المفارق باغيًا وناكثًا، وإن كان من أهل السنة.

مشروعية الاجتماع على الخير والتعاقد عليه:

لا منازعة في مشروعية الاجتماع على الخير والتعاقد عليه، والتزام الطاعة للقائم عليه في غير معصية، وذلك بالشروط الآتية:

ألا يتضمن تحزبًا على أصل بدعي يخالف أصول أهل السنة والجماعة، فإن مثل هذا التحزب هو أساس نشأة الفرق الضالة، وقد سبق قول الشاطبي -رحمه الله-: «أن هذه الفرق إنما تصير فرقًا بخلافها للفرقة الناجية في معنًى كلي في الدين وقاعدة من قواعد الشريعة، لا في جزئي من الجزئيات؛ إذ الجزئي والفرع الشاذ لا ينشأ عنه مخالفة يقع بسببها التفرق شيعًا، وإنما ينشأ التفرق عند وقوع المخالفة في الأمور الكلية؛ لأن الكليات تقتضي عددا من الجزئيات غير قليل، وشاذها في الغالب لا يختص بمحل دون محل، ولا بباب دون باب.

واعتبر ذلك بمسألة التحسين العقلي، فإن المخالفة فيها أنشأت بين المخالفين خلافًا في فروع لا تنحصر، ما بين فروع عقائد وفروع أعمال.

---

(١) المرجع السابق: ١/ ١٧٧.

ويجري مجرى القاعدة الكلية كثرة الجزئيات، فإن المبتدع إذا أكثر من إنشاء الفـروع المخترعة، عاد ذلك على كثير من الشرعية بالمعارضة، كما تصير القاعدة الكلية معارضة أيضًا، وأما الجزئي فبخلاف ذلك، بل يعد وقوع ذلك من المبتدع له كالزلة والفلتة»[1].

ألا يقصد به منازعة السلطان المسلم -إن وجد- أو السعي في نقـض بيعتـه وحـل عقدة إمامته؛ وذلك للأدلة التي تحرم النكث وتلزم بالأئمة وتوجب الطاعة لهم في غـير معصية، وتنهى عن منابذتهم إلا بالكفر البواح الذي عندنا فيه من الله برهان.

والأصل المحكم في هذا أنه لايكفر من حكام المسلمين ولا تـنقض بيعـة إلَّا مـن ظهر منه الكفر البواح الذي عندنا فيه من الله برهان، والدعوة إلى إقامة الـدين وتحكـيم شريعته لا تعني بالضرورة تكفير أعيان الحكام، أو إعلان الخروج المسلح علـيهم، بـل إن من ثبت عليه منهم الكفر البـواح فـإن ذلـك لا يسـتلزم بـالضرورة فوريـة المنابـذة وإعلان المفاصلة؛ لأن هذا أمـر يعتمـد القـدرة وتحقـق المصـلحة، وإلا فالصـبر حتـى يستريح بر أو يُستراح من فاجر!

ألا يعقد الولاء والبراء على أساس الانتساب إلى هذا الاجتماع؛ لأن معقـد الـولاء والبراء هو الكتاب والسنة على رسم منهاج النبوة لا غير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما رأس الحزب فإنه رأس الطائفة التي تتحـزب؛ أي: تصير حزبًا، فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وإن كانوا قد زادوا في ذلك ونقصـوا؛ مثـل

(١) الاعتصام، للشاطبي: ٢/ ٢٠٠، ٢٠١.

التعصب لمن دخل في حزبهم بالحق وبالباطل، والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم، سواء كان على الحق أو الباطل، فهذا من التفرق الذي ذمه الله تعالى ورسوله؛ فإن الله ورسوله أمرا بالجماعة والائتلاف، ونهيا عن الفُرقة والاختلاف، وأمرا بالتعاون على البر والتقوى، ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان»[1].

وقال في موضع آخر: «والذي يوجبه الله على العبد قد يوجبه ابتداءً؛ كإيجابه الإيمان والتوحيد على كل أحد، وقد يوجبه لأن العبد التزمه وأوجبه على نفسه، ولولا ذلك لم يوجبه؛ كالوفاء بالنذر للمستحبات وبما التزامه في العقود المباحة؛ كالبيع والنكاح والطلاق... ونحو ذلك، إذا لم يكن واجبًا، وقد يوجبه للأمرين؛ كمبايعة الرسول على السمع والطاعة له، وكذلك مبايعة أئمة المسلمين، وكتعاقد الناس على العمل بما أمر الله به ورسوله»[2].

وقال النووي -رحمه الله-: «قال القاضي: قال الطبري: لا يجوز الحِلْفُ اليوم، فإن المذكور في الحديث، والموارثة به وبالمؤاخاة كله منسوخ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾[3].

وقال الحسن: كان التوارث بالحِلْفِ فنسخ بآية المواريث، قلت: أما ما يتعلق بالإرث فيستحب فيه المخالفة عند جماهير العلماء، وأما المؤاخاة في الإسلام والمحالفة على طاعة الله، والتناصر في الدين، والتعاون على البر والتقوى وإقامة الحق فهذا باقٍ لم

(١) مجموع الفتاوى: ١١/ ٩٢.
(٢) المرجع السابق: ٢٩/ ٣٤٥، ٣٤٦.
(٣) الأنفال: ٧٥.

ينسخ، وهذا معنى قوله ﷺ في هذه الأحاديث: «**وأيما حِلف كـان في الجاهليـة، لم يـزده الإسلام إلا شدة**»، وأما قوله ﷺ: «**لا حِلف في الإسلام**»؛ فالمراد بـه حِلـف التـوراث، والحِلف على ما منع الشرع منه، والله أعلم»[1].

وقال ابن الأثير -رحمه الله-: «أصـل الحِلـف: المعاقـدة والمعاهـدة عـلى التعاضـد والتساعد والاتفاق، فما كان منه في الجاهلية على الفتن والقتال بين القبائـل والغـارات، فذلك الذي ورد النهي عنه في الإسلام بقوله ﷺ: «**لا حلف في الإسلام**»، وما كان منـه في الجاهلية على نصر المظلوم وصلة الأرحام؛ كحلف المطيبين وما جرى مجـراه، فـذلك الذي قال فيه ﷺ: «**وأيما حلف كان في الجاهلية، لم يزده الإسلام إلا شـدة**»؛ يريـد مـن المعاقدة على الخير ونصرة الحق، وبذلك يجتمع الحديثان، وهذا هو الحق الـذي يقتضـيه الإسلام، والممنوع منه ما خالف حكم الإسلام، وقيـل: المحالفـة كانـت قبـل الفـتح، وقوله: «**لا حِلف في الإسلام** »قاله زمن الفتح؛ فكان ناسخًا»[2].

البيعة التي أوجبتها النصوص على الأمة كافة هي بيعة الخلافة:

لا منازعة في أن البيعة العامة التي تكون على عموم النظر للمسلمين، والتي تنشـئ عموم الطاعة في غير معصية، والتي تجب على عموم الأمة، والتي يعد من نقضها باغيًا، والتي لا تقبل التعدد؛ بحيث لو بويع اثنان يقتل الآخـر مـنهما- لا منازعـة في أن هـذه البيعة لا تكون إلا للإمام الذي يجتمع عليه الناس كلهم، ومن ادعاها لنفسـه مـن هـذه

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ١٦/ ٨١، ٨٢.

(٢) التحالف السياسي في الإسلام، لمنير الغضبان: ٩.

الجماعات فقد غلط، وإلى هذه البيعة تنصرف عامة الأحاديث الواردة في باب البيعة؛ مثل قوله ﷺ: «**ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية**» (رواه مسلم).

ووجه ذلك أن الأحاديث التي جاء فيها ذكر البيعة قد وردت؛ إما مقيدة ببيعة الإمام، أو مطلقة يجب حملها على هذه المقيدة؛ وفقًا للقاعدة الأصولية المعهودة في حمل المطلق على المقيد.

وقد سئل الإمام أحمد -رحمه الله-: «من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية»ما معناه؟ فقال: أتدري ما الإمام؟ الإمام الذي يُجْمِعُ المسلمون عليه، كلهم يقول: هذا إمام؛ فهذا معناه، ومثل هذه البيعة لا يحل فيها التعدد، فقد قال ﷺ: «**إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما**»، وقال ﷺ: «**وستكون خلفاء فتكثر**»، فقالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «**فوا بيعة الأول فالأول**»؛ ولهذا امتنع عبد الله بن عمر عن البيعة لأحد من الفريقين في وقت الفتنة، إلى أن اجتمع الناس على أحدهما، وهو الذي روى حديث: «**من مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية**»، ولا شك أنه أولى بفهم الحديث على وجهه الصحيح.

يقول الحافظ ابن حجر عن عبد الله بن عمر: «امتنع أن يبايع لعلي أو معاوية، ثم بايع لمعاوية لما اصطلح مع الحسن بن علي، إلى أن قتل ابن الزبير وانتظم الملك كله لعبد الملك بن مروان فبايع له حينئذ، وروي عنه أنه كان يقول: أكره أن أبايع أميرين قبل أن يجتمع الناس على أمير واحد»[1].

(١) راجع كتابنا: الوجيز في فقه الخلافة: ٧٧، ٧٨.

ومع هذا الذي أوردناه حـول تعـدد الأئمـة وعـدم مشروعيتـه فإنـه نظـرًا لتعقـد الأوضاع وتشرذم الأمة منذ عقود متطاولة مـن السـنين، وعُسْرِ اجتماعهـا عـلى متبـوع مطاع واحد، فإن العموم في كلمة الإمـام أحمـد يمكـن حملـه في كـل موضـع بحسـبه، ويصبح المقصود به في هذا المقام أهل القطر أو الدولة التي تقع تحت نظـر هـذا الإمـام، والذي دانت له بالطاعة، وتعدد الولايات ليس كافيًا وحـده للخـروج عـلى الإمـام أو السعي في حَلِّ عقدة إمامته ما أقام في الأمة كتاب الله!

وقد قال الصنعاني في شرح حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «**من خرج عن الطاعـة وفارق الجماعة ومات، مات ميتة جاهلية**»: قوله: «عن الطاعة» أي: طاعة الخليفة الذي وقع الاجتماع عليه. وكأن المراد خليفة أي قطـر مـن الأقطـار؛ إذ لم يجمـع النـاس عـلى خليفة في جميع البلاد الإسلامية من أثناء الدولة العباسية، بل اسـتقل أهـل كـل إقلـيم بقائم بأمورهم؛ إذ لو حمل الحديث على خليفة اجتمع عليه أهل الإسلام لقلت فائدته.

وقال الشوكاني في شرح قول صـاحب الأزهـار «ولا يصـح إمامـان»: وأمـا بعـد انتشار الإسلام واتساع رقعته وتباعد أطرافه، فمعلوم أنه قد صار في كل قطر أو أقطـار الولاية إلى إمام أو سلطان، وفي القطر الآخر أو الأقطار كـذلك، ولا ينعقـد لبعضـهم أمر ولا نهي في قطر الآخر وأقطاره التي رجعت إلى ولايتـه. فـلا بـأس بتعـدد الأئمـة والسلاطين، ويجب الطاعة لكل واحد منهم بعد البيعة له على أهل القطر الذي ينفذ فيه أوامره ونواهيه، وكذلك لو قام من ينازعه في القطر الذي قد ثبتت فيه ولايتـه، وبايعـه أهله كان الحكم فيه أن يقتل إذا لم يتب.

بطلان البيعات المفرقة لجماعة المسلمين:

كما لا منازعة في أن البيعة الخاصة، التي يعقد أصحابها الولاء والبراء على أساسها، فيكفرون ما عداهم أو يبدعونه، ويفرقون بها كلمة الأمة- بيعة باطلة؛ باعتبار ما أفضت إليه من هذه المفاسد، وقد تقرر في الأصول أن للذرائع حكم المقاصد حِلًّا وحرمة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾[1].

روى سفيان الثوري عن أبي هريرة أنها نزلت في هذه الأمة.

وقال ابن كثير: «والظاهر أن الآية عامة في كل من فرق دين الله وكان مخالفًا له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾، أي: فرقًا كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات؛ فإن الله تعالى قد برَّأ رسوله ﷺ مما هم فيه»[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وليس لأحد منهم أن يأخذ على أحد عهدًا بموافقته على كل ما يريده، وموالاة من يواليه، ومعاداة من يعاديه، بل من فعل هذا كان من جنس جنكز خان وأمثاله، الذين يجعلون من وافقهم صديقًا وليًّا، ومن خالفهم عدوًّا باغيًا، بل عليهم وعلى أتباعهم عهد الله ورسوله بأن يطيعوا الله ورسوله،

(١) الأنعام: ١٥٩.

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ١٩٦.

ويفعلوا ما أمر الله به ورسوله، ويحرموا ما حرم الله ورسوله، ويرعوا حقـوق المعلمـين كما أمر الله ورسوله»[1].

ويقول في موضع آخر: «فتعليق الأمور من المحبـة والـبغض، والمـوالاة والمعـاداة، والنصرة والخذلان، والموافقة والمخالفة، والرضا والغضب، والعطاء والمنع بـما يخـالف هذه الأصول المنـزلة من عند الله، مما هو أخص منها، أو أعـم منهـا أو أعـم مـن وجـه وأخص من وجه.

فالأعم؛ ما عليه المتفلسفة ومن اتبعهم، من ضُـلَّال المتكلمـة والمتصـوفة والممالـك على ذلك؛ كملك الترك وغيرهم، في تسويغ التدين بغير ما جاء به محمد ﷺ رسول الله، وإن عظَّم محمدًا وجعل دينه أفضل الأديان، وكذلك من سـوغ النجـاة والسـعادة بعـد مبعثه بغير شريعته.

والأعم من وجـه والأخـص مـن وجـه؛ مثـل: الأنسـاب والقبائـل والأجنـاس؛ العربية، والفارسية، والرومية، والتركية، أو الأمصار والبلاد.

والأخص مطلقًا؛ الانتساب إلى جـنس معـين مـن أجنـاس بعـض شرائـع الـدين؛ كالتجند للمجاهدين، والفقه للعلماء، والفقر والتصوف للعُبَّاد، أو الانتسـاب إلى بعـض فرق هذه الطوائف؛ كإمام معين، أو شيخ، أو ملك، أو متكلم مـن رؤوس المتكلمـين، أو مقالة، أو فعل تتميز به طائفة، أو شعار هذه الفرق من اللباس من عمائـم أو غيرهـا، كـما يتعصب قوم للخرقة، أو «اللبسة»؛ يعنون الخرقة الشاملة للفقهاء والفقـراء، أو المختصـة

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٦.

بأحد هذين، أو بعض طوائف أحد هؤلاء، أو لباس التجند، أو نحو ذلك- كل ذلك من أمور الجاهلية المفرقة بين الأمة، وأهلها خارجون عن السنة والجماعة، داخلون في البدع والفرقة، بل دين الله تعالى أن يكون رسوله محمد ﷺ هو المطاع أمره ونهيه، المتبوع في محبته ومعصيته، ورضاه وسخطه، وعطائه ومنعه، وموالاته ومعاداته، ونصره وخذلانه.

ويعطى كل شخص أو نوع من أنواع العالم من الحقوق ما أعطاهم إياه الرسول؛ فالمقرب من قربه، والمقصي من أقصاه، والمتوسط من وسطه، ويحب من هذه الأمور- أعيانها وصفاتها - ما يحبه الله ورسوله منها، ويكره منها ما كرهه الله ورسوله منها، ويترك منها لا محبوبًا ولا مكروهًا، ما تركه الله ورسوله كذلك، لا محبوبًا ولا مكروهًا»[1].

لزوم جماعة المسلمين فريضة الوقت:

تتمثل فريضة الوقت في لزوم جماعة المسلمين؛ فإن هذا هو المخرج من الفتنة في واقعنا المعاصر، والدليل على ذلك أن النبي ﷺ قد جعلها المخرج من الفتنة في حديث حذيفة: فما تأمرني إن أدركني ذلك الزمان، يا رسول الله؟ قال: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**»، ولم يجعل لذلك من بديل إلا الاعتزال، ولو أن يعض على أصل شجرة حتى يدركه الموت وهو على ذلك، وليس بعد حكمه ﷺ حكم، ولا بعد بيانه بيان.

ولزوم الجماعة تكليف تخاطب به التجمعات كما يخاطب به الأفراد، ويتحقق في الواقع باتباع ما كان عليه السلف الصالح في الاعتقاد والتحليل والتحريم من ناحية، والتزام

(١) مجموع الفتاوى: ٣/ ٣٤٢، ٣٤٣.

الطاعة في ذلك لأهل الحل والعقد من المسلمين إن انعقدت لهم راية، أو السعي لإنهاضهم لإقامة الجماعة، وإقدارهم على ذلك، وحملهم عليه بكل سبيل يتاح من ناحية أخرى.

فحيثما وجد السلطان المسلم الذي لا ينتحل العلمانية، ولا يعلن الكفر بمرجعية الشريعة، ولا يتوجه بشعائره التعبدية لغير الله عز وحل فلزوم جماعته واجب، ويكون لزوم طاعته في غير معصية لزومًا للجماعة التي أمر النبي ﷺ بلزومها وحذَّر من مفارقتها، ويكون السعي في حل عقدة إمامته جريمة، وانسلالًا من الربقة ومفارقة للجماعة! وحيثما شغر الزمان عن مثل هذا السلطان فلزوم جماعة العلماء وأهل الحل والعقد في جماعة المسلمين، وهم الذين يوجهون الأمة ويقودون مسيرتها على وفا ق الشريعة!

لزوم جماعة أهل الحل والعقد، إذا انتظم عقدها واجتمع أمرها في بلد من البلاد:

إذا شغر الزمان عن الإمام، وخلا عن حاكم يحمل الأمة على مقتضى النظر الشرعي، وأقيمت الحكومات على أساس العلمانية وتحكيم القوانين الوضعية؛ فالأمور موكولة إلى أهل الحل والعقد في الأمة؛ وهم أهل العلم وأهل القدرة، الذين يُفْزَعُ إليهم في المهمات والمصالح العامة، ممن لا يزالون على أصل التزامهم بالإسلام وإيمانهم بشريعته، وإنكارهم على الخارجين عليها، ودعمهم للدعوة إلى تحكيمها.

فإذا اجتمعت كلمة هؤلاء وانتظم أمرهم حول متبوع مطاع، صار اتباعهم فريضة محكمة، وصار السعي من خلالهم لإقامة الدين واجبًا متعينًا لا حيلة لأحد في دفعه، وهؤلاء حينئذ يمثلون الجماعة التي جاءت النصوص بلزومها، وحذرت من مفارقتها، وتوعدت الخارج عليها.

والأصل في ذلك كله ما تمهد في الأصول من أن السلطة للأمة، كما أن السيادة للشرع في المجتمع الإسلامي، فالأمة هي وحدها صاحبة الحق في تولية حكامها، وفي مراقبتهم، وفي عزلهم عند الاقتضاء.

فإذا خلا الزمان من هؤلاء الحكام الشرعيين، عادت السلطة إلى الأمة ممثلة في أهل الحل والعقد منها، وتعين عليها حينئذ أن تؤدي الأمانة إلى أهلها، وأن تعقد الراية لمن يستحق، وأن تجمع كلمتها حول متبوع مطاع؛ لتبدأ من خلاله مسيرة الجهاد.

ومن الأدلة على أن السلطان للأمة:

- ما قاله عمر ﷺ على منبر رسول الله ﷺ: بلغني أن قائلًا منكم يقول: والله لو مات عمر لبايعت فلانًا، فلا يَغْرَق امرؤ أن يقول: إنما كانت بيعة أبي بكر فلتة فتمت، ألا وإنها قد كانت كذلك، ولكن وقى الله شرها، ليس فيكم من تقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر، ومن بايع رجلًا من غير مشورة من المسلمين، فلا يُبايع هو ولا الذي بايعه؛ تغرة أن يقتلا[1].

فتحرر في هذا أن الأصل في المبايعة أن تكون بعد استشارة جمهور المسلمين، واختيار أهل الحَلِّ والعقد منهم، وأن ما فعله عمر مخالفًا لهذا الأصل كان فلتة خاصة، لا أصلًا شرعيًّا يعمل به، وأن من تصدى لمثل ذلك فبايع أحدًا؛ فلا يصح أن يكون هو ولا من بايعه أهلًا للمبايعة، بل يكون تغريرًا منهما بأنفسها؛ قد يفضي إلى قتلهما إذا أحدثا في الأمة شقاقًا يوجبه.

(١)فتح الباري: ١٢/ ١٤٤، ١٤٥، وتغرة أن يقتلا، أي: خشية وقوعهما في القتل.

- ما قاله علي ﷺ، عندما اجتمع إليه الناس في بيته، وأرادوا أن يعقدوا له البيعة، فقال: إن بيعتي لا تكون خُفية، ولا تكون إلا في مسجد، فحضر الناس إلى المسجد، ثم جاء علي، فصعد المنبر، وقال: يا أيها الناس، عن ملأ وأذن أن هذا أمركم، ليس لأحد فيه حق إلا من أَمَّرتم، وقد افترقنا بالأمس على أمر وكنت كارهًا لأمركم، فأبيتم إلا أن أكون عليكم، ألا وإن ليس لي دونكم إلا مفاتيح مالكم معي، وليس لي أن آخذ درهمًا دونكم، فإن شئت قعدت لكم، وإلا فلا آخذ على أحد، فقالوا: نحن على ما فارقناك عليه بالأمس، اللهم اشهد، فبايعه طلحة والزبير، وقال لهما: إن أحببتما أن تبايعاني، وإن أحببتما بايعتكما! فقالا: بل نبايعك، فبايعاه، ثم بايعه الناس[1].

- ما روي عن عمر بن عبد العزيز، بعد أن أخذت له البيعة بناءً على عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك إليه، أنه قام فصعد على المنبر، ثم قال: أيها الناس إني لست بمبتدع ولكني متبع، وإن من حولكم من الأمصار والمدن إن أطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم، وإن هم أبوا فلست لكم بوالٍ، ثم نزل[2]!

فهو يرى في عهد الخليفة إليه أنه مجرد ترشيح(*)، وأن الأمة هي صاحبة القرار، وأن من كانوا في حاضرة الخلافة ليسوا بأولى من غيرهم في هذا الحق، بل هو إلى عموم الأمة، ويجب أن ينعقد الرضا منها كافة.

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ٣/ ٩٨، ٩٩.

(٢) البداية والنهاية: ٩/ ١٨٢، ١٨٣.

(*) ومن مقالات أهل العلم في ذلك: =

- أن الإمامة معتبرة عند أهل العلم من الفروض الكفائية، والفروض الكفائية هي التي يتوجه التكليف بها إلى الأمة؛ فالأمة شرعًا هي المخاطبة بإقامة هذا الواجب، وإذا لم تقم به على وجهه أثم الكافة، فهو ليس مجرد حق لها، بل واجب أناطته الشريعة بها، وإن نزعه عنها أحد فهو ظالم، وإن تخلفت هي عن أدائه فهي آثمة.

- ما تمهد في فقه السياسة الشرعية، أن لثبوت الإمامة عند أهل السنة طريقين؛ العهد من الإمام السابق، أو الاختيار من الأمة، وإذا كان الصحيح في العهد أنه مجرد ترشيح، وأن الاختيار النهائي للأمة، فلم يبق إذن إلا اختيار الأمة طريقًا شرعيًّا معتبرًا لانعقاد الإمامة، فامتهد بذلك أن الأمة هي صاحبة الحق في ذلك.

قال البغدادي في أصول الدين: «قال الجمهور الأعظم من أصحابنا -يقصد أهل السنة- ومن المعتزلة والخوارج والبخارية: إن طريق ثبوتها -أي: الإمامة- الاختيار من الأمة»[1].

أن الإمام إذا أراد الاستعفاء من منصبه، فإنه يتقدم بذلك إلى الأمة:

فالأمة هي التي تعيِّن وهي التي تُقيل، وهي التي يطلب إليها الاستعفاء، فدل ذلك على أنها هي صاحبة الحق في السلطة ابتداءً ودوامًا.

=ما قاله علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- فيما رواه عنه زيد بن علي في مجموعه: ولا تنعقد الإمامة إلا ببيعة المسلمين. (الروض النضير: ٥/ ١٨).

وقال أبو يعلى في الأحكام السلطانية: الإمامة لا تنعقد للمعهود له بنفس العهد، وإنما تنعقد بعهد المسلمين. (الأحكام السلطانية:٢٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: وكذلك عمر لما عهد إليه أبو بكر، إنما صار إمامًا لما بايعوه وأطاعوه، ولو قُدِّرَ أنهم لم ينفذوا عهد أبي بكر ولم يبايعوه- لم يصر إمامًا. (منهاج السنة: ١/ ١٤٢).

(١) أصول الدين: ٢٧٩.

قال الماوردي -رحمه الله- في بيان الأمور التي يختلف فيها الإمام عن الوزير-: «للإمام أن يستعفي الأمة عن الإمامة، وليس ذلك للوزير»[1].

ما قرره أهل العلم من أن الأمة هي التي تتولى خلع الأئمة عند الاقتضاء لسبب يوجبه:

وهذا أمر بدهي؛ لأن من يملك سلطة التولية هو الذي يملك سلطة العزل.

قال البغدادي: «ومتى زاغ عن ذلك كانت الأمة عيارًا عليه في العدول به من خطئه إلى الصواب، أو في العدول عنه إلى غيره، وسبيلهم معه فيها كسبيله مع خلفائه وقضاته وعماله وسعاته، إن زاغوا عن سننه عدل بهم، أو عدل عنهم»[2].

وقال الإيجي: «وللأمة خلع الإمام وعزله، بسبب يوجبه -أضاف الشارح-مثاله: أن يوجد منه ما يوجب اختلال أحوال المسلمين، وانتكاس أمور الدين، كما لهم نصبه وإقامته لانتظامها وإعلائها»[3].

أما الشكل العملي لممارسة الأمة لهذه السلطات، فهو من أمور السياسة الشرعية التي تترك لتقدير أهل الفتوى في كل عصر، وتتغير فيها الفتوى بتغير الزمان والمكان والأحوال.

هذا، ولا يفوتنا أن نذكِّر بضرورة التفريق بين السلطة التي جعلتها الشريعة للأمة؛ والتي تختص الأمة بمقتضاها بالحق في تولية حكامها، وفي محاسبتهم، وفي عزلهم عند الاقتضاء- وبين السيادة؛ وهي الحق في التشريع المطلق، وفي توجيه الخطاب المتعلق

(١) الأحكام السلطانية، للماوردي: ٢٤.
(٢) أصول الدين: ٢٧٨.
(٣) المواقف: ٨/ ٣٥٣.

بأفعال المكلفين؛ اقتضاءً أو تخييرًا أو وضعًا، فإن هذا الأمر لا يكون إلا لله وحده، لا يشاركه فيه أحد؛ كما قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وهذا النقطة تمثل مفترق الطريق بين المنهج الإسلامي والمناهج العلمانية المعاصرة التي فصلت الدولة عن الدين، ونقلت مصدرية الأحكام والتشريعات إلى الأمة، تمارسها من خلال نوابها في المجالس النيابية، بحيث تستطيع بهذه السلطة أن تُحلَّ ما تشاء، وأن تحرم ما تشاء، لا سلطان عليها في ذلك لأحد، ولا رقابة عليها من أحد!!

أما سلطة الأمة في الإسلام فهي تدور في فلك سيادة الشريعة، وليس لها - ولو اجتمعت في صعيد واحد- أن تُحِلَّ شيئًا مما حرم الله، أو أن تحرم شيئًا مما أحل الله، أو أن تشرع شيئًا من الدين لم يأذن به الله.

قصر وصف جماعة المسلمين على تجمع دعوى بعينه غلو منكر:

ومن الغلو المنكر في تحديد المقصود بجماعة المسلمين؛ ما ذهب إليه بعض الناس من قصر جماعة المسلمين على تجمعاتهم البدعية، وهؤلاء هم أصحاب بدعة التكفير بأصول بدعية، ومرد الخلل في فهمهم للجماعة إلى هذه البدعة، ولا يتسنى تقويمه إلا إذا استقام فهمهم لأصول أهل السنة والجماعة في قضية الإيمان والكفر.

(١) يوسف: ٤٠.

وهؤلاء لا يجدي أن تناقش معهم قضية الجماعة على استقلال، وإنما يجب أن تناقش أصولهم الفكرية كافَّة أولًا؛ لِيُقَوَّمَ ما فيها من عوج، فإن استقامت استقام فهمهم لقضية الجماعة تبعًا لذلك، وإلا فلا جدوى من إضاعة الوقت فيما لا طائل تحته.

وما ذهب إليه آخرون من جعل الجماعة أصلًا من أصول الدين، لا تثبت صفة الإسلام إلا باستيفائه، وهؤلاء خلطوا بين الالتزام بالولاء الديني للمؤمنين كافة، وعدم مظاهرة عدوهم من الكافرين، وبين الالتزام بالولاء والطاعة لإطار بعينه من الأطر الجامعة لفصائل من المسلمين؛ فالأول هو الذي يصدق عليه أنه من أصل الدين، ونقيضه الزندقة أو النفاق، أما الثاني فهو موضع اجتهاد، وقد أجمعت الأمة على عدم تكفير البغاة والمحاربين، وعدم تكفير من تخلف عن بيعة الإمام من المسلمين، فضلًا عما يتضمنه حديث حذيفة من الإشارة إلى أنه قد تذهب الجماعة ويبقى المسلمون، وذلك في سؤاله للنبي ﷺ: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ وجوابه ﷺ: «**فاعتزل تلك الفرق كلها**».

مصادرة شرعية التجمعات الدعوية المعاصرة تفريط منكر:

ومن التقصير البين في تحديد المقصود بهذه الجماعة؛ ما ذهب إليه بعض الناس من عدم شرعية هذه التجمعات ابتداءً إلا بعد التمكين ونصب الإمام، وهؤلاء إن كان مقصودهم أن الجماعة المرادة في النصوص هي جماعة الخلافة - فذاك، ولكن هذا لا يعني تحريم التعاون على البر والتقوى والتعاقد على ذلك، بل قد يقتضي الأمر وجوبه في بعض الأحيان وتأثيم تاركه، وإنشاء الكيانات المنظمة له؛ شريطة ألا تؤدي إلى تفرق الكلمة وتفتيت الولاء، أو إضعاف الولاء للجماعة بمفهومها العام والشامل.

أما الاعتزال المقصود في حديث حذيفة، فهو اعتزال الفرق الضالة، وهي الشر المشار إليه في الحديث بقوله ﷺ: «**دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها**»! ولا يصدق على تجمعات العمل الإسلامي المعاصر وصف الفرق؛ لالتزامها المجمل بمنهج أهل السنة والجماعة وبراءتها المجملة مما يخالفه، وإن تلبسوا ببعض البدع أو المخالفات الجزئية، اللهم إلا الدعاة إلى التكفير بأصول بدعية، وهم قلة لفظتها مسيرة العمل الإسلامي المعاصر، وإن كانت لا تقطع ولاء الإسلام عنها خاصة في أوقات المحن.[1]

(١) هذا وقد اعترض بعض الفضلاء على نفي وصف فرق الضلالة عن التجمعات الإسلامية المعاصرة في المناطق السنية بأن هذا النفي ليس بدقيق، وساق بعض النقول عن بعض قادة هذه الجماعات من الإخوان والتبليغيين تصرح بتلبسهم ببعض البدع والشركيات، كالدعوة إلى حضور المولد، وادعاء حضور النبي ﷺ في احتفالاتها، والجواب عن ذلك أن هذه الدراسة لم تكن في مقام الدفاع عن الجماعات أو تصنيفها بمنطق وقواعد الجرح والتعديل، بل في مقام الحديث عن ترشيدها، وجمعها على مشترك علمي وعملي عام، ورد شذوذاتها إلى السنة.

وإذا كان المعترض – حفظه الله – قد اختزل تاريخ الإخوان ودورهم في العمل الإسلامي في هذه الكلمة التي نسبها إلى مرشدهم في فترة من الفترات، واختزل جهود التبليغ والدعوة في زلة تضمنها كتاب من كتبهم فيبدو لي أن الأمر يحتاج إلى مراجعة توضع بها الأمور في نصابها، ويوفى فيها لكل ذي حق حقه!

إن كاتب هذه الدراسة لا يعرف عن أصول المنهج الذي تبناه الإخوان في الدعوة حضور الموالد، وادعاء حضور النبي ﷺ في احتفالاتها، وإذا نسب شيء من ذلك إلى بعض رجالاتهم صغر أو كبر فهو موقف جزئي، يسأل عنه صاحبه، ولكن لا تتبناه الجماعة في دعوتها، ولا تنشئ عليه – فيما نعلم – ناشئتها، ولا تدخله في نسيج الدعوة التي تحمل لواءها، بل قد جاء في الأصول العشرين التي قعدها البنا – رحمه الله – لجماعته لفهم الإسلام في ضوئها ما يلي:

ثالثا :وللإيمان الصادق والعبادة الصحيحه والمجاهدة نور وحلاوة يقذفها الله فى قلب من يشاء من عباده ، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية ، ولاتعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه. =

وما يذهب إليه آخرون من رفض أي نوع من أنواع التعـاون أو التقـارب؛ لإقامـة الجماعة مع المخالفين لهم في بعض الاجتهادات؛ تعللًا بما أثر عن أهل العلم مـن هجـر أهل البدع والإنكار عليهم، وقد فات هؤلاء أن تجمعات العمل الإسلامي المعـاصر لا تصنف في عداد الفرق الضالة؛ لالتزامها المجمل بالسنة وبراءتها المجملـة ممـا يخالفهـا،

=رابعًا: والتمائم والرقى والودع والرمل والمعرفة والكهانة وادعاء معرفة الغيب ، وكل ما كان مـن هـذا البـاب منكر تجب محاربته ... (إلا ماكان آية من قرآن أو رقية مأثورة).

ثالث عشر: ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهـم قربـة إلى الله تبـارك وتعـالى ، والأولياء هم المذكورون فى قوله تعالى : **" الذين آمنوا وكانوا يتقون "** ، والكرامة ثابتة لهـم بشرائطهـا الشرعيـة مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لايملكون لأنفسهم نفعًاولا ضرًّا في حياتهم أو بعـد مماتهم، فضـلًا عـن أن يهبوا شيئًا من ذلك لغيرهم.

رابع عشر: وزيارة القبور أيًّا كانت سنة مشروعـة بالكيفيـة المـأثورة ، ولكـن الإسـتعانة بـالمقبورين أيًّـا كـانوا ونداءهم لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد والنذر لهم وتشـييد القبـور وسـترها وإضـاءتها والتمسح بها والحلف بغير الله ومايلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها ، ولا نتأول لهذه الأعمال سـدًّا للذرائع.

خامس عشر: والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة.

أما جماعة التبليغ والدعوة فهي كالماء الذي يتلون بلون إنائه، فهـي في بـلاد الحـرمين سـلفية، وفي بـلاد الشـام تغلب عليها مسحة التصوف ونحوه؛ لأن جل همهم الدعوة إلى فضائل الأعـمال، فهـم دعـاة الخطـوة الأولى، وغايتهم إخراج العامة من بيئة الغفلة إلى بيئة الذكر ومن بيئة المعصية إلى بيئـة الطاعـة، وقـد أفـاد مـن دعـوتهم خلق كثير؛ ولهذا نحسب أن وصول مثل هذا الكتاب إليهم الذي يتلطف في خطـابهم، ويقـول لهـم: إن ثمـت مشتركًا إيمانيًّا وعقديًّا عامًّا يجب أن يحيط به علمًا كل مشتغل بالعمل الإسلامي سيجعلهم في طليعة المنتفعين بـه بإذن الله؛ لأن سوادهم الأعظم من العامة وأشباه العامة، ولـيس لـديهم تحـزب ضـد المفـاهيم الصـحيحة ولا عداوة لأصحابها! ونحسب أن هذا أرضى لله عز وجل وأنفع لعباده من التراشق بسهام التبديع أو التكفير مـن مكان بعيد! وكل هذه الأصول – كما ترى – تدور في فلك الاعتقاد الصحيح كما بينه أئمة السنة الثقات.

وأن أهل البدع أنفسهم تتفاوت معاملتهم عند أهل السنة، من الهجر والمجافاة إلى التأليف والمداراة، بحسب المصلحة أو المفسدة المترتبة على هذا أو ذاك.

أن التعدد المقبول في ساحة العمل الإسلامي المعاصر، هو تعدد التخصص والتنوع، وليس تعدد التضاد والتنازع:

لا يمتهد السبيل للقبول المرحلي بتعدد فصائل العمل الإسلامي، إلا إذا كان تعدد تنوع وتخصص؛ بأن اتفقت هذه الجماعات فيما بينها على أن تتكافل في أداء فروض الكفايات، فهذه كتيبة تعمل على المحافظة على السنة تخريجًا وتحقيقًا، وتسهر على بيانها للناس درسًا وتصنيفًا، وهذه كتيبة تهتم بتصحيح عقائد الأمة ومحاربة البدع والخرافات، وهذه كتيبة تحيي في الأمة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحثها على القيام بها، وتعطي لها في ذلك المثل والقدوة، وهذه كتيبة تعمل على إحياء فريضة الجهاد، وتحث الأمة عليها، وتقدم لها أمثلة في الفداء والتضحية، وهذه كتيبة تعمل على الاحتساب على المبطلين من الحكام وجبابرة السياسة، وتسعى إلى أن ينفذ صوت الإسلام إلى هذه المواقع، وأن تنتزع منها ما يمكن انتزاعه لمصلحة الأمة، وهذه كتيبة تسعى إلى دعوة العوام وإخراجهم من بيئة الغفلة إلى بيئة الذكر، ومن بيئة المعصية إلى بيئة الطاعة ونحوه، وهذه كتيبة تعمل في مجال بحوث تطبيق الشريعة، وإعداد النماذج والصياغات العملية القابلة للتطبيق في واقعنا المعاصر.

ولو كان الأمر على هذا النحو، وتم الاتفاق بين هذه الجماعات على ذلك، وقسموا العمل فيما بينهم على هذا النحو، وكفوا ألسنتهم عن التقاذف فيما بينهم بالتُّهم والمناكر، وجمعتهم المجالس للتنسيق والتعاون وتبادل الرأي، وجددوا مفهوم الأمة في العمل الإسلامي، ودعوا إلى نبذ التعصب والتحزب الجاهلي؛ الذي يربط الولاء باسم أو رسم

دون الكتاب والسنة- لو فعلوا ذلك لهدوا إلى سواء السبيل، ولامتهد السبيل للقبول المرحلي بهذا التعدد، باعتباره خطوات مرحلية جادة في الطريق إلى جماعة المسلمين.

أما التعدد الذي يتمزق به ولاء الأمة بين هذه التجمعات، وتتهارج به الصفوف، ويتلاعن به الناس- فهو وبال ونقمة، يتحول به الواقع إلى فتنة، ويتمهد به السبيل إلى القول باعتزال الجميع!

وعلى هذا؛ فلكي يمتهد القول بمشروعية جماعة تتعاقد على عمل من أعمال الدعوة أو الجهاد، فلا بد من تحقيق الضوابط الآتية:

- **ألا تتحزب على أصل كلي يخالف أصول أهل السنة والجماعة -وإلا كانت فرقة من الفرق الهالكة- أو على بدع جزئية كثيرة.**

قال الشاطبي -رحمه الله-: «إن هذه الفرق إنما تصير فرقًا بخلافها للفرقة الناجية في معنى كلي في الدين وقاعدة من قواعد الشريعة، لا في جزئي من الجزئيات؛ إذ الجزئي والفرع الشاذ لا ينشأ عنه مخالفة يقع بسببها التفرق شيعًا، وإنما ينشأ التفرق عند وقوع المخالفة في الأمور الكلية؛ لأن الكليات تقتضي عددا من الجزئيات غير قليل، وشاذها في الغالب ألا يختص بمحل دون محل، ولا بباب دون باب.

واعتبر ذلك بمسألة التحسين العقلي؛ فإن المخالفة فيها أنشأت بين المخالفين خلافًا في فروع لا تنحصر، ما بين فروع عقائد وفروع أعمال.

ويجري مجرى القاعدة الكلية كثرة الجزئيات؛ فإن المبتدع إذا أكثر من إنشاء الفروع المخترعة عاد ذلك على كثير من الشريعة بالمعارضة، كما تصير القاعدة الكلية معارضة أيضًا، وأما الجزئي فبخلاف ذلك، بل يعد وقوع ذلك من المبتدع له كالزلة والفلتة»[1].

- **ألا تعقد ولاءها وبراءها على أساس الانتساب إلى هذا الاجتماع:**

فإن معقد الولاء والبراء في الإسلام هو الكتاب والسنة، على رسم منهاج النبوة، لا غير، وتعليق شيء من القرب والبعد والمحبة والبغض على غير ذلك- من أمور الجاهلية المفرقة بين الأمة، والتي يسخطها الله ورسوله.

- **الانتماء إلى جماعة المسلمين بمفهومها العام والشامل:**

فكل جماعة تكرس لدى أفرادها مفهوم التمايز والانفصال، وتزكي لديهم روح التشرذم والتهارج مع الآخرين، جماعة بدعية ضالة؛ لأن لزوم الجماعة بمفهومها العام والشامل هو المخرج من الفتنة بنص حديث حذيفة: «**تلزم جماعة المؤمنين وإمامهم**»، ولا بديل من ذلك إلا الاعتزال حتى الموت، ولا خيار! وهذا الأمر تكليف تخاطب به التجمعات كما يخاطب به الأفراد، ويجب على كل فرد أو تجمع أن يكون له سعي في ذلك بحسبه، وأدنى ذلك أن يعقد قلبه على لزوم هذه الجماعة متى انتظم شملها، ولا يزرع الألغام في طريقها، أو يحبط الجهود التي تبذل لإقامتها بوجه من الوجوه.

(١) الاعتصام: ٢/ ٢٠٠، ٢٠١.

المبحث الثاني

المتغيرات في هذه القضية

أما مجاري الاجتهاد المتعلقة بهذه القضية فهي كثيرة، نذكر منها:

تسمية التعاقد على الخير والتزام الطاعة للقائم عليه بيعة:

فمن الناس من نظر إلى أن حقيقة البيعة هي العهد على الطاعة، ووجد هذا المعنى متحققًا في المعاقدات الإسلامية المعاصرة؛ فأطلق عليها هذه التسمية، مع ملاحظة الفروق القائمة بينها وبين البيعة العامة التي تعقد للخلفاء، والتي يمكن إيجازها فيما يلي:

أن بيعة الإمام يعقدها أهل الحل والعقد في الأمة، لمن استوفى شروط الإمامة، على حراسة الدين وسياسة الدنيا به، وتوجب عموم الطاعة في غير معصية، وفرضها متعين على الأمة كافة.

أما هذه العهود فيعقدها فريق من المسلمين لمن يرتضونه منهم؛ لعلمه أو لكفايته، على عمل أو أكثر من أعمال الخير، ولا توجب من الالتزام إلا في حدود المهمة التي أنشئت من أجلها، ولا تجب ابتداءً بالشرع على كل أحد، ولكن على من دخل فيها والتزمها عن تراضٍ.[1]

(١) وقد سبق القول: إن هذه البيعات بمثابة العهد أوالنذر، ومن أمثلتها: التحالف على نصرة المظلوم والضرب على يد الظالم، وقد نقلنا سلفًا نقولًا كثيرة عن أهل العلم في مشروعية التحالف على البر وعمل الخير، ومن نذر أن يطيع الله فليطعه، و«**من نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»، فإذا تواثق بعض الناس على عمل من أعمال الخير فلا حرج عليهم في هذا التواثق، ما لم يفض إلى فساد، أو ينعقد على أساسه ولاء وبراء، ولايزال الناس=

ولكن قد خشي آخرون أن تختلط هذه البيعة بالبيعة العامة؛ لا سيَّما مع ندرة العلماء المحققين في هذا العصر، الذين يتمتعون بقبول عام من الأمة، وتعصب كثير من الناس لاجتهاداتهم ومتبوعيهم بالحق وبالباطل، فآثر أن تفرد بتسمية خاصة منعًا من اللبس وتداخل الأمور.

التزام جماعة بعينها من الجماعات العاملة للإسلام:

سبق أنه إذا اجتمعت كلمة المسلمين في بلد من البلاد حول متبوع مطاع، فقد وجبت الطاعة له في غير معصية، وعدم مفارقة المسلمين فيما اجتمعوا عليه من تقديمه، والسعي معه ومن خلاله لإقامة الدين؛ دعوة إليه وجهادًا في سبيله وقهرًا لخصومه، أما إذا لم تعقد لهم راية جامعة، ووجدت لهم تجمعات متعددة تدور في فلك أهل السنة والجماعة، ويتمحور كل منها حول إحياء عدد من الفرائض- فهنا تصبح هذه التجمعات خطوات مرحلية في الطريق إلى جماعة المسلمين.

ولا شك أن اختيار هذا التجمع أو ذاك من موارد الاجتهاد، كما أنه يختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال والأشخاص، وإن كان هناك بعض المحددات التي يمكن أن تسهم في ترشيد هذا الاختيار؛ نذكر منها: صحة الاعتقاد، وشمول التصور، وسلامة الفهم، ومنها البلاء في الإسلام والنكاية في المشركين، ومنها السبق في حمل أمانة الدعوة والجهاد، ومنها تبني المفهوم الصحيح لجماعة المسلمين، ومنها القدرة على

=يتواثقون على إقامة مؤسسات خيرية: إغاثية وغير إغاثية، وينشأ بينهم من خصوصية العلاقة ما ينشأ، ولم يُثَرِّبْ عليهم أحد من المشتغلين بالعلم! فالخلل ليس في مبدأ التواثق على أعمال الخير، وإنما على ما قد يترتب على ذلك من فساد أو تشرذمات، ولاشك أن الأموربمآلاتها، فينهى عن ذلك إذا ساءت عواقبه، ويقر حيثما حسنت، وتختلف فيه الفتوى باختلاف الأوضاع والأحوال.

استيعاب مختلف الجهود والطاقات، والتأليف بينها في إطار متوازن مـن المحافظـة عـلى السنة والجماعة.

بل إن مبدأ لزوم جماعة بعينها من هذه التجمعات مسألة اجتهادية، فقد يرى فريـق من الناس أن الذي يلزمه شرعًا هو لزوم الجماعـة بمفهومهـا العـام والشـامل، عنـدما تجتمع كلمة هذه الجماعة حول متبوع مطاع، أما الآن فإن عليه أن يعين الجميع عـلى مـا يكون عندهم من البر والتقوى، وأن يبرأ ممـا عسـى أن يلتـبس بـه بعضـهم مـن الإثـم والعدوان، وأن يحافظ على صلات متوازنة مع هذه التجمعات كافة، ويـدعوهم جميعًـا إلى نبذ ما بينهم من خلافات، وجمع الأمة حول الجمل الثابتة بالكتاب والسـنة، وإقامـة جماعة المسلمين بمفهومها العام والشامل.

وقد يبرر له هذا التصرف ما عليه بعض هذه الجماعات من تنـاحر واعـتلال، وقـد يذهب في ذلك إلى قياس جماعـات الـدعوة عـلى الجماعـات السياسـية التـي وقعـت في التاريخ الإسلامي، وذهب معها أهل العلم إلى القول بأنـه متـى لم يكـن للنـاس إمـام، فافترق الناس أحزابًا- فلا يتبع أحدًا في الفُرقة، ويعتزل الجميع إن استطاع ذلك؛ خشية الوقوع في الشر.

ومع يقيننا بالفارق الكبـير بـين جماعـات الـدعوة والجماعـات السياسـية المسـلحة المتصارعة، فإن هذا القول ما لم يكن مرده إلى إنكار شرعية العمـل الجماعـي، والتعاقـد على الخير ابتداءً- فإنه يبقى كاجتهاد مرجوح أو خلاف ضعيف، يـُتكلم مع أصـحابه بالحجج العلمية، ولكنه لا يبرر الإنكار عليهم باليد، أو التثريب عليهم بالهجر ونحوه، أو القدح في دينهم أو عدالتهم، وإنما يُسعى في إزالة أسبابه من التدابر والتنـاحر القـائم بين الجماعات الإسلامية.

تقييد البيعة، والتقايل منها، والجمع بين أكثر من بيعتين في وقت واحد:

الأصل في البيعة التي تعطى للجماعات الإسلامية أنها اتفاق رضائي، يهدف إلى التأكيد على ما أوجبه الله ورسوله من التعاون على البر والتقوى، والتزام صاحبها بالتعاون مع فريق من الناس، على ما انتصبوا للقيام به من الدعوة والجهاد، وهي لا تجب ابتداءً على كل أحد، ولا تلزم إلا من التزم بها، وفي الحدود التي يتم الاتفاق عليها.

وعلى هذا، يمكن النظر في أمر تقييد هذه البيعة بزمن أو ببلد، أو التقايل منها عند الاقتضاء، أو الجمع بين أكثر من بيعتين لجماعتين، إن لم يكن بينهما تعارض، ولم يؤد الجمع بينهما إلى الإضرار بإحداهما، وكل ذلك من موارد الاجتهاد، وعلى الجماعات والأفراد أن يختاروا من ذلك ما يرونه محققًا لمصلحة الدعوة والجهاد، في الزمان والمكان الذي يراد فيه إمضاء هذه الاجتهادات.

ولا يحتج على ذلك بأن البيعات التي أعطيت في تاريخ الإسلام لم تعرف التقليد ولا التعدد؛ لأن القياس هنا مع الفارق، فالبيعات العامة هي التي تكون على عموم النظر في مصالح المسلمين، ويجب الدخول فيها على الأمة كافة، ويحرم فيها التعدد.

أما هذه البيعات فهي بيعات رضائية اتفاقية، مصدرها العقد، ونطاقها المهام التي عقدت من أجلها، ونفوذها في حق الذين ارتضوا بها وتعاقدوا عليها؛ ولهذا فإن لهم أن يضعوا لها من الشروط والقيود ما يشاؤون، شريطة ألَّا يخالفوا في ذلك شرطًا في كتاب الله، وإلا كان شرط الله أحق، وقضاؤه أوثق.

الفصل السابع

الثوابت والمتغيرات
في مناهج التغيير

تمهيـــــد

لا تعدو وسـائل التغيـير المطروحـة عـلى صـعيد العمـل الإسـلامي المعـاصر -في الجملة- أن تكون اجتهادات بشرية، تدور في فلك السياسية الشرعية، وتتقرر أحكامها في ضوء الموازنة بين المصالح والمفاسد، الأمر الذي يعني أنـه لا قداسـة لأفكارهـا، ولا عصمة لرجالها من الوقوع في الخطـأ الـذي يعتـور كـل عمـل بشري، لا تنقصـه النيـة الصالحة ولا القصد الحسن.

وأن هذه البرامج تقترب وتبتعد من تحقيق أهدافها بقدر حظها من الاستقامة عـلى المنهج، ومدى توفيقها في ضبط حركتها على رسـم الكتـاب والسـنة، وإقامـة التـوازن الدقيق بين واجب الاتباع الذي يقتضي الانتصار للسنة والاستمساك بها قولًا وعمـلًا، وواجب الاجتماع الذي يقتضي الحرص على الجماعـة والائـتلاف، والبعـد عـن الفرقـة والاختلاف، توازنًا ينصر السنة من ناحية، ويجمع كلمة الأمة من ناحية أخرى.

وعلى الرغم من أن الأصل في مناهج التغيير أنها اجتهادات بشرية في إقامة الـدين، إلا أنها تنطلق من عدد من الثوابت والأصول المحكمـة، التـي يجـب التأكيـد المتجـدد عليها؛ حتى لا تضيع في زحام الموازنات بين المصالح والمفاسد، أو تخـتلط بغيرهـا مـن المتشابهات ومجاري الاجتهاد؛ التي لا مجال فيها للتثريب على المخالف أو القدح في دينه أو عدالته، فيعرف العمل الإسلامي كيف يفرق بين الثوابت المحكمات، التي لا يحل له أن يترخص فيهـا طرفـة عـين، وبـين الظنيـات المتغـيرات التـي يـتكلم فيهـا بـالحجج

والبينات، ويتفق فيها أو يختلف، ولكن لا يحل له أن يفاصل على أساسها، وأن يورث الأجيال القادمة التهارج والتلاعن بسببها!!

ويستطيع المتأمل في برامج ووسائل التغيير المطروحة على صعيد العمل الإسلامي أن يقسمها إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية: الاتجاه السياسي، والاتجاه الجهادي، والاتجاه العلمي والدعوي، وفيما يلي محاولة للتعرف على الثوابت والمتغيرات في كل اتجاه من هذه الاتجاهات، وذلك من خلال المباحث الثلاثة التالية.

المبحث الأول

الثوابت والمتغيرات في مجال العمل السياسي

تكوين الأحزاب السياسية والدخول في المجالس النيابية:

والمقصود بالعمل السياسي في هذا المقام: السعي إلى تكوين الأحـزاب أو المشـاركة فيها، أو الاشتراك في البرلمانات ومجالس الشورى، وغيرهـا مـن المؤسسـات السياسـية للدولة، مع ما يستتبعه ذلك من التحالف المؤقت مع بعض القوى السياسية الأخـرى؛ بغية التمكين لشريعة الله من خلال هذه المواقـع، أو تحصـيل بعـض المصـالح الشرعيـة للحركة الإسلامية، ومنع أو تخفيف بعض المظالم الواقعة عليها.

والعاملون في هذا المجال هم أحوج الناس إلى أن يميزوا الثوابت من المتغـيرات في برامجهم الإصلاحية، وذلك لعدة أسباب منها:

- معارضة كثير من فصـائل العمـل الإسـلامي ابتـداءً لهـذا الأسـلوب، وتشـنيعهم عـلى أصحابه، وتتبع زلاتهم وعثراتهم وتطييرها كـل مطـير! الأمـر الـذي يسـتوجب الحـذر الدائم، واليقظة المتجددة؛ حتى تبقى مسـيرة هـذا العمـل عـلى الجـادة، فيمتهـد السـبيل لقبولها كأحد الاجتهادات المطروحة على صعيد التغيير.

- الصلة المباشرة، بل واليوميـة، التـي تجمـع بـين القـائمين عـلى هـذا العمـل وبـين الطواغيت، وما يتعرضون له بسبب ذلك من الضغوط، التـي قـد تسـتدرجهم إلى

سلسلة من التنازلات التي ربما لا تقابل بمصالح راجحة، بل وقد تفضي ببعضهم إلى افتقاد الطريق كله.

- أن هذا العمل يمثل الحضور الرسمي للاتجاه الإسلامي في هذه المواقع، وكل تقصير يتلبس به سينسب إلى الاتجاه الإسلامي في مجموعه، وأي استدراج يتعرض له ربما لا يحسب على بقية فصائل العمل الإسلامي فحسب، بل على الإسلام في ذاته، لا سيَّما وقد التزم - بمقتضى وجوده في هذه المواقع - بالحوار والمواجهة العلمية والأدبية، فهو يمثل المفاوض الإسلامي الذي ينوب عمن وراءه من المسلمين في الدفاع عن قضية الإسلام، وللاتجاهات العلمانية حضور قوي، بل هو الحضور الغالب، ولهم من القدرة على التشويش والرغبة فيه ما يستوجب الحذر الكامل والدقة المتناهية؛ حتى لا تكون زلاته فتنة لهؤلاء المبلطين.

والآن ما هي الثوابت التي يجب على العمل السياسي أن يستصحبها في رحلته في هذه المواقع، وما هي المتغيرات التي تترك لاجتهاداته في ضوء الملابسات التي تحيط به، والاختناقات التي يتعرض لها؟

المطلب الأول

الثوابت في قضية العمل السياسي

يجب أن ينطلق العمل السياسي الإسلامي من عدد من الثوابت، نوجز بيان أهمها فيما يلي:

أن الحجة القاطعة والحكم الأعلى هو الشرع لا غير:

وأن التسليم بالحق في التشريع المطلق لأحد من دون الله إشراك بالله، وأن الديموقراطية بالمعنى الغربي؛ التي تخوِّل الحق في السيادة العليا والتشريع المطلق لممثلي الأمة- تتناقض تناقضًا جذريًّا مع الإسلام؛ الذي يقوم في الجملة على قاعدة الاستسلام لله وحده، وعلى أن من استسلم له ولغيره كان مشركًا، ومن لم يستسلم له كان كافرًا، وعلى أن الخلق والأمر من أخصِّ خصائص الربوبية، وأن منازعة الله في الأمر كمنازعته في الخلق ولا فرق، وأنه كما قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[1].

أن هذه الديموقراطية التي يتغنى بها العلمانيون ودعاة الحلول الوضعية، ليست إذن هي الحل النهائي الذي ينشده ممثلو العمل الإسلامي في هذه المواقع:

لأن المقصود هو تعبيد الأمة لله، وليس أن يتخذ بعضها بعضًا أربابًا من دون الله، ولكن التعامل المرحلي بها إنما يكون من جنس الموازنة بين المصالح والمفاسد واختيار أهونها، فإذا كانت العلمانية هي الشر الواقع لا محالة في هذه المرحلة، فإن العلمانية الديموقراطية أهون أو أخف وطئًا من العلمانية الدكتاتورية؛ حيث يخلى في الأولى بين

(١) يوسف: ٤٠.

الدعاة إلى الله وبين عامة الأمة، يتحدثون إليهم كما يريدون، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، بينما تكمم الأفواه في ظل الثانية، ولا يسمع إلا صوت الكفر وحده، وفي الشر خيارٌ كما يقولون! فإن بعض الشر أهون من بعض.

فالقبول المرحلي بالتعامل مع الديموقراطية إنما يكون تأسيسًا على ذلك، وانطلاقًا من أن إرادة الأمة إذا أطلقت فإنها لا تنشد إلا الإسلام.

فهذه الديموقراطية لها جانبان؛ جانب يقره الإسلام ويزكيه، بل يحض عليه ويوجبه؛ وهو حق الأمة في تولية حكامها، وفي الرقابة عليهم، وفي عزلهم عند الاقتضاء، وجانب يأباه ويعتبره بابًا من أبواب الشرك بالله، وهو الحق في التشريع المطلق الذي تقرره الديموقراطية العلمانية للأمة؛ لأن هذا التشريع حق خالص لله وحده، فمن نازع الله فيه فقد أشرك، فالأمة في الإسلام لا تملك أن تحل حرامًا، ولا أن تحرم حلالاً، ولا أن تبدل شرعًا، وإنما ينحصر دورها - ممثلة في علمائها وأهل الحل والعقد فيها - في أن تجتهد في فهم النصوص والتخريج عليها، واستخدام قواعدها العامة فيما لم يرد فيه نص، فتظل الشريعة دائمًا هي الحكم، وتظل الربوبية دائمًا لله وحده، ولا تخرج على ذلك في قليل ولا كثير.

أن الأصل في المجالس النيابية قبل أن تعلن سيادة الشريعة، واشتراع الأحكام بناء عليها والتزام ذلك حالاً ومقالاً- هو البطلان والخروج عن الإسلام:

وذلك لما تقرره من الحق في التشريع المطلق لممثلي الأمة؛ اتباعًا لسنن المجتمعات الغربية، ومنازعة الله في أخص خصائص الربوبية.

ولذلك فإن الأصل في هذه المجالس هو الاجتناب والبراءة حتى يعلم قيامها عـلى الإسلام، والتزامها حالًا ومقالًا بسيادة الشريعة الإسلامية، وإن المـبرر الوحيـد الـذي يجيز للمسلم الدخول إلى هذه المجالس هـو الـدعوة إلى هـذا الأصـل الجـامع، ونصرة الدين الحق، وإقامة الحجة على المرتابين والـذين في قلـوبهم مـرض، وفضـح المعـوِّقين والمخذلين، والقيام بمصالح الأمة في هذا الإطـار، أو المشـاركة في ذلـك ودعـم دعاتـه وتكثير سواده، لمن لا يتسنى له أن يقوم بنفسه بهذا الدور.

أن ما يسمى بسيادة القانون، والقسم على احترام الدستور والقوانين، يجب أن يفهم في هذا الإطار:

وأن يتأول على هذا الوجه؛ لأنه لا سـيادة لقـانون أهدرتـه الشريعـة، ولا احـترام لدستور ولا لقانون إلا على قدر حظه من الشريعة الإسلامية، وأن كل نـص يتعـارض مع الشريعة المطهرة فهو باطل ومهدر، ولا سيادة لـه ولا احـترام، وإن لا يكـن الأمـر كذلك، فكيف يقسم مسلم على احترام قانون يُحـلُّ الزنـا، ويحـل الربـا، ويحـل الخمـر، ويحل الميسر، ويعطل حدود الله؟! كيف ينعقـد هـذا القسـم ابتـداءً؟! وكيـف يرتضـيه مسلم آمن بالله ورسوله؟!

إن استحضار هذه المعاني عند القسم ضرورة شرعية؛ حتى لا يكون النائب المسـلم في ذلك كمن يقسم بالقرآن على الحكم بخـلاف القـرآن! وإن لـه في استحضـار هـذه المعـاني مخارج ومنادح في الدساتير التي تنص على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام، الأمر الذي يفترض معه أن كل نص يتعارض مع هذا الدين فهو باطل، وإن كان العمل لا يجـري عـلى ذلك، وكذلك التي تزيد على ذلك بالنص على أن الشريعة الإسلامية هي المصـدر الـرئيسي للتشريع، فإن مقتضى هذا النص كما يقـرر كثـير مـن القـانونين هـو الإعـلان عـن سـيادة

الشريعة، وعن بطلان كل ما يتعارض معها من القوانين الوضعية، لولا ما يفعله الطواغيت من تجميد العمل بهذا النص، وإبقائه لمجرد التشويش والتلبيس.

وأيًّا كان الأمر، فإن وجود مثل هذه النصوص مما يمتهد معه سبيل للمخلصين من حملة التشريعة وأنصارها؛ لتأويل هذا القسَم وتخريجه على هذا الأساس.

هذا، وإذا كان الأصل في اليمين أنه على نية المستحلِف، فإن هذا إذا كان المستحلِف مظلومًا، أما إذا كان ظالمًا فإن اليمن على نية الحالف، كما ذكره البخاري في صحيحه عن النخعي -رحمه الله- قال: «إذا كان المستحلِف ظالمًا فنية الحالف، وإن كان مظلومًا فنية المستحلَف»[1]، وقد نسبه الحافظ في الفتح إلى مالك والجمهور[2].

ومن كان اجتهاده أن هذا هو السبيل المتاح لنصرة الدين، أو الدفع عن المستضعفين، ثم أجبر على هذا القسم- فنرجو أن يكون بهذا الإكراه مظلومًا، يصح له هذا التأول.

أن الاعتراض على شيء من شريعة الله كفر بالله، وأن إقرار أي تشريع يضاد حكم الله إشراك بالله:

وأن الله لا يغفر أن يشرك به إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، وهذه المعاني من الثوابت العقدية التي لا مجال فيها لترخص أو تحمل، ولا تدور في فلك التقديرات

(١) فتح الباري: ١٢/ ٣٢٣.
(٢) المرجع السابق: ١٢/ ٣٢٥.

السياسية، التي تقوم على أساس الموازنة بين المصالح والمفاسد؛ إذ لا مفسدة أعظم من الكفر، ولا مصلحة أعظم من دفعه.

أن يدرك أن معقد الولاء والبراء هو الإسلام لا غير:

وأن عقد الولاء على ما دون ذلك ضلالة توشك أن تكون ردة عن الدين، ولما كانت قضية الإسلام في هذه المواقع تتمثل في تحكيم الشريعة وإعلان سيادتها وإبطال ما يعارضها، فإن هذه القضية يجب أن تكون معقد ولائه وبرائه، فعلى أساسها يوالي ويعادي، وفيها يحب ويبغض، ويحمد ويذم، ويقر ويبعد، فتمتزج بذلك بروحه وتختلط بلحمه ودمه، كما قال ابن عباس ﷺ: من أحب في الله وأبغض في الله، ووالى في الله وعادى في الله.. فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا[1].

وإذا عقد قلبه على ذلك صار بمنأى عن ألاعيب المبطلين وخصوم الشريعة، ممن يحاولون استدراج حملة الشريعة وأنصارها في هذه المواقع إلى تحالفات ومهادنات يفقدون بها تميزهم، ويشوشون بها على قضيتهم، ويجرون بعدها إلى تنازلات وترخصات مخزية، وقد ينتقل بها بعضهم إلى صفوف الخصوم بصورة نهائية!

لقد رأينا في بعض البلاد الإسلامية كيف يجتمع علماء الإسلام والدعاة إلى تطبيق الشريعة وإعلاء سيادتها، ثم لا يلبث هذا التجمع أن يُخترق من قبل الخصوم بعد أن يُلَوَّحَ لهم بوعد أو بوعيد، ويتعرض بعضهم لترغيب أو ترهيب، ثم ينفرط هذا العقد،

(١) حلية الأولياء، لأبي نعيم: ١/ ٣١٢.

أو على الأقل يتخلى عنه من لا تتم الشوكة وتتحقق الأغلبية إلا بـه؛ فـيجهض المشروع ويتفرق رجاله!!

ولو فـقه هـؤلاء أن قضـيتهم لا تتعلـق بالكمـالات ولا بالمسـتحبات، بـل ولا بالواجبات والفرائض الفروعية، بل تتعلق بأصل ديـن الإسـلام الـذي لا يثبـت عقـد الإسلام إلا باستيفائه، والذي ينخرم الدين كله بالمساومة فيه والـتخلي عنـه- لثبتـوا في مواقع الحراسة لدين الله، ولما استخفهم وعد ولا وعيد، ولا خـذلوا ديـنهم وأمـتهم في لحظات تتشكل فيها مصائر الأمم، وتتقرر فيها هوية الشعوب!!

ولو فقه هؤلاء أن الولاء والـبراء لا ينعقـد في الإسـلام إلا عـلى أسـاس الكتـاب والسنة، وأن من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فقد خلع ربقـة الإسـلام عـن عنقـه، وأن موالاة المبطلين من دون المؤمنين خيانة لله ورسوله والمؤمنين، وأن مـن فعـل ذلـك فليس من الله في شيء، ولو عقلوا ذلك وهو من الأوليات المعلومـة مـن ديـن الإسـلام بالضرورة- لما تأرجحت مـواقفهم وتذبـذبت ولاءاتهـم، ولمـا بـاتوا في مهـب الريـاح السياسية تقلبهم هذه الرياح كيف تشاء، فينتقلون بها من طرف إلى طرف يبلـغ الفـارق بينهما مبلغ الفارق بين الإِسلام والكفر!!

ونحن لا ننكر أن بعض هذه التحالفات قد تمس الحاجة إليها في بعـض الأحيـان؛ لجلب مصلحة أو لدفع مفسدة، ولكن يجب أن ندرك أنه لا مفسدة أعظـم مـن الكفـر، ولا مصلحة أعظم من المحافظة على أصل الإيمان، وقد سبق أن تحكيم الشريعـة أصـل الدين، وأن الامتناع عن ذلك ردة عن الإسلام، فلا يجوز أن تمس هذه التحالفات أو أن تقترب من المساس بهذا الأصل، فكل تحالف عـلى حسـاب التنـازل عـن الشريعـة، أو

خيانة أمانتها، أو مخاصمة دعاتها وحملتها وخذلانهم في مسيرتهم- مما ينخرم به عقد الإسلام أو يكاد؛ فالحذر الحذر! والنجاة النجاة! وكل امرئ حسيب نفسه!!

أن شرعية وجود المسلم ابتداءً ودوامًا في هذه المواقع، ترتبط بقيامه بهذه الرسالة:

دعوة إليها، وانتصارًا لها، وموالاة لأهلها وجهادًا في سبيلها، وتعرية لخصومها، وأنه يوم أن توصد أمامه الأبواب وتنقطع به السبل، ولا يجد إلا شحًّا مطاعًا وقلوبًا موصدة، وهوىً متبعًا، ودنيا مُؤْثَرَةً، وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه، فقد حق عليه اعتزال هذه المواقع؛ ليستبرئ لدينه وعرضه، وليقيم بانسحابه منها الحجة على المرتابين والذين في قلوبهم مرض، وليُسْمِع الدنيا كلها أن هذه المجالس قد خانت أمانة الله، وخانت أمانة الأمة، وأنها بذلك قد فقدت شرعية انعقادها، وأن على الأمة أن تمارس حقها في النقض كما مارست من قبل حقها في الإبرام؛ حتى تعود الأمور إلى نصابها، وبهذا يتمحض وجوده في هذه المواقع لله ورسوله لا غير.

لابدَّ أن يدرك أنه بدون قيامه بهذه الرسالة، ولو في أدنى درجة من درجاتها، يصبح وجوده في هذه المجالس مشاركة لأصحابها في إثم التشريع بغير سلطان من الله، وادعاء الربوبية على الناس من دون الله، ويتحمل من الإثم والكفر مثل ما يحملون، فضلًا عن خيانته لدينه ودعوته وأمته!

عدم حصر العمل الإسلامي في هذا المسار:

لا يخفى أن العمل الإسلامي عمل متعدد الجبهات ومترامي الأطراف، وأن الحاجة إلى تجديد العمل الإسلامي في مختلف القطاعات وعلى شتى المحاور حاجة ماسة، وأن

حجم الجهود التي يجب أن تبذل لإحياء هذه الأمة بالإسلام، أكبر من أن ينهض بها تجمع من هذه التجمعات بمعزل عن بقية المسلمين، فضلًا عن بقية إخوانه من الصادقين المجاهدين، وعلى هذا فليحذر الذين ينتصبون للقيام بهذا العمل أن يحصروا الجهاد لإقامة الإسلام في هذا الخندق، وأن يبطلوا بقية الأعمال التي تنتصب لأدائها التجمعات الإسلامية الأخرى، فإن هذا أول الفشل وبداية التهارج والاعتلال!

إن من غياب الرشد، والحرمان من التوفيق، أن يحصر القائمون على هذا العمل أبواب السعي لإقامة الإسلام في هذا الباب، وأن يسري هذا الشعور من خلالهم إلى عوام منتسبيهم، فيقع من بطر الحق وغمط الناس، والتحامل على بقية الاتجاهات وتسفيه أعمالها، ما يفسد القلوب وتتمزق به الصفوف.

ولا أدري كيف يتسنى لمن انتصبوا لنصرة الإسلام من خلال هذه المجالس، ووطنوا أنفسهم على التعامل مع الاتجاهات السياسية المختلفة؛ على مقتها للإسلام وعداوتها لدعاته- كيف لا يتسنى لهم أن يمدوا جسور التواصل مع إخوانهم من حملة الشريعة من الفصائل الأخرى؛ على حبهم للإسلام وانتصابهم لإقامته، ويتبادلوا معهم التسديد والتناصح في إطار من التنسيق والتكامل، والالتزام بجماعة المسلمين بمفهومها العام والشامل؟!

ولعل من آكد أسباب رفض بقية فصائل العمل الإسلامي لهذا الأسلوب، ما قد يُلمس من بعض القائمين عليه من إهدار الجهود التي تبذلها هذه الفصائل على بقية المحاور، وتصويرها على أنها مضيعة للأعمار، أو عبث من صبية صغار، وأنها تشوش على الدعوة، وتعوق التيار الأصيل في العمل الإسلامي عن أداء رسالته، وتمثل خروجًا

على الإطار الأسبق للشرعية، فيرد عليهم الآخرون بهجوم مضاد فيسقطون شرعية هذا الدور ابتداء، وينسبون أصحابه إلى التخاذل وترك الجهاد ومهادنة الطواغيت، إلى غير ذلك من التهم والمناكر، والأصل في ذلك هو البغي الذي فرق صفوف أهل الكتاب من قبل، واتبعتهم هذه الأمة في ذلك حذو القذة بالقذة!

ولهذا كان لابد من التأكيد على أن التعدد القائم في ساحة العمل الإسلامي ينبغي أن يكون تعدد تنوع وتخصص، وأن عمل فصيل منه في مجال من المجالات لا يلغي عمل الفصائل الأخرى في بقية المجالات، وأن كل هذه الفصائل يجب أن تعمل في تكامل وتعاضد، وأن تتبادل فيما بينها التسديد والتناصح، وأن الله قد قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فهذا فُتح عليه في الجهاد، وهذا فُتح عليه في طلب العلم وتعليمه للناس، وهذا فُتح عليه أمر التربية، وهذا فُتح عليه في أمر البحث العلمي والدفاع بقلمه عن الإسلام، وهذا في باب العمل السياسي ومقارعة المبطلين من الحكام؛ أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، وإحقاقًا للحق وإبطالًا للباطل... وهكذا، ويجب أن يقنع كلٌّ بما قسم الله له، وأن يثني على الآخر بخير ما يعلم، وأن ينصحه سرًّا بما يرى ضرورة لأن ينصحه فيه، وأن يسود بين العاملين للإسلام من التراحم والتغافر والتناصر وإقالة العثرات؛ ما يكونون معها أهلًا لنصر الله وتوفيقه.

القصد في التثريب على بقية الفصائل العاملة للإسلام:

لا يخفى أن العمل السياسي ليس موضع قبول من فصائل العمل الإسلامي كافة، فمن فصائل العمل الإسلامي من يدينه ويعتبره تلاعبًا بالدين، بل منهم من يجعله ماسًّا بأصل الدين وناقضًا لعقد الإسلام، ويغلب ذلك على التيارات الجهادية والتيارات

السلفية، وكل من قطع في قضية الحكم بغير ما أنـزل الله وجزم بأنها مـن جـنس الكفـر الأكبر بصفة عامة.

والجاهلية حريصة على اختراق العمل الإسلامي، وتقسيمه إلى تيـار متشـدد تبـدأ بقمعه والتنكيل به، وآخر معتدل تؤجل ذلك معه إلى حين، ومعيار التطرف والاعتدال هو القبول بلعبة الديموقراطية، والاشتراك في العمل السياسي، والتعبير عن الرأي مـن خلال القنوات الشرعية، أو عدم القبول بذلك.

ولهذا؛ فإن المشتغلين في هذا المجـال مـدعوون إلى توثيـق الصـلة مـع الفصـائل العاملـة للإسلام كافة، والتلطف في بذل النصيحة لهم حول ما يقومـون بـه مـن أعمالهـم الدعويـة أو الجهادية، بعيدا عن التجريح والبغي والاستطالة، وسبيلهم إلى توطين هذا الحس ما يلي:

- التأكيد على أن العمل السياسي هو أحد المجالات التي تمارس مـن خلالهـا الحركـة الإسلامية دعوتها الشاملة للإصـلاح والتجديـد، وأن العمـل لـنصرة الإسـلام لا ينحصر في هذا الإطار، وأنها إن كانت قد رابطت على هذا الثغر، فإن بقية الفصائل العاملة للإسلام مدعوة للمرابطة على بقية الثغور.

- القصد في إدانة الفصائل الأخرى العاملـة للإسـلام إدانـة علنيـة، تحـت شـعار الغلـو والتطرف، ولا يقصد بهـذا كـتمان الحـق أو تسـويغ مـا لم يشرعـه الله ورسـوله، وإنـما المقصود أن لا نتيح للكيانات العلمانية توظيف هذه الإدانات للتشـنيع عـلى فريـق مـن المسلمين وإحكام حبال المشانق حول أعناقهم بمثل هذه الإدانـات، ثـم يـزدادون بهـا استطالة على الأمة، وتعطيلًا لشريعتها، وتشويهًا لدعوتها، وتنكيلًا برجالها!

أرأيت لو أن رجلًا شنع على المجاهدين الأفغان ببعض تصرفاتهم من إذاعـة كـابول أو من جوار الكرملين، ثم وظفت أجهزة الإعلام الدولية المعادية هذه الإدانة، تُـرى هـل يُتلقى مثل هذا التشنيع بالقبول من الأمة عامةً أو من المجاهدين خاصـةً مهـما حسـنت نية صاحبه، أو نُظمت القصائد في مديحه وبيان نقاء سريرته؟

- وإذا اقتضت أمانة البلاغ التثريب عـلى بعـض هـذه الأعـمال فينبغـي أن يكـون ذلـك بالقسط والحق، فبالقسط قامت السـماوات والأرض، وأن يتحـدث عـن الفعـل ورد الفعل، ويتحدث عن البغي من كلا الجانبين، بل تكون البـداءة بالحـديث عـن البغـي العلماني أو الاجتياح الاستعماري، والذي كان من نتائجه الطبيعية هذه الأعـمال، التـي تجاوزت القصد، والتي تمثل رد فعل متوقع لما تمارسه العلمانية مـن تطـرف في معاداتهـا للإسلام، وغلو في رفضها لتحكيم شريعته، وأنه لا سبيل إلى حسـم هـذه التـداعيات، وسد الذريعة إلى التطرف من الفريقين إلا بتحكيم الشريعة وإقامة كتاب الله في الأمـة، فيردع الغلاة والجفاة.

وإن الجاهلية لأحرص ما تكون على استنطاق الإسـلاميين في هـذه المجـالس، لإدانـة الأعمال التي تقوم بها الفصائل الأخـرى؛ تحـت شـعار نبـذ الإرهـاب ومحاربـة التطـرف، وسوف تمارس من الضغوط في ذلك ما لا يقوى على لأوائه إلا الصـابرون، وقـد تـتهمهم بالتواطؤ مع المتورطين في هذه الأعمال، إن لم يصدر عنهم إدانة صريحة لها وبراءة ظاهرة من أصحابها، وهي بذلك تحقق أهدافها بكل دقة، فتشقق التيار الإسلامي وتؤجج الفـتن بـين فصائله من ناحية، وتنكل بهذه الاتجاهات الجهادية - على خلافنا معها - بكل شرعية مـن ناحية أخرى.

ومن هنا تأتي ضرورة الحرص البالغ والدقة المتناهية فيما يصدر عن الإسلاميين في هذه المجالس، من تصريحات ومقولات تمس الآخرين، مع التأكيد على أن الأعمال الجهادية لا تتمتع بالشرعية من الناحية العملية إلا في المناطق التي فتحت فيها جبهات جهادية مع قوات غازية، وتعيَّن جهاد الدفع على أهل هذه المحلة، فهنا تتحقق المشروعية، وتبارك الأمة قاطبة مثل هذه الجهاد، ولا تضن عليه بنفس ولا مال.

المطلب الثاني

المتغيرات في هذه القضية

أما المتغيرات وموارد الاجتهاد في هذه القضية فهي متعددة، نذكر منها:

الدخول في هذا العمل ابتداءً:

لقد ذكـــرنا أن الأصـل في مناهـــج التغيـير أنهـا اجتهـادات بشر في إقامـة الـدين والانتصار له؛ ولهذا كانت مما يدور في فلك السياسة الشرعية، وتتقرر شرعيته في ضـوء الموازنة بين المصالح والمفاسد، وعلى هـذا فـإن اختيـار وسـيلة دون وسـيلة، أو تقـديم وسيلة على أخرى- من موارد الاجتهاد التي تختلـف فيهـا الفتـوى بـاختلاف الزمـان والمكان والأحوال والعوائد.

ومن هنا كان الدخول في هذا العمل ابتداءً، أو عـدم الـدخول فيـه حتـى تتهيـأ أسـبابه، ويرجى أن يحقق المسلمون من ورائه نجاحًا- من موارد الاجتهاد ومسائل السياسة الشرعيـة، فقد يُفْتَى به في بلد دون بلد، أو في زمن دون زمن، أو لفريق مـن النـاس دون فريـق، وتقـدير ذلك موكول إلى أهل الشـورى ليقـرروا في ذلـك مـن يحقـق المصـلحة أو يكملهـا، ويعطـل المفاسد أو يقللها، في إطار قاعدة الشريعة في الموازنة بين المصالح والمفاسد.

الاستمرار في هذا العمل أو تجميده:

فكما يخضع الدخول في هذا العمل ابتداءً للموازنة بين المصالح والمفاسد، في ضـوء ظروف الزمان والمكان، ومدى تهيؤ الظروف لأن يحقق هذا العمل هدفه ويؤتي أكلـه-

فإن القرار في استدامته كذلك يخضع لنفس المعيار، وذلك أن البقاء في هذا العمل رهن بمدى النجاح المتحقق أو المتوقع في إصابة أهدافه، أو اليأس من ذلك، ولا شك أن هذا من مجاري الاجتهاد التي يتفاوت الناس في تقديرها، بل قد يختلف فيها اجتهاد الشخص الواحد من وقت إلى وقت، وقد حملت لنا الصحف فتوى الدكتور عمر عبد الرحمن، بالإشادة بهذا العمل والقائمين عليه ودعوة الناس إلى دعمه[1]، ثم حملت إلينا بعد ذلك يأسه من الإصلاح من خلال هذا المسار ورجوعه عن قوله الأول[2]؛ولذلك كانت هذه المسألة من موارد الاجتهاد التي تُفوض إلى أهل الشورى، ولا ينبغي أن يشنع فيها على المخالف.

وإن كنا ننصح القائمين على هذا العمل بإعداد استبيانات دقيقة، توزع على أعضائهم في هذه المواقع، وعلى غيرهم من ذوي الرأي في محيط الحركة الإسلامية؛ ليتسنى تقويم الأداء الإسلامي في هذا المجال تقويمًا دقيقًا؛ حتى يكون قرار الاستمرار أو الانقطاع مبنيًّا على دراسات علمية جادة، وموازنات فقهية صحيحة.

ترتيب الأولويات فيما يجب التصدي له في هذه المجالس:

فالأعمال التي تناط بالعمل الإسلامي في هذه المواقع كثيرة ومتعددة؛ منها نقل قضية تحكيم الشريعة إلى بقية الأحزاب حتى تمثل مطلبًا جماهيريًّا عامًّا، وليس مطلبًا حزبيًّا يتبناه فريق من الأمة دون فريق، ومنها المطالبة بتحكيم الشريعة وتقديم البرامج والمشروعات اللازمة لذلك، ومنها القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

(١) مجلة المختار، عدد: ٥١، سنة ١٩٨٧م.

(٢) مجلة المجتمع، الصادرة بتاريخ ٢٣/ ٥/ ١٩٨٩م.

وكشف الذين يعبثون بمصائر الأمة ويتخوضون في أموالها بغير حريجة دينية، ومنها الدعوة إلى إشاعة جوٍّ من الحرية، يتيح الفرصة لدعاتها في التبليغ وإقامة الحجة بعيدًا عن الإرهاب والقمع، ومنها تبني قضية الأسرى والمعتقلين من أبناء الحركة الإسلامية في سجون الطواغيت، وكشف جرائم التعذيب التي تقع عليهم، والمطالبة بحقوقهم.

ولا شك أن ترتيب هذه الأعمال على سلم الأولويات يعد من موارد الاجتهاد ومسائل السياسة الشرعية؛ لأن الأمر لا يتوقف على مدى أهميتها في ذاتها من الناحية الشرعية فحسب، بل أيضًا على مدى النجاح المتوقع لدى إثارتها من ناحية أخرى، فإن السياسة كما ذكر بعض الساسة كالفلاحة! لكل محصول أوان زراعة وأوان حصاد، والخلل في هذا التوقيت تقديمًا أو تأخيرًا مفسدة بلا نزاع؛ لهذا كان ترتيب الأمر في ذلك تقديمًا أو تأخيرًا من مسائل السياسة الشرعية التي تخول للقائمين على هذا العمل، ويجب عليهم أن يسترشدوا بآراء ذوي الخبرة من أهل الحل والعقد على مستوى العمل الإسلامي عامة؛ فإن ذلك أرجى للإصابة وأبعد عن الزلل.

المبحث الثاني

الثوابت والمتغيرات في العمل الجهادي

الجهاد ذروة سنام الإسلام، والعمل الجهادي هو نهاية المطاف بالنسبة لجميع الجهود الرامية إلى نصرة الإسلام وتحكيم الشريعة، فإن خصوم الإسلام من غير المسلمين لن يتنازلوا عن مواقعهم إلا إذا حُملوا حملاً، ولن يفسحوا المجال طواعية لفريق من الإسلاميين أن يتبؤوا مكانة حقيقة تمكنهم من التأثير والتوجيه؛ لأن العداء بين الفريقين عميق، والتناقض جِذري، ولا يقوم أحدهما إلا على أنقاض الآخر.

وإنه مهما قيل في تحقيق العمل السياسي لبعض المصالح، أو دفعه لبعض المفاسد، أو منعه لمزيد من الانهيارات- فإن الدولة الإسلامية المنشودة لها طريق آخر، دونه رزيئة الأنفس والأموال، ولغته صهيل الخيول وقعقعة السيوف! شعاره: يا خيل الله اركبي، وغايته إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة!!

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[1].

وإذا كان للعمل الجهادي هذه المنزلة بين مناهج التغيير المطروحة على صعيد العمل الإسلامي، فإن السعي في ترشيده وتسديده، والفصل بين الثوابت التي لا يجوز له الترخص في شيء منها في غمرة المواجهات والتحديات، وبين المتغيرات وموارد الاجتهاد التي ينبغي أن تفوض إلى القائمين عليه، في إطار من الالتزام بقواعد الشرع

(١) الصف: ١٠-١١.

الكلية ومقاصده العامة- يصبح أمرًا في غاية الضرورة والأهمية، نصحًا للقائمين عليه، وضنًّا بهم - وهم أهل التضحية والصدق - أن يُغَرِّروا بأرواحهم فيما لا طائل تحته، أو تتحول أعمالهم إلى مجرد هبَّات غاضبة، وردود أفعال عفوية لا تزيدهم من الهدف إلا بعدًا، ولا تضيف إلى رصيدهم في حسِّ الأمة إلا مزيدًا من النفور واللبس، بل والعداء والكراهية في كثير من الأحيان.

استدراك واجب:

وقبل أن نشرع في تفصيل القول في هذه القضية أود التنبيه إلى أن ما يرد في هذا الفصل من قواعد وضوابط لا علاقة له بتلك الأعمال الفجة التي تقع داخل ديار الإسلام من التفجيرات والاغتيالات ونحوها، والتي يذهب ضحيتها الأبرياء من العامة وأشباه العامة، والتي تدفع بالعمل الإسلامي ورجالاته إلى المحارق، وتترك في نفوس الأمة آثارًا أسيفة موجعة قَلَّ أن تمحوها الأيام والليالي! فضلًا عن تضمن هذه الأعمال في ذاتها من المخالفات الفقهية والمنهجية ما يسخط الله ﷻ، ويستوجب عذابه ومقته.

وإنما مناط الحديث عن هذه القواعد وتطبيقها هو هذه المناطق التي تمايز فيه الفريقان، وافترق فيها الصفان، واكتسب العمل الجهادي فيها شرعية عامة يقرها علماء الأمة وأهل الحل والعقد فيها، ومن أظهر الأمثلة على ذلك ما جرى على أرض أفغانستان من الجهاد الذي قبلت به الأمة قاطبةً علماءَ وعامةً، جهاتٍ رسميةً ومؤسساتٍ شعبيةً، ودفعت إليه الأمة بفلذات أكبادها، ورصدت له نفائس أموالها، وقد كان على رأس هؤلاء علماء بلاد الحرمين، وأمراؤها، فقد أفتى علماء هذه البلاد بمشروعية هذا الجهاد وباركوا خطواته، وأفتوا بمشروعية دفع الزكاة إليه، وتجاوب أمراؤها مع علمائها، حتى كانت الخطوط

الجوية الوطنية في هذه البلاد تمنح للمسافرين إلى مواقعه تخفيضًا كبيرًا في تذاكر السفر تشجيعًا للنفير العام إلى هذا الجهاد، ومباركةً للمشتغلين به، فإلى هذه المواقع وأمثالها على أرض فلسطين وكشمير، وما فتح فيما بعد من جبهات على أرض العراق، وعلى أرض سراييفو، وفي الشيشان ونحوها تنصرف هذه الكلمات، وتفهم هذه العبارات!

إن هذا المبحث في هذه الدراسة يؤكد قبل أن نشرع في عرض محتوياته – كما أكدت سائر أعمال صاحب هذه الدراسة من قبل – أن أعمال الجهاد لا تنفرد بالقرار فيها مجموعات مغامرة، تقامر بحاضر الامة ومستقبلها هنا أو هناك، فتجر الأمة وراءها إلى محرقة لا تؤمن عواقبها! إن الجهاد من الأمور العظام التي تفوض إلى الإمام، فإن لم يوجد فإلى علماء الأمة الكبار وأهل الحل والعقد فيها، حتى لا تجر الأمة إلى المحرقة بفعل فئة قليلة من أغمارها وسفهائها مهما قيل عن إخلاصهم ونقاء سرائرهم !

وفيما يلي محاولة للفصل بين الثوابت والمتغيرات في هذه القضية، وذلك في المطلبين الآتيين:

المطلب الأول

الثوابت في هذه القضية

مشروعية قتال من امتنع عن الالتزام بشرائع الإسلام:

فقد اتفق السلف والأئمة على مشروعية قتال من امتنع عن التزام الأحكام الواجبة والعمل بها، حتى يفيء إلى الحق ويراجع أمر الله، وقد انعقد إجماع الصحابة على قتال مانعي الزكاة، على الخلاف في كونهم أهل بغي أو أهل ردة، وعنون البخاري في صحيحه فقال: «باب قتال من أبى قبول الفرائض وما نسبوا إلى الردة»[1]، وقد شرح ذلك الحافظ في الفتح فقال: «أي: جواز قتال من امتنع من التزام الأحكام الواجبة والعمل بها»[2].

وقال مالك في الموطأ: «الأمر عندنا فيمن منع فريضة من فرائض الله تعالى، فلم يستطع المسلمون أخذها منه، كان حقًّا عليهم جهاده»[3].

وقال البدر العيني: «وأجمع العلماء على أن من نصب الحرب في منع فريضة، أو منع ما يجب عليه لآدمي- وجب قتاله، فإن أبى القتل على نفسه فدمُه مهدر»[4].

(١) فتح الباري: ١٢/ ٢٧٥.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق: ١٢/ ٢٧٦.

(٤) عمدة القاري، للبدر العيني: ٢٤/ ٨١.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة، فإنه يجب قتالها باتفاق أئمة المسلمين؛ وإن تكلمت بالشهادتين، فإذا أقروا بالشهادتين وامتنعوا عن الصلوات الخمس وجب قتالهم حتى يصلوا، وإن امتنعوا عن الزكاة وجب قتالهم حتى يؤدوا الزكاة، وكذلك إن امتنعوا عن صيام شهر رمضان أو حج البيت العتيق، وكذلك إن امتنعوا عن تحريم الفواحش، أو الزنا، أو الميسر، أو الخمر، أو غير ذلك من المحرمات الشرعية، وكذلك إن امتنعوا عن الحكم في الدماء والأموال والأعراض والأبضاع ونحوها، بحكم الكتاب والسنة، وكذلك إن امتنعوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الكفار، إلى أن يسلموا أو يؤدوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وكذلك إن أظهروا البدع المخالفة للكتاب والسنة واتباع سلف الأمة وأئمتها؛ مثل أن يلحدوا في أسماء الله وآياته، أو التكذيب بأسماء الله وصفاته، أو التكذيب بقدره وقضائه، أو التكذيب بما كان عليه جماعة المسلمين على عهد الخلفاء الراشدين، أو الطعن في السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، أو مقاتلة المسلمين حتى يدخلوا في طاعتهم التي توجب الخروج عن شريعة الإسلام، وأمثال هذه الأمور، قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[1]. فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله، وجب القتال حتى يكون الدين كله لله»[2].

(١) الأنفال: ٣٩.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٥١٠، ٥١١.

ارتباط مشروعية القتال بالضوابط الآتية:

أولاً: استيفاء الشرعية:

فالأصل في هذا العمل هو إراقة الدماء، وإراقة الدماء أمر عظيم، فالإنسان بنيان الرب ملعون من هدمه! والقائمون بهذا العمل - وإن كانوا يواجهون قوات غازية - يتحركون في أوساط لا تزال تنتسب إلى الإسلام، فيجب التحقق من أن الخصم قد جاء بما يهدر دمه، وأنه لم تداخله في ذلك شبهة، ولم يَغْشَ إرادته عارض من جهل أو تأويل أو إكراه، على تفصيل يطلب من مظانِّه في كتب الفروع.

فالشرعية المقصودة في هذا المقام هي موافقة الشرع، وهي بذلك تختلف عن نوع آخر من الشرعية وهي القبول العام من الأمة، وسوف نتحدث عنها -بإذن الله تعالى- بعد قليل.

ومن الشرعية التي يجب استيفاؤها في هذا المقام: عدم الإضرار بالأمة، فالمعركة مع العلمانية الغازية التي تجتال الناس عن دينهم، وتحمل الأمة على التحاكم في الدماء والأموال والأعراض إلى غير ما أنـزل الله، وتسعى إلى تركيع قيادات الأمة لكي تصرفها عن الشريعة وتحكيمها، والدين وإقامته، وليست مع الأمة التي لا تزال في الجملة على الإسلام، ويقع على كثير منها من المظالم من جنس ما يقع على العمل الإسلامي، وتتطلع ليوم الخلاص!

ولهذا، فلابد من التفريق في هذه الأعمال بين الكيانات الغازية وبين الأمة، وحصر دائرة الصراع مع هذه الكيانات الغازية فحسب، والحذر كل الحذر من أن تمتد دائرة الصراع لتشمل فريقًا من الأمة، أو أن يفضي إلى المساس بمصالح وطنية بحتة تمسُّ أقوات الناس وأرزاقهم ومرافقهم الحيوية، فإن هذا - فضلًا عن حرمته شرعًا في ذاته؛

لمساسه بمرافق عامة هي ملك للأمة، وتعتبر أموالًا معصومة - يهيج العامة ضد العمل الإسلامي، ويعطي الأبواق العلمانية الفرصة لاستنفارهم ضد الحركة الإسلامية، التي تكون في هذه الحالة في مقام التخريب والعدوان للمصالح الوطنية.

ثانيًا: سلامة الراية:

فلا يجوز للمسلم أن يقاتل تحت راية عَمِيَّة، يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبية، فإن فعل ذلك فمات؛ فميتته جاهلية، وعلى هذا فإن كل الحروب التي تعلن باسم القوميات، ويتداعى أصحابها إليها بدعوى الجاهلية، فهي حروب جاهلية، وللمسلم منها موقف ثابت هو البراءة والاعتزال، قال ﷺ: «**من قتل تحت راية عَمِيَّة؛ ينصر العصبية ويغضب للعصبية، فقتلته جاهلية**»[1].

أما من أكره على شيء من ذلك ففيه تفصيل:

فإن كان القتال موجهًا ضد فريق من المسلمين، فلا يسعه أن يقاتل مسلمًا بحال من الأحوال، وقد انعقد إجماع أهل العلم على أن الإكراه لا يحل قتل المسلم بحال من الأحوال، وأنه ليس لأحد أن يدفع القتل عن نفسه بقتل غيره في باب الإكراه؛ إذ ليست عصمة نفسه بأولى من عصمة نفس أخيه، وقد سبق تفصيل القول في ذلك وبيان أنه من الثوابت.

أما إن كان القتال موجهًا ضد فريق من الكافرين يريدون استباحة بيضة الإسلام والمسلمين، فلا يسعه إلا أن يستحضر نية الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، ويرجى أن تسعه بهذه النية رحمة الله؛ فإن هلك فلا يسعنا نحن إلا أن نقول: يهلكون مهلكًا

(١) صحيح الجامع الصغير: ٦٤٤٢.

واحدًا، ويصدرون مصادر شتى، ويبعثون يوم القيامة على نياتهم، وقد تمهد في قواعد الشريعة أنه يقاتل مع الكافر من هوأشد منه كفرًا، ومع المبتدع من هو أشد منه ابتداعًا!

ثالثًا: غلبة المصلحة:

فالأعمال الجهادية في الإسلام ليست أعمالًا انتحارية بحتة، وإنما يجب أن تحقق مصلحة، وأن تفضي إلى غاية، وألا تقابل بمفسدة راجحة.

والمصلحة المستهدفة من الجهاد هي مصلحة إظهار الدين، وكف بأس الكافرين، والدفع عن المستضعفين من المسلمين، قال تعالى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[1]، وقال ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله**» (متفق عليه).

وعناصر تحقق المصلحة متعددة؛ منها توقع الظفر، ومنها تأمين الذراري والضعفاء؛ حتى لا يبطش بهم الخصوم نكاية في المجاهدين، ومنها توقع القبول العام من الأمة لهذا العمل؛ حتى لا يستغله الخصوم في تشويه العمل الإسلامي ودمغه بالإرهاب والتطرف، ومنها سلامة التوقيت زمانًا ومكانًا؛ حتى يؤدَّى العمل بأقل قدر ممكن من الخسائر المتوقعة، ومنها مدى القدرة على توظيف هذا الحدث في خدمة العمل الإسلامي، والتعريف بقضيته، واكتساب الأنصار الجدد.

ويجب أن يتم هذا كله وفق حسابات دقيقة، يقوم بها فريق من الخبراء ممن تجاوزا مرحلة الاندفاع التلقائي والحركات الرعناء، مع فريق من أهل الفقه والأصول ممن تمرسوا في فقه الموازنة بين المصالح والمفاسد، وجمعوا بين الدراية بالشرع والمعرفة بالواقع؛ وذلك

(١) النساء: ٨٤.

حتى يقدم العمل الإسلامي في هذا المجال أداءً متميزًا، ويصلح بذاته أن يكون مادة للدعوة إلى الإسلام وإلى الجهاد.

ولا يخفى أن تحقيق المناط في قضية غلبة المصلحة من موارد الاجتهاد، ولكن المقصود هنا أن نبين أن أصل اعتبار غلبة المصلحة من الثوابت في هذا الباب، وأنه لا يجوز للعمل الجهادي أن يُقْدِمَ على عمل لمجرد أنه يريد أن يوجد لأتباعه مجالًا من مجالات الجهاد! أو لأنه قد أُحْرِجَ إمامهم لطول الترقب والانتظار! أو أن يُغفل حساب المصلحة تعلقًا بمعجزات تتنزل عليه من السماء! وتأولًا فاسدًا لما ورد من النصوص في باب التوكل على الله!

وجماع القول في ذلك؛ أن العمل الإسلامي عندما يكون في مقام اتخاذ الأسباب وحساب النتائج المتوقعة، يجب أن يكون في أدائه لهذا العمل بشرًا من البشر، يزن بموازين البشر، ويتعامل في حدود السنة المعهودة في حياة البشر، ولا ينبغي له أن يقدم على عمل من الأعمال يحتوي على عدد من الثغرات وجوانب الضعف، تعلقًا بمعجزات تتنزل عليه من السماء، فهو يتعامل مع السنن والأسباب وكأن السنن والأسباب هي كل شيء.

وعندما يكون في مقام التوكل على الله، والتماس النصر من عنده، يجب أن تنمحي من حسه هذه الأسباب، وأن يطرق باب ربه بكامل الشعور بالعجز والإفلاس والافتقار، وكأنه لم يأت من الأسباب بشيء، وبهذا يجمع بين عبودية السعي وعبودية التوكل، ولا يعطل إحداهما لحساب الأخرى.

رابعًا: الولاية:

وذلك فيما يتعلق بأعمال المواجهة العامة؛ وذلك لأن الأصل في الجهاد أنه من المسائل العظام، التي تناط في الأصل بنظر الإمام؛ لتعلقه بالمصالح العامة للأمة، يقول ابن قدامة -رحمه الله-: «وأمر الجهاد موكول إلى الإمام واجتهاده، ويلزم الرعية طاعته فيما يراه من ذلك»[1].

فإن عدم الإمام، وشغر الزمان عن سلطان شرعي، فالأمور موكولة إلى أهل الحل والعقد، والذين تتمثل فيهم إرادة الأمة، ويعبر رضاهم واختيارهم عن رضا الأمة واختيارها، أو رضا جمهورها وأهل الشوكة فيها على الأقل، وهؤلاء هم الجماعة في أحد معنييها، ويعتبر لزومهم لزومًا للجماعة، ولا يكون الإمام إمامًا إلا برضاهم به وتنصيبهم له، وإلى هؤلاء يُرْجَعُ في المهمات والمصالح العامة التي كانت منوطة في الأصل بنظر الإمام.

فإذا تعلق الأمر بمواجهة واستنفار عامٍّ ضد كيانات غازية، وانعدمت الرايةالشرعية التي تقرر للأمة وتقود جهادها فيجب أن يكون الأمر في ذلك إلى أهل الحل والعقد، وهم كل متبوع مطاع في ساحة العمل الإسلامي، ممن يفزع إليهم في المهمات والمصالح العامة، وهؤلاء يتمثلون في الواقع في قادة فصائل العمل الإسلامي، وفي غيرهم من أهل العلم وأهل القدرة ممن لهم قبول عام في الأمة، ولا يزالون على ولائهم للإسلام وانتسابهم إلى الشريعة، وإيمانهم بضرورة العمل لدفع الصائل ودرء الحرابة وإقامة الدولة الإسلامية.

---

(١) المغني: ١٠/ ٣٦٨.

المطلب الثاني
المتغيرات في هذه القضية

أما المتغيرات ومحال الاجتهاد المتعلقة بهذا العمل فهي كثيرة، نذكر منها:

ترتيب أولويات المواجهة:

فالعمل الإسلامي يواجه خصومة من جهات متعددة؛ منها خصومته مع الكيانات الغازية من الخارج، وخصومته مع العلمانيين من المنافقين والزنادقة والذين في قلوبهم مرض، وخصومته مع اليهود والصليبيين والذين أشركوا، وهو لا يستطيع - بطبيعة الحال - أن يتعامل مع كل هذه الجهات المتعددة في آن واحد، ومن هنا فإن الحكمة تقتضي أن يُرتب هؤلاء الخصوم على سلم الأولويات، وأن يبدأ بمن كان أكثر نكاية في خصومته للإسلام، وبمن يغلب على ظنه أن المواجهة معه مقدورة ومجدية، ويحيِّد الآخرين إن استطاع أن يؤجل مواجهته معهم إلى حين، ولا شك أن تحقيق ذلك في الواقع من موارد الاجتهاد التي يجب أن تفوض إلى أهل الشورى، وليس للآحاد فيها إلا حق الاحتساب والنصيحة العامة.

مداراة بعض الاتجاهات البدعية:

قد تقتضي مصلحة العمل الإسلامي في مرحلة من المراحل، ألا يدخل في مناوشات جانبية مع بعض أهل البدع؛ تحييدًا لهم في هذه المعركة، أو تجييشًا لهم لنصرة الدعوة إلى تحكيم الشريعة، بدلًا من اختراقهم من قبل الخصوم، وتحولهم إلى معسكر العلمانيين وخصوم الشريعة، وإسقاطًا للشبهة التي يتذرع بها الطواغيت في بعض البلاد؛ حيث يقول

للدعاة إلى تحكيم الشريعة: أيُّ شريعـة تريـدون؟! اتفقـوا أنـتم أولًا عـلى شيء فـيما بيـنكم وائتونا به، ونحن ملتزمون بتطبيقه، فلسنا أقل منكم حماسًا للإسلام!!

وقد سبق أن التعامل مع أهل البدع يتفاوت في منهج أهل السنة والجماعة، مـن الهجـر والمجافاة إلى التأليف والمداراة؛ بحسب المصلحة أو المفسدة المترتبة على هذا أو ذاك.

ولا يخفى أن مفسدة البدع في الجملة دون مفسدة الكفـر والـردة، وأن العلمانيـة في حربها للإسلام لا تفرق بين سني وبدعي، إلا بقدر ما تظن في أهل البـدع مـن قـدرتها على اختراقهم وتحويلهم إلى صفوفها، وعلى هذا فإنه كلما كانت الراية لغير الإسـلام في بلد من البلاد، كانت المداراة أنفع من الهجر في التعامل مع المخالف من أهل البدع، ممن لا يزالون على أصل إقرارهم بالإسلام والتزامهم بتحكيم الشريعة، ولكن تحقيق المناط في ذلك في واقع معين هو الذي يحتاج إلى اجتهاد متجدد، ليبقـى الأمـر دائـمًا في نطـاق تحقيق أكمل المصلحتين ودفع أعظم المفسدتين.

والذي نود أن نخلص إليه؛ أن منهج التعامل مع أهل البدع، وما أثر عـن السـلف الصالح من التثريب عليهم بالهجر ونحوه- إنما يرتبط بالمصلحة ويـدور معهـا وجـودًا وعدمًا، فحيثما رجحت المصلحة في الهجر فذاك، وإلا تعين التـأليف والمـدارة، لا سـيَّما وأن العمل الإسلامي من أقصى بلاد العالم الإسلامي إلى أقصاها يعيش معركـة يوميـة متجددة مع خصوم الشريعة وأعداء الإسلام، وللاجتماع في حال الـدعوة والبنـاء فقـه وأحكام، وله في حال الجهاد واستنفار الأمة فقه وأحكام، والخلط بينهما هو الذي يفضي إلى الخلل والتهارج والاضطراب.

وقد سبق قول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا الهجر يختلف باختلاف الهاجرين في قوتهم وضعفهم، وقلتهم وكثرتهم، فإن المقصود به زجر المهجور وتأديبه، ورجوع العامة عن مثل حاله، فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة، بحيث يفضي هجره إلى ضعف الشر وخفيته- كان مشروعًا، وإن كان لا المهجور ولا غيره يرتدع بذلك الشر، والهاجر ضعيفًا، بحيث تكون مفسدة ذلك راجحة على مصلحته- لم يشرع الهجر، بل يكون التأليف لبعض الناس أنفع من الهجرة، والهجر لبعض الناس أنفع من التأليف؛ ولهذا كان النبي ﷺ يتألف قومًا ويهجر آخرين»[1].

ويقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين: «أما هجرهم فهذا يترتب على البدعة، فإذا كانت البدعة مكفرة وجب هجره، وإذا كانت دون ذلك فإننا نتوقف في هجره؛ إن كان في هجره مصلحة فعلناه، وإن لم يكن فيه مصلحة اجتنبناه، وذلك أن الأصل في المؤمن تحريم هجره؛ لقول النبي ﷺ: «**لا يحل لرجل مؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث**»؛ فكل مؤمن - وإن كان فاسقًا ن- فإنه يحرم هجره ما لم يكن في الهجر مصلحة، فإذا كان في الهجر مصلحة هجرناه؛ لأن الهجر حينئذ دواء، وأما إذا لم يكن فيه مصلحة، أو كان فيه زيادة في المعصية والعتو، فإن ما لا مصلحة فيه تركه هو المصلحة.

فإن قال قائل: يردُّ على ذلك أن النبي ﷺ هجر كعب بن مالك وصاحبيه، الذين تخلفوا عن غزوة تبوك؟ فالجواب: أن هذا حصل من النبي ﷺ وأمر الصحابة بهجرهم؛ لأن في هجرهم فائدة عظيمة؛ فقد ازدادوا تمسكًا بما هم عليه، حتى أن كعب بن مالك رضي الله عنه جاءه كتاب من مالك غسان، يقول فيه بأنه سمع أن صاحبك - يعني رسول الله ﷺ -

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٢٠٦، ٢٠٧.

قد جفاك، وإنك لست بدار هوان ولا مذلة، فالحقْ بنا نواسك! فقام كعب -مع ما هو عليه من الضيق والشدة- وأخذ الكتاب وذهب به وأحرقه في التنور!!

فهؤلاء حصل في هجرهم مصلحة عظيمة، ثم النتيجة التي لا يعادلها نتيجة أن الله أنزل فيهم قرآنًا يتلى إلي يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1] [2].

التحالفات المرحلية مع بعض الاتجاهات العلمانية المسالمة:

الأصل هو قطع الموالاة والمودة مع كل من لا يقبلون بسيادة الشريعة، والالتزام المطلق بأحكامها جملة وعلى الغيب، وأنه لا يحل من ذلك خلا القدر الذي يحقق تأليفهم في مرحة الدعوة والبلاغ، أما ما وراء ذلك فقد قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3].

(١) التوبة: ١١٧-١١٨.

(٢) المجموع الثمين من فتاوى محمد بن صالح العثيمين: ١/ ٣١، ٣٢.

(٣) المجادلة: ٢٢.

ولكن المصلحة قد تقتضي في مرحلة الإصلاحات الجزئية التنسيق المرحلي مع بعض الاتجاهات العلمانية المعتدلة؛ لإمضاء أمر هو محل قبول من الناس كافة، فقد يعوز العمل الإسلامي في بلد من البلاد إلغاء الأحكام العرفية وقوانين الطوارئ؛ وهو مطلب جماهيري عامٌّ، فلا حرج عليه في هذه الحالة أن يجيش لنصرة هذا المطلب الاتجاهات الدينية والعلمانية كافة، ويكون عمله هذا من جنس حِلْف الفضول وسائر الأحلاف المشروعة التي تكون على نصر المظلوم، والضرب على يد الظالم، وإشاعة العدل والتناصف ونحوه، ومثل هذا في محل الاجتهاد، والأمر فيه واسع، وقد سبقت مقالة ابن الأثير والنووي في جوازه، والتفريق بينه وبين الأحلاف الممنوعة التي تكون على الفتن والقتال وما منع منه الشرع[1].

هذا، ولا يخفى أن هذه المسألة مزلة أقدام ومدحضة أفهام، وأن العمل الإسلامي قد يُستدرج فيها إلى تحالفات تكون على حساب رسالته وقضيته، فيذهب تفرده وينطمس بريقه، ويزداد الالتباس، وتتقد نيران الفتن أو تكاد!!

ولقد قصدنا بإدراج هذه المسألة في الظنيات وموارد الاجتهاد أن نبين أصل موقعها من الدين، ولكن تحقيق المناط في ذلك يحتاج إلى بصيرة الصالحين، وفهم الأئمة المجتهدين، ودقة الخبراء المتخصصين؛ حتى لا يصبح العمل الإسلامي في مهب الرياح والأهواء السياسية، تقلبه يمنة ويسرة كما تشاء!

مداراة بعض الخصوم وحصر دائرة الصراع:

ففي البلاد التي تشهد أقليات طائفية يسعى الطواغيت إلى استغلال هذه الأقليات

(١) راجع: ص ١٨٢.

في تبرير إعراضهم عن تحكيم الشريعة؛ خشية الفتن والانقسامات كما يزعمون! بل قد يسعون إلى إغراء العداوة والبغضاء بين هذه الأقليات وبين العاملين للإسلام؛ تبديدًا لطاقات العمل الإسلامي، وشغلًا له بهذه المناوشات من ناحية، وليجدوا في ذلك مبررًا للتنكيل به متى أرادوا، أو على الأقل لتجميد الجهود الرامية إلى تحكيم الشريعة من ناحية أخرى؛ ولهذا فقد تكون مصلحة العمل الإسلامي في حصر دائرة الصراع، وعدم الدخول في مناوشات جانبية مع هذه الأقليات، أو مع غيرها من بقية خصوم الإسلام، ممن لا يمثلون خط المواجهة الأول بالنسبة له، وقد يترخص في سبيل مداراتهم ببعض الأقوال والأفعال، التي قد يرى فيها بعض الناس خروجًا عما يجب أن تكون عليه المعاملة مع الكافرين من البراءة وإعلان المفاصلة.

ولا يخفى أن هذه الأمور - ما لم تكن موالاة في الدين أو خروجًا ظاهرًا على محكمات الإسلام - تعد من مجاري الاجتهاد، وأن الإنكار على أصحابها بالنظر الأول تعسف وعجلة، فالذي ينكر من ذلك هو ما لا يحتمل التأويل بوجه من الوجوه، أما ما وراء ذلك فهو من مجاري الاجتهاد التي يجب أن يرجع فيها إلى تقدير المباشرين لها، في إطار من الثوابت التي سبقت الإشارة إليها، بالإضافة إلى قواعد الشرع العامة ومقاصده الكلية.

ومن هنا كان هذا الأمر مما يدور في فلك السياسة الشرعية، وتختلف الفتوى فيه باختلاف الزمان والمكان والأحوال، ولارتباطه بمدى قدرة العمل الإسلامي على المواجهة، ومدى قدرة خصومه كذلك، وذلك متغير ومتجدد.

ولا شك أن ترتيب الأولويات وحصر دائرة الصراع يعد من بدهيات التخطيط السياسي للأعمال الجهادية، فلا ينبغي للعمل الإسلامي أن يدخل في خصومة ظاهرة مع الجبهات المعادية للإسلام كافة في آن واحد، بل ولا يستنفر ضده أكثر من عدو في وقت واحد؛ حتى لا تتشتت جهوده يمنة ويسرة، وهو لا يزال يدرج في بداية الطريق.

فلا يصح -مثلاً- أن يدخل العمل الجهادي في خصومة مع التيار الصليبي، ويفتح على نفسه هذه الجبهة، إذا قرر أن يتوجه إلى مجاهدة الوجود اليهودي، واستنفار الأمة بمختلف طوائفها ضد جرائمه؛ حتى لا يقع بذلك بين شقي الرحى؛ اليهود من جانب، والنصارى من الجانب الآخر.

وأفدح من ذلك أن يدخل في خصومة مع عامة الأمة من المسلمين، بالقيام بعمليات فجة ضد بعض مظاهر الفساد الشعبي، والتي لم تصل القناعة بعدم شرعيتها إلى مستوى المعلوم من الدين بالضرورة، فيستثير ضده الرأي العام، وتجدها العلمانية ورقة رابحة توظفها في التشهير بالتيار الإسلامي، ودمغه بالتهم والمناكر، وعزله عن قواعده من الأمة؛ ليسهل التنكيل به بعد ذلك في شرعية كاملة.

إن أخوف ما يخافه الخصوم أن تمتد للعمل الإسلامي جذور في أوساط الأمة، وأن ينشأ له في قواعدها تأييد أو تعاطف؛ ولذلك فهم أسعد الناس بهذه الأعمال التي توجه ضد عامة الناس، باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو باسم الجهاد في سبيل الله؛ لأنهم يجدون فيها مادة خصبة للتشويه والتشويش والإثارة، فهل يعي العمل الإسلامي ذلك ويدرك فقه الشريعة في الموازنة بين المصالح والمفاسد؛ فيترك الإنكار فيما يؤدي إلى منكر أكبر، ويحتمل المفسدة ما دام يدفع بها مفسدة أعظم، كما يفوت من المصالح ما يحقق به مصلحة أكمل؟

وإن من العناصر التي تعين على حسن ترتيب الأولويات: البدء بالأعمال التي تحوز قبولاً عامًّا من الأمة؛ لأن العمل الجهادي ينبغي أن يحوز شرعية عامة تعقلها الأمة، ولا يكفي مجرد الشرعية التي يعقلها الاتجاه الإسلامي وحده؛ ولهذا لم يقتل النبي ﷺ عبد الله بن أبي بن سلول عندما قال قولته الفاجرة: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾[1]. ولم يستجب لعمر عندما قال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، وقال له: «**فكيف إذا تحدث الناس يا عمر أن محمدًا يقتل أصحابه؟!**»

أجل؛ لم يقتله رسول الله ﷺ لأن شرعية قتله لم تبلغ بعد في حسِّ العامة مبلغًا يقطع الألسنة دون التخرص والقيل والقال، بل ستكون بابًا من أبواب الصدِّ عن سبيل الله عندما تفسر على غير وجهها، ويتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه.

والحديث عن هذه النقطة في غاية الأهمية؛ لأنها من علامات النضج السياسي والخبرة العلمية، التي تؤهل - مع غيرها من النقاط - للمشاركة في هذه الأعمال إعدادًا أو تنفيذًا، وبدونها تتحول العمليات الجهادية إلى عمليات فجَّة، تثير من الاشمئزاز والنكارة أكثر مما تثيره من التأييد والتعاطف.

ولا يخفى أن تحقيق المناط في هذا القول من مسائل السياسة الشرعية كذلك؛ لارتباطه باستقرار الواقع وفهمه على وجهه، وذلك مما يتسع فيه المجال لتفاوت الاجتهادات وتباين التقديرات.

مدى كفاية العدة:

إعداد العدة من المقدمات الحتمية في فقه الجهاد، وقد اتَّفَقَ على أصل اعتباره عامةُ

(١) المنافقون: ٨.

المسلمين، ولكن المنازعة تقع في مدى تحقق العدة الكافية التي تؤهل للقيام بهذا العمل، فذلك الذي تتفاوت فيه التقديرات، وتتباين فيه الاجتهادات لتعلقه باستقراء الواقع، والوقوف على القوة التي تتوقع أن يقذف بها الخصوم في هذه المواجهة، والقوة اللازمة لدفعها وتحقيق الغلبة عليها، وكل ذلك من مجاري الاجتهاد، ومسائل الخبرة الفنية التي يجب أن يرجع فيها إلى أهل الاختصاص، في إطار من قواعد الشريعة الكلية ومقاصدها العامة.

ونؤكد هنا مرة أخرى أن الحسابات التي تجريها الحركة الإسلامية في هذا المجال يجب أن تكون بشرية بحتة، وألا تكل أمر الحلقات المفقودة لديها إلى المعجزات والخوارق، وألا تقدم على عمل من الأعمال إلا إذا غلب على ظنها في ضوء السنن البشرية المعهودة حصول الظفر وتحقق الغلبة، فإن قصرت في ذلك فهي مسؤولة وآثمة!

وإن كثيرًا من الانتكاسات التي مُني بها العمل الإسلامي في هذا المجال كانت ترجع في الجملة إلى تقصير في هذا الجانب، وتغافل خطير - لا يمكن تبريره - عن استفراغ الوسع لاستيفائه وتهيئة أسبابه، والنتيجة سلسلة موصولة الحلقات من الفتن والتداعيات، وتراجع ملحوظ في مسيرة العمل الإسلامي، ونقص في رصيد الثقة به لدى عامة الأمة!! ولهذا فإن الدقة في فهم الواقع على وجهه، وفي حساب العدة بلا عجلة، يعد من آكد الفرائض التي يجب أن تسبق الدخول الفعلي في مواجهة عملية، ولا يخفى أن الاضطلاع بأمانة هذه المهمة ليس من شأن الفقهاء أو أصحاب التخصصات الشرعية فحسب، ولكنه في المقام الأول من شأن الخبراء العسكريين وأصحاب التخصص والتمرس بالأعمال القتالية.

مدى سلامة التوقيت:

ومما يتصل بهذه القضية أيضًا مدى سلامة التوقيت، فقد تتاح العدة لضربة خاطفة؛ يقطع فيها العمل الإسلامي شوطًا أو يحقق فيها كسبًا محدودًا، ولكنه لا يقوى على مواصلة السير، وحماية هذا الكسب لفترة طويلة؛ لما يتوقع أن يعقبه من الاستنفار الداخلي والخارجي الذي يعرض العمل الإسلامي لوابل من الانتكاسات والمفاسد، تتضاءل معها المصلحة الجزئية المتوقعة في هذا الكسب المحدود الخاطف.

ولا شك أن مبنى الشريعة تحقيقُ أكمل المصلحتين ودفع أعظم المفسدتين، وأما إذا عُورِضت المصلحة بمفسدة راجحة لم تعد مصلحة، بل قد يكون الدخول فيها محرمًا من المحرمات، وكل ذلك مسلَّم على الجملة من الناحية النظرية، ولا ينازع فيه فيما نعلم أحد، ولكن تحقيق المناط في ذلك من موارد الاجتهاد التي تتفاوت فيها التقديرات، ولا مناص من التسليم فيه للقائمين على هذا العمل شريطة التشاور مع الآخرين، والنزول على آراء الخبراء والمتخصصين، والتقيد بقواعد الشرع الكلية ومقاصده العامة.

إعلان المسؤولية عن بعض الأعمال الجزئية وتوظيفها:

ومما تتفاوت فيه الاجتهادات كذلك إعلان المسؤولية عن بعض الأعمال الجزئية، وتوظيفها في استفاضة البلاغ، والتحذير من الإسراف في المجاهرة بالعداوة للإسلام، والكيد لرسالته ودعوته.

هل يعلن القائمون بهذه الأعمال مسؤوليتهم عنها، ويجعلون منها مادة للدعوة إلى الله وإقامة الحجة على كل من عتا عن أمر ربه ورسله؟ وهل بلغت هذه الأعمال في ذاتها

درجةً من القبول العام تمكن من توظيفها في هذه المجال؟ أو لا تتجاوز دائرة العلم بمشروعيتها نطاق العمل الجهادي فحسب؟ هل المصلحة في تبنيها وإعلان المسؤولية عنها؟ أم الأَولى هو الاكتفاء بنجاحها، وما تحققه من إزاحة بعض العقبات من طريق الدعوة والدعاة؛ فيكون الموقف هو الصمت والتجاهل؟

ولا شك أن القدرة على توظيف الحدث من آكد المقاصد الاستراتيجية لكثير من الأعمال الجهادية الجزئية، وهذا يختلف بطبيعة الحال باختلاف الأعمال.

فالأعمال التي تحوز قبولًا عامًّا من الأمة، ولا يماري أحد في مشروعيتها؛ باعتبارها من المجمع عليه من مختلف طوائف الأمة- فهذه التي يمكن توظيفها إسلاميًّا لإحياء فريضة الجهاد، ولكسب المزيد من التأييد للحركة الإسلامية.

وتوظيف الحدث يبدأ من إعلان المسؤولية عنه، وحشد الأدلة على مشروعيته، ودعوة الأمة إلى دعم رجاله ومؤازرتهم في جهادهم المقدس، أو في كفاحهم العادل، واستخدام أجهزة البثِّ كافة في توجيه هذا الخطاب.

أما الأعمال التي لم تبلغ في حسِّ العامة هذا المبلغ، ولكنها تعتبر من الضروريات الاستراتيجية للحركة الإسلامية، فتقنع الحركة فيها بمجرد نجاحها، والأصل فيها هو الصمت والتجاهل.

ولا شك أن تحقيق المناط في ذلك وتطبيقه في الواقع على أعمال بعينها، من مسائل السياسة الشرعية التي تتفاوت فيها الاجتهادات وتتباين فيها التقديرات، ولا مناص

فيها كذلك من إمضاء اجتهادات القائمين على هذه الأعمال؛ شريطة التشاور والتقيد بالإطارات الشرعية.

ومما يتصل بهذه النقطة كذلك: المنهج الذي ينبغي اتباعه إذا انكشف أمر القائمين على هذه الأعمال، وسِيقوا أسارى إلى معتقلات الكيانات الغازية؛ هل يعلنون مسؤوليتهم عن هذه الأعمال ويطيرون الأدلة على مشروعيتها، ويوظفون ذلك في خدمة قضيتهم وإقامة الحجة بها على الناس كافة، وإن تضمن تغريرًا بأرواحهم وأموالهم ونحوه؛ لما تمهد من فضيلة التغرير بالنفوس في إعزاز الدين وإجلال رب العالمين؟ أم يقيمون خطتهم على الإنكار والتجاهل، ويرسمون سياستهم في الدفاع على هذا الأساس؟ لا شك أن هذا وذاك من موارد الاجتهاد.

وقد يكون من عناصره كذلك: التفريق بين من يرجى بلاؤه في الإسلام، ويتوقع منه النكاية في المشركين في المستقبل؛ فهذا الذي يحسن له أن يترخص رعاية لهذه المصالح، وبين غيره ممن لا يرجى منه ذلك؛ فيحسن في حقه الثبات والمواجهة؛ ولهذا يذكر القرطبي فيمن أكره على كلمة الكفر: «أنه إن كان بقاؤه يرعب العدو وينفع المسلمين بقوته؛ فالتلفظ بكلمة الكفر أولى، وإلا كان الصبر على القتل وعدم النطق بالكفر أولى»[1].

ويذكر السيوطي في «الأشباه والنظائر»: «أن تلفظ المكرَه بالكفر أو إتيانه بعمل الكفر يحتمل أن يكون أفضل من صبره حتى يقتل، إذا كان المكرَه ممن يتوقع منه

(١) تفسير القرطبي: ١٠/ ١٨٢.

النكاية في العدو والقيام بأحكام الشرع، وذلك كأن يكون عالمـــًا بأحـــكام الشرع وليس في الناس مثله، وغير ذلك ممن تقتضي المحصلة بقاؤه حيًّا»[1].

وقد يكون من عناصره كذلك: الفروق الفردية بـين شـخص وآخـر، والتـي قـد تجعـل المواجهةَ متعينةً في حق شخص، والترخصَ متعينًا في حق شخص آخر، فهناك من يقوى على المواجهة ولا تفتنه تبعاتُها، وهناك من يضعف وتقلقل إيمانَه الفتنةُ، والحمد الله أن جعل في ديننا فسحةً، وجعل أصلَ الترخص مشروعًا في حق الجميع، ولكن المقامَ الآن مقامُ الحـديث عـن الأفضلية والمواقف الاستراتيجية، والأمر في ذلك واسع، ولا تضييق فيه على أحد.

ولا مناص من التسليم باجتهاد المباشرين لهذه الأعمال لأنفسهم، ويحسن أن ترسم الجماعة استراتيجية شاملة لكل عمل مـن هـذه الأعـمال، في ضـوء معرفتهـا بقـدرات القائمين بها واستعداداتهم، ومدى طاقتهم بالمواجهة، أو مدى حاجتهم إلى الـترخص؛ فمن قوي على التقيد بها فله الأجر، ومن عجز وترخص فلا إثم عليه، والله أعلم.

(١) الأشباه والنظائر: ٢٠٧.

المبحث الثالث

الثوابت والمتغيرات في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهم المهم الذي بعث الله به النبيين أجمعين، بإقامته على وجهه كما أمر الله، استحقت به هذه الأمة أن تكون خير أمة أخرجت للناس، وبإضاعته استحق بنو إسرائيل اللعنة على لسان الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[2].

فهو الجهاد الدائم المفروض على كل مسلم، لا قيام لشريعة الإسلام بدونه، ولا اعتصام بحبل الله إلا على هداه، ولم يشذَّ عن إجماع المسلمين على فرضيته سوى شرذمة مارقة من الإمامية، الذين قالوا: لا يجب إلا عند ظهور الإمام، وهو قول في غاية التهافت؛ لأنهم يلجؤون إلى القضاء لاسترداد حقوقهم، فيقال لهم: «إن نصرتكم أمر بالمعروف، واستخراج حقوقكم من أيدي من ظلمكم نهي عن المنكر، وطلبكم لحقِّكم من جملة المعروف، وما هذا زمان النهي عن الظلم وطلب الحقوق؛ لأن الإمام بعدُ لم يخرج!!»[3].

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) المائدة: ٧٨-٧٩.

(٣) إحياء علوم الدين: ٢/ ٣٤.

ولقد ضيعت رسوم هذه الفريضة في واقعنا المعاصر، ما بين ناكل عنها بشبهات أو شهوات، وما بين مستخدم لها بغير فقه ولا بصيرة، ولا نظر فيما يصلح منها وما لا يصلح، فجاء احتسابهم بنقيض ما قصد منه، وترتب عليه من المفاسد ما هو أسخط لله من المنكرات التي انتصبوا لإزالتها، والحق وسط بين الغالي فيه والجافي عنه.

هذا، وفي مسائل هذا الواجب عدد من الثوابت المحكمات، وأخرى من المتغيرات والمتشابهات، وذلك على التفصيل التالي:

المطلب الأول

الثوابت في باب
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرضٌ على الكفاية، وقد يتعين في بعض المواضع.

وذلك لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

ووجه ذلك أن الله تعالى لم يقل: كونوا كلكم آمرين بالمعروف، بل قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾؛ فإذن مهما قام به أحد أو جماعة ممن تحصل به الكفاية سقط الحرج عن الآخرين، واختص الفلاح بالقائمين به، وإن تقاعد الخلق أجمعون عمَّ الحرج القادرين عليه كافة لا محالة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يجب على كل أحد بعينه، بل هو على الكفاية، كما دل عليه القرآن، ولما كان الجهاد من تمام ذلك كان الجهاد أيضًا كذلك، فإذا لم يقم به من يقوم بواجبه أَثِمَ كل قادر بحسب قدرته؛ إذ هو واجب على كل إنسان بحسب قدرته، كما قال النبي ﷺ: «**من رأى منكم**

(١) آل عمران: ١٠٤.

منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1].

ويقول في موضع آخر: «وهذا واجب على كل مسلم قادر، وهو فرض على الكفاية، ويصير فرضَ عينٍ على القادر الذي لم يقم به غيره، والقدرة: السلطان والولاية، فذوو السلطان أقدر من غيرهم، وعليهم من الوجوب ما ليس على غيرهم، فإن مناط الوجوب هو القدرة، فيجب على كل إنسان بحسب قدرته، قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[2]»[3].

عدم اختصاصه بأصحاب الولايات:

وذلك لعموم قوله ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»، وقوله ﷺ: «**فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»! (أخرجهما مسلم في صحيحه).

قال النووي -رحمه الله-: «قال العلماء: ولا يختص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأصحاب الولايات، بل ذلك جائز لآحاد المسلمين، قال إمام الحرمين: والدليل عليه إجماع المسلمين، فإن غير الولاة في الصدر الأول والعصر الذي يليه كانوا يأمرون

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٢٦.
(٢) التغابن: ١٦.
(٣) المرجع السابق.

الولاة بالمعروف وينهونهم عن المنكر، مع تقرير المسلمين إياهم، وترك توبيخهم على التشاغل بالأمر والنهي عن المنكر من غير ولاية، والله أعلم»[1].

قال القرطبي -رحمه الله-: «أجمع المسلمون - فيما ذكره ابن عبد البر- أن المنكر واجبٌ تغييرُه على كل من قدر عليه، وأنه إذا لم يلحقه بالتغيير إلا اللوم الذي لا يتعدى إلى الأذى؛ فإن ذلك لا يجب أن يمنعه من تغييره، فإن لم يقدر فبلسانه، فإن لم يقدر فبقلبه، ليس عليه أكثر من ذلك، وإذا أنكر بقلبه فقد أدى ما عليه إذا لم يستطع سوى ذلك، قال: والأحاديث في تأكيد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جدًّا، ولكنها مقيدة بالاستطاعة»[2].

ويشير الغزالي إلى هذا المعنى في بيانه لشروط المحتسب، فيقول: «الشرط الرابع: كونه مأذونًا من جهة الإمام والوالي، فقد شرط قوم هذا الشرط ولم يثبتوا للآحاد من الرعية الحسبةَ، وهذا الاشتراط فاسد؛ فإن الآيات والأخبار التي أوردناها تدل على أن كل من رأى منكرًا فسكت عليه عصى؛ إذ يجب نهيه أينما رآه وكيفما رآه على العموم، فالتخصيص بشرط التفويض من الإمام تحكُّم لا أصل له»[3].

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ٢/ ٢٣.
(٢) القرطبي: ٤/ ٤٨.
(٣) إحياء علوم الدين: ٢/ ٣٤٢.

وقال إمام الحرمين -رحمه الله-: «ويسوغ لآحاد الرعية أن يصد مرتكب الكبيرة إن لم يندفع عنها بقوله، ما لم ينته الأمر إلى نصب قتال وشَهْرِ سلاح، فإن انتهى الأمر إلى ذلك رُبِطَ الأمر بالسلطان»[1].

وقال الشوكاني -رحمه الله-: «كل مسلم يجب عليه إذا رأى منكرًا أن يغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه»[2].

لا إنكار في موارد الاجتهاد:

فقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن تقليد بعض العلماء في مسائل الاجتهاد؛ فهل ينكر عليه أو يهجر؟ وكذلك من يعمل بأحد القولين؟ فأجاب: «الحمد لله، مسائل الاجتهاد من عمل فيها بقول بعض العلماء لم ينكر عليه ولم يهجر، ومن عمل بأحد القولين لم ينكر عليه، فإن كان الإنسان يظهر له رجحانُ أحد القولين عمل به، وإلا قلد بعض العلماء الذين يعتمد عليهم في بيان أرجح القولين»[3].

ويقول في موضع آخر: «وأما الاختلاف في الأحكام فأكثر من أن ينضبط، ولو كان كلما اختلف مسلمان في شيء تهاجرا؛ لم يبقَ بين المسلمين عصمة ولا أخوة»[4]!!

(١) السيل الجرار، للشوكاني: ٥٦٨.
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: ٢/ ٢٥.
(٣) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٢٥٧.
(٤) مجموع الفتاوى: ٢٤/ ١٧٣.

ويذكر الغزالي في الإحياء أن ما فيه الحسبة: «كـل منكـر موجـود في الحـال، ظـاهر للمحتسب بغير تجسس، معلوم كونه منكرًا بغير اجتهاد»[1].

ولقد سبق تفسير هذه النقاط بما يغني عن الإعادة.

حسم المنكر بما ينحسم به؛ من الكلمة إلى السيف:

وذلك لعموم قوله ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان**».

قال القاضي عياض -رحمه الله-: «هذا الحديث أصل في صفة التغيير، فحق المغـير أن يغيره بكل وجه أمكنه زواله به قـولًا كـان أو فعـلًا، فـيكسر آلات الباطـل، ويريـق المسكر بنفسه، أو يأمر من يفعله، وينـزع الغصوب ويردها إلى أصحابها بنفسه، أو بأمره إذا أمكنه»[2].

قال الجصاص: «وفي هذه الأخبار دلالة على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر لهما حالان؛ حال يمكن فيها تغيير المنكر وإزالته، ففرض على من أمكنه إزالة ذلك بيـده أن يزيله، وإزالته باليد تكون على وجوه؛ منها: ألا يمكنه إزالتـه إلا بالسـيف وأن يـأتي على نفس الفاعل المنكر؛ فعليه أن يفعل ذلك، كمن رأى رجـلًا قصـده أو قصـد غـيره بقتله أو بأخذ ماله، أو قصد الزنا بامرأة... أو نحو ذلك، وعلم أنه لا ينتهـي إن أنكـره بالقول، أو قاتله بما دون السلاح، فعليه أن يقتلـه؛ لقولـه ﷺ: «**مـن رأى مـنكم منكـرًا**

(١) إحياء علوم الدين: ٢/ ٢٥٣.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: ٢/ ٢٥

فليغيره بيده»، فإذا لم يمكنه تغييره بيده إلا بقتل المقيم على هذا المنكر؛ فعليه أن يقتله فرضًا عليه، وإن غلب في ظنه أنه إن أنكره بيده ودفعه عنه بغير سلاح انتهى عنه؛ لم يجز له الإقدام على قتله، وإن غلب في ظنه أنه إن أنكره بالدفع بيده أو بالقول امتنع عليه، ولم يمكنه بعد ذلك دفعه عنه، ولم يمكنه إزالة هذا المنكر إلا بأن يقدم عليه بالقتل من غير إنذار منه له؛ فعليه أن يقتله»[1].

وقال أبو حامد الغزالي: «كل من قدر على دفع منكر فله ذلك؛ بيده وبسلاحه وبنفسه وبأعوانه»[2].

وقال الشوكاني -رحمه الله-: «كل مسلم يجب عليه إذا رأى منكرًا أن يغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، كما صح ذلك عن رسول الله ﷺ، وظهور كون الشيء منكرًا يحصل بكونه مخالفًا لكتاب الله سبحانه، أو لسنة رسول الله ﷺ، أو لإجماع المسلمين، ثم إذا كان قادرًا على تغييره بيده كان ذلك فرضًا عليه، ولو بالمقاتلة، وهو إن قُتل فهو شهيد، وإن قَتل فاعل المنكر فبالحق والشرع قتله، ولكنه يقدم الموعظة بالقول اللين، فإن لم يُؤَثِّر ذلك جاء بالقول الخشن، فإن لم يؤثر ذلك انتقل إلى التغيير باليد، ثم المقاتلة إن لم يمكن التغيير إلا بها»[3].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن لم يندفع فساده في الأرض إلا بالقتل قُتل؛ مثل المفرِّق لجماعة المسلمين، والداعي إلى البدع في الدين، قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ

(١) أحكام القرآن، للجصاص: ٢/ ٣١٧.
(٢) إحياء علوم الدين: ٢/ ٣٦١.
(٣) السيل الجرار: ٥٨٦.

كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[1].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما**»، وقال: «**من جاءكم وأمركم على رجل واحد، يريد أن يفرق جماعتكم فاضربوا عنقه بالسيف كائنًا من كان**»! وأمر النبي ﷺ بقتل رجل تعمد عليه الكذب، وسأله ابن الديلمي عمن لم ينته عن شرب الخمر، فقال: «**من لم ينته عنها فاقتلوه**»[2].

وقال في موضع آخر: «وكذلك من كفر المسلمين واستحل دماءهم وأموالهم؛ ببدعة ابتدعها ليست في كتاب الله ولا سنة رسوله، فإنه يجب نهيه عن ذلك، وعقوبته بما يزجره ولو بالقتل أو القتال، فإنه إذا عوقب المعتدون من جميع الطوائف، وأكرم المتقون من جميع الطوائف؛ كان ذلك من أعظم الأسباب التي ترضي الله ورسوله ﷺ وتصلح أمر المسلمين»[3].

وجوب الاقتصار في التغيير على قدر الحاجة:

وذلك لأن المقصود هو إزالة المنكر لا العقوبة عليه؛ إذ الأُولى حق لكل مسلم، أما الثانية فإن مردها إلى السلطان.

يقول الغزالي -رحمه الله-: «فاعلم أن الزجر إنما يكون عن المستقبل، والعقوبة تكون على الماضي، والدفع على الحاضر الراهن، وليس إلى آحاد الرعية إلا الدفع وهو

(١) المائدة: ٣٢.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٠٨، ١٠٩.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ٣٢٤.

إعدام المنكر، فما زاد على قدر الإعدام فهو إما عقوبة على جريمة سابقة، أو زجر عن لاحقٍ، وذلك إلى الولاة لا إلى الرعية»[1].

ويذكر من درجات الاحتساب: التعريف، ثم النهي بالوعظ والنصح، ثم السب بالتعنيف والقول الغليظ الخشن، ثم تغييره باليد، ثم التهديد والتخويف، ثم مباشرة الضرب مما ليس فيه شهر للسلاح، ثم الاعتضاد بالأعوان وشهر السلاح، ولا ينتقل من درجة إلا إذا فشل التغيير بالدرجة التي قبلها، ويقتصر في الدرجة نفسها على قدر الحاجة.

ويذكر في أدب التغيير باليد أن يقتصر في طريق التغيير على القدر المحتاج إليه؛ وهو ألا يأخذ بلحيته في الإخراج ولا برجله إذا قدر على جرِّه بيده، فإن زيادة الأذى فيه مستغنى عنه، وألا يمزق ثوب الحرير، بل يحل دروزه فقط، ولا يحرق الملاهي والصليب الذي أظهره النصارى، بل يبطل صلاحيتها للفساد بالكسر، وحد الكسر أن يصير إلى حالة تحتاج في استئناف إصلاحه إلى تعب يساوي تعب الاستئناف من الخشب ابتدءًا، وفي إراقة الخمور يَتَوَقَّى كسرَ الأواني إن وَجد إليه سبيلًا[2].

فإن قلت: فهلّا جاز الكسر لأجل الزجر؟ وهلَّا جاز الجر بالرجل في الإخراج عن الأرض المغصوبة؛ ليكون ذلك أبلغ في الزجر؟ فاعلم أن الزجر يكون عن المستقبل، والعقوبة تكون عن الماضي، والدفع عن الحاضر الراهن، وليس إلى آحاد الرعية إلا الدفع وهو إعدام المنكر، فما زاد على قدر الإعدام فهو إما عقوبة على جريمة سابقة، أو زجر عن لاحق، وذلك إلى الولاة لا إلى الرعية[3].

---

(١) الإحياء: ٢/ ٣٥٩.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٣٥٩.

(٣) المرجع السابق.

ويـذكر في أدب مبـاشرة الضرب باليـد والرجـل: «وذلـك جـائز للآحـاد؛ بشرط الضرورة والاقتصار على قدر الحاجة في الدفع، فإذا اندفع المنكر فينبغي أن يكف»[1].

ويقول الشوكاني: «ولكنه يقدم الموعظة بالقول اللين، فإن لم يُـؤَثِّرْ ذلـك جـاء بـالقول الخشن، فإن لم يؤثر ذلك انتقل إلى التغيير باليد، ثم المقاتلة إن لم يمكن التغيير إلا بها»[2].

ويقول ابن العربي: «وإنما يبدأ باللسان والبيان، فإن لم يكن فباليد، يعنـي أن يحـول بين المنكر وبين متعاطيه بنـزعه عنه وبجذبه منه، فإن لم يقدر إلا بمقاتلة وسلاح فيتركه، وذلك إنما هو للسلطان»[3].

بقاء إنكار المنكر بالقلب كاملاً وجازمًا في جميع الأحوال:

ذلك أن حب القلب وبغضه لا سـلطان عليـه لأحـد مـن النـاس، ولا تـرِد عليـه عوارض الإكراه؛ ولذلك فيجب أن يبقي كاملاً جازمًا؛ لأنه لا يوجب نقص ذلـك إلا نقص الإيمان.

ولذلك قال ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فـإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان**»[4].

وعن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «**ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان لـه مـن أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف بعدهم خلـوف**

(١) المرجع السابق: ٢/ ٣٦٠.
(٢) السيل الجرار: ٥٨٦.
(٣) أحكام القرآن، لابن العربي: ١/ ٢٩٣.
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي: ٢/ ٢٢- ٢٥.

يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[1]!

وقد سمع ابن مسعود رجلًا يقول: هلك من لم يأمر بالمعروف وينهَ عن المنكر، فقال ابن مسعود: هلك من لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر، يشير إلى أن المعروف والمنكر بالقلب فرض لا يسقط عن أحد؛ فمن لم يعرفه هلك، أما الإنكار باللسان واليد فإنما يجب بحسب الطاقة[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأصل هذا أن يكون محبة الإنسان للمعروف وبغضه للمنكر، وإرادته لهذا وكراهته لهذا موافقة لحب الله وبغضه وإرادته وكراهته الشرعيين، وأن يكون فعله للوجوب ودفعه للمكروه بحسب قوته وقدرته، فإن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وقد قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[3]، فأما حب القلب وبغضه، وإرادته وكراهيته فينبغي أن تكون كاملة جازمة، لا يوجب نقص ذلك إلا نقص الإيمان، وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته، ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة، وفعل العبد معها بحسب قدرته، فإنه يعطى ثواب الفاعل الكامل»[4].

(١) المرجع السابق:٢/ ٢٧.
(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب: ٢٨١.
(٣) التغابن: ١٦.
(٤) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٣١.

ارتباط وجوب هذه الفريضة فيما وراء ذلك بالقدرة وغلبة المصلحة:

أما ارتباط هذا الوجوب بالقدرة فواضح؛ إذ القدرة شرط عام في التكاليف الشرعية كافة بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[2]، وقوله ﷺ: «**إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم**».

وقد سبق قوله ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه؛ وذلك أضعف الإيمان**».

فالتدرج من التغيير باليد إلى التغيير باللسان عند العجز عن التغيير باليد، ثم إلى التغيير بالقلب عند العجز عن كليهما- يدل على اعتبار القدرة في هذه الفريضة بالنسبة إلى مرتبتها الأولى والثانية، بحيث يمكن أن يسقط التكليف بهما عند العجز عنهما، بخلاف المرتبة الثالثة التي لا يسقط التكليف بها؛ لعدم تصور العجز عنها.

قال الجصاص: «فأخبر النبي ﷺ أن إنكار المنكر على هذه الوجوه الثلاثة على حسب الإمكان، ودل على أنه إذا لم يستطع تغييره بيده فعليه تغييره بلسانه، ثم إذا لم يمكنه ذلك فليس عليه أكثر من إنكاره بقلبه»[3].

ويذكر الغزالي في شروط المحتسب «كونه قادرًا، ولا يخفى أن العاجز ليس عليه حسبة إلا بقلبه؛ إذ كل من أحب الله يكره معاصيَه وينكرها، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: جاهدوا الكفار بأيديكم، فإن لم تستطيعوا إلا أن تكفهروا في وجوههم فافعلوا!

(١) البقرة: ٢٨٦.
(٢) التغابن: ١٦.
(٣) أحكام القرآن، للجصاص: ٢/ ٣١٦.

واعلم أنه لا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسي، بل يلتحق به ما يخاف عليه مكروهًا يناله، فذلك في معنى العجز»[1].

وقال القرطبي -رحمه الله-: «أجمع المسلمون -فيما ذكره ابن عبد البر- أن المنكر واجبٌ تغييرُه على كل من قدر عليه، وأنه إذا لم يلحقه بالتغيير إلا اللوم الذي لا يتعدى إلى الأذى، فإن ذلك لا يجب أن يمنعه من تغييره، فإن لم يقدر فبلسانه، فإن لم يقدر فبقلبه، ليس عليه أكثر من ذلك، وإذا أنكر بقلبه فقد أدى ما عليه إذا لم يستطع سوى ذلك، قال: والأحاديث في تأكيد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة جدًّا، ولكنها مقيدة بالاستطاعة»[2].

وأما ارتباط هذا الوجوب بغلبة المصلحة؛ فالمقصود به ألا يفضي الأمر أو النهي إلى مفسدة أعظم هي أسخط من مفسدة إضاعة هذا المعروف أو التلبس بهذا المنكر؛ وذلك لما تمهد في الأصول من أن مبنى الشريعة تحقيق أكمل المصلحتين ودفع أعظم المفسدتين عند التعارض، وقد سبقت الإشارة إلى نهي النبي ﷺ عن قتل عبد الله بن أبي سلول حتى لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، ونهيه عن سبِّ آلهة المشركين حتى لا يسبُّوا الله عَدْوًا بغير علم، وامتناعه عن إعادة بناء البيت على قواعد إبراهيم؛ لأن الناس كانوا حديثي عهد بجاهلية.

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي: ٢/ ٣٤٦، ٣٤٧.
(٢) القرطبي: ٤/ ٤٨.

يقول ابن القيم -رحمه الله-: «إن النبي ﷺ شرع لأمته إيجابَ إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله؛ فإنه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله»(١).

إلى أن قال: «ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار، رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر، فطلب إزالته؛ فتولد منه ما هو أكبر منه، فقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها، بل لما فتح الله مكة وصارت دار إسلام عزم على تغيير البيت ورده إلى قواعد إبراهيم، ومنعه من ذلك -مع قدرته عليه- خشية وقوع ما هو أعظم منه؛ من عدم احتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام، وكونهم حديثي عهد بكفر؛ ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم منه»(٢).

ثم قسم -رحمه الله- إنكار المنكر إلى أربع درجات:

الأولى: أن يزول ويخلفه ضده.

الثانية: أن يقل وإن لم يَزُلْ بجملته.

الثالثة: أن يتساويا.

الرابعة: أن يخلفه ما هو أشر منه.

---

(١) إعلام الموقعين: ٣/ ١٥، ١٦.

(٢) المرجع السابق.

وذكر أن الدرجتين الأوليين مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة، وروى في التمثيل على الدرجة الرابعة عن شيخ الإسلام ابن تيمية قوله: مررت أنا وبعض أصحاب في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معي، فأنكرت عليه وقلت له: إنما حرم الله الخمر؛ لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء تصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذراري وأخذ الأموال!!

وبنفس الميزان ينهى الغزالي في الإحياء عن الاحتساب بغير إذن السلطان على ما يظهر من البدع، إلا إذا كانت البدعة غريبة والناس جميعًا على السنة، أما إذا انقسم أهل البدع إلى أهل بدعة وأهل سنة، وكان في الاعتراض تحريك فتنة بالمقاتلة، فليس للآحاد الحسبة في ذلك إلا بنصب من السلطان؛ كيلا يتقابل الأمر فيها، ويجر إلى تحريك الفتنة.

قال في الإحياء: «ينظر إلى البلدة التي فيها أظهرت تلك البدعة، فإن كانت البدعة غريبة والناس كلهم على السنة، وكان في الاعتراض تحريك فتنة بالمقاتلة، فليس الحسبة في المذاهب إلا بنصب السلطان، فإذا رأى السلطان الرأي الحق ونصره، وأذن لواحد أن يزجر المبتدعة عن إظهار البدعة- كان له وليس لغيره، فإن السلطان لا يتقابل، وما يكون من جهة الآحاد فيتقابل الأمر فيه، وعلى الجملة فالحسبة في البدعة أهم من الحسبة في كل المنكرات، ولكن ينبغي أن يُرَاعَى في هذا التفصيل الذي ذكرناه؛ كيلا يتقابل الأمر فيه، ولا ينجر إلى تحريك الفتنة، بل لو أذن السلطان مطلقًا في منع من يصرح بأن القرآن مخلوق، أو أن الله لا يُرَى، أو أنه مستقر على العرش مماسٌّ له، أو غير

ذلك من البدع- لتسلَّط الآحاد على المنع منه، ولم يتقابل الأمر فيه، وإنما يتقابل عند عدم إذن السلطان فقط»[1].

انتقاض القدرة بالخوف من الأذى:

فلا تنتقض القدرة بالعجز الحسي فحسب، بل تنتقض كذلك بالخوف من المكاره التي تلحق المحتسب في بدنه وماله، أو تلحق أحدًا من أقاربه، بل إن انتقاضها بما يصيب الولد والأقارب آكد؛ لأن الإنسان قد يسامح في حق نفسه، وليس له أن يسامح في حقوق الآخرين، اللهم إلا إذا كان الأذى خفيفًا بنحو سبٍّ أو شتم وغيره؛ فإنه يوازن بين درجات المنكرات في تفاحشها، ودرجات السب والشتم في نكايته في القلب، وقدحه في العرض، ويختار دفعَ أعظم المفسدتين، وتحقيقَ أكمل المصلحتين، أما مجرد اللوم فإنه لا يصلح عذرًا في ترك الإنكار.

قال ابن رجب -رحمه الله-: «من خشي في الإقدام في الإنكار على الملوك أن يُؤْذَى أهلُه أو جيرانُه لم ينبغ التعرض لهم حينئذ؛ لما فيه من تعدي الأذى إلى غيره، كذلك قال الفضيل بن عياض وغيره، ومع هذا، متى خاف منهم على نفسه السيف أو السوط أو الحبس أو القيد أو النفي أو أخذ المال، أو نحو ذلك من الأذى- سقط أمرهم ونهيهم، وقد نص الأئمة على ذلك؛ منهم مالك وأحمد وإسحاق وغيرهم، وقال أحمد: لا يتعرض إلى السلطان فإن سيفه مسلول»[2].

(١) إحياء علوم الدين: ٢/ ٣٥٥.

(٢) جامع العلوم والحكم: ٢٨٢.

وقال الغزالي: «وأما امتناعه لخوف شيء من هذه المكاره في حق أولاده وأقاربه فهو في حقه دونه؛ لأن تأذيَه بأمر نفسه أشد من تأذيه بأمر غيره، ومن وجه الدين هو فوقه؛ لأن له أن يسامح في حقوق نفسه وليس له المسامحة في حق غيره.

فإذن ينبغي أن يمتنع، فإنه إن كان ما يفوت من حقوقهم يفوت على طريق المعصية؛ كالضرب والنهب- فليس له هذه الحسبة؛ لأنه دفع منكر يفضي إلى منكر، وإن كان يفوت لا بطريق المعصية فهو إيذاء للمسلم أيضًا، وليس له ذلك إلا برضاهم،فإذا كان يؤدي ذلك إلى أذى قومه فليتركه؛ وذلك كالزاهد الذي له أقارب أغنياء فإنه لا يخاف على ماله إن احتسب على السلطان، ولكنه يقصد أقاربه انتقامًا منه بواسطتهم، فإذا كان يتعدى الأذى من حسبته إلى أقاربه وجيرانه فليتركها؛ فإن إيذاء المسلمين محذور، كما أن السكوت على المنكر محذور، نعم إن كان لا ينالهم أذى في مال أو نفس، ولكن ينالهم الأذى بالشتم والسب فهذا فيه نظر، ويختلف الأمر فيه بدرجات المنكرات في تفاحشها، ودرجات المحظور في نكايته في القلب وقدحه في العرض»[1].

فضيلة الصبر على الأذى والتغرير بالنفوس في إعزاز الدين وإجلال رب العالمين:

وذلك لقوله ﷺ: «**سيد الشهداء حمزةُ، ورجلٌ قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله**»، وقوله ﷺ: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**»، وقد اتفق القائلون بسقوط الوجوب عند الخوف من المكارة، على بقاء الاستحباب والندب لمن قوى على هذه المشاق، إذا كان لحسبته تأثير في رفع المنكر أو كسر جاه الفاسق، أو في تقوية قلوب أهل

(١) الإحياء للغزالي: ٢/ ٣٥١.

الدين، ولم يؤد إلى مفسدة أعظم أو منكر آخر، ولم يمتد الأذى من وراء ذلك إلى غيره.

قال العز بن عبد السلام: «التقرير على المعاصي كلها مفسـدة، لكـن يجـوز التقريـر عليها عند العجز عن إنكارها باليد واللسان، ومن قدر على إنكارهـا مـع الخـوف عـلى نفسه كان إنكاره مندوبًا إليه ومحثوثًـا عليـه؛ لأن المخـاطرة بـالنفوس في إعـزاز الـدين مأمور بها، كما يعذر بها في قتال المشركين، وقتال البغاة المتأولين، وقتال مـانعي الحقـوق بحيث لا يمكن تخليصها منهم إلا بالقتال، وقد قال ﷺ: «**أفضل الجهاد كلمة حـق عنـد سلطان جائر**»جعلها أفضل الجهاد؛ لأن قائلها قد جاد بنفسه كـل الجـود، بخـلاف مـن يلاقي قرنه في القتال، فإنه يجوز أن يقهره ويقتله، فـلا يكـون بذلـه نفسـه - مـع تجـويز سلامتها - كبذل المنكر نفسه مع يأسه من السلامة»[1].

وقال الغزالي في الإحياء: «وإذا جاز أن يقاتل الكفار حتى يُقتل، جاز أيضًا له ذلك في الحسبة، ولكن لو علم أنه لا نكاية لهجومه على الكفار؛ كالأعمى يطـرح نفسـه عـلى الصف، أو العاجز؛ فذلك حرام وداخل تحت عموم آية التهلكة، وإنما جاز لـه الإقـدام إذا علم أنه يقاتل إلى أن يقتل، أو علم أنـه يـكسر قلـوب الكفـار بمشـاهدتهم جرأتَـهُ، واعتقادهم في سائر المسلمين قلةَ المبالاة وحبَّهم للشهادة في سـبيل الله، فتـنكسر بـذلك شوكتهم، فكذلك يجوز للمحتسب بل يستحب له أن يعرِّض نفسه لـلضرب وللقتـل، إذا كان لحسبته تأثير في رفع المنكـر أو في كسر جـاه الفاسـق، أو في تقويـة قلـوب أهـل الدين، وأما إن رأى فاسقًا متغلبًا، وعنده سيف وبيده قدح، وعلم أنـه لـو أنكـر عليـه لشرب القدح وضرب رقبته، فهذا مما لا أرى للحسبة فيه وجهًا، وهو عين الهلاك، فـإن

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام:١/ ١١٠، ١١١.

المطلوب أن يُؤَثِّرَ في الدين أثرًا ويفديه بنفسه، فأما تعريض النفس لهلاك من غير أثر فلا وجه له، بل ينبغي أن يكون حرامًا.

وإنما يستحب له الإنكار إذا قدر على تغيير المنكر أو ظهر لفعله فائدة، وذلك بشرط أن يقتصر المكروه عليه، فإن علم أنه يضرب معه غيره من أصحابه أو أقاربه أو رفاقه، فلا تجوز له الحسبة بل تحرم؛ لأنه عجز عن دفع المنكر إلا بأن يفضي ذلك إلى منكر آخر، وليس ذلك من القدرة في شيء»[1].

الكف عن الاحتساب إذا أدى إلى التقابل وتحريك الفتنة بالمقاتلة:

لا يخلو حال المتلبس بالمنكر من أن يكون ضعيفًا لا طاقة له بدفع المحتسب وتحريك الفتنة بالمقاتلة معه، أو أن يكون قويًّا قادرًا على ذلك؛ سواء أكانت قوته من تلقاء نفسه، أو بالاستعانة بغيره ممن يغضب له ويدفع عنه.

فإن كان المتلبس بالمنكر ضعيفًا، فلا منازعة في وجوب الاحتساب عليه وحسم منكره بما ينحسم به، ما لم يؤد ذلك إلى منكر أكبر، وإن هذا مما يحبه الله ورسوله ﷺ.

وأما إن كان قويًّا والاحتساب عليه يؤدي إلى التقابل وتحريك الفتنة بالمقاتلة، فيجب الكف عن الاحتساب في هذه الحالة؛ لما يؤدي إليه من التقابل الذي هو أنكر من كل منكر، وأعظم من كل مفسدة.

(١) إحياء علوم الدين: ٢/ ٣٤٧، ٣٤٨.

قال ابن العربي - تعليقًا على حديث: «**من رأي منكم منكرًا فليغيره بيـده**»-: «وإنـما يبدأ باللسان والبيان، فإن لم يمكن فباليد؛ يعني أن يحول بين المنكر وبين متعاطيه بنـزعه عنه، وبجذبه منه، فإن لم يقدر إلا بمقاتلة وسلاح فليتركه، وذلك إنما هو للسلطان؛ لأن شهر السلاح بين الناس قد يكون مخرجًـا إلى الفتنـة، وآيـلًا إلى فسـاد أكثـر مـن الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أن يقوى المنكر؛ مثل أن يرى عدوًّا يقتل عدوًّا فينـزعه عنه ولا يستطيع ألا يدفعه، ويتحقق أنه لو تركه قتله، وهو قادر على نـزعه، ولا يسـلمه بحال، وليخرج السلاح»[1].

قال القاضي عياض: «ويغلظ على المتمادي في غيـه والمسرف في بطالتـه، إذا أمـن أن يؤثر إغلاظه منكرًا أشد منه غيره لكون جانبه محميًّا عن سطوة الظالم، فـإن غلـب عـلى ظنه أن تغييره بيده يسبب منكرًا أشد منه؛ من قتله أو قتل غيره بسببه- كف يده واقتصر على القول باللسان والوعد والتخويف، فإن خاف أن يسبب قوله مثل ذلك غَـيَّرَ بقلبـه وكان في سعة، وهذا هو المراد بالحديث إن شاء الله تعالى.

وإن وجد من يستعين به عـلى ذلـك اسـتعان، مـا لم يـؤد ذلـك إلى إظهـار سـلاح وحرب، وليرفع ذلك إلى من له الأمر إن كان المنكر مـن غـيره، أو يقـتصر عـلى تغيـيره بقلبه، هذا هو فقه المسألة وصواب العمل فيها عند العلماء والمحققين، خلافًـا لمـن رأى الإنكار بالتصريح بكل حال، وإن قُتِلَ وَنِيْلَ منه كلُّ أذى»[2].

(١) أحكام القرآن، لابن العربي: ١/ ٢٩٣.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: ٢/ ٢٥.

وقال إمام الحرمين -رحمه الله-: «ويسوغ لآحاد الرعية أن يصدَّ مرتكب الكبيرة إن لم يندفع عنها بقوله، ما لم ينته الأمر إلى نصب قتال وشهر سلاح، فإن انتهى الأمر إلى ذلك ربط الأمر بالسلطان»[1].

وقد أغرب الغزالي عند حديثه عن الدرجة الثامنة من درجات الاحتساب، التي يحتاج فيها المحتسب إلى أعوان يشهرون السلاح، ويؤدي الأمر فيها إلى التقابل والتقاتل، واختيار أنها لا تحتاج إلى إذن الإمام، فقال: «لأنه إذا جاز للآحاد الأمر بالمعروف، وأوائل درجاته تجر إلى ثوان، والثواني إلى ثوالث، وقد ينتهي لا محالة إلى التضارب، والتضارب يدعو إلى التعاون، فلا ينبغي أن يبالي بلوازم الأمر بالمعروف، ومنتهاه تجنيد الجنود في رضا الله ودفع معاصيه، ونحن نجوِّز للآحاد من الغزاة أن يجتمعوا ويقاتلوا من أرادوا من فرق الكفار قمعًا لأهل الكفر، فكذلك قمع أهل الفساد جائز؛ لأن الكافر لا بأس بقتله، والمحتسب المحق إن قُتل مظلومًا فهو شهيد، وعلى الجملة: فانتهاء الأمر إلى هذا من النوادر في الحسبة، فلا يغير به قانون القياس.

بل قال: كل من قدر على دفع منكر، فله أن يدفع ذلك بيده وبسلاحه وبنفسه وبأعوانه، فالمسألة إذن محتملة كما ذكرنا»[2].

والعجيب أن الذي ذكر أنه من النوادر في الحسبة، لا يكاد يخلو منه احتساب من هذا القبيل في واقعنا المعاصر، حيث تتصدى الأنظمة العلمانية لكل من ينتصب للتغيير بهذا الطريق، تستبيحه دماءً وأموالًا وأعراضًا في مواجهة معروفة نتيجتها سلفًا!!

(١) المرجع السابق: ٢/ ٢٥.

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي: ٢/ ٣٦١.

هذا مع أنه اشترط لجواز ذلك في موضع آخر ألا تثار فتنة، فقال: «فـإن احتـاج إلى شهر سلاح، وكان يقدر على دفع المنكر بشهر السلاح وبالجرح، فله أن يتعاطى ذلك ما لم تُثَرْ فتنة»[1].

وقال – في معرض حديثه عن الإنكار على أهل البدع –: «فإن كانت البدعة غريبـة والناس كلهم على السنة، وكان في الاعـتراض تحريـك فتنـة بالمقاتلـة، فلـيس للآحـاد الحسبة في المذاهب إلا بنصب السلطان، فإذا رأى السلطان الـرأي الحـق ونصره، وأذن لواحد أن يزجر المبتدعة عن إظهار البدعة– كان له ذلك وليس لغيره، فإن السـلطان لا يتقابل، وما يكون من جهة الآحاد فيتقابل الأمر فيه، وعلى الجملـة فالحسـبة في البدعـة أهم من الحسبة في كل المنكرات، ولكن ينبغي أن يُرَاعَى في هذا التفصيل الذي ذكرناه؛ كيلا يتقابل الأمر فيها، ولا ينجر إلى تحريك الفتنة»[2].

فإذا انتقلنا بهذه القاعدة إلى معترك التطبيق في واقعنا المعاصر، تعين علينـا التفريـق بين عدد من المواقف:

أولاً: إذا كان المحتسب له من الجاه والقوة ما يمكنه من الإنكار والتغيير على نحو تُؤمن معه الفتنة، وألا يفضي الأمـر إلى تقابـل وتهـارج– فقـد وجـب عليـه المنـع مـن المنكرات مستظهرًا في ذلك بجاهه وقوته، معتضدًا عليه بأتباعه وأعوانه.

(١) المرجع السابق: ٢/ ٣٦٠.

(٢) المرجع السابق: ٢/ ٣٥٥.

ومثل هذا قد يقع في الواقع لبعض ذوي الجاه والنفوذ والعصبيات القبلية الغالبة، الذين لا يؤدي الأمر معهم إلى التقابل؛ لا مع السلطان، ولا مع المتلبسين بهذه المنكرات.

ثانيًا: إذا كان المحتسب لا جاه له ولا عصبية، ويؤدي تعرضه للاحتساب باليد على هذه المنكرات إلى تعرضه لما لا يطيقه من البلاء- فقد سقط عنه وجوب هذه الدرجة من درجات التغيير، وبقي عليه التغيير باللسان أو القلب بحسب الأحوال، فإن أراد أن يغرر بنفسه؛ تذكيرًا بالدين وإظهارًا لشرائع الإسلام؛ فإن له ذلك؛ شريطة أن تؤدي حسبته إلى تأثير في رفع المنكر، أو في كسر جاه فاسق، أو في تقوية قلوب أهل الدين، وشريطة أن يقتصر المكروه عليه وحده، فإن علم أو غلب على ظنه أن الأذى يمتد إلى أحد غيره من أصحابه أو أقاربه أو رفقائه، فلا يجوز له ذلك؛ لأنه عجز عن دفع المنكر إلا بأن يفضي ذلك إلى منكر آخر، وليس ذلك من القدرة في شيء، كما قال الغزالي رحمه الله.

ثالثًا: إذا كان اعتضاد المحتسب بمجموعة من أعوانه يتسنى لها مباغتة هذه المنكرات بضربة خاطفة، ولكن لا يتسنى لها أن تصمد للمدد الذي تُمد به هذه المنكرات من قبل السلطان الذي انتصب لحمايتها، واعتبرها جزءًا من سلطته، وجرد كل قوته لحمايتها ومظاهرة أصحابها، فهنا تكون المواجهة الحقيقية مع السلطان، والسلطان سيفه مسلول، فهنا يَدِقُّ النظر.

ولا مجادلة في سقوط وجوب التغيير باليد في هذه الحالة، ولكن المنازعة في مدى شرعيته لمن يريد أن يغرر بنفسه إعزازًا للدين وإظهارًا لشرائع الإسلام.

لقد سبق أن ذكرنا جواز ذلك بشرطين:

الأول: أن يُحدث هذا الإنكار أثرًا، ولو بكسر جاه الفساق وتقوية قلوب أهل الدين.

الثاني: ألا يمتد الأذى من ورائه إلى الغير.

فإذا أضفنا إلى ذلك الشرط العام، وهو ألا يفضي إنكار المنكر إلى مفسدة أعظم؛ امتهدت معنا ثلاثة شروط لابد من تحققها للقول بمشروعية الاحتساب باليد في هذه الحالة.

وعلى هذا؛ فإذا انعدمت آثاره فلم يتمخض إلا عن التغرير بنفوس المحتسبين، دون أدنى نكاية في المنكرات أو القائمين عليها، فلا يبعد القول بحرمته، وكذلك إذا امتد الأذى من ورائه إلى غيره؛ من رفقة أو عشيرة أو فريق آخر من العاملين للإسلام، فلا يبعد القول بحرمته كذلك؛ لأنه عجز عن دفع المنكر إلا بمنكر آخر، وليس ذلك من القدرة في شيء، وكذلك إذا أفضى إلى مفاسد راجحة؛ كفتنة الناس في الدين، والصدِّ عن سبيل الله، وقيام ثارات مع الدعوة والمنتسبين إليها، ونحوه، فلا يبعد القول بحرمته كذلك، وقد رأينا امتناعه ﷺ عن قتل عبد الله بن أبي بن سلول حتى لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه، وامتناعه عن إعادة البيت على قواعد إبراهيم؛ لأن الناس حديثو عهد بالجاهلية، ونهي القرآن عن سبِّ آلهة المشركين حتى لا يسبوا الله عَدْوًا بغير علم، ونحوه.

إن الأصل في مواجهة الإسلاميين بصفة خاصة للمتلبسين بالمنكر في هذه الأيام أنها مواجهة مع السلطان؛ لأن هذه المنكرات في الغالب تستند -كما سبق- إلى شوكة دولة، وإلى منعة نظام وسلطان، قام ابتداء على إهدار سيادة الشريعة، وإعلاء سيادة

القوانين الوضعية، وجل ما يُجترح من المنكرات في ظل هذه الأنظمة فهو في كنفها وحمايتها، تحله قوانينها، وتحرسه مؤسساتها، وتبذل جنودها الحماية والمنعة لأصحابه.

وعلى هذا الأساس يكون حساب القدرة، فهي ليست القدرة الوقتية على مباغتة هذا المنكر وإزالته بصور خاطفة، تعقبها إعادته من قبل الطغاة أتم ما يكون! والزج بهؤلاء المنكرين في غيابات السجون، يفتنون في دينهم ويقهرون، وإنما هي القدرة على مواجهة من يدعمونه ويبذلون له الحماية والمنعة، ويستنفرون في سبيل ذلك كل ما يملكون من عتاد وعدة.

ومن ناحية أخرى، فقد علمت خصومة المشتغلين بالعمل الإسلامي مع الأنظمة، وعدم إقرارهم بشرعيتها، وإعلان جمهورهم بكفرها والبراءة منها، وكل عمل يأتونه من أعمال الاحتساب العام سيفسر قطعًا على أنه نوع من التحدي لها والاستفزاز لمشاعرها، والمنازعة في سلطانها والاستخفاف بسيادتها، فبين الفريقين تربص دائم وتحفز مستمر، الأمر الذي يؤكد أن كل عمل يؤدى في هذا المجال فإنه يمثل مواجهة مباشرة مع السلطان.

وإذا كان الأمر كذلك؛ كان الأصل في التغيير باليد من عامة الإسلاميين في ظل هذه النظم التي أباحت هذه المنكرات؛ هو التقابل وتحريك الفتنة! إن لم يكن بالمواجهة مع المتلبس بالمنكر، فبالمواجهة مع جند الطاغوت الذين ينتصبون للانتصار لهذه المنكرات، في ظل ما يسمى بحماية القانون والشرعية، وهذه النقطة يجب أن تكون موضع اعتبار عند الإقدام على الاحتساب باليد من قِبل فصائل العمل الإسلامي أو غيرهم.

المطلب الثاني

المتغيرات في هذه القضية

الأمر والنهي عند انعدام الجدوى:

إذا غلب على ظن المحتسب أن أمره ونهيه لا يفيد؛ فهل يسقط عنه وجوب هذه الفريضة، أم لا؟ موضع نظر.

فمن أهل العلم من ذهب إلى أنه يكون في سعة من ترك الأمر والنهي؛ لعدم جدواه في هذه الحالة، وإن كان يستحب تذكيرًا بالدين وإظهارًا لشرائع الإسلام، وهو قول ابن عمر وابن مسعود وكثير من الصحابة، وقول جماعة من العلماء؛ منهم الأوزاعي، والغزالي، وابن العربي، والعز بن عبد السلام، وهو إحدى الروايتين عن أحمد رحمه الله[1].

ومن أدلتهم على ذلك:

- ما جاء في سنن أبي داود وابن ماجه والترمذي، عن أبي ثعلبة الخشني أنه قيل له: كيف تقول في هذه الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[2].

(١) راجع: تفسير القرطبي، ٧/ ٦١- ٦٣.
(٢) المائدة: ١٠٥.

- قال: قد سألتَ عنها خبيرًا، أما والله، لقد سألتُ عنها رسول الله ﷺ فقال: «**بل ائتمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، حتى إذا رأيتَ شحًّا مطاعًا، وهوًى متبعًا، ودنيا مُؤْثَرَةً، وإعجابَ كل ذي رأي برأيه؛ فعليك بنفسك، ودع عنك أمر العامة**».

- وما جاء في سنن أبي داود عن ابن عمر قال: بينما نحن جلوس حول رسول الله ﷺ إذ ذكر الفتنة؛ فقال: «**إذا رأيتم الناس مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، وكانوا كذلك**»، وشبك أصابعه، فقلت له: كيف أفعل عند ذلك، جعلني الله فداك؟ فقال: «**الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ بما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر خاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة**».

- وقد روي عنه أيضًا أنه قال في الآية السابقة: هذه الآية لأقوام يجيئون بعدنا، إن قالوا لم يقبل منهم.

قال ابن تيمية: «فإذا قوي أهل الفجور حتى لا يبقى لهم إصغاء إلى البر، بل يؤذون الناهي؛ لغلبة الشح والهوى والعجب- سقط التغيير باللسان في هذه الحال وبقي بالقلب»[1].

وذكر القرطبي عن ابن العربي: «إن رجا زواله وخاف على نفسه من تغييره الضرب أو القتل، جاز له - عند أكثر العلماء - الاقتحام عند هذا الغرر، وإن لم يرج زواله فأي فائدة عنده؟!»[2].

(١) مجموع الفتاوى: ١٤/ ٤٧٩، ٤٨٠.
(٢) القرطبي: ٤/ ٤٨.

قال العز بن عبد السلام: «فإن علم الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن أمره ونهيه لا يجديان ولا يفيدان شيئًا، أو غلب على ظنه- سقط الوجوب؛ لأنه وسيلة، ويبقى الاستحباب، والوسائل تسقط بسقوط المقاصد، وقد كان ﷺ يدخل إلى المسجد الحرام وفيه الأنصاب والأوثان، ولم يكن ينكر ذلك كلما رآه، وكذلك لم يكن كلما رأى المشركين ينكر عليهم، وكذلك كان السلف لا ينكرون على الفسقة والظلمة فسوقهم وظلمهم وفجورهم كلما رأوهم، مع علمهم أنه لا يجدي إنكارهم»[1].

وقال الغزالي في الإحياء: «واعلم أنه لا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسي، بل يلتحق به ما يخاف عليه مكروهًا يناله، فذلك في معنى العجز، وكذلك إذا لم يخف مكروهًا ولكن علم أن إنكاره لا ينفع، فيلتفت إلى معنيين؛ أحدهما: عدم إفادة الإنكار امتناعًا، والآخر: خوف مكروه، ويحصل من اعتبار المعنيين أربعة أحوال:

الحالة الأولى: أن يجتمع المعنيان؛ بأن يعلم أنه لا ينفع كلامه، ويُضرب إن تكلم- فلا تجب عليه الحسبة، بل ربما تحرم في بعض المواضع.

الحالة الثانية: أن ينتفي المعنيان جميعًا؛ بأن يعلم أن المنكر يزول بقوله وفعله، ولا يُقْدَرُ له على مكروه- فيجب عليه الإنكار؛ وهذه هي القدرة المطلقة.

الحالة الثالثة: أن يعلم أنه لا يفيد إنكاره، لكنه يخاف مكروهًا- فلا تجب عليه الحسبة؛ لعدم فائدتها، ولكن تُستحب لإظهار شرائع الإسلام وتذكير الناس بأمر الدين.

(١) قواعد الأحكام، للعز بن عبد السلام: ١/ ١٨٢.

الحالة الرابعة: عكس هذه؛ وهو أن يعلم أنه يصاب بمكروه، ولكن يبطل المنكر بفعله، كما يقدر على أن يرمي زجاجة الفاسق بحجر فيكسرها ويريق الخمر، أو يضرب العود الذي في يده ضربة مختطفة فيكسره في الحال، ويتعطل عليه هذا المنكر، ولكن يعلم أنه يرجع إليه فيضرب رأسه- فهذا ليس بواجب وليس بحرام، بل هو مستحب، ويدل عليه الخبر الذي أوردناه في فضل كلمة حق عند إمام جائر، ولا شك في أن ذلك مظنة الخوف»[1].

وقد اشترط -رحمه الله- لمشروعية هذه الصورة ألا تفضي إلى منكر أكبر، وألا يمتد الأذى منها إلى غير المحتسب.

ومنهم من ذهب إلى وجوب ذلك عليه، وإن لم يقبل منه؛ لأن الذي عليه هو الأمر والنهي، وليس القبول.

ومما استدل به هؤلاء؛ ما حكاه الله ﷻ عن الذين أنكروا على المعتدين في السبت، رغم يأسهم من استجابة قومهم لهم، وكيف أنهم استفادوا النجاة بذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[2].

وقد ناقش الفريق الأول هذا الدليل بأن هؤلاء الساكتين كانوا راضين بأعمالهم، غير منكرين عليهم بقلوبهم.

---

(١) الإحياء: ٢/ ٣١٥.

(٢) الأعراف: ١٦٤-١٦٥.

قال أبو بكر الجصاص في أحكام القرآن: «وهذا عندنا على أنهم كانوا راضين بأعمالهم، غير منكرين لها بقلوبهم، وقد نسب الله تعالى قتل الأنبياء المتقدمين إلى من كان في عصر النبي ﷺ من اليهود الذين كانوا متوالين لأسلافهم القاتلين لأنبيائهم، بقوله: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾،وقوله: ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

فأضاف القتل إليهم وإن لم يباشروه ولم يقتلوه؛ إذ كانوا راضين بأفعال القاتلين، فكذلك ألحق الله تعالى من لم ينهَ عن السوء من أصحاب السبت بفاعليه؛ إذ كانوا به راضين وهم عليه متوالون، فإذا كان منكِرًا للمنكر بقلبه ولا يستطيع تغييره على غيره فهو غير داخل في وعيد فاعليه، بل هو ممن قال الله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾[2]»[3].

قال النووي -رحمه الله-: «قال العلماء ﷺ: ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنه، بل يجب عليه فعله؛ فإن الذكرى تنفع المؤمنين، وقد قدمنا أن الذي عليه الأمر والنهي، لا القبول، وكما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[4]. ومثَّل العلماء هذا بمن يرى إنسانًا في الحمام أو غيره مكشوف بعض العورة.. ونحو ذلك، والله أعلم»[5].

---

(١) آل عمران: ١٨٣.

(٢) المائدة: ١٠٥.

(٣) أحكام القرآن، للجصاص: ٢/ ٣١٩.

(٤) العنكبوت: ١٨

(٥) شرح صحيح مسلم بشرح النووي: ٢/ ٢٣.

عدالة المحتسب وكونه مؤتمرًا بما يأمر به، ومنتهيًا عما ينهى عنه:

وهذه أيضًا من مواضع النظر:

فمن أهل العلم من اشترط ذلك في المحتسب، ومن أدلتهم على ذلك:

- قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[2].

- ومن المعقول: أن هداية الغير فرع للاهتداء، وتقويم الغير فرع للاستقامة، والإصلاح زكاة عن نصاب الصلاح، فمن ليس بصالح في نفسه كيف يصلح غيره؟!

وخالفهم في ذلك الجمهور ولم يشترطوا ذلك، قالوا: لأنه يجب عليه شيئان؛ أن يأمر نفسه وينهاها، ويأمر غيره وينهاه، وإخلاله بأحدهما لا يبيح له الإخلال بالآخر، فضلًا عما يؤدي إليه هذا الاشتراط من حسم باب الاحتساب بالكلية؛ إذ لا عصمة لأحد بعد النبي ﷺ.

وناقشوا الاستدلال بالآيات السابقة بأنها إنكار عليهم من حيث تركهم العمل بالمعروف، لا من حيث أمرهم به، ولكن أمرهم دَلَّ على قوة علمهم، وعقاب العالم أشد؛ لأنه لا عذر له مع قوة علمه، وأما قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، فالمراد به الوعد الكاذب، وقوله ﷻ: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾، إنكار من حيث إنهم نسوا أنفسهم، لا من حيث إنهم أمروا غيرهم، ولكن ذكر أمر الغير استدلالًا به على عملهم، وتأكيدًا للحجة عليهم[3].

---

(١) البقرة: ٤٤.

(٢) الصف: ٢-٣.

(٣) راجع: الإحياء، ٢/ ٣٤٢.

ومثل ذلك يقال في الحديث.

قال النووي -رحمه الله-: «قال العلـماء: ولا يشـترط في الآمـر والنـاهي أن يكـون كامل الحال، ممتثلًا ما يأمر به، مجتنبًا ما ينهى عنه، بل عليه الأمر وإن كان مخلًّا بـما يـأمر به، والنهي وإن كان متلبسًا بما ينهى عنه، فإنه يجب عليه شيئان: أن يأمر نفسه وينهاهـا، ويأمر غيره وينهاه، فإذا أخل بأحدهما كيف يباح له الإخلال بالآخر؟»[1].

وقال الجصاص في أحكام القرآن: «لما ثبت بما قدمنا ذكره من القرآن والآثار الـواردة عن النبي ﷺ وجوب فرض الأمر بالمعروف والنهي عـن المنكـر، وبيَّنـا أنـه فـرض عـلى الكفاية؛ إذا قام به البعض سقط عـن البـاقين- وجـب ألا يختلـف في لـزوم فرضـه الـبرُّ والفاجر؛ لأن ترك الإنسان لبعض الفروض لا يسقط عنه فروضًا غيره، ألا ترى أن تركه للصلاة لا يسقط عنـه فـرض الصـوم وسـائر العبـادات؟ فكـذلك مـن لم يفعـل سـائر المعروف، ولم ينته عن سائر المناكير، فإن فرض الأمر بالمعروف والنهـي عـن المنكـر غـير ساقط عنه»[2].

تقدير المصالح والمفاسد في هذا الباب:

لا منازعة في أصل اعتبار المصالح والمفاسد في باب الأمـر بـالمعروف والنهـي عـن المنكر، وأنه إذا أدى الأمر أو النهي إلى منكر أكبر- لم يكن مأمورًا به، بـل قـد يكـون في هذه الحالة مما يسخطه الله ورسوله.

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ٢/ ٢٣.
(٢) أحكام القرآن، للجصاص: ٢/ ٣٢٠.

كما لا منازعة في أن تقدير المصالح والمفاسد إنما يكون بميزان الشريعة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد رأيه في معرفة الأشباه والنظائر»[1].

ولكن تطبيق ذلك على الواقع مما تتفاوت فيه الاجتهادات، وتتباين فيه التقديرات؛ ولهذا كان مما يحتاج إلى دراية بالشرع ومعرفة دقيقة بالواقع؛ للنظر فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح، وأن من تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار -كما يقول ابن القيم- رآها من إضاعة هذا الأصل، أو الاضطراب في تقديره، وعدم الصبر على منكر وطلب إزالته؛ فتولد منه ما هو أكبر منه.

ولا يخفى أن هذا الباب مزلة أقدام ومدحضة أفهام، وكثيرًا ما يقع فيه الاشتباه، وقد تقارن الأهواء الآراء، وتختلط النزعات الشخصية بالاجتهادات الفقهية، والمعصوم من عصمه الله ﷻ.

ولا مخرج من هذه الفتن إلا بلزوم الجماعة، والاعتصام بالشورى، والإصغاء إلى ما يقرره أهل الحل والعقد، والثقات العدول من العلماء والدعاة، فإن ما يكره من الطاعة والجماعة خير مما يحب من الفرقة والمعصية.

(١) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٢٥٦.

المبحث الرابع

الثوابت والمتغيرات في العمل الدعوي والتربوي

العمل الدعوي والتربوي هو أول الطريق إلى التغيير؛ فالدعوة إلى الله وتزكية النفوس هما الركيزة الأساسية في دعوة الرسل، وهما مفتاح التغيير في كل تجمع بشري يراد إخراجه من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[3].

والدعوة إلى الله والتربية على الإسلام ليست عملًا حزبيًّا، تنادي به جماعة دون جماعة، أو يتخصص في أدائه فريق دون فريق، بل هو الروح التي تسري في كل هذه الكيانات، والقاسم المشترك الذي يجمع بينها جميعًا، على اختلاف طرائقها في التفكير ومناهجها في العمل، وهل يملك العمل الإسلامي بمختلف فصائله في هذه المرحلة أكثر من الدعوة إلى الله، والاستقامة على كتابه وسنة نبيه ﷺ، ودعوة الأمة لأن تكون جنودًا لهذا الحق، تبلغ دعوته، وتؤدي أمانته، وتنشر رسالته، وتقاتل بمن أطاعها من عصاها، حتى يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده؟!

---

(١) الأحزاب: ٤٥-٤٦.

(٢) الجمعة: ٢.

(٣) الرعد: ١١.

ولكن تفاوت فصائل العمل الإسلامي في هذه القضية إنما يكون في استغراق بعضها في هذا العمل وانقطاعها لإحيائه وتجديد رسومه، أو في إضافة بعض المحاور والاهتمامات الأخرى من قِبَل بعضها الآخر؛ كالانشغال بالعمل السياسي أو العمل الجهادي، بالإضافة إلى العمل الدعوي والعمل التربوي.

هذا؛ ويتضمن هذا العمل - شأنه شأن بقية الأعمال - عددًا من الثوابت المحكمات، وعددًا من الظنيات وموارد الاجتهاد، وفيما يلي محاولة لإيجاز القول في هذه وفي تلك.

المطلب الأول

الثوابت في هذه القضية

يتضمن العمل الدعوي والتربوي عددًا من الثوابت يمكن إيجاز أهمها في النقاط الآتية:

استيفاء ما لا يصح عقد الإسلام إلا به:

وهذه بدهية البديهيات في كل عمل دعوي أو تربوي؛ فاستيفاء الحد الأدنى الذي لا يصح عقد الإسلام إلا باستيفائه هو الخطوة الأولى في هذا المجال، فلا يمكن لدعوة راشدة أن تُقِرَّ أحدًا على شيء من الشرك أو الكفر، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[2].

والدعوة التي لا تتضمن استيفاء هذا القدر في أفرادها، بل وفي كل من ينتسب إليها ويتصل بها من الناس مدعوة للمراجعة الفورية لهذا القصور، والتدارك الفوري لهذا الخلل؛ إذ لا يقبل الله من أحد صرفًا ولا عدلًا إلا إذا صح إقراره بالإسلام؛ تصديقًا وانقيادًا، وصحت شهادته لله بالوحدانية، ولمحمد ﷺ بالرسالة، على الوجه الذي أراده الله في كتابه وبيَّنه رسوله ﷺ في سنته.

اتباع الأصول الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع:

وهذا هو الذي يميز أهل السنة من أهل البدعة، فهذه الأصول الثابتة بالكتاب

(١) النساء: ٤٨.

(٢) الزمر: ٦٥-٦٦.

والسنة والإجماع هي مبنى دين المسلمين، وهي بمنـزلة الدين المشترك بين الأنبياء، ليس لأحد خروج عنها ولا منازعة فيها، ومن دخل فيها كان مـن أهـل الإسـلام المحـض؛ وهم أهل السنة والجماعة، وإنما تكون الفرق فرقًا بتحزبها على أصل بدعي يخالف هـذه الأصول، كما ذكره الشاطبي -رحمه الله- وغيره من أهل العلم.

وإن استيفاء هذا القدر هو الذي يكفل بقاء المسيرة على الجادة، وانتساب أصـحابها إلى أهل السنة والجماعة، ويقيهم من الوقوع فيما وقعت فيه الفرق الضالة المتوعَّـدة عـلى لسانه ﷺ؛ لأن شعار هذه الفرق هو مفارقة الكتاب والسنة والإجماع، ويحقق لها لـزوم الجماعة في أحد معنييها، فقد سبق أن الجماعة قد تأتي بمعنى الاجتماع على النهج «**ما أنـا عليه وأصحابي**»، وقد تأتي بمعنـى الاجـتماع عـلى الإمـام الـذي يحكـم الأمـة بشرائـع الإسلام، وباتباع الأصول الثابتة بالكتـاب والسـنة والإجمـاع تتحقـق الاسـتقامة عـلى المنهج، وتستحق الانتساب إلى السنة، التي قال فيها مالك بن أنس -رحمه الله-: «السنة سفينة نوح، من ركبها فقد نجا، ومن تخلف عنها فقد غرق»!!

شمول الدعوة على مستوى مجموع العمل الإسلامي:

فالدعوة إلى الله يجب أن تكون شاملة، والبلاغ يجب أن يكون عامًّا ومبينًا، ولا يقوم بهذا الدين إلا من يحوطه من جميع جوانبه؛ ولهذا خاطب الله تعالى نبيه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1]، فأمره بإبلاغ جميع ما أنـزل إليه من ربه؛ لأن «ما» في الآية موصولة، وهي من صيغ العموم، فإن لم يفعل بأن قصر في إبلاغ أمر من الأمور؛ مهما صغر- فكأنه لم

(١) المائدة: ٦٧.

يبلغ شيئًا بالكلية، ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ ؛ يعني: إن كتمت آية مما أنـزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته[1].

ولكن هذا الشمول لا يلزم تحققه في كل تجمع بعينه، وإن كان يحسـن لـه ذلـك، لا سيما إذا اتسعت قاعدته وتعددت مجالاته، ولكنه يلزم أن يتحقق عـلى مسـتوى العمـل الإسلامي كله، فلا يحل للعمل الإسـلامي في شـعب مـن الشـعوب، أو في دولـة مـن الدول أن يترخص في إغفال جانب من جوانب الإسلام، وتعطيله من الدعوة والبيان.

والأصل في ذلك أن الدعوة إلى الله من فروض الكفايات، فما يقصر فيه فـرد يقـوم به آخر، وما يتراخى فيه فريق ينهض به آخرون، ولكن إذا ترخص الكافة أثموا جميعًـا، فكما لا يلزم كل فرد أن يضطلع بجميع فروض الكفايات؛ لأنه لا يتوجه التكليـف بهـا إلى كل فرد على سبيل التعيين- فإن ذلك لا يلزم كذلك على مستوى فريق من المسلمين أو جماعة بعينها منهم، إلا إذا تعين ذلك عليهم؛ لعدم وجود من تقوم به هـذه الفريضـة وتندفع به الحاجة من بقية المسلمين، فالأمة تتكافل في أداء فروض الكفايات، ولا يحرج الكافة إلا ترخص الجميع.

سلفية المنهج وعصرية المواجهة:

والسلفية المنشودة هي سلفية المنهج؛ أي: العودة بأصول الفهم إلى الكتاب والسـنة، وقواعد الفهم المعتبر لدى القرون الثلاثة الأولى؛ وذلك لنتمكن من خلال هذا المنهج من المواجهة السلفية المعاصرة لمشكلات حياتنا المتجددة.

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧٨.

فلا يقصد بالسلفية إذن مجرد الاجترار لبعض المفاهيم أو القضايا العقدية التي واجه بها سلفنا الصالح انحرافات عصرهم، وكانت فريضة الوقت يومئذ، وإغفال أو التخلي عن المعارك الطاحنة التي تدير الجاهلية رحاها في المجتمعات المعاصرة، طمسًا لمعالم الإسلام وإبادة لخضراء المسلمين.

فإذا كانت مشكلة خلق القرآن أو نفي بعض الصفات، وهي السمة البارزة لانحرافات الأمة في عصر من العصور، مع بقاء الإسلام دولة تعقد الرايات، وتجيش الجيوش لنشر الدعوة والجهاد في سبيل الله، أو على الأقل للدفاع عن بيضة المسلمين، والدفاع عن أرضهم وأعراضهم- فإن الإسلام كله اليوم موضع ريبة واتهام، فقد ضاعت إسلامية الراية، وإسلامية النظم، وإسلامية الأوضاع، ضياعًا جعل من مجرد التفكير في أن يكون الإسلام أساس الحكم والتوجيه، وشعار المعركة في بلاد المسلمين- جريمة وخيانة عظمى، تعاقب عليه قوانين هذه البلاد بالإعدام بتهمة التآمر على تغيير شكل النظام[1]!!

فليس إذن من السلفية في شيء الوقوف عند بعض المعارك التاريخية التي طويت صفحاتها واندثرت فتنتها، والتخلي عن المعارك المعاصرة التي أجلب علينا العدو فيها بخيله ورجله، وحشد لها كل ما يملك من عتاد وعدة، لمجرد أن سلفنا الصالح بسطوا القول في هذه ولم يبسطوه في تلك! ولا نعني بهذا التخلي المطلق عن هذه القضايا، وإنما التناول المجمل لها بما يكفل بيان الحق من ناحية، وتجنب إحياء الفتن القديمة وتجديد المعارك المندثرة من ناحية أخرى، ثم التفرغ لمواجهة فتنة العصر ومشاكله المتجددة.

(١) يراجع بحث: الاتجاه السلفي الحديث بين التأصيل والمعاصرة، للدكتور راجح الكردي، منشور ضمن ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر: ٢٥٦، ٢٢٧.

إن السلفية الحقة لا تقبل أن تستهدف الدعوة، في بعض المواقع، تحرير العقائد من شرك الأموات والأوثان، وتضرب الذكر صفحًا عن شرك الأحياء والأوضاع والنظم المعاصرة! وهو الذي لا يقل خطرًا عن شرك الأصنام في الجاهلية الأولى!!

ولا تقبل أن تُعْلَنَ الحربُ على التشبيه أو التعطيل في بعض الصفات، ولا تُعْلَنَ على تعطيل الشريعة وتحكيم القوانين الوضعية، والفصل بين الدين والدولة، والأولى معركة في غير ميدان، لا يملك الخصم فيها سيفًا ولا سنانًا، والثانية أتون مستعر يلتهم الأصول والفروع، ويأتي على بناء الإسلام كله من القواعد.

وهي بهذا لا تنكر خطورة التشبيه أو التعطيل، ولا تدعو -معاذ الله- إلى إقرار هذا الزيغ، وهي التي قد نذرت نفسها لدحضه عبر التاريخ، ولكنها يجب أن تؤكد أن الانتساب إليها لا يتحقق بمجرد اجترار هذه القضايا، والإلحاح في عرضها وتكرارها فحسب، مع إغفال التناول السلفي لمشكلاتنا المعاصرة؛ من التحاكم في الدماء والأموال والأعراض إلى غير ما أنزل الله، وتكريس الفصل بين الدين والحياة، واتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وإشاعة الفساد والفاحشة في بلاد الإسلام، إلى غير ذلك من مداخل الكفر في مجتمعاتنا المعاصرة.

التغافر في موارد الاجتهاد:

إذا كانت الأصول الثابتة بالكتاب والسنة بين الجماعات الإسلامية بمثابة الدين المشترك بين الأنبياء، فإن موارد الاجتهاد بمثابة ما تنوعت فيه شرائع الأنبياء، ولو من بعض الوجوه:

«فالمذاهب والطرائق والسياسات للعلماء والمشايخ والأمراء، إذا قصدوا بها وجه

الله تعالى دون الأهواء؛ ليكونوا مستمسكين بالملة والدين الجامع، الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له، واتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم من الكتاب والسنة بحسب الإمكان، بعد الاجتهاد التام- هي لهم من بعض الوجوه بمنزلة الشرع والمناهج للأنبياء، وهم مثابون على ابتغائهم وجه الله وعبادته وحده لا شريك له، وهو الدين الأصلي الجامع، كما يثاب الأنبياء على عبادتهم الله وحده لا شريك له، ويثابون على طاعة الله ورسوله، فيما تمسكوا به من شرعة رسوله ومنهاجه، كما يثاب كل نبي على طاعة الله في شرعه ومنهاجه.

ويتنوع شرعهم ومناهجهم؛ مثل أن يبلغ أحدهم الأحاديث بألفاظ غير الألفاظ التي بلغت الآخر، وتفسر له بعض آيات القرآن بتفسير يخالف لفظُه لفظَ التفسير الآخر، ويتصرف في الجمع بين النصوص واستخراج الأحكام منها، بنوع من الترتيب والتوفيق ليس هو النوع الذي سلكه غيره، وكذلك في عباداته وتوجهاته، وقد يتمسك هذا بآية أو حديث، وهذا بحديث أو آية أخرى.

وكذلك في العلم؛ من العلماء من يسلك بالأتباع طريقة ذلك العالم، فتكون هي شرعهم حتى يسمعوا كلام غيره ويروا طريقته، فيرجع الراجع منهما، فتتنوع في حقهم الأقوال والأفعال السالفة لهم من هذا الوجه، وهم مأمورون بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه كما أمرت الرسل بذلك، ومأمورون بألا يفرقوا بين الأمة، بل هي أمة واحدة كما أمرت الرسل بذلك، وهؤلاء آكد؛ فإن هؤلاء تجمعهم الشريعة الواحدة والكتاب الواحد»[1].

(١) مجموع الفتاوى: ١٩/ ١٢٦- ١٢٨.

والمقصود أن يتجاوز العمل الإسلامي أطر المذهبيـة بـالمعنى الخـاص، إلى الكيـان الجامع والإطار الأسبق للشرعية «أهل السنة والجماعة»وأن يتسع لمختلف الاجتهادات التي تدور في فلكه، كما كان أهل السنة على مدار التاريخ ولا يزالون.

فالاختلافات الفروعية لا يجوز أن يفرق بها اجتماع، ولا أن يعقد على أساسها ولاء ولا براء، ولا يجوز أن تنكر باليد، بل يتكلم فيها بالبينـات والحجـج العلميـة، وينـدب المخاطب فيها برفق إلى الخروج من الخلاف، وأيًّا كانت نتيجة المناظرة فيها فـلا تثريـب فيها على أحد، ولا يهجر بسببها أحد، وإنما البيان والتناصح، ثم الإغضاء والتغافر.

التوازن بين السنة والجماعة:

يتنازع واقع الدعوة اجتهادان في هذه القضية:

أحدهما: يرجح جانب الاتباع والاستقامة على السنة، وإن ضحى في سبيله بوحـدة الصف واجتماع كلمة الأمة، مع ما قد يؤدي إليه ذلك من عدم إفادة الدعوة من جهـود كثير من العاملين الآخرين، فضلًا عن شتات الأمور وتبعثر الجهود.

والآخر: يرجح جانب الاجتماع والحرص على وحدة الكلمة، وإن أدى إلى التهـاون في أمر الاتباع، وإقرار بعض ما يتلبس به الناس من البدع والمنكرات.

ولا يخفى أن التمسك بالسنة والمحافظة على الجماعة كلاهما مقصود للشارع؛ ولهذا كانت الفرقة الناجية من بين زحام الفرق الهالكة هم أهل السنة والجماعـة؛ أهـل السـنة بتمسكهم بالحق واستقامتهم عليه ودعوة الناس إليه، وأهل الجماعـة بلـزومهم لجماعـة المسلمين، والتزام الطاعة لأولي الأمر فيها من غير معصية.

ولهذا أيضًا أمرت الشريعة بالإنكار على أئمة الجور، وعدم تصديقهم على كذبهم أو إعانتهم على ظلمهم محافظة على السنة، وأمرت بعدم الخروج عليهم والتزام الطاعة لهم في غير معصية محافظة على الجماعة.

والمقصود أن يعي القائمون على أمر الدعوة إلى الله ﷻ أن للعمل الإسلامي المعاصر وظيفتين:

١- وظيفة البناء الإيماني والعقدي، وإحياء ما أماته الناس من شرائع الإسلام، وهو في هذا يدور في فلك المذهبية العلمية بالمعنى الخاص (أهل السنة الجماعة) يدعو إلى أصول هذا المنهج وينشيء رجالها على أساسه، وقاعدته في هذا الإطار هم الملتزمون بهذا المنهج دون سواهم.

٢- وظيفة الدفاع عن الإسلام في مواجهة الكفر المطبق في هذه الأيام، وهو في هذا حركة جهادية عامة، تدور في فلك المذهبية الإسلامية بالمعنى العام (الالتزام المجمل بالإسلام والاستعداد للاشتراك في الجهاد)، وقاعدته في هذا الإطار هي الأمة بمختلف طوائفها ممن تحقق لديهم هذا القدر، ولا يغلق بابه في هذا الإطار دون أحد.

وبهذا يتمثل في هذه الحركات منهج أهل السنة والجماعة.

- فهي في التزامها في مرحلة البناء بالسنة قولًا وعملًا وتنشئة رجالها على ذلك - يتحقق فيها وصف أهل السنة.

- وهي في وقوفها في مرحلة الدفاع ومجاهدة أعداء الله عند دائرة المذهبيـة الإسـلامية بالمعنى العام (الالتزام المجمل بالإسلام والاستعداد للاشتراك في الجهاد) - يتحقق فيها وصف الجماعة؛ لما تحرص عليه من جمع كلمة الأمة في مرحلة المواجهة.

ما يتحقق فيها وصف الجماعة على كلا المعنيين:

- العلمي: المتمثل في الكتاب والسنة على رسم منهاج النبوة «**ما أنا عليه وأصحابي**».

- العضوي: المتمثل في الدعوة إلى اجتماع الأمة بمختلف طوائفهـا حـول الأئمـة، أو حول أهل الحل والعقد عند خلو الزمان من الأئمة، واشتراك الجميع في الدفاع عن الإسلام وإقامة دولته، وبهذا تصبح هي السفينة التي من ركبها نجـا، ومـن تخلـف عنها غرق، وتصبح المخرج من الفتنة في هذه الأحوال النكدة.

إحياء مفهوم الأمة وتبني المفهوم الصحيح لجماعة المسلمين:

وذلك بإشاعة العلم بأن العمل الإسلامي جهاد أمة، قبل أن يكون جهاد حزب أو جماعة أو تنظيم، وتربية الأفراد على أن الولاء للإسـلام يجـب أن يسـبق الـولاء للأطـر الأخرى مهما كان دورها، وأن السعي إلى إيجاد جماعة المسلمين هدف مقدس، يجـب أن يحرص عليه المسلمون كافة، وأن يسعى كلٌّ في تحقيقه حسب طاقته، وأدنى ذلك سلامة الصدور للآخرين واحترام عبوديتهم لله ﷻ، وتقدير ما يقومون به مـن أعـمال حسـب اجتهاداتهم وطاقاتهم، ومن أجل إقامة الدين والتمكـين لشريعـة الله، وإشـاعة أجـواء التواد والتراحم وخفض الجناح في التعامل مع المؤمنين كافة، عـلى اخـتلاف فصـائلهم

التي ينتمون إليها، وطرائقهم التي ينتهجونها في السعي لإقامة دولة الإسلام؛ وذلك ليتجاوز العمل الإسلامي عقدة التشرذم، والتمحور حول الذات وكراهية الآخرين.

إحياء فقه الموازنة بين المصالح والمفاسد:

وذلك لكي يدرك القائمون على أمر هذه الدعوة ومن انتسب إليها كافة؛ من القادة وصناع القرار أو من العامة- أن الشريعة قد جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وأنها ترجح خير الخيرين وشر الشرين، وتحصل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، وتدفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما، وأنه إذا ازدحم واجبان لا يمكن جمعهما؛ فقُدم أوكدهما لم يكن الآخر في هذه الحال واجبًا، ولم يكن تاركه لأجل فعل الأوكد تاركًا لواجب في الحقيقة، وإذا اجتمع محرمان لا يمكن ترك أعظمهما إلا بفعل أدناهما، لم يكن فعل الأدنى في هذه الحال محرمًا على الحقيقة، وإن كانت المنازعة في مجرد التسمية، فهو خلاف يسير لا يضر، ولكن المقصود هو نفي الإثم عن هذا وذاك.

وإننا نؤكد على ضرورة إحياء وتجديد هذه المفاهيم علمًا وعملًا؛ لأنه في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة وخلافة النبوة يكثر هذا التعارض، وتختلط الحسنات بالسيئات، وتزدحم المصالح والمفاسد، وتتلاقى في مناط واحد، وإذا حدث هذا الاختلاط وقع الاشتباه والتلازم، فمن الناس من ينظر إلى الحسنات فيرجح جانبها، وإن تضمن سيئات عظيمة، ومنهم من ينظرون إلى السيئات فيرجحون الجانب الآخر، وإن أفضى إلى ترك حسنات عظيمة، ومن الناس من ينشد التوازن، ولكن قد لا يتبين له مقدار المصلحة أو المفسدة، أو يتبين له فلا يجد من يعينه على فعل الحسنات

وترك السيئات؛ لكون الأهواء قد قارنت الآراء، ويقع في ذلك من التجاذب والتهارج ما لا يعرف مداه إلا الله.

إن قضية الموازنة بين المصالح والمفاسد هي المدخل إلى فقه هذه المرحلة، وهي مفتاح الرشد في التعامل مع واقعنا المعاصر بكل علله ومتناقضاته، وهي السبيل إلى مد جسور التواصل مع مختلف فصائل العمل الإسلامي على تفاوت مناهجها في العمل وأساليبها في التغيير، وهي المحور الذي يدور حوله فقه الاجتماع في مرحلة الجهاد، والدفاع عن بيضة الإسلام المستباحة في هذا العصر على كل شبر من بلاد المسلمين، وهي الطريق إلى جماعة المسلمين بمفهومها العام والشامل، الذي يتجاوز بالعمل الإسلامي عقدة التمحور حول الذات والتهارج مع الآخرين.

إنها تتضمن الإجابة على كثير من المقالات والأعمال التي تنسب لبعض القادة من العلماء والدعاة، وتعسر على الفهم وتتأبى على التفسير، فيمتهد بهذه القاعدة سبيل إلى حسن تأويلها، وحملها على أحسن وجوهها، والتماس العذر لأصحابها، في إطار من الاستمساك بمقاصد الشريعة التي جعلها الشاطبي العمدة في باب الاجتهاد، بل جعل سائر شروط الاجتهاد بمثابة الخادم لهذا الشرط، وذكر أنه متى بلغ الإنسان مبلغًا، فهم فيه عن الشارع قصده في كل مسألة من مسائل الشريعة، وفي كل باب من أبوابها، فقد حصل له وصف هو السبب في تنزله منزلة الخليفة للنبي ﷺ في الاجتهاد والفتيا والحكم بما أراه الله[1].

(١) راجع: الموافقات، ٤/ ١٠٥، ١٠٦.

ومن أجل هذا نؤكد أن إحياء فقه الموازنة بين المصالح والمفاسد، هو أحد المعالم الأساسية للدعوة الراشدة في هذه المرحلة، وهو من الثوابت المحكمة في هذا الباب.

نبذ التعصب وشد آصرة التآخي على أساس الكتاب والسنة:

الكتاب والسنة على رسم منهاج النبوة هو معقد الولاء والبراء لا غير، وكل آصرة يتداعى الناس بها دون ذلك فهي عصبية وحمية جاهلية، وهذه من البدهيات التي لا مشاحَّة فيها ولا مماراة، فالحمد والذم، والقرب والبعد، والعداوة والولاية، والمحبة والبغضة- لا يجوز عقده إلا على أساس الكتاب والسنة، حتى لا يخترق سياج الأخوة الإيمانية العامة باجتهادات فروعية أو انتماءات حزبية.

إن آفة الآفات وعلة العلل في واقعنا المعاصر، تتمثل في ربط الولاء والبراء بما هو أخص من أخوة الدين، من الآراء والاجتهادات الفروعية؛ لما يتضمنه ذلك من تشقيق الأمة والتغرير باجتماع كلمتها، وإن معالجة هذا الخلل في مناهج الدعوة وفي واقع الدعاة هو أحد معالم الرشد الأساسية في فقه هذه المرحلة، وأحد الثوابت المحكمة في كل عمل دعوي وتربوي معاصر.

المطلب الثاني

المتغيرات في هذه القضية

أما المتغيرات في العمل الدعوي والتربوي فهي كثيرة ومتعددة، نذكرها منها:

السرية والجهرية بحسب الأحوال:

الأصل في الدعوة إلى الله هو الجهر والعلانية؛ لقوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[1]؛ ولأنها دعوة إلى عموم الخلق؛ فقد أرسل رسوله ﷺ رحمة للعالمين، وقال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾[2]، وعموم الدعوة يقتضي عموم البلاغ والبيان، وذلك يتنافى مع السرية.

إلا أن الدعوة قد تمر عليها أحوال وتتعاقب عليها محن، تلجئ القائمين عليها إلى السرية، وهم في ذلك ليسوا مبتدعين ولا مفرطين، فلقد سبقتهم الدعوة الأولى على يد رسول الله ﷺ إلى ذلك، عندما اشتد إيذاء قريش على النبي ﷺ.

يذكر ابن كثير عن عبد الله بن مسعود قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[3]: ما زال النبي مستخفيًا حتى نزلت: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾.

---

(١) الحجر: ٩٤.

(٢) الاعراف: ١٥٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٢٥٩.

وفي صحيح مسلم من حديث عمرو بن عبسة قال: أتيت رسول الله ﷺ في أول ما بعث وهو بمكة، وهو حينئذ مستخفٍ، فقلت: ما أنت؟ قال: «**أنا نبي**»، فقلت: وما نبي؟ قال: «**أرسلني الله**...» الحديث.

وقال ابن إسحاق: «ثم أمر الله رسوله ﷺ بعد ثلاث سنين من البعثة بأن يصدع بما أُمر، وأن يصبر على أذى المشركين، قال: وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب، واستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر يصلون بشعاب مكة، إذ ظهر عليهم بعض المشركين، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد رجلًا من المشركين بلحي جمل فشجه، فكان أول دم أهريق في الإسلام»[1].

ولا شك أن تقدير الحاجة إلى السرية من موارد الاجتهاد ومسائل السياسة الشرعية، التي تختلف فيها الفتوى باختلاف الزمان والمكان والأحوال.

الترخص في بعض شعائر الهدي الظاهر عند اشتداد الاستضعاف:

فقد يشتد الاستضعاف على جماعة من المسلمين في بلد من البلاد، فيضطر بعضهم إلى الترخص في بعض شعائر الهدي الظاهر؛ كاللحية بالنسبة للرجل، والنقاب بالنسبة للمرأة ونحوه، وذلك كأن تحدث موجة اعتقالات عامة تنال كل من تمسك بشيء من هذه الشعائر، أو أن يصدر قرار بحظر المنتقبات من دخول الجامعات ونحوه.

(١) البداية والنهاية: ٣/ ٣٧.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية، في معرض بيانه للجمع بين ما جاء في أول الأمر من موافقة اليهود في بعض شعائر الهدي الظاهر، وبين ما استقر عليه الأمـر وانعقـد عليـه الإجماع بعد ذلك؛ من وجوب مخـالفتهم في ذلـك: «وسـبب ذلـك أن المخالفـة لهـم لا تكون إلا عند ظهور الدين وعلـوه؛ كالجهـاد وإلـزامهم بالجزيـة والصَّـغَار، فلـما كـان المسلمون في أول الأمر ضعفاء لم يشرع المخالفة لهم، فلما كمل الدين وظهر وعـلا شرع ذلك، ومثل ذلك اليوم؛ لو أن المسلم بدار حرب أو دار كفر غير حرب، لم يكن مأمورًا بالمخالفة لهم في الهدي الظاهر؛ لما عليه في ذلك من الضرر، بل قد يسـتحب للرجـل أو يجب عليه أن يشاركهم أحيانًا في هديهم الظاهر إذا كـان في ذلـك مصـلحة دينيـة؛ مـن دعوتهم إلى الدين، والاطـلاع عـلى بـاطن أمـرهم؛ لإخبـار المسـلمين بـذلك، أو دفـع ضررهم عن المسلمين، ونحو ذلك من المقاصد الصالحة.

فأما في دار الإسلام والهجرة التي أعز الله فيهـا دينـه، وجعـل عـلى الكـافرين بهـا الصغار والجزية، ففيها شرعت المخالفة، وإذا ظهرت الموافقة والمخالفة لهـم بـاختلاف الزمان ظهرت حقيقة الأحاديث في هذا»[1].

وعلى هذا فإن هذا الترخص إن كان مرده إلى دفـع أذى يتوقـع بسـبب هـذه الشـعائر، فالأمر فيه ظاهر على أن تقدر الضرورة بقدرها، أما إذا كان مرده تحقيـق مصـلحة راجحـة، فهذا الذي يَدِقُّ فيه النظر، ويحتاج إلى تأمل وموازنة دقيقة، وهو مـن دقـائق الفقـه التـي لا مدخل فيها للعامة ولا لأشباه العامة.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية: ١٧٦، ١٧٧.

ولا يخفى أن تحقيق المناط في ذلك كله من موارد الاجتهاد، التي يجب أن تفوض لأهلها من أئمة العلم وقادة الجماعات.

أساليب الدعوة وخططها وبرامجها:

ومن موارد الاجتهاد كذلك: تفاوت الاجتهادات في أساليب الدعوة ووسائلها:

هل تنطلق الدعوة والتربية من كتب التراث وتكون هي المحور، أم من الكتب الحديثة التي اقتبست من هذه الكتب؛ لسهولة التعامل معها من قبل العامة والمبتدئين؟ وما هي هذه الكتب التي ينبغي أن يقع عليها الاختيار؟

هل ينظم الناس في حلقات وشعب، أم يكتفى بلقائهم العام في المسجد؛ إبعادًا لشبهة التنظيم والتجمعات السرية المجرَّمة من قبل الطواغيت؟

هل تتمحور المحاضرات والدروس العامة حول كشف الواقع وتعرية جرائم القائمين عليه؛ تجييشًا للأمة في المعركة مع الطواغيت، أم يكتفى بالبناء العقدي والعلمي الهادئ بعيدًا عن هذه التوترات، حتى تنضج القاعدة وتتهيأ للاشتراك في أعمال المواجهة العامة؟

وهل يحسن عند توجيه الخطاب إلى العامة إثارة القضايا السياسية، والدخول في تفصيلاتِ مراغمةِ هذه النظمِ للشريعة الإسلامية، أم يكتفى بالبيان الإجمالي لقضية التوحيد، وعدم التخوض في هذه التفصيلات؛ لأنه لا مدخل في ذلك للعامة الذين يكتفى منهم بالجمل الثابتة، وقد لا تعنيهم كثيرًا هذه الأمور؟

هل تستثمر التجمعات الإسلامية الرسمية المهادنة للعمل من خلالها في إطـار مـن الأمن النسبي، أم أن ذلك يؤدي إلى تعميق الالتباس والتشويش على الدعوة؟

هل تهدم الرموز الدينية الرسمية التي يصطنعها الطواغيت لإضفاء الشرعية عـلى ممارساتهم الإجرامية، وتعطيلهم لتحكيم الشريعة الإسلامية، أم يسكت عنهـا اعتبـارًا لوجود أقليات دينية غير إسلامية ستستثمر هذه المواقف في إثارة الشكوك والشـبهات، واعتبارًا لوجود قطاعات عريضة من العامـة، ممـن قـد ينتفعـون بـالخير الـذي يقدمـه هؤلاء، ولا علم لهم بما يتلبسون به من النفاق والمداهنة؟

وما هي الصيغة التي يجب أن تحكم علاقة العمل الإسـلامي بالمؤسسـات الدينيـة الرسمية؛ هل هي التجنب والاعتزال، أم التنسيق والتعاون؟ ومـا الموقـف بالنسـبة لمـا تمارسه في بعض الأحيان من مواقف المداهنة والتخاذل؛ هل يشنع عليها بذلك وتـنشر هذه المواقف على الملأ، أم أن الأصل في ذلك هو الإعراض والتجاهل؟

هل تنتصب الدعوة للحديث عن الجهاد في المنابر العامة، أم تؤخر ذلـك إلى وقـت التمكين، وتخص بهذا الحديث من تهيأ لهذا العمل من الخاصة؟

هل تتدخل الدعوة في نقد الانحرافات الجزئية الموجودة من منظور الإسلام، أم أن ذلك يغرقها في طوفان من التفصيلات والمنازعات فيحسـن لهـا أن تقـف عنـد حـدود الدعوة إلى الأصل الجامع؛ تحكيم الشريعة الإسلامية، وإبطال مـا تعـارض معهـا مـن القوانين والأنظمة الوضعية، ورد كل خلل أو منكر يقع في الأمة إلى هذا الخلـل الأكـبر والمنكر الأعظم، أم تأخذ من هذا بطرف ومن هذا بطرف؟

هل تتدخل الدعوة في بعض الأعمال الاجتماعية التي تسهم في رفع المعاناة عن الفئات الكادحة، أم أن ذلك يخرج بها عن خطها الأصلي في هذه المرحلة؛ حيث يجب أن تتميز كدعوة ولا تختلط بالمصالح أو المكاسب؟

هل ترفع الدعوة شعار الحوار مع الاتجاهات العلمانية وغيرها، وتقيم استراتيجيتها على إقامة مناظرات علمية هادئة، أم تعلن الحرب عليهم ابتداء، وتحكم عليهم بما يستحقون، وتتابع كشف جرائمهم وما يتلبسون به من الكفر أولًا بأول؟

هل يقدم العمل الإسلامي برامج مفصلة للنظام الإسلامي الذي يُعْتَزَمُ تطبيقه في الدولة الإسلامية؛ حتى يرى الناس إمكانية الحل الإسلامي، وأن الشريعة قادرة فعلًا على قيادة سفينة المجتمع، أم يُكتفى في هذه المرحلة بالوقوف عند مرحلة الدعوة إلى تحكيم الشريعة؛ لأن الدخول في هذه التفصيلات سيغرق العمل الإسلامي في لجج من الفروعيات المختلف فيها، وينقله من المحكم إلى المتشابه ومن القطعي إلى الظني، فضلًا عن احتمال تغير أو اختفاء معظم المشاكل الناجمة عن تطبيق الأنظمة الوضعية عند قيام الدولة الإسلامية؟

كيف تنظم الدعوة علاقتها بأجهزة الحكم المحلية؛ هل يكون محورها المفاصلة وإعلان البراءة، أم الاختراق ومحاولة الاستمالة؟ هل يمكن أن يقع تعاون بين الدعوة وبين من يتعاطف مع العمل الإسلامي في هذه الأجهزة، في دفع بعض المنكرات أو القيام ببعض الأنشطة الاجتماعية أو الدينية، أم أن ذلك يشوش على الدعوة ويعمق الالتباس؟

ما العلاقة التي ينبغي أن تحكم العمل الإسلامي بالأقليات الدينية غير المسلمة؛ هل هو إعلان العداوة والمجاهرة بالمفاصلة والبراءة، أم محاولة استمالتهم للحكم الإسلامي، وبيان أن الشريعة ستكفل لهم عند إقامتها ما لا تكفله لهم هذه النظم

الوضعية، ومد جسور للحوار معهم؛ حتى لا يتخذ منهم الطواغيت مبررًا لتعطيل تطبيق الشريعة، والتنكيل بالعمل الإسلامي؛ بدعوى حماية الوحدة الوطنية ومنع الفتنة الطائفية ونحوه؟

هل يسعى العمل الإسلامي لتحييدهم قدر الطاقة، ويبني خطته معهم على هذا الأساس، أم يعلن عليهم الحرب، ويكشف ما يتورطون فيه من عمالة وخيانة، وتآمر على دين البلاد وعلى استقرار أحوالها؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة وأمثالها من موارد الاجتهاد، ومسائل السياسة الشرعية، التي تدور في فلك الموازنة بين المصالح والمفاسد، ولا وجه فيها لتبديع المخالف أو القدح في دينه وعدالته، ويجب أن ينطلق العمل الإسلامي فيها بما يقرره أهل الشورى من أهل العلم وأهل الخبرة، وأن يدرك أن تفاوت الاجتهادات فيها إنما هو من قبيل التفاوت في تقدير المصالح والمفاسد، وهو جهد بشري لا عصمة فيه لأحد، ولا قداسة فيه لاجتهاد دون اجتهاد، ولا ثبات على اجتهاد فيه إلى الأبد، بل هو مما تتغير فيه الفتوى بتغير الزمان والمكان والأحوال.

وإن من الرشد ألَّا يتنازع بسببه، وأن يفوض النظر فيه إلى أهله، وأن يعلم أن خطأ الجماعة له في هذه المسائل أولى من صوابه لنفسه، وأن ما يكره من الطاعة والجماعة خير مما يحب من الفرقة والمعصية، وأن النزول عن اجتهاده إلى اجتهاد الجماعة فضيلة ومنقبة، وأن رعاية معنى الاجتماع أولى من رعاية ما يظن رجحانه من هذه الفروع؛ فإنه بهذا يرشد المسار، ويسدل على الفتن الستار!!

الفصل الثامن

الثوابت والمتغيرات في تعدد فصائل العمل الإسلامي

الأصل في هذه الأمة هو الوحدة؛ وحدة الجماعة ووحدة الراية ووحدة القيادة، وكل خروج عن هذا الأصل فهو خلل طارئ يجب أن يرد إلى هذا الأصل، ولا يكون الرضا به إلا من جنس القبول المرحلي بالأمر الواقع، مع السعي في استصلاح الأحوال والاجتهاد في تكميل مصالحه وتقليل مفاسده، تمهيدًا للعودة به إلى الأصل الثابت من الوحدة حتى تعود الأمور سيرتها الأولى.

والتعدد المحذور هو الذي ينشأ عنه التضارب في الموقف السياسي أو الجهادي، أو الذي يؤدي إلى التعصب ويعقد على أساسه الولاء والبراء؛ لما يفضي إليه من تمزق الأمة بين انتماءات متصارعة وتحزبات منكورة، فإن خلا التعدد من هذا وبقي في دائرة الفروع ومسائل الاجتهاد، فلم يتضارب به الموقف السياسي أو الجهادي لجماعة المسلمين، ولم يعقد على أساسه ولاء ولا براء، بل أصبح تعدد تخصص وتكامل، يتنافس به الناس في الخيرات، ويتسابقون به في أعمال البر، في إطار من التناصح والتراحم وأخوة الإسلام العامة- فإنه يكون حينئذ ظاهرة إيجابية تثري العمل الإسلامي وتجدد شبابه، كما أثرت المذاهب الفقهية من قبل شباب الفقه والنظر في الأدلة واستثمار الأحكام منها، وكانت رحمة بالأمة وتوسعة عليها، لولا غاشية من التعصب غشيت بعض أتباع هذه المذاهب في وقت لاحق، ورثوا عن الأئمة علومهم، ولم يرثوا خلقهم وفهمهم!! فكانوا انعطافة عارضة في ذلك المنهج الراشد القويم.

وحديثنا في هذا الفصل عن التعدد الراشد المقبول، وما يجب أن يكون عليه من الثوابت المحكمات، وما يجوز أن تتفاوت فيه الاجتهادات من الظنيات والمتشابهات، أو بعبارة أخرى: كيف يصبح تعدد فصائل العمل الإسلامي ظاهرة إيجابية؟ ما هي

الثوابت التي يجب أن يتقيد بها، وما هي المتغيرات التي يسوغ أن تكون عنده في محل الاجتهاد؛ حتى يرشد هذا التعدد ويتحول إلى ظاهرة إيجابية؟ ذلـك مـا سننتصـب لإيجاز القول فيه في المبحثين التاليين.

المبحث الأول

الثوابت المحكمة في التعدد الراشد المقبول

لكي يمتهد السبيل للقبول بتعدد فصائل العمل الإسلامي كما قبلت الأمة تعدد المذاهب الفقهية من قبل، يتعين الانطلاق من الثوابت الآتية:

وحدة الأصول والمذهبية الاعتقادية:

فإذا استطاع العمل الإسلامي أن يجمع فصائله حول أصول أهل السنة والجماعة، وأن يحصر الاختلاف في دائرة الفروع والمسائل الاجتهادية فقد اقتحم العقبة في مسألة التعدد، وامتهد السبيل للقبول بهذا التعدد، وتصبح هذه الأصول الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع بمثابة الدين المشترك بين الأنبياء ليس لأحد خروج عنه، ومن دخل فيها كان من أهل الإسلام المحض؛ وهم أهل السنة والجماعة، وما تنوعوا فيه من الأقوال والأعمال المشروعة بمنزلة ما تنوعت فيه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقد أشار إلى هذا المعنى شيخ الإسلام ابن تيمية، بعد أن تحدث عن وحدة الدين وتعدد الشرائع بين الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وعن وجوب الاجتماع في الدين، فقال: «فالأصول الثابتة بالكتاب والسنة بالإجماع هي بمنزلة الدين المشترك بين الأنبياء، ليس لأحد خروج عنها، ومن دخل فيها كان من أهل الإسلام المحض؛ وهم أهل السنة والجماعة، و ما تنوعوا فيه من الأعمال والأقوال المشروعة فهو بمنزلة ما تنوعت فيه الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾[3]. والتنوع قد يكون في الوجوب تارة، وفي الاستحباب أخرى»[4].

ثم قال -بعد أن ساق جملة من الأمثلة على هذا التنوع-: «فهذا وأمثاله يشبه تنوع شرائع الأنبياء؛ فإنهم متفقون على أن الله أمر كلًّا منهم بالدين الجامع، وأن نعبده بتلك الشرعة والمنهاج، كما أن الأمة الإسلامية متفقة على أن الله أمر كل مسلم من شريعة القرآن بما هو مأمور به، إما إيجابًا وإما استحبابًا، وإن تنوعت الأفعال في حق أصناف الأمة فلم يختلف اعتقادهم ولا معبودهم، ولا أخطأ أحد منهم، بل كلهم متفقون على ذلك، يصدق بعضهم بعضًا»[5].

أما الأمور الاجتهادية التي تنازعوا فيها، وأقر كل فريقٍ الآخرَ على العمل باجتهاده، فقد جعلها تشبه ما تنوعت فيه شرائع الأنبياء من وجه دون وجه، فقال -رحمه الله-: «فالمذاهب والطرائق والسياسات للعلماء والمشايخ والأمراء، إذا قصدوا بها وجه الله تعالى دون الأهواء، ليكونوا مستمسكين بالملة والدين الجامع الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له، واتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم من الكتاب والسنة بحسب الإمكان، بعد الاجتهاد التام- هي لهم من بعض الوجوه بمنزلة الشرع والمناهج

(١) العنكبوت: ٦٩.
(٢) المائدة: ١٦.
(٣) البقرة: ٢٠٨.
(٤) مجموع الفتاوى: ١٩/ ١١٧، ١١٨.
(٥) المرجع السابق: ١٩/ ١٢١.

للأنبياء، وهم مثابون على ابتغائهم وجه الله وعبادته وحده لا شريك لـه، وهـو الـدين الأصلي الجامع، كما يثاب الأنبياء على عبادتهم الله وحـده لا شريـك لـه، ويثـابون عـلى طاعة الله ورسوله فيما تمسكوا به من شرعة رسوله ومنهاجه، كـما يثـاب كـل نبـي عـلى طاعة الله في شرعه ومنهاجه.

ويتنوع شرعهم ومناهجهم؛ مثل أن يبلغ أحدَهم الأحاديثُ بألفاظ غير الألفاظ التـي بلغت الآخر، وتفسر له بعض آيات القـرآن بتفسـير يخـالف لفظُـه لفـظَ التفسـير الآخـر، ويتصرف في الجمع بين النصوص واستخراج الأحكام منها، بنوع مـن الترتيـب والتوفيـق ليس هو النوع الذي سلكه غيره، وكذلك في عباداته وتوجهاته، وقد يتمسـك هـذا بآيـة أو حديث، وهذا بحديث أو آية أخرى.

وكذلك في العلم؛ من العلماء من يسلك بالأتباع طريقة ذلـك العـالم، فتكـون هـي شرعهم حتى يسمعوا كلام غيره ويروا طريقته، فيرجح الراجح منهما، فتتنوع في حقهم الأقوال والأفعال السالفة لهم من هذا الوجه، وهـم مـأمورون بـأن يقيمـوا الـدين ولا يتفرقوا فيه كما أمرت الرسل بذلك، ومأمورون بألا يفرقـوا بـين الأمـة، بـل هـي أمـة واحدة كما أمرت الرسل بذلك، وهؤلاء آكد؛ فإن هـؤلاء تجمعهـم الشريعـة الواحـدة والكتاب الواحد.

وأما القدر الذي تنازعوا فيه، فلا يقال: إن الله أمر كلًّا منهم باطنًا وظاهرًا بالتمسك بما هو عليه كما أمر بذلك الأنبياء، وإن كان هذا قول طائفة من أهل الكلام، فإنما يقال: إن الله أمر كلًّا منهم أن يطلب الحق بقدر وسعه وإمكانه، فإن أصابه، وإلا فلا يكلف الله نفسًا إلا

وسعها، وقد قال المؤمنون: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[1]، وقال الله: قد فعلت، وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾[2].

فمن ذمهم ولامهم على ما لم يؤاخذهم الله عليه فقد اعتدى، ومن أراد أن يجعل أقوالهم وأفعالهم بمنزلة قول المعصوم وفعله، وينتصر لها بغير هدى من الله فقد اعتدى، واتبع هواه بغير هدى من الله، ومن فعل ما أمر به بحسب حاله؛ من اجتهاد يقدر عليه، أو تقليد إذا لم يقدر على الاجتهاد، وسلك في تقليده مسلك العدل فهو مقتصد؛ إذ الأمر مشروط بالقدرة: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[3]، فعلى المسلم في كل موطن أن يسلم وجهه لله وهو محسن، ويدوم على هذا الإسلام، فإسلام وجهه إخلاصه لله، وإحسان فعله الحسن، فتدبر هذا فإنه أصل جامع نافع عظيم»[4].

ووجه اختلاف هذه المسائل عما اختلفوا فيه اختلاف تنوع مِن الأقوال والأعمال المشروعة، أن التشبيه في الأول تام؛ لأن كلا القولين مشروع، يصح أن يقال معه: إن الله قد تعبد كل واحد منهم بما هو عليه ظاهرًا وباطنًا، أما التشبيه في الثاني فهو ناقص؛ لأنه كما ذكر لا يصح أن يقال: «إن الله أمر كلًّا منهم باطنًا وظاهرًا بالتمسك بما هو عليه كما أمر بذلك الأنبياء، وإن كان هذا قول طائفة من أهل الكلام، فإنما يقال: إن الله أمر كلًّا منهم أن يطلب الحق بقدر وسعه وإمكانه؛ فإن أصابه، وإلا فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها»[5].

(١) البقرة: ٢٨٦.
(٢) الأحزاب: ٥.
(٣) البقرة: ٢٨٦.
(٤) المرجع السابق: ١٩/ ١٢٦- ١٢٨.
(٥) المرجع السابق: ١٩/ ١٢٧.

والذي نخلص إليه من ذلك، أن اجتماع فصائل العمل الإسلامي حول الأصول الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، هو الخطوة الأولى والحاسمة على طريق إنهاء فتنة التعدد، وتحويله إلى ظاهرة إيجابية يمكن أن يتعامل معها بنفس الروح التي تعاملت بها الأمة مع تعدد المذاهب من قبل.

حصر الاختلاف في دائرة الفروع والمسائل الاجتهادية:

ولا شك أن وحدة الأصول والمذهبية الاعتقادية تعني بطبيعة الحال حصر الخلاف في دائرة الفروع والمسائل الاجتهادية، وإنما قصدنا التنبيه على هذا المعنى رأسًا لأمرين:

الأول: العمل الدائم والمستمر على حصر الاختلاف في هذه الدائرة.

فقد تجدُّ بعض الأمور الاجتهادية التي تتفاوت فيها الاجتهادات، فيحاول بعض المتنازعين تصعيدها إلى دائرة الأصول والمسائل الاعتقادية، فينعدم التغافر وتتفرق الكلمة، ومن هنا تتعين اليقظة الدائمة والمتابعة المستمرة لكل ما يطرأ من القضايا حتى يتم الاتفاق على توصيفها ابتداء؛ هل هي من جنس الفروع والمسائل الاجتهادية، أم من جنس الأصول والمذاهب الاعتقادية؛ وذلك قبل الدخول في بحث القضية ذاتها، وتداول الرأي حولها من الناحية الموضوعية، إن واقع الفتنة يقتضي التأكيد المتجدد على ضرورة الاتفاق على التوصيف المبدئي لمسائل الاختلاف، وتحديد ما إذا كانت من مسائل الفروع والاجتهاد، أم من مسائل الأصول والاعتقادات، والحرص الدائم على عدم الغلو في مسائل الفروع، ورفعها إلى مصافِّ الأصول والمذاهب الاعتقادية؛ لما لذلك من أثره البالغ على الروح التي تعالَج بها هذه القضايا، ومدى الأهمية التي تعطى لنتيجة التداول بشأنها.

الثاني: ما يؤدي إليه حصر الاختلاف في هذه الدائرة من بقاء روح التغافر بين هذه الفصائل، وعذر كل فريق للآخر فيما خالف فيه؛ لما تقرر من أن الاتفاق الدائم في مسائل الفروع متعذر، وأنها بطبيعتها حمالة ذات أوجه.

بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين:

فما كان للتعدد الذي وقع في باب المذاهب الفقهية أن يكون مقبولًا، وأن تُقِرَّ به الأمة على مدار التاريخ؛ لولا ما كان عليه الأئمة الأوائل من التغافر والتراحم، وثناء بعضهم على بعض، واقتداء بعضهم ببعض، ونهيهم أتباعَهم عن التعصب لهم بغير الحق، والتأكيد المستمر على أن الحجة القاطعة والحكم الأعلى هو الشرع لا غير، وأن كل الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ.

فإذا استطاعت فصائل العمل الإسلامي المعاصر أن تبقى على تناصح وتآلف وتعاضد، وأن تعقد ولاءها وبراءها على أساس الإسلام لا غير، وأن تستأصل جرثومة التعصب المذموم الذي جرَّ عليها ما جر من الفتن والتهارج، وألا تفرق بين المسلمين أو تمتحنهم بما لم يأمرهم به الله ورسوله؛ مثل أن يقال: أنت إخواني أم سلفي؟! أنت قطبي أم جهادي؟!... إلخ، وأسست نظرتها إلى التعدد الواقع بينها على أنه تعدد تخصص وتنوع تتكامل به الجهود، وليس تعدد تنازع وتضاد يفضي إلى البغضاء والتهارج فقد امتهد السبيل إلى القبول بهذا التعدد، على النحو الذي قبلت به الأمة تعدد المذاهب الفقهية من قبل.[1]

(١) ولا يرد على هذه المقولة السابقة أن يقال: لقد سويت بين المختلفات عندما جمعت بين القطبية والسلفية والإخوانية والجهاد ونحوه، على ما في بعضها من بعد عن الجادة، وعلى تفاوتها قربًا وبعدًا من المنهج الصحيح، ذلك إن كتاب«الثوابت» في الأصل كتاب ترشيد وتصحيح، ولو كانت هذه الجماعات المذكورة على النحو المأمول ديانةً وكفايةً، وتعاضدًا وتكاملًا ما كان لهذا الكتاب محل ولا دور، إنه يدعو هذه الجماعات إلى أن ترد=

إن آفة الآفات وعلة العلل، في التعدد القائم في ساحة العمل الإسلامي، تتمثل في عقد الولاء والبراء على أساس الانتساب إلى هذه الفصائل، والتفريق بين الأمة بأسماء مبتدعة لا أصل لها في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقد تقرر في بدهيات الشريعة أن من القواعد العظيمة التي هي جماع الدين: تأليف القلوب، واجتماع الكلمة، وإصلاح ذات البين، والحضُّ على الجماعة والائتلاف، والنهي عن الفرقة والاختلاف.

وأن من نصب شخصًا أو مذهبًا أو طريقة، كائنًا من كان، فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل، فهو ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾[1].

وأنه إذا تفقه الرجل وتأدب بطريقة قوم من المؤمنين؛ مثل اتباع الأئمة والمشايخ فليس له أن يجعل قدوته وأصحابه هم العيار، فيوالي من وافقهم ويعادي من خالفهم.

=شذوذاتها إلى جادة الحق، وأن تجتمع على مواضع الإجماع، وأن تتغافر في مواضع الاجتهاد، وأن تقتلع جرثومة التعصب، وأن لا تمتحن الأمة بما لم يمتحنها به الله ورسوله من الانتساب إلى الفرق والجماعات، أو التعصب لها أو التحزب عليها.

إن مجرد الانتساب إلى أمة من الأمم، أو إلى فريق منها، أو إلى مذهب من المذاهب المتبوعة، أو إلى شريعة من شرائع الدين ليس مذمومًا في ذاته، وإنما يبدأ الذم والتثريب عندما تتحول هذه النسبة إلى حمية جاهلية، إن الانتساب إلى المهاجرين أوالأنصار شرف لايدانيه شرف، وعلاء لا يطاوله علاء! ولكنه لما تحول في لحظة من اللحظات إلى حمية جاهلية، فتداعى المهاجري يا للمهاجرين، وتداعى الأنصاري يا للأنصار كان منتنًا! وليس الانتساب إلى السلفية أو الأثرية بأشرف من الانتساب إلى الأنصار أو المهاجرين، وليس بمعزل عن هذا الإنتان إن غشيته مثل هذه الحمية!

أما توزيع صكوك الهلاك بالجملة على منتسبي هذه الجماعات فهو الأمر الذي أود أن يراجع قائلُه فيه نفسَه، ولما تزل في العمر فسحة!

(١) الروم: ٣٢.

وأنه ليس لأحد أن يدعو إلى مقالة أو يعتقدها لكونها قول أصحابه، ولا يناجز عليها، بل لأجل أنها مما أمر الله به ورسوله ﷺ.

هذا؛ ولا شك أن بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين بين فصائل العمل الإسلامي، رهن بتحقق الأمرين السابقين؛ وهما:

الاجتماع على أصول أهل السنة والجماعة، وحصر الخلاف في دائرة الفروع والمسائل الاجتهادية، فإذا تحقق ذلك فقد امتهد السبيل لبقاء الألفة والعصمة، وأمكن معه القبول بهذا التعدد واعتباره ظاهرة إيجابية.

وحدة الموقف السياسي والجهادي:

يختلف تعدد الحركات الإسلامية عن تعدد المذاهب الفقهية في أمر هام، وهو أن المذاهب الفقهية حركات علمية بحتة، تمحورت حول عدد من الاجتهادات العلمية، وليس لها برامج جهادية محددة لتغيير الواقع القائم في الأمة، أما الحركات الإسلامية فهي حركات جهادية، قامت ابتداء من أجل تغيير الواقع الجاهلي وإقامة النظام الإسلامي، وهي في سعيها لذلك لابد لها من الدخول في بعض المعارك الجزئية أو الشاملة مع أعداء الإسلام وخصوم الشريعة، الأمر الذي يقتضي إضافة شرط خاص لابد من تحققه في فصائل العمل الإسلامي؛ حتى يمتهد السبيل إلى القبول بتعددها- وهو التنسيق بين هذه الفصائل في المسائل العظام وقضايا المواجهة.

والأصل في اعتبار هذا الشرط ثلاثة أمور:

الأول : ما جاء في الصحيفة التي كتبها النبي ﷺ بالمدينة، بين المهاجرين والأنصار ومن تبعهم من اليهود أو من غيرهم، من أن المسلمين أمة واحدة على من سواهم،

وأن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، فالأمة الإسلامية تنطلق من موقف واحد في الحرب وفي السلم، ولا يحل لفريق منها أن يسالم في قتال في سبيل الله، إلا عن تشاور وتنسيق مع بقية المسلمين «إلا على سواء وعدل بينهم»، فإن فعل ذلك فقد اتخذ بطانة من دون المؤمنين، وخرج عن جماعة المسلمين بمسالمة أعدائها وعقده لهذا الصلح المنفرد، وهذا ترده محكمات الأدلة وقواطع النصوص، وبهذا يحيا مفهوم الأمة في العمل الإسلامي، ويحس كل فصيل منه أن القرار في المهمات والمسائل العظام ليس إليه وحده، وأنه لا يصح إلا إذا كان على عدل وسواء بين المسلمين.

الثاني: ما تمهد في فقه السياسة الشرعية، أن القرار في المهمات والمسائل العظام، إنما يناط في الدولة الإسلامية بنظر الإمام أو بمن يخول إليه النظر في ذلك؛ وذلك لتعلقها بالمصلحة العامة لجماعة المسلمين، ولا يحق لصاحب ولاية جزئية أن يستقل بالنظر فيها، إلا إذا كان الإمام قد فوَّض إليه النظر في ذلك.

يقول ابن قدامة -رحمه الله-: «وأمر الجهاد موكول إلى الإمام واجتهاده، ويلزم الرعية طاعته فيما يراه من ذلك»[1].

فإذا عُدم الإمام لم يؤخر الجهاد ولا غيره من هذه المهمات العامة؛ لأن مصلحتها تفوت بتأخيرها، وإنما تؤول الولاية في هذه الأمور إلى أهل الحل والعقد في الأمة؛ لأنهم هم الجماعة الذين تتمثل فيهم إرادة الأمة، ولا يصبح الإمام إمامًا إلا بتوليتهم، ولا يستمد سلطانه إلا من مبايعتهم له وتفويض الأمور إليه.

(١) المغني: ١٠/ ٣٦٨.

الثالث: المصلحة الراجحة في ذلك، بـل الضرورة الملحـة إليـه، حتـى لا يـؤدي تبـاين المواقف السياسية والجهادية لفصائل العمل الإسلامي إلى تهارج في الصفوف، وتفتيت للطاقات وتناقض في القرارات وإشاعة للوهن والتخـاذل، واخـتراق لهذه الفصائل من قبل الخصوم ليضربوا بعضها ببعض، وفي ذلك غاية التشـقق والتمزق بل بداية الطريق إلى الهاوية!

وعلى هذا؛ فلكي يمتهد القبول بالتعدد في فصائل العمل الإسلامي، والتسليم لكـل فصيل منها بترتيب أموره الخاصة، المتعلقة بالدعوة والتربية ونحوه، فـإن كـل مـا يتعلـق بقضايا المواجهة مع الخصوم؛ حربًا أو سلمًا يجب أن يرجع فيها إلى أهل الحل والعقد، وأن يتعامل معها العمل الإسلامي باسـتراتيجية واحـدة مـن خـلال هـذا الإطـار؛ إذ لـيس لفصيل من هذه الفصائل أن يستقل بقرار في مستقبل العمل الإسلامي كلـه، أو أن يجـره إلى مواجهة شاملة بناءً على تقديراته وحساباته وحـده، لا سـيما وأن آثـار هـذا العمـل لا يستقل وحده بتحمل نتائجها سلبًا وإيجابًا، ولكنها ستمتد بطبيعة الحـال لتشـمل فصـائل العمل الإسلامي كافة، ويصطلي الجميع بأوارها أو ينعم بآثارها.

التكامل مع الآخرين:

وذلك بتأسيس النظرة إلى التعدد على أنه تعدد تنوع وتخصص، تتكامل به الجهـود، وتحيا به الفرائض كافة، وليس تعدد تضاد وتنـازع تتهـارج بـه الصـفوف، وتتقطـع بـه العلائق، ولعل من آكد ثمار هذه النظرة زوال عقدة الانغلاق على النفس، والاسـتعلاء على الآخرين، وامتهاد الطريق إلى مزيد من التـواصي بـالحق والتناصـح في الله، وقطـع السبيل على قالة السوء ودعاة الفتنة، وتصحيح النظرة إلى الآخـرين، وانتهـاء التشـنيع

عليهم بالجزئية والقصور؛ لأنه في ظل هذا التصور لا حرج في الجزئية أو التخصص، وما تقصر فيه جماعة تتداركه جماعة أخرى، فتتكافل هذه الجماعات في أداء هذه الفروض الكفائية، ويرتفع الإثم عن الجميع.

وقد رأينا أن التحديات التي تواجه العمل الإسلامي أكبر من طاقة هذه الفصائل مجتمعة، فكيف بها وهي مهترئة متناحرة؟!

المبحث الثاني

المتغيرات ومواضع الاجتهاد في قضية التعدد

أما المتغيرات ومواضع الاجتهاد في هذه القضية فهي متعددة، نذكر منها:

تفاوت الاجتهادات في وسائل الدعوة والتربية:

لا تثريب على فصائل العمل الإسلامي إن هي اتفقت في الأصول والمذاهب الاعتقادية، وجددت مفهوم الأمة في واقعها العملي، فلم تعقد ولاءً ولا براءً إلا على أساس الكتاب والسنة، وأبقت على الألفة والعصمة وأخوة الدين، ووحدت مواقفها السياسة والجهادية. لا تثريب عليها بعد ذلك أن تتفاوت اجتهاداتها فيما وراء ذلك من الفروع والمسائل الاجتهادية.

فلها أن تقيم سياساتها في الدعوة كما تشاء، وأن ترتب برامجها في التزكية والتربية كما تشاء، وأن تكون لها اختياراتها الفقهية والفروعية كما تشاء، وأن تكون لها إصدارتها العلمية والإعلامية كما تشاء، وليس لأحد عليها في ذلك كله إلا الاحتساب العام، الذي جعله الله حقًّا للمؤمنين كافة، يتناصحون به فيما بينهم، ويتواصون به بالمعروف ويتناهون به عن المنكر، ويقاربون ويسددون.

تفاوت الاجتهادات في السياسات التنظيمية:

فلهذه الفصائل أن تنظم العمل مع أفرادها كما تشاء، وأن ترتب أمورها المالية والإدراية كما تشاء، وليس لأحد عليها في ذلك إلا التناصح أو الاحتساب في مواطن الخلل البين، بما لا يؤدي إلى مفسدة أعظم.

تحقيق المزيد من التقارب والتكامل:

لقد سبق أن الحد الأدنى الذي يُقبل في هذا المجال هو وحدة المواقف السياسية والجهادية؛ منعًا للتهارج والاختلال، ويبقى الباب بعد ذلك مفتوحًا لمزيد من خطوات التنسيق والتقارب، وكل خطوة تتخذ في هذا المجال فهي خطوة إيجابية في الطريق إلى جماعة المسلمين.

فإذا لم يتيسر هذا التقارب الخاص مع مختلف الفصائل لبُعد الشقة بينها، فلا أقل من أن يتم على مستوى الفصائل المتقاربة والتجمعات المتشاكلة؛ لأن ما لا يدرك كله لا يترك جله، والميسور لا يسقط بالمعسور، على ألا تكون هذه المحاور الجديدة ضرارًا وتفريقًا بين المؤمنين، يراد بها تجييش بعض هذه الفصائل ضد بعضها الآخر، فإن هذا يعني العودة إلى الوراء، إلى العصبية الجاهلية والتهارج المنكور، وهو الذي لا يحل في دين الله طرفة عين، وإن تأول المتأولون وجادل المجادلون!

ولا شك أن تحقيق المناط في ذلك كله من موارد الاجتهاد ومسائل السياسة الشرعية، التي تترك لكل فصيل لتقدير أقرب هذه التجمعات إلى مشربه واجتهاداته، وتحديد المجالات التي يمكن أن يتم فيها التنسيق والتعاون، وتحديد المراحل التي يجب أن تقطع للوصول إلى هذا الهدف، إلى غير ذلك من التفصيلات التي قد تتغير من وقت إلى وقت، ومن مكان إلى مكان، ولا حيلة معها إلا التسليم باجتهادات المباشرين لها، وحسابهم على الله.

ومن الصيغ المقترحة في هذا التقارب:

تبادل المحاضرين بين هذه الفصائل:

فما من جماعة من الجماعات إلا ولها تفوق ظاهر في جانب من الجوانب، فإذا تجردت النفوس من حظوظها، وتمحض الولاء والاتباع لله ورسوله، أمكن لكل جماعة أن تدعو أهل العلم والتخصص في بقية الجماعات للدرس والمحاضرة، فيما تخصصوا فيه وبرزوا في العلم به من فروع الشريعة، وذلك كما يستقدم الخبراء في أي مجال من المجالات، فيحققوا بذلك هدفين:

- إثراء أتباعهم بهذه المعرفة، وإنماء رصيدهم من الدراية بالشرع أو المعرفة بالواقع، أو من كليهما من ناحية.
- وتحقيق خطوة إلى الإمام، في الطريق إلى التقارب والتكامل وإقامة جماعة المسلمين من ناحية أخرى.

وهذه الصيغة -على بساطتها وعفويتها- عميقة الأثر وسريعة النتائج بإذن الله.

الاشتراك في بعض الإصدارات العلمية:

وأدنى ذلك أن يقدم الكتابَ الذي تصدره جماعة أحدُ المقدمين في غيرها من الجماعات، فيتم بهذا توثيق الكتاب في كلا الجماعتين، وينشرح به صدر أفرادهما بلا استثناء، ثم يترقى الأمر بعد ذلك إلى الاشتراك في برامج علمية، ينتدب لها أهل الخبرة والتخصص في مختلف الجماعات، أو تكوين لجان علمية مشتركة من هؤلاء؛ لتقوم

بالتأليف والتوثيق والمراجعة، وتصدر الأبحاث باسمها أو تحت إشرافها ومراجعتها، فتفتح لها مغاليق القلوب، ويقبل عليها الجميع بلا تحفظ ولا تحسس.

الاشتراك في بعض البرامج الدعوية والتربوية:

وذلك كالاشتراك في عقد المؤتمرات والندوات والأمسيات الدينية ونحوها، وفي تجهيز قوافل للتوعية العامة تتحرك في مختلف الأوساط، أو الاشتراك في بعض الأنشطة الثقافية والاجتماعية العامة، وأبسط ذلك التعاقب على خطب الجمع وإلقاء المحاضرات في مسجد واحد أو في مؤسسة واحدة، الأمر الذي يشعر بالتكامل والتوافق ويبعد شبهة التجاذب والتنازع، ويرى الناس من خلاله صورًا عفوية للتقارب المنشود.

تأسيس لجان مشتركة للتشاور وفض الخصومات:

فقد تطرأ أمور عامة تستوجب أن يواجهها العمل الإسلامي بموقف مشترك، وقد تنشب خصومة وتجاذب بين فريقين من المسلمين يستوجب أن يتحرك أولو الأحلام والنهى من الفريقين؛ لتطويقها والإصلاح بين أطرافها؛ ولهذا تمس الحاجة إلى تشكيل لجنة أو مجلس، تمثل فيه مختلف الجماعات الإسلامية للاضطلاع بهذه المهام.

ولا شك أن هذه الوسائل وغيرها في محل الاجتهاد، يمكن التجديد فيها أو الإضافة إليها، أو اقتراح بدائل منها، ويبقى المقصود المحكم في هذا المجال: كيف نخطو خطوة إلى الأمام في الطريق إلى جماعة المسلمين؟!

اختيار الصيغة المناسبة التي يتم على أساسها التنسيق والتكامل:

فالتنسيق بين الأعمال وشيوع التناصح والتكامل بـين القـائمين عليهـا، هـو الهـدف المنشود في هذا المجال، أما الصيغة التي ينطلق منها هذا التنسيق والتكامـل فهـي في محـل الاجتهاد، فقد تتخذ صورة مجلس تنسيق أو مجلس شـورى أو مجلـس فتـوى، أو مجلـس أهل حل وعقد، وقد يكون اللقاء فيها دوريًّا، أو طارئًا يتجدد بحسب الحاجة، وقـد يـتم ذلك في الداخل أو الخارج، وقد يتبلور ذلك في إطار ظاهر متميز أو يتم ضـمن إطـارات فعلية قائمة، وقد تكون الرئاسة فيه دائمة أو دورية بالتعاقب، وقد تكون القيادة فيه فردية أو جماعية، كل ذلك من موارد الاجتهاد ومسـائل السياسـة الشرعيـة، التـي تفـوض إلى القائمين بها، ويسلم لهم باجتهادهم فيها في ضوء مـا تقتضـيه الحاجـة وترجحـه الأدلـة، ولهم معاودة النظر فيها كلما جدَّ من الأمور ما يستوجب ذلك.

وبعـــــــد:

فإن التكامل الذي نـدعو إلى تحقيقـه بـين هـذه الفصـائل، ونعتـبره في أصـله مـن الثوابت، وإن كانت صور تحقيقه من المتغـيرات ومـوارد الاجتهـاد - لـيس بـدعًا ممـا درجت عليه الأنظمة في عالمنا المعاصر، سواء أكانت أنظمة إسلامية أم أنظمة علمانية.

فها هي الجامعات في مختلف البلاد تتعدد كما تشاء، وتتخصص فيما تشـاء، وتضـع لها الأنظمة والترتيبات الإدارية كما تشاء، ثم ترجع في النهاية إلى مجلس أعلى للجامعات ينسق أعمالها، وتتفق من خلاله على سياساتها العامة وقواعدها الجامعة.

وها هي الدول الفدرالية تعطي لولاياتها الاستقلال في ترتيب شؤونها الخاصة كما تشاء، وتستقل الحكومات المركزية بالأمور القومية والمسائل العظام التي تهم مجموع الدولة، وتنعكس آثارها على المواطنين كافة.

وإنه لا بديل من هذا التكامل والتراحم إلا التهارج المدمر، والفشل المحقق، والفناء المحتوم!!

لا بديل من هذا التكامل والتراحم سوى الحالقة، التي لا تحلق الشعر ولكنها تحلق الدين!!

لا بديل من هذا التكامل والتراحم إلا استطالة دعاة الضلالة على المؤمنين والمؤمنات!!

لا بديل من التكامل والتراحم إلا فتنة الناس عن الدين، والزهادة في كل دعوة تناديهم باسمه، والإعراض عن كل داعية يرفع لواءً ويجاهد في سبيله.

فإلى القائمين على الأمر في الجماعات الإسلامية؛ قادة ومفكرين:

إن أمانة الدعوة إلى تحكيم الشريعة وإقامة دولة الإسلام في هذا العصر قد أنيطت بكم، وإنها والله لأمانة تنوء بمثلها السماوات والأرض والجبال، ويأبين أن يحملنها ويُشفقن منها! وقد أبيتم أنتم إلا أن تحملوها على عواتقكم، وتقدموا أنفسكم إلى الأمة على أنكم رُوَّادها والقائمون بها، وأنكم أحق بها وأهلها!

ولقد مضى على انتصابكم لأداء هذه الأمانة بضعة عقود، وهـا أنـتم الآن بعـد مـا يزيد على نصف قرن مـن العطـاء المتواصـل وأرتـال الشـهداء المتتابعـة، لا تزالـون فى خنادقكم تتهارجون وتتدافعون، لم تقيموا دولة، ولم تحققـوا أغلبيـة، ولم تنتصـفوا مـن عدو، ولا تزال بيضتُكم مستباحةً، ودعوتُكم مُجَرَّمَةً، والتابعون لكم قليلًا مستضـعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، أقصى ما يفكر فيه كثير منكم كيف يعقد مناظرة مع أخيه ليبطل دعوته ويفرق الناس من حوله!

أيها القائمون على الأمر والجماعات الإسلامية:

إن التفريط في الحض على الجماعة والائتلاف، والنهـي عـن الفرقـة والاخـتلاف، والتهاون في إشاعة هذه المفاهيم بين أتباعكم ومريديكم خطيئة كبرى وجريمة منكـرة، فإن كان مرد ذلك إلى التعمد حرصًا على زعامات ومواقع، فهو خيانـة عظمـى لأمانـة الإسلام، ولأمانة هذه الألوف المؤلفـة مـن المسـلمين ممـن وثقـوا بقيـادتكم، وسـلموا باجتهاداتكم، ونذروا أنفسهم للعمل للإسلامي من خلالكم، حتى أصـبحتم عقـولهم التي بها يفكرون! وعيونهم التي بها يبصرون!

وإنكم الآن في مفترق طرق:

- **إما التكامل والتراحم وإصلاح ذات البين**؛ فيرشد المسار، ويستدير الزمـان، وتعـاد لكم الكرة على عدوكم.
- **وإما التهارج والتنازع وفساد ذات البين**؛ فتفقدون شرعية قيادتكم، وشرعية اجتماعكم، وشرعية أعمالكم التي تصبح يومئذ ضرارًا وتفريقًا بين المؤمنين، و﴿إن

يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾[1]، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾[2].

وإن المأمول فيكم -بإذن الله- أن يكون تنازعُكم هذا كبوةً عارضةً، وانتكاسةً طارئةً، وأن يكون طائفًا من الشيطان قد مسَّكم ثم لا تلبثون أن تتذكروا فإذا أنتم مبصرون، وأن تنهضوا تغذون السير إلى الله، وتتسابقون وتتناصحون في طريقه وتتراحمون، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[3].

أيتها الجماعاتُ الإسلاميةُ! التكاملَ، أو عدمَ الشرعية!

(١) إبراهيم: ١٩-٢٠.

(٢) محمد: ٣٨.

(٣) الأعراف: ٢٠١.

الفصل التاسع

كشف الشبهات عما أثير حول الثوابت والمتغيرات

كشف الشبهات عما أثير حول الثوابت والمتغيرات

أثار كتاب الثوابت والمتغيرات جملة من التساؤلات لدى عدد من قرائه في مواقع شتى، ومنها ما تقدم به أصحابه بلغة المتثبت المستفسر أو الناصح المحب، ومنها ما لم يكن كذلك! وكنت قد ضربت الذكر صفحًا عن هذه التعقيبات في فترة من الفترات ، محافظةً على سلامة الصدر مع الآخرين، واشتغالاً بالأهم فالمهم في زمان الفتن وغربة الدين، ثم نهج لي بعد ذلك أنه مهما كانت لغة الخطاب في هذه التساؤلات، أو درجة الاستفزاز في بعض عباراتها فإن أمانة البيان تقتضي أن أنعطف انعطافة سريعة إلى هذه التساؤلات لتجلية غامضها، وتحقيق مشكلها، وضبط ما يحتاج إلى ضبط من عباراتها، براءة للذمة، وذبًّا للغيبة، واحتياطًا للدين، فكان هذا الفصل الذي تجده بين يديك أيها القارئ الكريم والذي أوردنا فيه أهم الأسئلة التي وردت إلى مؤلف الثوابت عبر هذه الفترة المنصرمة.

لم يُسمع لكم تعليق؟!

لقد أثار كتابكم «الثوابت والمتغيرات» جملة من الإشكالات والانتقادات، ولقد شرَّق الناس بذلك وغرَّبوا، ولم يُسمع لكم تعليق على ذلك؟

بادئ ذي بدء أود أن أتقدم بالشكر والتقدير لكل من أقبل على قراءة هذا الكتاب، وجعله بين جملة اهتماماته، كما أشكر ثانيًا كل من أدار حلقة نقاش حوله، أو تطوع بإسداء نصيحة تتعلق به، مهما كانت شدته في عرضها، فقد رُبينا على أن نقدم النصيحة في أحسن حال، وأن نقبلها على كل حال!

وبعـــــد:

فإن كتاب «**الثوابت والمتغيرات**»كتاب من الكتب، ومصنفه بشر من البشر، ولا

يخفى أن كل أعمال البشر لا تخلو من قصور أو تقصير، فقد أبى الله العصـمة إلا لكتابـه وسنة نبيه ﷺ، فما زعم مصنف هـذا الكتـاب لنفسـه قداسـة ولا عصـمة، ولا ادعـى لكتابه براءة من الأغلاط والتجاوزات، بل على النقيض من ذلك، يعرف عنه كـل مـن خالطه أنه من أكثر الناس اتهامًا لنفسه، وتثريبًا عليها، وامتهانًا لها في الله ﷻ، وقد خـتم تقديمه لهذا الكتاب بقوله: «ونؤكد في ختام هذا التقديم أن هذه الدراسة مجـرد محاولـة من طويلب علم، أدمى قلبَه ما تكابده فصائل العمل الإسلامي مـن تشرذم واعـتلال، فأراد أن يسهم بقلمه -ما استطاع- في دفع هذه الفتن، وإطفاء نيرانها، فإن أصاب فمن الله، وإن أخطأ فمنه أو من الشيطان، وهو راجع عن خطئه في حياته وبعد مماته».

أما صمت صاحب هذه الدراسة عن الدخول في غمار الجـدل الـذي أثـاره بعـض الناس حول هذه الدراسة أو غيرها، فقد غشيت الصحوة -كما تعلم- غاشية من الفتنة في تسعينيات القرن المنصرم، ونبتت فيها نابتة، لا همَّ لها إلا البحث عن الـزلات لكـل من عُرف في الأمة بقلم، أو نصب له فيها منبر، ثم تطيير هـذه الـزلات في كـل مكـان، وشن الغارة على أصحابها، والحط عليهم، واتهامهم بالمروق من السنة، ودمغهم بأبشع التهم، وتحريض السلطان عليهم، حتى زعـم بعضـهم في أحاديثـه السـيارة أن أنصـار العلمانية على الجملة أرضى لله من هؤلاء الدعاة وأتبـاعهم عـلى الجملـة!! لأن الأولـين أصحاب معاصٍ، وقد يوجد مثلها أو يزيد عند غيرهم، أما الآخرين فهـم -بالإضـافة إلى ما يوجد عندهم من التظالم كالذي عند الأولين- أصحاب بدعة، فالمظـالم مشـتركة لدى الفريقين، وقد تفرد الآخرون بالابتداع في الدين!! والمبتدعة عند أهل العلم أخطر من العصاة، وقد تم هذا كله في صلافة واستفزاز يملأ النفس بالدهش والحيرة! ويعسر معه القول بحسن النية وتجردها للنصيحة الصادقة، وقـد اسـتطاع نفـر مـن هـؤلاء أن

يحيطوا ببعض الفضلاء من أهل العلم، وأن يستنطقوهم بتجريح وإدانة بعض الدعاة وحملة الأقلام من أهل السنة، بما يجمعون لهم من زلاتهم، أو بما يختلقونه عليهم من الأباطيل والأظانين، حتى كتب أحد حملة السنة -رحمه الله- في انتقاداته لأحد أهل العلم من المعاصرين كتابًا يعنون له بقوله: «إسكات الكلب العاوي!!»؛ ألست ترى معي أن الصمت في مثل هذا الواقع أحفظ للدين وأبرأ للذمة؟!

إنني أحسب أن خزن اللسان في واقع الفتنة من هدي السلف الصالح -رضوان الله عليهم- عندما يكثر الهرج، ويتقاول الناس بالحق وبالباطل، ويتقاذف الناس بالتهم والمناكر، ولا تُعرف لصاحب قلم حرمة، ولا تُحفظ له سابقة؛ فما أغنانا عن سيئات الآخرين! وما أحوجنا إلى القليل الصالح من أعمالنا!

الفرق الذي تذكرونه بين الثابت والمتغير لا يطَّرد ولا ينعكس:

أول ما يرد من تساؤلات؛ هو التساؤل حول الفكرة الرئيسية من الكتاب، وهل هناك تعريف مطلق لما يسمى بالثابت أو المتغير؟ ذلك أن بعض طلبة العلم يرى أن تعريفكم لكل من الثابت والمتغير تعريف غير مطرد، «فوقوع الخلاف في النص لا تسلبه صفة القطيعة، فكثير من مسائل الفروع قطعية وإن كان فيها خلاف»[1]، «والقطعي هو الذي يجب ثبوت مدلوله، وعدم علم المخالف بقطعية النص لا تنفي ثبوتها في نفسها»[2].

(١) المسودة لابن تيمية.

(٢) طريق الوصول لابن تيمية.

هذا بالإضافة إلى قولهم: إن القطع والظن ليس وصفًا للقول في نفسه، بل هو أمر إضافي حسب حال المعتقد، واستدلوا على ذلك بكلام شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة»: «فكون المسألة قطعية أو ظنية أمر إضافي بحسب حال المعتقدين، ليس هو وصفًا للقول في نفسه، فإن الإنسان قد يقطع بأشياء علمها بالضرورة أو بالنقل المعلوم صدقه عنده، وغيره لا يعرف ذلك لا قطعًا ولا ظنًّا؛ وقد يكون الإنسان ذكيًّا، قوي الذهن، سريع الإدراك؛ عِلمًا وظنًّا، فيعرف من الحق ويقطع به ما لا يتصور غيره ولا يعرفه، لا عِلمًا ولا ظنًّا، فالقطع والظن يكون بحسب ما وصل إلى الإنسان من الأدلة، وبحسب قدرته على الاستدلال، والناس يختلفون في هذا وهذا، فكون المسألة قطعية أو ظنية ليس هو صفة ملازمة للقول المتنازع فيه حتى يقال: كل من خالفه قد خالف القطعي، بل هو صفة لحال الناظر المستدل المعتقد، وهذا مما يختلف فيه الناس، فعلم أن هذا الفرق لا يطرد ولا ينعكس».

أولاً: أبادر إلى شكر من طرح هذا التساؤل، والدعاء له بظهر الغيب بالتوفيق، فقد أتاح لي فرصة لمزيد من التوضيح للفكرة الرئيسية التي من أجلها كُتب هذا الكتاب.

ثانيًا: لا يخفى أن تعبير «الثابت والمتغير» هو تعبير اصطلاحي، والتعبيرات الاصطلاحية تفهم في ضوء مقصود أصحابها منها، ولقد بين الكتاب في صدره ما يقصد بهذا التعبير الذي عنون به الكتاب؛ عندما ذكر أن الغاية من كتابته تتمثل في: «تحرير الثوابت المطلقة، وهي مواضع الإجماع والأصول الثابتة عند أهل السنة والجماعة، كما تهدف إلى بلورة جملة من الثوابت النسبية، وهي بعض الاختيارات العلمية الراجحة التي تمثل مرتكزات أساسية في مسيرة الحركة

الإسلامية، والتي يكتمل بها مع الأولى الإطار العلمي الذي ينبغي أن تتفق عليه فصائل هذه الحركة في واقعنا المعاصر».

ولا يخفى أن الدائرة الأولى: «الثوابت المطلقة» لا يرد عليها -أو لا ينبغي أن يرد عليها- مثل هذا الإيراد؛ لأنها قد حررت ودونت، واصطلحت الأمة عليها منذ زمن بعيد، والمخالف فيها ينبغي أن يُرَدَّ إلى الجادة، فإن كان جاهلًا عُلِّم، وإن كان غافلًا نُبِّه، وإن كان معاندًا أُدِّب!! وإصراره على خطئه لن يقدح في إحكام هذه الأصول، ولن يدُخلها في دائرة النسبية، أو يجعلها في محل الاجتهاد، ولابدَّ من وجود هذه الدائرة في الدين، وإلا فسوف ننتهي إلى عدمية مطلقة، تنتفي فيها الحقائق، وتضطرب فيها جميع الموازين.

وإلى هذا الدائرة يحمل ما جاء في السؤال من قول شيخ الإسلام: «فوقوع الخلاف في النص لا تسلبه صفة القطعية، فكير من مسائل الفروع قطعية وإن كان فيها خلاف»، وما جاء فيه أيضًا نقلًا عن «طريق الوصول»: «والقطعي هو الذي يجب ثبوت مدلوله، وعدم علم المخالف بقطعية النص لا تنفي ثبوتها في نفسها».

أما الدائرة الثانية «الثوابت النسبية» فهي التي قد يرد عليها هذا الإيراد، ولكن الذي يدفعه في هذا المقام أمران:

الأول: أن هذه الدراسة لا تُقَدَّم إلى العامة وأشباه العامة؛ وإنما تقدم مقترحًا إلى أهل العلم وحملة الشريعة، وهؤلاء يغلب عليهم الاشتغال بالعلم الشرعي وتتوافر لديهم آلته، والدراسة لا تفترض تواصل هؤلاء عن بعد، بل تدعوهم إلى لقاءات مباشرة ومناقشات ميدانية على النحو الذي يجري في المجامع الفقهية والمؤتمرات العلمية وأمثالها؛ وذلك لتدارس هذه الأمور وإجالة النظر فيها، بحيث يطلع كل

منهم على ما لدى الآخر، ويستمع إلى بيناته وحججه؛ وهـذا مـا يضـيق مسـاحة الالتباس والاختلاف إلى حد كبير، ثم يبقى بعد ذلك أن ما اتفقوا عليه منهـا قـد فرغ منه، وتقرر كونه مشتركًا دعويًّا بين هذه الفصائل كافة، وما لم يتفق عليه منها فينبغي أن يتفق على أنه لا يصح أن يكون من معاقد الولاء والـبراء، وأن مثلـه لا ينبغي أن يفسد قضية الود، ولا أن يُخترق به سياج الأخوة الإيمانية؛ لأن المقصود في نهاية المطاف هو الوصول إلى مشترك إيماني يجمع بين المتنازعين في هذه المسائل من المشتغلين بالعمل الإسلامي في واقعنا المعـاصر؛ سـواء بالتعـاون في مواضـع الاتفاق، أو التغافر في مواضع الاجتهاد.

الثاني: أن الدراسة لا تدخل في التفصيلات والفروع التي يكثر فيها الجـدل في الغالـب؛ وإنما تتحدث عن مرتكزات وقضايا أساسية، ويغلب على الأدلة في هذه المسـائل أن تكون أوضح من غيرها وأبين.

وعلى هذا فقول شيخ الإسلام: «فكون المسألة قطعية أو ظنية أمر إضـافي بحسـب حال المعتقدين، ليس هو وصفًا للقول في نفسه»، وقوله: «وقـد يكـون الإنسـان ذكيًّـا، قوي الذهن، سريع الإدراك عِلمًا وظنًّا؛ فيعرف من الحق ويقطع به مـا لا يتصـور غـيره ولا يعرفه لا عِلمًا ولا ظنًّا؛ فالقطع والظن يكـون بحسـب مـا وصـل إلى الإنسـان مـن الأدلة، وبحسب قدرته على الاستدلال، والناس يختلفون في هذا»، ينبغـي أن يفهـم في هذا الإطار أنه قول يصدق على الأمة في الجملة، وتفـاوت المـدارك فيهـا ممـا علـم مـن الواقع بالضرورة، فإن كان الحديث عن قياداتها العلمية وصفوة عقولها ورواد مسيرتها، وإن كان موضوع الحديث كبريات القضايا وأمهات المسـائل، وإن كـان المفـترض هـو اجتماع الناس في صعيد واحد للتدارس في ذلك كلـه، وتقليـب النظـر فيـه- فلابـد أن

يختلف الوضع لاختلاف المناط، وأحسب أن ذلك من البداهة بحيث لا يختلف فيه ولا يختلف عليه، والله أعلم.

هل كل المسائل الاجتهادية يصح وصفها بالمتغيرات؟

تسمية المسائل الاجتهادية متغيرات فيه نظر، فهي لم تتغير في نفسها، بل حكم الشرع فيها واحد ثابت ، والمفترض أن تطلق المتغيرات – إن كان ولابد – على المسائل التي علقها الشارع بالعرف، فإنها بهذا تتغير لتغير الأعراف ، وعليه ينطبق كلام العلماء «الفتوى تتغير بتغير الزمان» كما أفاده الأئمة المحققون ومنهم الإمام ابن القيم في الإعلام.

المقصود بالتغير هو تغير الاجتهاد، وتغير الاجتهاد لا يكون بالضرورة في الأحكام التي تبنى على العرف، بل يكون في ذلك، وفيما سواه من مسائل الاجتهاد التي لم يرد فيها دليل قاطع من نص صحيح أو إجماع صريح، فقد يتغير نظر المجتهد في النازلة لظهور دليل كان خافيًا، أو لتصحيح حديث لم يكن قد ثبتت لديه صحته، أو لظهور وجه جديد من وجوه المصلحة أو المفسدة فيما كان مبناه على الموازنة بين المصالح والمفاسد، أرأيت عندما غيرت اللجنة الدائمة ببلاد الحرمين فتواها بجواز النكاح بنية الطلاق إلى الأخذ بالمُفْتَى به عند الحنابلة من اعتبار هذا النكاح نكاح متعة والحكم بإبطال عقده وتحريمه، هل كان مبنى الحكم السابق على العرف ؟ وهل كان مرد هذا التغير إلى تغير هذا العرف؟ أرأيت عندما غير الشافعي كثيرًا من اختياراته الفقهية عندما انتقل إلى مصر هل كانت كل مسائله التي تجدد فيها اجتهاده مبناها على الأعراف فغيراجتهاده

لتغير هذه الأعراف؟ إن الأمر أوسع مدى من ذلك كما هو ظاهر، ومرة اخرى نؤكد أنه إذا تعلق بالأمر باصطلاح فلا مشاحة في الاصطلاح!

هل في أصول الدين ما يعدُّ من موارد الاجتهاد؟

ومن هذه الإشكالات أيضًا قولكم عن تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام: «لم يرد به فيما نعلم آية محكمة أو سنة متبعة».

فهل ذلك يعني أنكم تعتقدون أن أصل الدين لم يبين، بل تُرك للاجتهاد؟ ثم أليس ذلك يخالف كلام أئمة الدعوة من أمثال الإمام محمد بن عبد الوهاب وغيره، والشيخ عبد الله بن حميد في رسالة التوحيد التي ذكر فيها: «التوحيد ثلاثة أقسام بالكتاب والسنة والإجماع».

أخـــي الكـــريـــم:

الحديث عن مضمون التوحيد شيء، والحديث عن تقاسيم اصطلاحية في دارسة التوحيد وتعليمه شيء آخر، والمعركة التي يجب أن تحشد لها الحشود هي تجريد مضمون عقيدة التوحيد مما علق بها من شوائب الشرك والبدعة، فهذا المضمون هو الذي يطلق عليه أنه من أصول الدين، وهو الذي لا يدخل شيء منه في موارد الاجتهاد، فهو محكم ما بقيت السماوات والأرض، وكاتب هذه السطور يعتقد ما يعتقده أهل السنة قاطبة من الإقرار بتوحيد الله تعالى بأفعاله؛ خلقًا وملكًا ورزقًا وتدبيرًا وهدايةً وتشريعًا... إلخ، والإقرار بتوحيده تعالى بأفعال العباد؛ رغبًا ورهبًا ودعاءً واستغاثةً وصلاةً ونسكًا وذبحًا ونذرًا وانقيادًا مطلقًا... إلخ، والإقرار بأسمائه الحسنى وصفاته العلا؛ إثباتًا بلا

تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، والإيمان بأن التوحيد أول واجب على المكلفين، وأول ما يدعى إليه الناس من أمور الدين، وأنه شرط لصحة سائر العبادات وقبولها، وأن الكفر والشرك محبط لجميع الطاعات، وأن توحيد الربوبية هو المدخل إلى توحيد الألوهية، وأن الإيمان بالربوبية مما أقر به عامة بني آدم، وأن قضية الرسل ومعركتهم مع أقوامهم دارت حول توحيد الألوهية، فهو الذي انقسم الناس عنده إلى موحدين ومشركين...إلخ، فإذا تحرر المضمون على هذا النحو، فقد هان ما وراءه من تعدد الاجتهادات المتعلقة بالتقاسيم الاصطلاحية.

ومن ناحية أخرى فإن من أهل العلم -كما تعلم- من جعل التوحيد قسمين: توحيدًا علميًّا خبريًّا؛ وهو عنده يشمل توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيدًا علميًّا طلبيًّا؛ وهو توحيد الألوهية، فجمع بين توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وجعلهما قسمًا واحدًا، ولا حرج في ذلك ولا غضاضة، وعندما تحدث أهل العلم من المعاصرين عن شرك العلمانية والحكم بغير ما أنزل الله منهم من أدخله في باب توحيد الربوبية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[1].

ومنهم من أدخله في باب توحيد الألوهية؛ لقيام هذا التوحيد على ركنين؛ كمال التأله والتنسك، وكمال الطاعة والانقياد؛ والعلمانية إخلال بهذا الأخير، ومنهم من ألحقه بباب الأسماء والصفات باعتباره إخلالًا وإشراكًا باسمه تعالى: «الحَكَم»، ولكلٍّ فيما ذهب إليه وجه ووجاهة، وقد يمكن الجمع بين ذلك كله فيقال: «إن العلمانية إخلال بالتوحيد في أقسامه الثلاثة: ربوبية، وألوهية، وأسماء وصفات».

(١) التوبة: ٣١.

وقد تشيع موجات إلحادية في بعض جوانب التوحيد في بعـض المنـاطق، فيفردهـا أهل العلم بالذكر، ويعنونون لها العناوين الخاصة، كـما لـو قيـل: «توحيـد الخالقيـة»في منطقة شاع فيها الإلحاد، أو القول بنظرية الخلق الذاتي، أو النشـوء والارتقـاء ونحـوه، والقصد في ذلك التعليم والتوضيح ولفت الانتباه، إن هذا هو النسق الذي سيقت فيـه هذه الكلمات، وأحسب أن الخطب في ذلك هين ويسير.

كما أحسب أن جلَّ تقاسيم العلوم اصطلاحية، وليس فيها ما يقال عنـه: إنـه جـزء من أصل الدين، وإن الإخلال به إخلال بأصل الدين!

إنني أود ألَّا يخلط القارئ بين القول بأن هذا التقسيم تقسيم اصطلاحي على النحو الوارد في كتاب «الثوابت والمتغيرات»، وبين انتهاج بعض الإسـلاميين طريقًـا آخـر في تقسيم التوحيد يترك آثاره على المضمون، أو يشوش عليه في أدنى تقدير، إن من يقولون مثلًا: إن التوحيد أن تعتقد أن الله واحد في ذاته لا قسيم له، وواحد في صـفاته لا مثيـل له، وواحد في أفعاله لا نظير له، ويقولون في تعريفهم للإله: إنه القادر عـلى الاخـتراع- يكادون يحصرون التوحيد في الجانب العلمي الخبري الاعتقادي وحده، ولا تكاد تعثـر في عباراتهم على أثر ظاهر لتوحيد العبادة؛ أي: للنوع الآخر من التوحيد، وهو التوحيد العملي الطلبي، ومن أجل هـذا توسـعوا في كثـير مـن القضـايا الماسَّـة بأصـل الـدين، وأحالوا الأمر في تكييفها والحكم عليها إلى جانب الاعتقاد فحسب، فـإن رأوا خرافيًّـا يدعو غير الله قالوا: العبرة باعتقاده؛ فما دام يعتقد أن الله هو الخـالق، أو أنـه وحـده لـه الخلق والأمر فقد تجاوز القنطرة في باب التوحيد، ومثل ذلك في جل صور العبادة التي تصرف لغير الله في واقعنا المعاصر.

إن القضية في مثل هذا تتجاوز حدود الخلاف المقبول حول تقسيم اصطلاحي لا مساس له بالمضمون، يعتبره هذا محكمًا ويعتبره الآخر اجتهاديًّا، إنها تتجاوز هذا إلى طرح جديد قد يشوش على حقائق التوحيد في ذاتها، ويفتح الباب واسعًا إلى التغافر مع صور كثيرة من الأقوال والأعمال الشركية؛ بدعوى سلامة اعتقاد من تلبسوا بها، وأن المعول عليه في باب التوحيد هو الاعتقاد فحسب، ولعل هذا هو وجه التوجس عند من تحفظوا على ما جاء في كتاب «الثوابت والمتغيرات»من اعتبار هذا التقسيم تقسيمًا اصطلاحيًّا، فلعل أعينهم كانت على مثل هذا المآل، فإذا أُمن هذا المحذور، وأُحكم القول في مضمون التوحيد وحقائقه فقد هان الأمر، ولم يصبح الحديث حوله بهذه الحساسية المفرطة.

ومن ناحية أخرى؛ فقد أكدت الدراسة على أن هذا التقسيم قد استقر قرونًا طويلة، وأنه ينبغي اعتماده، على ألا يجعل وحده من معاقد الولاء والبراء، فقد جاء في نهاية الفقرة المشار إليها: «هذا؛ وإن كان تتابع أهل العلم على استخدام هذا التقسيم واستقراره عبر قرون طويلة؛ يجعله جزءًا من التراث السلفي، فينبغي قبوله على ألا يكون في ذاته معقد ولاء وبراء».

ولكاتب هذه السطور كتب أخرى شرح فيها مضمون التوحيد، وقد جرى فيها جميعًا على هذا التقسيم، ولم يتجاوزه في قليل ولا كثير؛ فهل ترى أن القضية على هذا النحو وفي هذا الإطار تستحق كل هذا الضجيج والجلبة؟!

وأخيـــــــــرًا:

فإن ما جاء في هـذه الدراسـة لا يعـدو أن يكـون أطروحـة تقـدم إلى أهـل العلـم والفتوى لمراجعتها وتسديدها، فقد يُنقل بعض ما جاء فيها من الثوابت إلى المتغـيرات، أو العكس، ومن أجل هذا كتبت هذه الدارسة؛ لا لكي تكون جُهدًا فرديًّا لصـاحبها - فما أكثر الأعمال الفردية! وما أقل جدواها في كثير من الأحيـان!- ولكـن لكـي تكـون جُهدًا جماعيًّا يجتمع على مراجعته وتسديد مضمونه المقدَّمون في الأمة مـن أهـل العلـم وأهل الفتوى؛ رجاء أن تكون بعد تسديدها مشتركًا دعويًّا أو إطارًا مرجعيًّـا للصـحوة الإسلامية المعاصرة.

وقد كنت أرجو أن تقدم الملحوظات في هذا الإطار، لا سيما وقد بينت الدارسة في مقدمتها هذا المعنى وأكدت عليه، كنت أرجو أن يبدأ المنتقد بتقدير الجهد الذي بذل في إعداد هذه الدارسة، والدعاء لصاحبها بالتوفيق والقبول، ثم يقال -مـثلاً-: اسـتجابة للنداء الذي وجهتموه في تقديمكم لهذه الدراسة إلى طلبة العلم أن يتقـدموا بـما لـديهم من ملاحظات أو إضافات إلى المؤلف أو الناشر- فإننا نبدي هذه الملاحظات، أو نقـدم هذه الاستفسارات؛ رجاء أن يصلنا منكم جواب أو توضيح تـزداد بـه هـذه الدراسـة سدادًا وقبولًا بإذن الله، ولكنا كما قال الآخر:

سريع الى ابن العم يصفع خده *** وليس الى داعي الندى بسريـع

عدم الرد على أهل البدع والتنسيق معهم لمواجهة تيار الكفر والعلمنة!!

تؤكدون في كتابكم في أكثر من موضع أنه يجب علينا الآن ألا نشتغل بالرد على أهل البدع ، بل نضع أيدينا في أيديهم لمواجهة تيار العلمنة والكفـر، وهـذا يخـالف الثوابـت

السلفية، فإن كليهما عدو والواجب مواجهتهما جميعاً ، بل إن مواجهة أهل البدع أهم وأولى من مواجهة أفكار الكفر!

لا ينقضي العجب من قول السائل إنني قد أكدت في غير موضع أنه يجب علينا الآن ألا نشتغل بالرد على أهل البدع ، بل نضع أيدينا في أيديهم لمواجهة تيار العلمنة والكفر، إنني وأنا الكاتب للثوابت أقرر أن صدر هذا المعنى لم أثبته في كتاب من كتبي قط، لا في الثوابت ولا في غيره من الكتب، ولا هو المنهج العملي الذي سلكته عمليًّا عبر مسيرتي الدعوية على مدى ما يزيد على ثلاثين عامًا، فلم نزل ندعو إلى أصول أهل السنة، ونصنف في ذلك التصانيف، التي تتضمن في تضاعيفها الرد على مخالفيها من أهل البدع، وقد شرقت هذه التصانيف في دنيا الناس وغربت، ومنها ما كان في منظومة المقررات الدراسية في المؤسسات العلمية التي أنشأها كاتب الثوابت أو أسهم في إنشائها، ولكن هذا كله كان يتم بعيدًا عن الاستعلائية، والاستفزاز في الخطاب، والتراشق بالعبارات المتجهمة التي تقيم الحواجز والجدر بيننا وبين من ندعوهم إلى هذا الحق، وقد أفاد منها بفضل الله خلق كثير، وما نقله المستدرك - حفظه الله - لا يدعم هذه الدعوى، وليس فيه من قريب أو من بعيد دعوة كاتب الثوابت إلى ترك الدعوة إلى الحق أو كتمان العلم، أو تزيين البدع أو التلبيس على عباد الله، بل هذا هو مافهمه المستدرك فأخطأ، فجاء استدراكه على غير ما قصدت، وكانت شدته على خلاف ما قررت، وأيًّا كان الأمر فإن له مني الحسنى وإن أساء!

إن صفوة القول في الرد على هذه الاستدراكات أن كاتب الثوابت لا يدعو إلى ترك الرد على أهل البدع، ولاهذا هـو المسـلك الـذي سـلكه عمليًّـا، وإنـما يـدعو إلى تغـير أسلوب الخطاب، فبدلًا من التشنيع والتهييج والإقصاء، أو التقاتل والاحتراب ينـادي بالتألف، واستقطاب المخالف، وفـتح مغـاليق قلبـه بالحكمـة والموعظـة الحسـنة؛ لأن استحياءه بالتوبة أحب إلى الله عز وجل من قتله بالإصرار والمعاندة! وأن تلبسه ببدعـة لا يمنع من الإفادة منه في المواجهة مع قوى الكفر والعلمنة؛ لأنـه قـد تمهـد في أصـول أهل السنة أنه يقاتل مع المبتدع من هو أشد منه ابتداعًا، بل ومع الكافر من هو أشد منه كفرا! وأن هذا المسلك تشتد الحاجة إليه في أزمنة الفتن وغربـة الـدين وضـعف الأمـة وانكسار شوكتها، ومسيس حاجتها إلى الاحتشاد في مواجهة من يقاتلونهـا عـلى أصـل دينها، حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق!

ولعل مما يزيد هذا الأمرجلاءً أن نذكر أن صاحب هذا الكتاب قد بدأ رحلتـه مـع التصنيف خارج المنطقة العربية، فكتب جُلَّ كتبه في باكستان التي قضى فيها بضع سنين مشرفًا على مركز بحوث تطبيق الشريعة، ومنها كتابه الثوابت والمتغيرات، وقد آسفه في هذه المرحلة ما كان يقع على أرض باكستان من مسلسـل إحـراق المسـاجد بـين السـنة والشيعة، وما استتبعه ذلك من مسلسل الدماء المراقة بين الفـريقين، وقـد أتـيح لـه أن يجري حوارات مباشرة مع بعض المنتسبين إلى منظمة "جنود الصحابة" التي كانت تمثل جانب السنة في هذا المسلسل الأسيف، وكان السؤال الذي يطرحه على مسامعهم دائمًا:

ماهي الغاية من هذه الشراسة في المواجهة ، والتي تتلون دائمًا بلون الدماء المراقة من كلا الجانبين؟ وهل تعينت هذه الشراسة طريقًا لتحقيق هذه الغايات؟! هل تعينت الدماء سبيلًا إلى توعية أهل السنة بخطورة التشيع وتحذيرهم من ضلالاته وشذوذاته؟! هل تريدون مثلًا أن يتبنى المجتمع الباكستاني ومؤسساته الرسمية بذلك تكفير الشيعة عمومًا علماءَ وعامةً؟ واعتبارهم من الفرق المرتدة كما فعل مع القاديانية من قبلُ؟! إن هذا المطمح – إن كان – لا سبيل إلى تحقيقه، فإن أهل السنة لم يجمعوا على هذا القول، وخلافاتهم في تكفير أئمة القوم مشهورة ومتواترة!

وإن كنتم تريدون القضاء عليهم واستئصال شأفتهم فلا سبيل إلى ذلك كذلك، فلم يحدث عبر التاريخ الإسلامي أن استئصلت فرقة من الوجود بالكلية مهما بلغت ضلالاتها وشذوذاتها، ثم لتغير خارطة المجتمع الدولي، فإن للقوم دولة تشد أزرهم وتظاهرهم على باطلهم، ولها من القوة والنفوذ ما لا ينكر أثره، وهي دولة جوار وحدود مع باكستان، وللحكومة الباكستانية – شأنها شأن غيرها من الحكومات – حساباتها وموازناتها، لم يبق إذن إلا تحذير أهل السنة من هذه الضلالات وتلك غاية لم تتعين الدماء سبيلًا إلى تحقيقها! تحدثوا عن ضلالات الشيعة كما تشاءون، ألفوا الكتب في الرد عليهم كما تشاءون، ولكن لا يبلغ الأمر بكم هذا المبلغ.

ثم أتيح لكاتب هذه السطور أن يجري حوارًا مع القاضي حسين أحمد أمير الجماعة الإسلامية بباكستان، وهي تمثل الطرف الآخر في معادلة التعامل مع أهل البدع، فكان

مما سأله عنه يومئذ: كيف تفسرون هذه الملاينة المفرطة مع الشيعة من قبل الجماعة الإسلامية مع ما تعلمونه من ضلالات القوم ومنكراتهم التي لا ينبغي أن يختلف فيها ولا أن يختلف عليها؟! فكان مما أجاب به يومئذ: إن للسنة أقلية تعيش داخل إيران، وإن مثل هذه المداراة في التعامل مع قادة القوم مما يدفع الله بعض المظالم عن أهل السنة بها، وذكر أنه قد التقى ببعض قيادات السنة في إيران فذكروا له أن لا يصدق ما تزعمه قيادة الرافضة من أن أهل السنة يتمتعون بحقوقهم داخل إيران، وأن هذا محض كذب واختلاق، ولكنهم نصحوا لهم بأن يستمروا في مداراتهم فإن هذا مما ينتفع به أهل السنة في نهاية المطاف، كأنه يقول لهم من خلال هذه المداراة: إن لكم أقلية في باكستان من الشيعة كما أن لنا أقلية في إيران من السنة، فارفقوا برجالنا وأدوا لهم حقهم نرفق برجالكم ونؤدِ إليهم حقهم! فسأله يومها كاتب هذه السطور وكيف يعرف الناس الحق؟ ومتى؟ إذا كان العامة عندكم يرون قياداتهم في مواقف المداراة مع القوم، ألا يلبس هذا عليهم دينهم؟ ويجعلهم يخلطون السنة بالبدعة والهدى بالضلالة؟ فقال له: إن هذا هو دور الأئمة والخطباء فنحن نترك خطباءنا بل نشجعهم على البيان وإقامة الحجة، ولكن بالتي هي أحسن وبلغة الناصح الرفيق، الذي يريد الخير لقومه، وليس بلغة السباب والشتائم التي لا تزيد الأمر إلا سوءًا ولا ينتفع بها أحد من الفريقين: لا الرادُّ ولا المردودُ عليه!

ثم قدر لكاتب هذه السطور بعد ذلك أن يقضي سحابة عمره خارج ديار الإسلام، وقد شرفه الله- جل وعلا- بالمشاركة في حمل أمانة الدعوة إلى الله في هذه البلاد، وقد كان هذا في أجواء التهييج على الأمة والملة، وخارطة الولاء والبراء في هذه الأجواء لابد أن تكون لها خصوصياتها التي تتميز بها عمن يقيمون في أزمنة الاسترخاء والعافية، أو يعيشون في كنف الأمة، وفي أفضل بقاعها حيث بقايا الشريعة، وبقايا التحاكم إلى الدين وتعظيم شعائر الله- عز وجل!

ومع هذا لم يدر بخَلَد كاتب هذه السطور أن مداراة بعض أهل البدع في هذه الأجواء تقتضي كتمان السنة وتزيين البدعة، وتضليل الأمة وتزييف وعيها، بل عُرِف كاتب هذه السطور بتصلبه في دعوته إلى السنة وموالاته لأهلها، وتميزت مؤسساته التي أقامها في هذه البلاد بهذا التصلب، وكم جَرَّ هذا عليه في هذه البلاد وفي تلك الأجواء ما جر، ولكنه صبر على ذلك صبرًا يحتسب أجره على الله -عز وجل-، لقد أقام مئات المحاضرات، وعشرات الدورات في العقيدة في عشرات الولايات، وعلى مدى ربع قرن من الزمان أو يزيد، ولا يزال، شرح فيها أصول أهل السنة في التوحيد والتزكية والاتباع، وردَّ فيها على من خالفهم، وما كتبه في أصول الإيمان يدرس في المعاهد العلمية التي أقامها أو شارك فيها، وقد طبع عدة طبعات وترجم إلى عدة لغات، وما شرق أو غرب إلا منتصرًا لهذا المنهج، ومبطلًا لشبهات خصومه، وهذا هو مقام الدعوة والبناء، وقد أعطاه فيما يحسب حقه، ولم يألُ فيه جهده!

أما مقام إقامة المصالح العامة للمغتربين من أهل الملة فذلك مقام آخـر، إن لأهـل القبلة في هذه الـبلاد مصـالح عامـة تمـس الحاجـة معهـا إلى تكـاتف جهـودهم جميعًـا لتحقيقها، إن لهم مؤسسات تحتاج إلى حمايـة، وتقـع علـيهم مظـالم يحتـاجون معهـا إلى تعاضد لدفعها، وإن واقعهم في بحار الكفر المتلاطمة التي تحيط بهم لا يحتمل أن تنتقـل شرارة الفتن التي تشتعل في الشرق إلى بيئتهم، وأن تقضي على بقية العافية القليلة التـي بقيت في جسدهم، إن مسلسل تبادل حرق المساجد بين السـنة والشـيعة الـذي يقـع في باكستان أو في العراق لا تحتمله أجواء المغتربين من المسلمين خاج ديار الإسلام! ومـن ثم كان لا بد من تريب آلية للحوار في هذه البيئة لتطويق مثل هذه الفتن ومنع انتقالهـا، ومن هنا كان منطق التألف والمداراة مع بقاء الخصوصـيات المنهجيـة والعقيديـة لكـل الطوائف ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾[1] وقد تفـاوت أهل السنة في التعامل مع المخالف لهم تفاوتًا ظاهرًا من التصلب والمجافـاة إلى التـألف والمداراة بحسب المصالح أو المفاسد التي تترتب على هذا أو ذاك، من غير أن يعني هذا إقرارًا لمذهب المخالف بالصحة، أو لشذوذاته العقدية أو المنهجية بالشرعية!

ومثل ذلك مقام المستضعفين من أهل الدين تحت خيمة العلمانية وجبروت الأنظمـة الوضعية، فإن مصلحة الدعوة في هـذه الأجـواء قـد تقـتضي تنسـيقًا في بعـض المواقـف وتعاضدًا لتحقيق بعض المصـالح المشـتركة مـع فريـق أو أكثـر مـن المخـالفين في بعـض

(١) الإسراء: ٨٤.

الأصول الكلية، وإذا كان ديننا قد جاء فيه قول النبي ﷺ عن مشركي مكة: «**لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها**» وقد وسع هذا القول النبوي المضيء أهل الشرك إن جاءوا بخطة رشد، ألا يسع فريقًا من أهل القبلة ممن بقوا على أصل الدين، ولكنهم استحوذ عليهم الشيطان فتحزبوا على بعض الأصول البدعية!

إن مثل هذا المنطق يلجأ إليه العقلاء قاطبة فوق كل أرض وتحت كل سماء، ومنها ما يجري عليه العمل في بلاد الحرمين وهي التي أقيمت على التوحيد، ويرابط علماؤها على ثغور إقامة الدين وإحياء السنة، ولا تأخذهم في الحق لومة لائم، إنهم يقرون حكومات بلادهم على إقامة علاقات دبلوماسية مع دول الكفر ودول البدع لتحقيق بعض المصالح الدينية أو الدنيوية، كما يقرونها على عضوية المنظمات الدولية وماهي إلاتحالف مع أهل الأرض قاطبة عربهم وعجمهم مؤمنهم وكافرهم، على تحقيق بعض المصالح العالمية المشتركة، أليست بلاد الحرمين- حفظها الله - عضوا في الأمم المتحدة، وما هذه الهيئة إلا تحالف دولي لتحقيق بعض المصالح الدولية المشتركة، وهي تضم فيمن تضم عبدة البقر، وعبدة الشياطين، وعبدة النار، كما تضم الرافضة وغيرهم من غلاة أهل البدع؟ بل تضم المسالمين لأمة الإسلام والمحاربين لها على حد سواء، ولا يرون ذلك قادحًا في عقيدة الولاء والبراء، ولا تبرؤوا من حكوماتهم لهذ السبب؛ لعلمهم أن قواعد السياسة الشرعية تستوعب مثل هذه التصرفات التي تدور في فلك الموازنة بين المصالح والمفاسد! إنهم يجتمعون مع ممثلي الدول الإسلامية في المؤسسات الدينية الرسمية كالمجمع الفقهي

ورابطة العالم الإسلامي، ومجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمرالإسلامي وغيرهـا، ومن هؤلاء من عرف بأشعريته، أو بتصوفه أو حتى بتشيعه، ولا يـرون في ذلـك حرجًـا، ولا قدحًا في عقيدة الولاء والبراء؛ لأن اجتماعهم في هذه المجالس لتحقيق مصالح عامـة للأمة لا يتسنى تحقيقها إلا بهذا الطريق، ولا أدري كيف يكون مشروعًا أن يجتمع سماحة الشيخ ابن بـاز – رحمـه الله – في المجمـع الفقهـي مـع مثـل حسـنين مخلـوف ومعـروف الدواليبي لمناقشة بعض القضايا الفقهية، ويكون حرامًا أن يجتمع سـفر الحـوالي في حملتـه التي نظمها لمقاومة العدوان مع ممثلي اتجاهات مختلفة داخل البيـت المسـلم لـنصرة النبـي محمد ﷺ، ودفع غائلة العدوان عن الأمة؟!

وقل مثل ذلك في جامعات بـلاد الحـرمين، التـي كانـت ولا تـزال مهـوى أفئـدة المسلمين في المشارق والمغارب لقيامها على السـنة وحراسـتها لمعالمهـا، فـإن جـل هـذه الجامعات قد اعتمدت في إقامة صروحها العلميـة عـلى أسـاتذة يسـتجلبون مـن مصر والشام، على ما عرف به سوادهم الأعظم من أشعرية وتصوف، وعـلى مـا عليـه كثـير منهم من تفريط في شعائر الهدي الظاهر، ولم يمنع ذلك علماء السنة وحراسـها في هـذه البلاد من أن يستعينوا بهم ويعولوا عليهم في إقامة هذه الجامعات، بل ولهذه الجامعـات وللوزارات المشرفة عليها عناوين ثابتة ومقار دائمة في هذه البلاد عرفـت باسـم لجـان التعاقد، التي تنزل سنويًّا لتتعاقد مع من عرفوا بالتخصص في علوم الآلة مـن هـؤلاء، تُرَى هل زاغ هؤلاء عن القصد، وعموا وصموا عن المـنهج الصـحيح، وهـم يعولـون

على هؤلاء في إقامة صروحهم العلمية، ويسلمون إليهم عقول أبناءهم ليتخرجوا على أيديهم، ويمنحوهم إجازات التخرج، بدءًا من البكالوريوس مرورًا بالماجستير والدكتوراه؟ ولم يحجبوا عن هؤلاء العلماء إلا مادة العقيدة التي لا يعتمدون فيها إلا على من عرف بسلامة المنهج واستقامة المعتقد؟ ألم أقل: إنه المنطق الذي يعتمده العلماء، بل العقلاء قاطبة، وهم يعيشون في عالم متشابك يأخذ بعضه بحجز بعض، ولا يمكن أن يعيش أحد فيه كمن يعيش داخل جزيرة منعزلة فينكفئ على ذاته، ولا يرى إلا من كان على شاكلته، ولا يتواصل إلا معه!

أما القول بأن مواجهة أهل البدع أهم وأولى من مواجهة أفكار الكفر والعلمنة فهو قول يحتاج إلى مراجعة! فإن الكفر أسخط لله من البدعة، فقد «سئل النبي ﷺ: أي الذنب أعظم؟ فقال: **أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**»! وإن أهل الشرك أبعد عن الله من أهل التوحيد ممن خلطوا سنة ببدعة، أو عملًا صالحًا بآخرَ سيءٍ، وأيًّا كان الأمر فليس الحديث عن ترك الرد على أهل البدع أو ترك الدعوة إلى السنة، وإنما الحديث تحديدًا حول طريقة التعامل مع المخالف في أزمنة الضعف وغربة الدين، هل هي التصلب والمجافاة أم التألف والمداراة؟!

والذي نراه يصلح لحال الأمة في زمن ضعفها وانكسارها هو التألف والمداراة وليس التصلب والمجافاة، ولا علاقة لذلك - كما سبق - ببيان الحق والدعوة إليه والرد على شبهات مخالفيه! وقد نكون في ذلك مخطئين أو مصيبين، ولكن هذا هو ما نعتقده

صوابًا، فإن كان كذلك فهو مـن الله، وإن كـان خطـأ فهـو منـا أو مـن الشـيطان، والله ورسوله منه بريئان!

الطواف بالأضرحة والقبور؟

قولكم في مسألة الطواف بالأضرحة والقبور: «وفي الطـواف بالأضرحـة عـلى أنـه طواف تحية، وليس طواف عبادة، فقصاراه أن يكون بدعة لا شركًا، وفي طلب المدد على أنه طلب للدعاء والشفاعة إلى الله، فيؤول إلى التوسل المختلف فيـه، ونحـو ذلـك مـن التأويلات التي تشيع في عالم الصوفية- ليس المقصود به نفي البدعـة والإثـم عـن هـذه الأعمال، وإدراجها بين المسائل الاجتهادية التي لا ينكر فيها على المخالف؛ وإنما المقصود به أن يكون شبهة تنفي عنهم وصف الشرك؛ حتى تقوم عليهم الحجة، ويثبت قصـدهم إلى المناطات الشركية الفاسدة بما تثبت به المناطات المبيحة للدماء».

وينقل البعض في الرد عليكم قول الشيخ محمـد بـن إبـراهيم -رحمـه الله-: «وأمـا الطواف بالقبر، وطلب البركة منه، فهو لا يشك عاقل في تحريمه، وأنه من الشرك، فـإن الطواف من أنواع العبادات، فصرفه لغير الله شرك، وكـذلك البركـة لا تطلـب إلا مـن الله، وطلبها من غير الله شرك».

لقد وردت هذه العبارات تحت عنوان: «المنازعة في مدى اعتبار بعض التـأويلات في مسألة من المسائل»، وأول العبارة الذي أغفله هذا النقل ما يلي: «بعد الاتفاق عـلى أصـل اعتبار التأويل عند إجراء الأحكام، قد يقع النـزاع في اعتبـار التأويـل في مسـألة بعينهـا؛ كاعتبار ما يتأوله المتصوفة في النـذور التـي تقـدم إلى أصـحاب القبـور عـلى أن النـذر لله

والثواب لأوليائه، وفي الدعاء الذي يتوجهون به إلى أصحاب القبور على أن المقصود به هو طلب الشفاعة من الولي إلى الله، وأن الميت في قبره يسمع، كما ذهب إلى ذلك كثير من أهل العلم، وفي الطواف بالأضرحة...»، ومن يتأمل هذا النقل فسوف يقف على ما يلي:

- نسبة هذه التأويلات إلى المتصوفة، وبيان أن المنازعة في اعتبارها أو عدم اعتبارها عند إجراء الأحكام على التعيين.

- بيان أن هذه التأويلات فاسدة، وأنها لا تُسَوِّغُ هذه الأعمال، ولا تقدح في إحكام القول ببطلانها وتحريمها.

- التأكيد على أن مدار الحديث حول اعتبارها أو عدم اعتبارها عند إجراء الحكم بالكفر أو الشرك على معيَّن من هؤلاء، وأن هذا مما يتسع فيه المجال للنظر والاجتهاد، فكما وقع نزاع في اعتبار عارض الجهل أو عدم اعتباره عند إجراء الأحكام، فقد وقع النزاع كذلك في اعتبار بعض الشبهات والتأويلات الفاسدة أو عدم اعتبارها، وعندما نتحدث عن الأمة واجتماع كلمتها فلا نستطيع أن نتجاهل مثل هذا النزاع، ولبعضنا أن يرجح إهدارها وعدم اعتبارها؛ ولكن كيف ينظر إلى الذين يتحوطون في باب التكفير، فلا يهدرون هذه التأولات عند إجراء الأحكام؟!

وإني لأتوجه إلى المنازع في ذلك بمثل هذا السؤال: في ظل شيوع الجهالة وقلة العلم بآثار الرسالة؛ لو كنا أمام رجل يطوف بقبر من القبور، فأخذناه لنستبين موقفه لنجري عليه الحكم اللائق به، فوجدناه يعتقد -جهالةً- أن طوافه بالقبر طاعة لله تعالى وتعظيم لأمره!! وأن الله تعالى كما تعبده بتحية البيت بالطواف حوله تعبده بتحية قبر الولي بالطواف حوله!! وأن هذه من جنس محبة الصالحين وتوقيرهم الذي جاءت به

الشريعة، وأنه كما لم يعتبر الطواف بالبيت عبادة للبيت بل لرب البيت، لا يعتبر الطواف بالقبر عبادة للقبر بل لرب القبر!! وأنه يفعل ذلك طاعة لله ﷻ وانقيادًا لأمره؟!

المقطوع به أن فعله هذا بدعة، وأنه باطل وغير مشروع؛ ولكن هل تحقق فيه على هذا النحو مناط الشرك؟ وهل يتسنى الحكم عليه بأنه مشرك مع وجود هذه الشبهة؟!

لقد سُئلت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء والدعوة ببلاد الحرمين (١/ ٢٠٦) : «ما حكم الطواف حول أضرحة الأولياء، أو الذبح للأموات أو النذر، ومن هو الولي في حكم الإسلام، وهل يجوز طلب الدعاء من الأولياء أحياءً كانوا أم أمواتًا؟

فأجابت: الذبح للأموات أو النذر لهم شرك أكبر، والولي: من والى الله بالطاعة، ففعل ما أمر به وترك ما نهى عنه شرعًا ولو لم تظهر على يده كرامات، ولا يجوز طلب الدعاء من الأولياء أو غيرهم بعد الموت، ويجوز طلبه من الأحياء الصالحين، ولا يجوز الطواف بالقبور، بل هو مختص بالكعبة المشرفة، ومن طاف بها يقصد بذلك التقرب إلى أهلها كان ذلك شركًا أكبر، **وإن قصد بذلك التقرب إلى الله فهو بدعة منكرة**، فإن القبور لا يطاف حولها ولا يصلى عندها ولو قصد وجه الله» انتهى .

وقد سئل الشيخ ابن باز – رحمه الله – بما نصه : «كنت جالسًا مع إخوة لي من أبناء وطني من صعيد مصر، فقالوا لي: يوجد عندنا مقام لأبي الحسن الشاذلي من طاف به سبع مرات كانت له عمرة، ومن طاف به عشر مرات كان له حجة، ولا يلزمه الذهاب

إلى مكة، فقلت لهم: إن هذا الفعل كفر بل شرك -والعياذ بالله- فهل أنا مصيب؟ وبماذا تنصحون من ينخدع بذلك؟

الجواب: نعم قد أحسنت، لا يجوز الطواف بالقبور، لا بقبر أبي الحسن الشاذلي، ولا بقبر البدوي، ولا بقبر الحسين، ولا بالسيدة زينب، ولا بالسيدة نفيسة ولا بقبر من هو أفضل منهم؛ لأن الطواف عبادة لله، وإنما يكون بالكعبة خاصة، ولا يجوز الطواف بغير الكعبة أبدًا، وإذا طاف بقبر أبي الحسن الشاذلي أو بمقامه يتقرب إليه بالطواف، صار شركًا أكبر، وليس هو يقوم مقام حِجة، ولا مقام عُمرة، بل هو كفر وضلال، ومنكر عظيم، وفيه إثم عظيم.

فإن كان طاف يحسب أنه مشروع، ويطوف لله لا لأجل أبي الحسن فهذا يكون بدعة ومنكرًا، وإذا كان طوافه من أجل أبي الحسن ومن أجل التقرب إليه فهو شرك أكبر- والعياذ بالله-.

وهَبْ أن هذا هو الراجح لدى بعض الناظرين في هذه المسألة؛ فهل يسعهم - والحال كذلك - القول بأن هذا من المحكم الذي لا يجوز أن يختلف فيه أو أن يختلف عليه؟!

ومثله لو وجدنا من يدعو الحسين، ثم تبين بالتحقيق أن مقصوده سؤال الحسين أن يدعو الله له، أو أنه يتوسل به إلى الله؛ لكنه لجهله وعاميته لا يحسن التعبير ولا الخطاب؟!

ومرة أخرى لا منازعة في بطلان هذا العمل وفساد هذا التأويل؛ ولكن السؤال حول مدى اعتباره شبهة تدرأ عنه الحكم بالشرك أمام القضاء وعند إجراء الأحكام.

التكفيـــر بالذنـــوب؟

في قولكم: «اتفق أهل العلم على أن رد التشريع كفر بذاتـه، ولا يشـترط أن يكـون معه تكذيب، وقد نقلنا ذلك عن الجصاص، وعن عبد القادر عودة، وعن عبـد الـرحمن عبد الخالق وغيرهم... والخلاصة التي نريد أن نصل إليها أن المحكم في هذه القضية هو القول بأن رد الحكم الشرعي كفر، وهذا موضع اتفاق».

ويشاع عنكم أنكم ممن يكفر ببعض الذنوب حتى بدون استحلالها؛ فما موقفكم من ذلك؟

الجواب على ذلك أن معصية الرد إخلال بأصل الدين، وأنها تنقض عقد الإيمان المجمل، فهي من جنس قوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾[1]، أو قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[2]، وبهذا تختلف هذه المعصية عن بقية المعاصي التي ورد فيها مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[3]، والتي قال فيها السلف: المعاصي من أمور الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، والخلط بين هذا وذاك ليس من أصول أهل السنة في شيء.

ألم يتفق أهل السنة على أن الإيمان المجمل يقوم على ركنين: تصديق الخبر، والانقياد للشرع، وأن من لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فليس بمؤمن، إن معصية الرد هي من جنس معصية

(١) المزمل: ١٦.
(٢) الجن: ٢٣.
(٣) النساء: ٤٨.

إبليس الذي أبى أن يسجد لآدم، و ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾[1] فكان الجواب: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[2].

إن العلمانية عندما تتبنى نحلة الفصل بين الدين والدولة وإسقاط مرجعية الشريعة وحجية نصوصها -قرآنًا وسنةً- في علاقة الدين بالدولة أو في علاقة الدين بالحياة، وعندما ترد الناس ابتداء في الدماء والأموال والأعراض إلى كتاب غير القرآن، وإلى متبوع غير محمد ﷺ، لا شك أن وضعها يختلف عن وضع من يأتي ما يأتي من الذنوب والمعاصي وهو مقر بذنبه، ومعتقد بتحريمه وبطلان موقفه، وهذا هو الشأن في أئمة الجور من المسلمين عبر القرون، الذين كانوا يأتون ما يأتون من المعاصي والمظالم مع إقرارهم بأنهم مذنبون فيما يقترفون، ولم يكونوا في ذلك مستجيزين ولا مستحلين.

ومن ناحية أخرى؛ فإن الحديث عن وصف الأقوال أو الأعمال أو المواقف لا يعني بالضرورة إلحاق هذه الأوصاف بكل من جاء بشيء من ذلك على سبيل التعين، إلا إذا تحققت شروط التكفير وانتفت موانعه، كما هو الشأن عند أهل السنة، ومن ناحية ثالثة فقد عقد الكتاب عناوين رئيسية ومنفصلة حول الرد على الخوارج الذين يكفرون بمطلق الذنوب، وأكثرَ في ذلك وأعاد، وكان ينبغي أن يرد المتشابه إلى المحكم، وأن يعرف من خلال هذه الأبواب المستقلة في الرد على الخوارج موقف المصنف من بدعة الخوارج عامة ومن التكفير بمطلق الذنوب خاصة.

وأخيرًا؛ نصل إلى ما جاء في السؤال مما ذكرته بقولك: يشاع عنكم أنكم ممن يكفر ببعض الذنوب حتى بدون استحلالها، فما موقفكم من ذلك؟

---

(١) الأعراف: ١٢.

(٢) الحجر: ٣٤-٣٥.

والجواب على ذلك:

إن موقفي هو موقف السلف الصالح في هـذه القضـية؛ فالـذنوب ليسـت سـواءً، وأهلها كذلك ليسوا سواءً؛ فالذنب الذي ينقض أصـل الـدين ويـذهب عقـد الإيـمان المجمل، ليس كغيره من بقية الذنوب، إن سبَّ الرسول ﷺ ذنب، ولكنـه يختلـف عـن غيره من بقية الذنوب التي لا تتضمن إخلالًا بأصل الدين، وإن سبَّ عائشة بـما برأهـا الله منه بعد أن جعل الله براءتها قرآنًا يتلى ذنب؛ ولكنه يختلف قطعًا عن سب غيرها مـن بقية الناس... وهكذا، وعلى هذا فقد تكون التهمة الواردة في السؤال صحيحة، ولكنها موجهة إلى السلف كلِّ السلف، وليس إلى مصنف هذا الكتاب!!

التطوير في أمور العقيدة؟

يؤخذ عليكم أنكم من دعاة التطوير في أمور العقيدة، ومـن ذلـك قـولكم: «كانـت مشكلة خلق القرآن أو نفي بعض الصفات هي السمة البارزة لانحرافـات الأمـة في عصر من العصور... فليس إذن من السلفية في شيء الوقوف عند بعض المعارك التاريخيـة التـي طويت صفحاتها واندثرت فتنتها، والتخلي عن المعارك المعاصرة... ولا نعني بهذا الـتخلي المطلق عن هذه القضايا؛ وإنما التناول المجمل لها، وتجنب إحيـاء الفـتن القديمـة وتجديـد المعارك المندثرة... إن السلفية الحقة لا تقبل أن تستهدف الـدعوة في بعـض المواقـع تحريـر العقائد من شرك الأموات والأوثان، وتضرب الذكر صفحًا عن شرك الأحياء، ولا تقبـل أن تعلن الحرب على التشبيه أو التعطيل في بعض الصفات، ولا تعلن على تعطيل الشريعة وتحكيم القوانين الوضعية، والفصل بين الدين والدولة؛ والأولى معركة في غير ميـدان، لا يملك الخصم فيها سيفًا ولا سنانًا... وهي بهذا لا تنكر خطورة التشـبيه أو التعطيـل، ولا

تدعو -معاذ الله- إلى إقرار هذا الزيغ، وهي التي قد نذرت نفسها لدحضه عبر التاريخ؛ ولكنها يجب أن تؤكد أن الانتساب إليها لا يتحقق بمجرد اجترار هذه القضايا»، مع أن الانحرافات القديمة ما تزال في عصرنا، أضف إلى ذلك أن البعض يتهمكم بأنكم تقحمون معركتكم مع الحكام حتى في أمور العقيدة الصرفة!

لا أدري على وجه التحديد أين موضع النقد في هذا الكلام الذي ذكرت؟! هل إذا جدَّت انحرافات عقدية معاصرة لا ينبغي بحثها، ولا تحذير الناس منها؛ لأنها لم تكن موجودة في عهد السلف؟! أو لأن السلف لم يتكلموا فيها؟! وهل السلفية سلفية الفتن والأمراض؟! أم سلفية المنهج الذي تقاوم به هذه الفتن وتلك الأمراض؟!

هل إذا سادت الشيوعية أو الاشتراكية العلمية -كما يقولون- في بلد من بلاد الإسلام لا يجوز لأهل السنة أن يتحدثوا في ذلك؛ لأن هذا الانحراف معاصر، ولم يتكلم السلف في مثله؟! هل إذا شاعت الداروينية في مناهج العلوم، وأصبحت هي الخلفية العلمية في الدراسات الكونية والبيولوجية، مع ما تحمله من عدوان على جميع الرسالات السماوية... لا يجوز لأهل السنة أن يدحضوا باطلها، وأن يقطعوا دابر فتنتها؛ لأنها فتنة معاصرة لم تكن موجودة في عهد السلف؟! هل إذا شاعت العولمة في زماننا هذا وأصبحت تحمل مفاهيم جديدة للولاء والبراء وللعلاقة بين الملل والنحل، وأصبحت في بعض جوانبها سرطانًا عقديًّا وحضاريًّا وثقافيًّا يراد فرضه على بلاد الإسلام... لا يجوز الحديث فيها؛ لأنها انحراف معاصر، ولم يكن موجودًا في عهد السلف، أو لم يتكلم السلف في مثله؟!

إن الفتن تتجدد في كل زمـان، وقـد تتخـذ في كـل عصر صـورًا وأشـكالًا شـتى؛ والسلفية إنما تكون في المنهج الذي تدحض به، والأصول التي يُعَـوَّلُ عليهـا، ويُنْطَلَـقُ منها في إبطالها.

إن ما نقلته في هذه الفقرة من كتاب الثوابت لم يقـل للنـاس: لا تتكلمـوا في خلـق القرآن، ولا شبهات أهل التعطيل، ولا في خرافات التصوف وأباطيله؛ وإنما يقول لهم: لا تقصروا حديثكم في العقيدة ولا تقصروا تصانيفكم فيها على هذه القضـايا وحـدها، والتي قد يكون بعضها ليس شائعًا في بعـض المنـاطق، أو لا يسـتغرقكم الحـديث فيهـا بحيث ينسيكم ما تكابده الأمة من علل عقدية أخرى باتت أكثرَ شيوعًا وأشدَ فتكًا.

أرأيت مجتمعًا عافاه الله من فتنة التشيع مثلًا، هل يكون اهتمام علمائه ببسط القـول في أباطيل التشيع بنفس الدرجة التي يهتم بها آخرون ممـن ابتلـوا في عقـر دارهـم بهـذه الفتنة، وأصبحت تتخطف ناشئتهم، وتلقي بهم إلى شعاب البـدع ومضـلات الفـتن؟! إنها دعوة إلى التوازن، واعتبار خصوصيات الزمان والمكان والمخـاطبين، وأحسـب أن ذلك ينبغي أن يكون موضع اتفاق من العقلاء قاطبة.

ولقد رأينا كبار أئمـة السـلف في واقعنـا المعـاصر وكبريـات المؤسسـات الثقافيـة والأكاديمية تتنبه إلى هذا المعنى، وتقدم فيه ما تبرأ به الذمة؛ لقد كتـب الإمـام الراحـل سماحة الشيخ ابن باز كتابًا كاملًا في نقد القوميـة العربيـة، وتبنـت الجامعـات السـلفية السعودية رسائل جامعية على مستوى الماجستير والدكتوراه تتحدث عن الحداثة، وعن العلمانية، وعن الجدلية التاريخية، وعن كثير من الانحرافات العقديـة المعـاصرة، ومـن قبلهم كتب شيخ الإسلام ابن تيمية مـا كتـب في نقـض المنطـق وفي الـرد عـلى دعـوى

التعارض بين العقل والنقل... إلخ؛ فلماذا لا يعي المتعرض هذا الدرس، ويقتدي بأئمة السلف في زمانه كما يقتدي بمن تقدم منهم؟!

ألم تر إلى الناشئة في المجتمعات الغربية من أبناء الجاليات الإسلامية ممن تشبعت عقولهم بشبهات المستشرقين وأوهام الفلسفة الغربية، ولديهم منها القناطير المقنطرة؛ هل تقتضي السلفية والدعوة إلى العقيدة الصحيحة في مثل هذا الواقع قصر القول على بدعة بناء المساجد على القبور، والاحتفال بالمولد النبوي، والاستفاضة في دحض خرافات التصوف وأباطيله، ونحو ذلك من البدع والخرافات الشائعة في بلاد المسلمين، وترك ما يغتال عقول القوم من شبهات المستشرقين وصنائعهم ليلَ نهار؟!!

هل إذا شاعت العلمانية في بلد من البلاد، وأصبحت تشن الغارة على الشريعة وتطبيقها وصلاحيتها، وعلى السنة وحجيتها، وعلى النصوص ومرجعيتها، وأصبحت تبشر بمعاقد جديدة للولاء والبراء يجتمع عليها أتباع الملل المختلفة؛ المسلم والكافر في ذلك سواء، هل لا نزال نُصِرُّ في مثل هذا الواقع - باسم السلفية - على أن المشكلة الكبرى هي القول بخلق القرآن؟! أو تعطيل بعض الصفات؟!!

أما دعوى إقحام المعركة مع الحكام في القضايا العقدية الصرفة فهو كلام مجمل يحتاج إلى تفصيل:

- فإن قصد به إدراج الحديث عن العلمانية في قضايا الاعتقاد فهذا حق، ولا ينبغي لأحد أن يخالف فيه أو أن يختلف عليه، فالعلمانية ناقضة للتوحيد في جوانبه الثلاثة: الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، والعلمانية ناقضة لعقد الإيمان المجمل الذي لا يقوم إلا على تقديس الخبر والانقياد للشرع، والعلمانية إخلال بهذا الأخير ونقض له؛ ومن

ثم فإن المكان الطبيعي لبحثها والرد على أباطيل دعاتها هو كتب العقائد، وما قـدم مـن رسائل في الجامعات السعودية -وهي في الجملة سلفية المنـزع- في الرد على ذلـك كـان يقدم إلى أقسام العقيدة في هذه الجامعات.

- أما إن قصد به إدراج الحديث عن مظـالمهم وخطيئـاتهم في إطـار العقائـد فهـذا لا يصح منهجًا؛ لأن المعاصي والمظالم تتعلق في الجملة بالفروع، وإن كان هذا لم يحدث عمليًّا في جميع ما قدمت من أطروحـات أو مـن محـاضرات، وهـي مبسـوطة أمـام الناس كافة، وعلى من يقف على شيء من ذلك أن ينبهني عليه حتى أنقله إلى مكانه الصحيح، وسوف أضرب الذكر صفحًا عما شاع في كثير من كتب العقائد السـلفية من الحديث عن بعض الفروع؛ كالمسح على الخفين مثلًا، وذلك عندما يكون الخلل فيها عامًّا، أو عندما يصبح شعارًا مميزًا لإحدى فرق الضلالة.

الكتب السلفية القديمة؛ ومدى مواكبتها لمشكلات العصر وتحدياته:

يأخذ البعض عليكم أنكم تلمحون في كلامكم أحيانًا إلى أن الكتب السـلفية القديمـة لم تعد تواكب العصر ومشكلاته وتحدياتـه؛ ومـن ذلـك قـولكم: «ومـن مـوارد الاجتهـاد كذلك: تفاوت الاجتهادات في أساليب الدعوة ووسائلها؛ هل تنطلق الدعوة والتربيـة مـن كتب التراث وتكون هي المحور؟ أم من الكتب الحديثـة التـي اقتبسـت مـن هـذه الكتـب؛ لسهولة التعامل معها من قِبل العامة والمبتدئين؟ وما هي هـذه الكتـب التـي ينبغـي أن يقـع عليها الاختيار؟».

ويرى هؤلاء في ذلك خروجًا عمَّا كان عليه السلف الصالح في أن أمور الدعوة توقيفية، ويرون أيضًا رضوخكم لدعاة التجديد من الإخوان والعقلانيين وغيرهم.

- إن العجب لا يكاد ينقضي من هذا الإيراد! هل إذا قال أحد من الناس: ينبغي أن تبسط كتب التراث للمبتدئين ممن أصابتهم العجمة، وأصبحوا يستوحشون من أساليب الأقدمين، أو يعسر عليهم فهمها؛ لنتدرج بهم في مراقي التعلم، ونسوقهم إلى الله سوقًا رفيقًا- يقال له: إنك خرجت عما كان عليه السلف الصالح من أن أمور الدعوة توقيفية، وإنك من دعاة التجديد من الإخوان والعقلانيين وغيرهم؟!

ألم تزل أقلام علماء الأمة عبر القرون تعمل في المطولات اختصارًا لها، وفي المتون تبسيطًا لها، وفي المتفرقات جمعًا لها وتأليفًا بينها؟ ألم تزل الجامعات الإسلامية في السعودية وغيرها تجيز للأساتذة العاملين لديها تأليف الكتب في العقيدة وغير العقيدة؟ ألم يكتب الشيخ عبد الرزاق عفيفي كتابه في التوحيد؟ ألم يكتب الشيخ الفوزان كتابه في التوحيد؟ ومن قبلهم ألم يكتب إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كتابه في التوحيد؟ لماذا لم يقل أحد لهؤلاء: إن أمور العقيدة توقيفية؟ وإنكم بتصنيفكم كتبًا في التوحيد تخرجون عما كان عليه السلف الصالح، وتعدون من دعاة التجديد من الإخوان والعقلانيين؟!!

فإن قال قائل: إن كتب هؤلاء مستمدة من كتب السلف الصالح، قلنا: وذلك هو نفس القيد الوارد نصًّا في عبارة الكتاب التي نقلها المتعرض: «..أم من الكتب الحديثة التي اقتبست من هذه الكتب؟»، فعندما أشارت إلى كتب معاصرة كان الحديث عن كتب تقتبس من كتب التراث، ولا يكون التجديد إذن إلا في تبسيط العرض وسهولة العبارة.

الاستخفاف بالسلفيين!!

وماذا عما ينسبونه إليكم من أنكم قد استخففتم بالسلفيين، وعظمتم من شأن من يسمون بالحركات الجهادية؟! ونقلوا عنكم قولكم: «.. فالحركات الجهادية تعبئ الأمة بمختلف طوائفها للوقوف في وجه خطر يستهدف أصل وجودها، ويسعى لاجتثاث شأفتها ومعقد ولائها وبرائها؛ وهو الالتزام المجمل بالإسلام، والاستعداد للمشاركة في هذا الجهاد، أما المذاهب العلمية فإن حركتها تتجه في الأصل إلى من ثبت له عقد الإسلام لدعوته إلى التزام اختياراتها العلمية والعملية، وخصومتها تنعقد مع ما تراه من البدع والمحدثات، ودائرة ولائها وبرائها هي الالتزام باختياراتها الخاصة، والتجافي عن اختيار المذاهب الأخرى».

ويقولون: إنكم بهذا تتحاملون على السلفية؛ إذ السلفيون -حقيقة- لا يلزمون أحدًا إلا بالكتاب والسنة، وكان بوسع الشيخ ألا يعمم الحكم بهذه الصورة المطلقة.

- مرة أخرى أشكر لمن أثار هذه النقطة؛ لأنه قد أتاح لأخ له في الله فرصة توضيح مراده، وإزالة ما قد يكتنف بعض كلماته من الإيهام بخلاف المقصود.

أولاً: ما هي السلفية؟ ومن هم السلفيون؟

لعلي أبدأ بالإجابة على هذه النقطة باعتبارها مدخلًا لفهم هذا الموضع وما شاكله من المواضع، ولقد ذكر كاتب هذه السطور تعريفًا بالاتجاه السلفي في أحد كتبه فقال: الاتجاه السلفي اتجاه إحيائي ينزع إلى تصحيح العقائد، وتجريد الاتباع، وتزكية الأنفس، وترسُّم خطا السلف الصالح في القول والعمل.

والنسبة في هذا الاتجاه إلى السلف الصالح؛ وهم الصدر الأول من الصحابة والتابعين، وتابعي التابعين، وهي نسبة حبيبة إلى كل مسلم؛ فإن سلف هذه الأمة خيارها، فهم المهتدون بهديه ﷺ، والمحافظون على سنته ﷺ، وهم المتعبد بمحبتهم، والثناء عليهم، والمشهود لهم بالخير على لسانه ﷺ، في مثل قوله ﷺ: «**خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**».

ثم ذكر في مقام آخر أن: «أول ما يميز هذا الاتجاه أنه دعوة راشدة إلى إحياء مذهب السلف الصالح، لا تحده جماعة من الجماعات، ولا يستوعبها حزب من الأحزاب؛ لأنها المنهج الذي ينبغي أن تكون عليه كل هذه الكيانات، فهي روح تسري في كل هذه الأطر، ونور يشرق في كل هذه الكيانات، لا علاقة لها بالتهارج السياسي الذي قد تبتلى به بعض الجماعات؛ لأنها لم تقم على تبني منهج اجتهادي في التغيير يصلح أن يختلف عليه، أو أن تدخل بسببه في خصومة مع الآخرين؛ وإنما قامت على تبني منهج عقدي هو في موضع الإجماع من الناس كافة، أو هكذا ينبغي أن يكون، ولا علاقة لها بالخلافات الفروعية؛ لأنها ليست مذهبًا فقهيًّا، بل كل ما دل عليه النص بوجوه الدلالة المقبولة شرعًا، وسبق إلى القول بمثله بعض الأئمة المتبوعين من أهل السنة والجماعة فهو عندها اجتهاد مقبول، وله في صفوفها متسع، وهي لا تنصب شخصًا لها بعد رسول الله ﷺ توالي وتعادي على مقولاته واختياراته كما قد تفعل بعض التجمعات الأخرى، فيقع بينها بسبب ذلك من البغي والتهارج ما يقع، وهي لا تشد آصرة التآخي على غير الكتاب والسنة، بل من كان مؤمنًا والته، من أي صنف كان، ومن كان كافرًا أبغضته، من أي صنف كان، ومن كان فيه إيمان وفيه فجور أعطته من الموالاة بحسب إيمانه، ومن المعاداة بحسب فجوره».

تلك هي الدعوة السلفية كما يراها الكاتب، وكما عبر عنها قبل ما يزيد على عشرين عامًا، ولم تزل كتبه التي تحمل هذه الرؤية تشرق في دنيا الناس وتغرب؛ فأين تجد في هذا الاستخفاف بالسلفية أو السلفيين؟! اللهم غفرانًا!

ثانيًا: حتى لا تُظلم السلفية:

إذا كانت هذه هي السلفية كما جسدتها أقلام السلف الصالح، وكما ترجمتها حياة الأئمة رضوان الله عليهم؛ فلا ينبغي لأحد أن يخلط بينها وبين ما يحدث باسمها من تجاوزات أو أغلاط، أو أن يدافع عن هذه الزلات؛ لأنها صدرت عن مقدمين في هذا الاتجاه أو ذاك، فقد حفظنا عن أئمة السلف أنه: «لا يعرف الحق بالرجال، وإنما يعرف الرجال بالحق»، فكم يرتكب باسم الحرية من خطيئات! ولا تثريب على الحرية في ذاتها، وإنما على أدعيائها، وكم يرتكب باسم آل البيت ومحبتهم من خرق ظاهر لأبجديات مسلَّمة في دين الله، ولا حرج في محبة آل البيت، ولا تثريب قطعًا على من صح نسبه إليهم واستقام على طريقتهم، بل كم يرتكب باسم الإسلام نفسه من تجاوزات صارخة، ولا نزال نقول للعالمين: لا تخلطوا بين الإسلام وبين تصرفات من خرج على هديه من المسلمين، فإذا وجد لدى بعض المنتسبين إلى السلفية من التجاوزات ما يقتضي الاحتساب عليه؛ فلا ينبغي أن يحمل النكير على هذه التجاوزات على أنها استخفاف بالسلفية وتهييج على أهلها، وإلا كان الانتساب إلى هذا المنهج والتقيد ببعض شرائع الهدي الظاهر، يضفي على أصحابه هالة من القداسة، ويسبغ عليهم نوعًا من العصمة، على النحو الذي تفعله الشيعة مع أئمتهم، وحاشا السلفية الحقة ذاك، وهي التي ما قامت إلا على تجريد الاتباع، ومحاربة الغلو في المذاهب أو الشيوخ.

إن السنة في الفِرَق كالإسلام في الملل، وكما انتسب إلى الإسلام من لم يحسن تمثيله، فقد انتسب إلى السلفية من لم يحسن تمثيلها كذلك، وكما نقول للناس: لا تخلطوا بين الإسلام وبين الانحرافات التي تصدر عن بعض المنتسبين إليه، نقول لهم كذلك: لا تخلطوا بين السلفية وبين تجاوزات بعض المنتسبين إليها، وكما لم يحمل نقد تصرفات بعض المنتسبين إلى الإسلام على أنه نقد للإسلام؛ لا ينبغي أن يحمل نقد تجاوزات بعض المنتسبين إلى السلفية على أنه نقد للسلفية، وكما انتفت الحساسية في الأولى؛ ينبغي أن تنتفي الحساسية في الثانية.

إنه ليس من السلفية في شيء تتبع عورات الآخرين وخصوصياتهم تحت ستار الجرح والتعديل، وإن نسب شيء من ذلك إلى بعض من يرفعون عقيرتهم بالانتساب إلى السلفية، ويبالغون في الالتزام بالهدي الظاهر.

ليس من السلفية أن نخلط بين المواريث العقدية لأهل السنة -وهي مشترك عام بين أهل الحق قاطبة- وبين الاختيارات الفروعية لإمام من الأئمة -كالإمام أحمد مثلًا، أو لشيخ الإسلام ابن تيمية- في بعض المسائل الفقهية -وهي تمثل مذهبًا من المذاهب واجتهادًا- وتحاول فرضه على الأمة باسم السلفية، وتضفي قداسة الأولى على الثانية، وتوهم بأن الانتساب إلى السلفية لا يتحقق إلا بأخذ الأمرين معًا، فإما أن تأخذهما جميعًا، أو تتركهما جميعًا!!

إنه ليس من السلفية في شيء أن تشن الغارة على أخيك المسلم في أزمنة الفتن وغربة الدين، لمجرد خلاف في اجتهاد، أو لقصور بدا منه أو تقصير، وهو يحمل همَّ

الإسلام كما تحمل، وينتسب إلى السنة في الجملة كما تنتسب، في الوقت الذي تنبسط فيه أساريرك لطغاة العلمانية وأئمة الفصل بين الدين والدولة!!

ليس من السلفية هذه النظرة الفوقية إلى المخالفين من أهل السنة؛ سواء أكانوا من العصاة، أم ممن علق بهم شوب ابتداع في بعض الفروع، أو التعالي عليهم بما أُكرمت به من الاستقامة، والشماتة بما ابتلوا به من الزلل، فإن المسلمين كنفس واحدة، وإن المسلم لينظر إلى أخيه المبتلى نظرة المترحم عليه، المغموم لما ابتلي به، وتؤلمه المصيبة التي وقعت على أخيه في دينه كأنما هو المبتلى بها دونه، لا سيَّما في أزمنة الفتن، وغربة الدين، وفتور أغلب شرائعه، واستفحال خطر كثير من الأئمة المضلين.

ليس من السلفية في شيء أن تتأول للعلمانيين والقائمين على تحكيم القوانين الوضعية، وأن تتلمس الشبهات لتدرأ عنهم كثيرًا من قواطع الأحكام، في الوقت الذي تستفرغ وسعك في تتبع زلات بعض الدعاة وتطييرها والتهييج عليهم، ولا يمتهد لهم عندك سبيل إلى عذر بتأويل ولو كان فاسدًا، الأصل في زلاتهم أنها عن قصد، وفي مخالفاتهم أنها عن عمد، وأنها امتداد للوثة أشعرية، أو دسيسة سرورية!! فلا ينالون من أريحيتك وسعة أفقك ما يناله منك خصوم الشريعة وأباطرة العلمانية!!

ليس من السلفية أن تتأول لعبد الناصر ولا تتأول لسيد قطب، أو أن تشيع في الناس أن استخبارات العلمانية أرضى لله -في الجملة- من السواد الأعظم من رجالات الحركة الإسلامية في الجملة؛ لأن الأولين أصحاب معاصٍ والآخرين أصحاب بدع!!

حتى لا تُظلم السلفية يجب تنـزيهها عن هذه الكبوات، وإعلان براءتهـا مـن هـذه المفارقات؛ حتى تكون بحق سفينة النجاة في هذه الأمة، والحصن الحصين الـذي يـأرز إليه أهل التدين قاطبة!

ثالثًا: حول الحركات الجهادية:

لقد نقل السؤَّال قولي في بعض ما دونته في كتاب «الثوابت»: «فالحركات الجهاديـة تعبئ الأمة بمختلف طوائفها للوقوف في وجه خطر يستهدف أصل وجودها، ويسـعى لاجتثاث شأفتها ومعقد ولائها وبرائها؛ وهو الالتزام المجمل بالإسـلام، والاسـتعداد للمشاركة في هذا الجهاد، أما المذاهب العلمية فإن حركتها تتجه في الأصل إلى من ثبـت له عقد الإسلام؛ لدعوته إلى التزام اختياراتها العلمية والعملية، وخصومتها تنعقـد مـع ما تراه من البدع والمحدثات، ودائرة ولائها وبرائها هـي الالتـزام باختياراتهـا الخاصـة والتجافي عن اختيار المذاهب الأخرى».

- أقول: ليس في هذا غض من هذا أو إعلاء لذاك، بل هو حديث عـن واقـع، وعـن طبيعة مواقع واختصاصات، وإن الحركة الجهادية التي تعلـن الجهـاد المشروع بعـد استيفاء شرائطه هي - كما جاء في هذه الفقرة- بمثابة الجيوش الجرارة التـي ينـتظم في جنديتها البر والفاجر، والسني والبدعي، لا تستطيع أن تحجب عن هـذا الجهـاد أحدًا ممن ثبت له عقد الإسلام، وإن كان التوفيق أن يتولى أهل السنة قيادة سفينتها وتوجيه أزمَّة الأمر فيها؛ ولكن هذا لا يعطل الجهاد كـما هـو معلـوم مـن السـلفية بالضرورة؛ لأن الجهاد ماضٍ مع كل بر وفاجر؛ ولما تقرر في الأصول من أنه يقاتـل مع الظالم من هو أشد منه ظلمًا، ومع المبتدع من هو أشد منه ابتداعًا.

إن الحركة السلفية حركة إحياء تتجه في مرحلة البناء -كما سبق- إلى تصحيح العقائـد، وتجريد الاتباع، وتزكية الأنفس، وترسُّم خطا السلف الصالح في القـول والعمـل، ويتجـه خطابها في المجتمعات الإسلامية إلى المسلمين في المقام الأول، وهي تُثَـرِّبُ -بحـق- عـلى المخالف لها من الفرق الأخرى، وقد تثرب على المخالف لها في بعـض الفـروع فتخطـئ في ذلك وتصيب، أمـا الحركـة الجهاديـة فهـي التـي تعلـن الجهـاد عـلى المرتـدين، أو الكفـار الأصليين، وتنعقد خصومتها مع من ينازعونها في أصل الدين، وتشـحذ في هـذه المواجهـة جميع أجناد المسلمين، وقد يقودها خالد بن الوليد أو يقودها المعتصم!!

إنني أؤكد مرة أخرى أن الحديث عن الحركات الجهادية إنما هـو حـديث عنهـا في صورتها الصحيحة التي ينبغي أن تكون، لا في صورتها التي هي كائنـة بالفعـل، والتـي كانت موضع نقد وتثريب في أغلب المواقع من السواد الأعظم من العاملين للإسلام.

الحـــزبيـــــة:

يشاع عنكم أنكم من دعاة الحزبية، بل وتؤصلون لها شرعًـا، كـما في قـولكم: «تجمعـات العمل الإسلامي المعاصر لا تصنَّف في عداد الفرق الضالة؛ لالتزامها المجمل بالسـنة وبراءتهـا المجملة مما يخالفها»، وأيضًا: «مصادرة شرعية التجمعات الدعوية المعاصرة تفريط منكر».. مع أن ذلك مما يزيد الناس فرقة وشعثًا، ويخالف ما دعا إليه الكثير من العلماء المعـاصرين أتبـاعَهم من البعد عن تلك الجماعات، والتوحد على الكتاب والسنة؛ فهل من تعليق؟

- لقد كان هذا الذي تذكر في معرض الرد عـلى إطـلاق القـول باعتبـار التجمعـات الإسلامية المعـاصرة امتـدادًا للفـرق الإسـلامية القديمـة؛ كـالخوارج، والمعتزلـة، والمرجئة... ونحوهم، فبينت أن الفِرق إنما تتكون بالتحزب على أصول كلية بدعية

تخالف الأصول الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، أو على بدع جزئية كثيرة، وأن هذا هو الضابط الذي ذكره أهل العلم في الحكم على تجمع من التجمعات بأنه يعد فِرقة من الفِرق الضالة المتوعدة في حديث الفِرق، فإذا لم يكن هذا ولا ذاك؛ فيعسر إطلاق وصف الفِرق على تجمع من التجمعات المعاصرة لمجرد اجتماعه على عمل من أعمال الخير، واصطلاحه على مقدم فيه تنتظم به أعمالهم، في واقع أُعلنت فيه العلمانية، ويتحزب خصومهم فيه على تحكيم القوانين الوضعية، ويتنادون جهارًا بالفصل بين الدين والدولة!!

كما بينت أن الجماعة التي جاءت النصوص بلزومها وحذرت من مفارقتها إما أن تكون من الاجتماع على المنهج، أو الاجتماع على السلطان القائم على حراسة هذا المنهج، والخروج عن الجماعة بالمعنى الأول هو خروج فرق الضلالة والخروج على الجماعة بالمعني الثاني هو خروج البغاة والمحاربين.

ولقد ذكرت لمشروعية هذه التجمعات ثلاثة شروط:

الأول: ألا تتحزب على أصل كلي بدعي، وإلا كانت فرقة من فرق الضلالة.

الثاني: ألا تخرج به على إمام زمانها ما أقام في الأمة كتاب الله، وإلا كان عملها من جنس عمل البغاة الخارجين على الأئمة.

الثالث: ألا تعقد على أساس هذا التجمع ولاءً ولا براءً، وإلا كانت من أمور الجاهلية التي تتفرق بها الأمة شيعًا وأحزابًا.

وكل تراجع في أحد هذه الشروط ينعكس على مشروعية هذه التجمعـات بالخلـل والتراجع، إلى أن تنعدم هذه المشروعية بالكلية.

هذا الذي ذكرته في كتاب «الثوابت»وغيره من الكتب، ولم يتبـين لي خلافـه حتـى كتابة هذه السطور، ونضَّر الله امرأً تبين له بالأدلة خلاف ذلك فدلني عليه، وأنا راجـع عن الزلل -بإذن الله- في حياتي وبعد مماتي.

تساهل في الفتاوى؟ أم تغافر في موارد الاجتهاد؟

يؤخذ عليكم ما يشاع أحيانًا أنكـم تميلـون إلى التسـاهل أو التهـاون في الفتـاوى؛ سواء كانت الفتاوى فقهية أو عقدية، والبعض يدعي أنكم تقصـدون ذلـك مـن أجـل كسب الدعاية لكم وللإسلاميين من أمثالكم، وخاصة في أوسـاط مـن بيـدهم الأمـر؛ فهل من تعليق؟

- لعل لهؤلاء بعض العذر فـيما يتقـاولون بـه حـول التسـاهل في الفتـاوى؛ وذلـك لمـا يشاهدونه من تعمدي إيراد مختلف الاجتهادات الفقهية في جـل مـا أُسـأل عنـه مـن النوازل، وبيان أن الخلاف في مثل ذلك سائغ ومعتبر، وأنه مهما ترجح للمستفتي من اجتهاد فعمل به، ليس له أن ينكر على المخالف له في ذلك باجتهـاد أو بتقليـد سـائغ، لكنني أقول لصاحب هذا الإيراد: لقد خلطت بين التهاون في الفتوى، وبين التغـافر في موارد الاجتهاد، ويبدو أنك كما قال الآخر: «عرفت شيئًا وغابت عنك أشياء»!

إن القضية التي نذرت حيـاتي لهـا، وصـنفت جـل كتبـي في نصرتهـا هـي السـعي لإصلاح ذات البين، والتصدي لفتنة التشرذم التـي تغشـى مسـيرة العمـل الإسـلامي المعاصر، ولما كانت الاختلافات الفقهية من بين أسباب هـذه الفتنـة فقـد حرصـت أن

أُذَكِّرَ كل فريق باجتهاد الفريق الآخر، وأبين له أن هذا الرأي الآخر له حظ من النظر، وأنه يسوغ في الجملة، فإن جلست مع من يرون تغطية الوجه فريضة ذَكَّرْتُهم بأن الرأي الآخر الذي لا يراه إلا فضيلة اجتهاد شرعي معتبر، وأن عددًا كبيرًا من أهل العلم يقولون به، وأن الخلاف في مثله سائغ ومعتبر؛ حتى لا يشنون الغارة على السافرات، ويطلقون الألسنة فيهم بالثلب واللمز، ومثله لو كان الحديث مع من يرون تغطية الوجه فضيلة، وقد يتهمون من يوجبه بالتنطع أو الغلو؛ وذلك من أجل تحقيق التعايش المشروع بين هذه الاجتهادات، وتطبيع العلاقات بين القائلين بها.

إنني لا أكتفي عند الإجابة على ما يرد عليَّ من أسئلة بدور الفقيه الذي يفتي بما ترجح عنده فحسب، ولكنني أضع نصب عيني دائمًا مآل هذه الفتوى، وكيفية التعامل بها في الواقع، وما قد تحدثه من تصدعات عندما يتفاعل من يتلقونها مع آخرين ممن يحملون اختيارات علمية مخالفة؛ وذلك لهول ما رأيت من شؤم التعصب للاختلافات والتحزب على أساسها.

إن محمدًا ﷺ هو رحمة الله للعالمين، وإن رسالته ليست خاصة بجزيرة العرب وحدها، وإن العالم لا تقف حدوده عند جزيرة العرب، فضلًا عن منطقة من مناطقها أو جزء من أجزائها، وقد خرج بعض طلبة العلم خارج الجزيرة العربية، ووجد أزمة كبرى في التعامل أو التعايش مع اجتهادات لم تطرق سمعه، أو لم يتعود على التعامل معها؛ لغياب هذا البعد في التربية الفقهية، أو لضعفه على الأقل، وقد كان التقاء كثير من أصحاب هذه الاجتهادات في الثمانينات على أرض أفغانستان فرصة لإنضاج هذا المعنى، وبرهانًا علميًّا على أهمية هذا النهج، ومثله كذلك التقاء هؤلاء في المجتمعات الغربية التي قد تضم في المنطقة الواحدة الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي، وعلى

هؤلاء جميعًا أن يتعايشوا تحت مظلة واحدة، وفي مركز إسلامي واحد، ولا يوجد ذلك السلطان القاهر الذي تنحني لاختياره الرقاب، بل لابدَّ من بذل الطاعة طواعيةً واختيارًا لاختيارات الأئمة المقدمين في هذه المراكز، ومثل ذلك لا يقوم إلا على رؤية فقهية ناضجة لقضية الاختلافات الفقهية، وتربية طويلة على حسن التعايش معها، ولا بديل من ذلك إلا التهارج وفساد ذات البين، أو التقوقع والانعزال!!

وقريب من هذا ما يقع في وهم بعض الناشئة؛ عندما ينتصب أحد من أهل العلم للرد على أهل الغلو في التكفير، ويفصلون لهم القول مثلًا في بيان مراتب الحكم بغير ما أنزل الله، وإيراد بعض الشبهات التي قد تعرض لبعض القائمين على تحكيم القوانين الوضعية فتدرأ عنهم الحكم بالكفر، إلى أن تقام عليهم الحجة الرسالية من أهلها وعلى وجهها، وقد يؤدي الاستطراد في هذا وبسط القول فيه إلى تقديم أهل العلم وحملة الشريعة في صورة المجادل عن المبطلين، والمظاهر للطواغيت المجرمين، ويتوهمون أن أهل العلم يتمحلون المعاذير لهؤلاء تمحُّلًا، ويتكلفون سوق الشبهات التي تدرأ عنهم الكفر تكلفًا، وقد علم الله في سماواته أن الأمر ليس كذلك؛ ولكن التحرير العلمي الدقيق للمسائل هو الذي يقتضي بسط القول على هذا النحو، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1].

أما بالنسبة لما ورد في السؤال من قول السائل: «والبعض يدعي أنكم تقصدون ذلك من أجل كسب الدعاية لكم وللإسلاميين من أمثالكم، وخاصة في أوساط من بيدهم الأمر»، فلا أملك إلا أن أقول: الله بيني وبين هؤلاء، وأسأل الله أن يجعلها آخر مظالمهم! وأن يوفقهم إلى التوبة منها! فإن الحديث عن النيات والمقاصد على هذا النحو لا يتجرؤ عليه إلا ظالم لنفسه، وسوف تنجلي الغياهب يوم تبلى السرائر!!

(١) المائدة: ٨.

حول العلاقة بأحمد الصاوي صاحب الحاشية!!

البعض قد خلط بينكم وبين أحمد الصاوي صاحب الحاشية على تفسير الجلالين، وعلى ذلك قد ألزموك من القول ما لم تقله؛ فما هو تعليقكم؟

هذا مجرد تشابه في الأسماء، ولا تربطني بصاحب الحاشية على تفسير الجلالين إلا رحم الإسلام العامة، والتي تؤلف بين جميع المسلمين في المشارق والمغارب، على مدى الزمان كله، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وينطفئ سراج الحياة.

الخروج على السلطان:

يُنسب إليك أنك تجيز الخروج على السلطان في حال جوره وطغيانه على الإطلاق؛ فما هو ردكم على هذا؟

الذي أدين به، وأعتقد أنه منهج أهل السنة والجماعة، أنه لا يجوز الخروج على الأئمة إلا في حال الكفر البواح الذي عندنا فيه من الله برهان، وحتى في حال الكفر البواح، لا ينبغي أن يكون الخروج تغريرًا بالأنفس والأعراض فيما لا طائل تحته، بل إن كان لدى أهل الحق من القوة ما يطمعون معها في الظفر فقد تعين الجهاد لإقامة الدين، وإلا خوطبوا بأدلة الصفح والصبر والمغفرة للذين لا يرجون أيام الله، حتى يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده.

وقد تكون الهجرة إن تيسرت أسبابها من البدائل المقبولة في مثل هذه الحالة، وذلك متروك لأهل الحل والعقد في كل محلة، والعجيب أن آخرين يذكرون في انتقاداتهم نقيض هذا الذي تذكره، فيعتبون عليَّ ما يرونه -حسب تقديرهم- من مهادنتي، ودعوتي إلى المؤالفة، وعدم التجاوب مع دعوات الغلو التي تدفع بشباب هذه الأمة إلى المحرقة!!

الفهرس

الفهـــــرس

الموضـــوع	الصفحة
المقدمة	٧
الفصل الأول: مدخل إلى هذه الدارسة	١٥
أولاً: التفريق بين فقه الاجتماع في مرحلة الدعوة والبناء، وفقه الاجتماع في مرحلة تعين الجهاد والدفع العام	٢٤
ثانيًا: الموازنة بين فريضة الاتباع وضرورة الاجتماع	٢٨
ثالثًا: ليس المحذور جريان الخلاف في الفروعيات، وإنما المحذور هو التعصب والبغي على المخالف	٣٠
رابعًا: إن الخطأ المغفور في الاجتهاد في الفروعيات يتناول نوعي المسائل؛ العلمية والعملية على حد سواء	٣٣
خامسًا: نسبية الخلاف المتعلق بتحقيق المناط	٣٦
سادسًا: ضرورة التحقق من استيفاء الضوابط الشرعية للهجر قبل التثريب على المخالف	٤٠
الفصل الثاني: الثوابت والمتغيرات في منهج التلقي وقضية الاجتهاد والتقليد	٦١
المبحث الأول: الثوابت والمتغيرات في منهج التلقي	٦٥
المطلب الأول: الثوابت في هذه القضية	٦٥
المطلب الثاني: المتغيرات في هذه القضية	٧٤
المبحث الثاني: الثوابت والمتغيرات في قضية الاجتهاد والتقليد	٧٧
المطلب الأول: الثوابت في هذه القضية	٧٧

الموضـــوع	الصفحة
المطلب الثاني: المتغيرات في هذه القضية	١٠٢
الفصل الثالث: الثوابت وموارد الاجتهاد في قضية الإيمان	١١١
المبحث الأول: الثوابت والمحكمات في قضية الإيمان	١١٥
المبحث الثاني: موارد الاجتهاد في قضية الإيمان	١٤٣
الفصل الرابع: الثوابت وموارد الاجتهاد في قضية التوحيد	١٥٩
المبحث الأول: الثوابت في هذه القضية:	١٦٣
المبحث الثاني: موارد الاجتهاد في قضية التوحيد	١٩٥
الفصل الخامس: الثوابت والمتغيرات في عوارض الأهلية	٢٠٥
المبحث الأول: عارض الجهل	٢٠٩
المطلب الأول: الثوابت في هذه القضية	٢٠٩
المطلب الثاني: المتغيرات في هذه القضية	٢٣٨
المبحث الثاني: عارض الإكراه	٢٤٩
المطلب الأول: الثوابت في هذه القضية	٢٤٩
المطلب الثاني: المتغيرات في هذه القضية	٢٥٤
المبحث الثالث: عارض التأويل	٢٦١
المطلب الأول: الثوابت في هذه القضية	٢٦١
المطلب الثاني: المتغيرات في هذه القضية	٢٧٥
الفصل السادس: جماعة المسلمين	٢٧٩
المبحث الأول: الثوابت في هذه القضية	٢٨٣
المبحث الثاني: المتغيرات في هذه القضية	٣٠٨

الموضـــوع	الصفحة
الفصل السابع: الثوابت والمتغيرات في منهاج التغيير	٣١٢
المبحث الأول: الثوابت والمتغيرات في مجال العمل السياسي	٣١٦
المطلب الأول: الثوابت في قضية العمل السياسي	٣١٨
المطلب الثاني: المتغيرات في هذه القضية	٣٣٠
المبحث الثاني: الثوابت والمتغيرات في العمل الجهادي	٣٣٤
المطلب الأول: الثوابت في هذه القضية	٣٣٦
المطلب الثاني: المتغيرات في هذه القضية	٣٤٣
المبحث الثالث: الثوابت والمتغيرات في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٣٥٦
المطلب الأول: الثوابت في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٣٥٨
المطلب الثاني: المتغيرات في هذه القضية	٣٨٢
المبحث الرابع: الثوابت والمتغيرات في العمل الدعوي والتربوي	٣٩٠
المطلب الأول: الثوابت في هذه القضية	٣٩٢
المطلب الثاني: المتغيرات في هذه القضية	٤٠٤
الفصل الثامن: الثوابت والمتغيرات في تعدد فصائل العمل الإسلامي	٤١١
المبحث الأول: الثوابت المحكمة في التعدد الراشد المقبول	٤١٥
المبحث الثاني: المتغيرات ومواضع الاجتهاد في قضية التعدد	٤٢٦
الفصل التاسع: كشف الشبهات عما أثير حول الثوابت والمتغيرات	٤٣٥
الفهرس	٤٨٣